أيمن العتوم

حَدِيثُ الجُنودِ

رواية

الإهداء:

إلى أبي . . .

وَاللهِ يا أبتي : يا ضَـــوْءَ مُـــقلَتِنا
ويا شَـــرايينَ رُوحِي وَهْيَ تَلْتَـــحِمُ
إذا وَقَــفْتُ ولمْ تَشــفَعْ بِقَــافِــيَــةٍ
مَـشـاعِـري ، فَـبِـمـاذا تُدْرَكُ القِـمَمُ؟
مـاذا أقـولُ؟ يَمـوتُ الشِّعـرُ مِنْ رَهَبٍ
أَلاَّ يُدانِيكَ ، حـــتّى يُبـــهَتَ القَلَمُ
إنّـي أُحِـــــبُّكَ لـو تَـدرِي بِـهِ دِيَـمٌ
لَسَـــوْفَ تَنهلُّ في تَسْكابِهـــا الدِّيَمُ

اعتراف أوّل:

عرفتُ أيمن العتوم فيما بعدُ ، كان ولدًا عندما كنتُ أحد قادة الاحتجاجات الثّائرة في جامعة اليرموك عام ١٩٨٦ ، في المرّة اليتيمة الّتي التقيتُه فيها بدا مُتحمّسًا بشكلٍ جنونيّ ليأخذ منّي هذه الذّكريات ويُعيد صِياغتها في رواية . بالنّسبةً لي لم أكنْ مرتاحًا كثيرًا إلى الفكرة ولا إليه ، ورأيتُ فيه إنسانًا مُتطفّلاً ، ولولا أنّ صديقي التّاريخيّ (سِراج) شجّعني على لقائه ، وطلب منّي أن أثق به لَما وضعتُ أيّ شيءٍ بين يديه من هذه الأوراق .

وبعدَ ذلك عليّ أن أعترف : كلّما هممتُ بنشر هذه الذّكريات قفز الخوفُ والرّعب إليّ من جديد قادِمَين من تلك الأحداث الغابرة ؛ بعضُ المحطّات في الحياة لا يُمكن للإنسان أن يتخطّاها ، أكثر من مئة مرّة فكّرتُ بأن أحرقَها ، أو أمزّقها ، أو ألقي بها في وادي الغياب السّحيق . وفي النّهاية ارتحتُ لقرار قد يضع حدّاً لرِيبتي وانهزاماتي النّفسيّة المُتلاحِقة وهَلَعي : سأعطيها لأيمن العتوم بعد أن أكون قد غيّرتُ اسمي الحقيقيّ واضِعًا بين يديه تَركةً ثقيلة وكنزًا ثمينًا ، وآملاً أن يكون على قدْر الأمانة والحقيقة فلا يُضيف إليها شيئًا ، إلاّ ما كان عامِلاً مُساعدًا على قَبولها في نفوس المُتلقّين!!

وأنتم أيّها القرّاء : لا تحلموا بأن تعثروا على تصريحات تخصّني

خـارج مـا أعطيتُـه لأيمن العـتـوم ، هنا بـدأتُ مع أوّل سطر ، وهنا أيضًـا انتـهيت مع آخره ؛ فكفّوا عن العبث في مـحـاولاتٍ يائسة لـتجـدوني خارج سطور هذه الحكاية .

وَرْد شاهر
الدّوحة ٢٣-٦-٢٠١٣

اعتراف أخير:

حينَ أخـذتُ الأوراق من (وَرْد) لم أسـتطعْ أن أخـفي فـرحـتي بحصولي عليها ؛ رجعتُ إلى البيت وأخذتُ أقرؤها بشغف ، وأنا أُمنّي نفسي بعـمل ٍروائيّ جـديد . من البـداية عـرفتُ أنّ الأمـر لا يخلو من صعوبات ؛ بعض الأوراق كان أطول من بعضـهـا الآخـر ، مِمّا جعل الطّيّ القسريّ يُخفي بعض الكلمات في نهاية كلّ صفحة ، بعضها كُتب بالرّصاص ، وكان قد مرَّتْ عليها أعوام متلاحقة فمحتْ حروفًا وكلمات وأحيانًا جُمَلاً ، اضطُرِرتُ أن أتوقّع الكلام من خلال المعنى . ويبدو أنّ حرصَ صاحبِها الشّديد على إخفائها عن الأعين أدّى به إلى إبقـائهـا سنوات طويلة مُـغطّاة تحت أكـداس من الأوراق الأخـرى دون تعـريضـهـا للشّـمس ، فنقرت العـفونة بعضَ صـفحـاتها ، وسـاح حـبر الحروف في بعض أسطُرها جرّاء الرّطوبة . بعض الصّفحات اهترأت من الأسفل ومن الجوانب ، فعـمدتُ إلى أن أحدس بما كـان مكتـوبًا من عندي . وبعض الصّـفحات كان يحتاج إلى خبير من أجل أن يفكّ الخطّ المكتوب فيـها ؛ قـدّرتُ أنّهـا ربّمـا تكون قـد كُـتِبتْ في الزّنازين المُعتِمة ، أخرى كُتِبتْ على عَجَل ربّما واجه صاحِبُها حالةَ اقتحام من نوعٍ ما فاضطرّه ذلك إلى أن يكتب بهذه الصّورة الفظيعة . أفضل شيء استَطعتُ فيـه أن أغطّي الأحـداث بشكلٍ جيّـد هو أنّني تقـمّـصتُ

شخصيّةَ (وَرْد) بطل الرّواية ، وحاولتُ أن أعيشَ روحه ، أو أحلّ في عقله ؛ أعتقدُ أنّني شعرتُ بذلك جيّدًا ، وآمُل في النّهاية أنّكم حينَ تقرؤون هذه الصّفحات ستشعرون بحقيقة ما أقول!!

أيمن العتوم
عمّان ٢٠١٤/٢/١٥

(٠)
أنا صاحبُ الذّكرَيات

تجمّع عددٌ من الأطفال في الحوش الّذي تُطِلّ على محيطه البيوت الكئيبة ذات الأسقف الطّينيّة ، صاحب الرأس المنكوشة كان يقفز مثل أرنب وهو يُطلِق شتائم غير مفهومة . وصاحب الرّجلين المُقوّستين راح يأخذ من حصى الأرض ويقذفها في الوجوه ، وبين رميةٍ وأخرى تعلو صرخة طفلٍ أصيب في وجهه أو بطنه أو ساقه . وصاحب القميص المهترئ الّذي كان نصفه الأسفل عاريًا شعر بالهواء يدخل من بين فخذَيه الصّغيرتين فراح يضحك وهو يعدو في دوائر على أطراف الحوش بمرح كبير . وصاحب العين الحولاء كان يحدّق في وجوه أصحابه بشرودٍ ، ثمّ يقهقه بجنون بعد لحظاتٍ طويلةٍ من الصّمت الأبله .

أنا كنتُ صاحب النّصف العاري!!

في مؤخّرة المركبة الخضراء القادمة من المزارع الجبليّة في القرية الرّابضة على أطراف المدينة جلس ثلاثة أطفال على الحافّة تتروح أعمارهم بين الخامسة والسّابعة ، وفي بطن المركبة تراتبتْ صناديق التّفّاح والخوخ والمشمش بعضها فوق بعض . الأوّل كان يركن ظهره إلى جدار المركبة الأيمن ، ويجمع رجليه إلى صدره وهو يُطوّح في الهواء بغصنِ شجرة مشمش تناولها من أحد الصّناديق ، الثّاني كان يلبس صندلاً بُنّيًا انقطع إبزيمه ، واغبرّ لونه فَكَحت . والثّالث كان يلبس طاقيّة

دائريّة تغوص في رأسه الصّغيرة ، ويحمل بيده سيجارةً ينفث من دُخانها في وجهَي صاحبَيه .

أنا كنتُ صاحب الصّندل البنّيّ!!

في رحلة مدرسيّة ، التقط أستاذٌ صورةً لأربعة طلاّب في الصّفّ الثّالث الابتدائيّ ، كانوا يقفون على مدرّج آثار قديمةٍ ذات حجارة سوداء ، الأوّل من اليمين كان قصيرًا يتوزّع شعره الكثيف على رأسه كأنّه قبّعة ، تتهدّل أطرافها حتّى أذنيه ، ويلبس كنزة صوفٍ زرقاء . والثّاني كان أطول من الأوّل ذا شعرٍ ناعمٍ أشقر ، وعينَين مُلَوّنتَين ، وبنطاله مال جزءٌ منه إلى اليسار قليلاً وارتفَع إلى منتصف بطنه فشدّ على ما اجتمع عند ساقيه . والثّالث كان ينظر إلى السّماء كأنّه يبحث عن نجمةٍ هاربةٍ في منتصف النّهار ، والرّابع كان يبتسم كأنّه يُدرِك أنّ الغد سيكون أجمل من اليوم .

أنا كنتُ صاحب البنطال المائل!!

في السّاحة الّتي تنتهي إليها نَزْلة طويلة من الشّارع القديم ، تجمّع بضعة أطفال في الصّقيع ، كان الثّلج يُغطّي كلّ شيءٍ في البلدة ، أحدهم أزال الثّلج عن مساحة كافية للعب (الدّواحل) مع رفيقَيه ، الرّابع راح يكوّر كُرة ثلج في أعلى الشّارع ، بدأتْ صغيرة ، ثمّ راحتْ تكبر بشكل سريع ، وهو يهبط معها من القمّة ويصرخ في وجه زملائه أن يبتعدوا عنها لئلاّ تطمرهم تحتها ، في قاع السّاحة كان حجمها بحجم مركبةٍ كبيرة ، وقف بجانبها وهي ترتفع أعلى منه وراح ينظر إليها بفخر ، فيما راح الآخرون يلتفّون حولها مُعجَبين ، الخامس كان يلتهم سندويشة مغطّسةً بالزّيت ومرشوشٌ فوقها كثيرٌ من السُّكّر .

أنا كنتُ صاحب كرة الثّلج!!

في مرسم ضَرَبَتْه الشّمس في الصّباح ، جلس طلاّبٌ في الصّفّ التّاسع على مقاعد تناثرت بشكلٍ عشوائيّ في قلبه ، كان أستاذ الفنّ يتحدّث عن طريقة مَزْج الألوان المُناسِبة ، وفي منتصف الحصّة طلب منهم أن يرسموا ما يحلو لهم ؛ أحدهم رسم غُرابًا فوق شجرةٍ يابسة ، ومن تحتها قبرٌ في طرفه شاهِدٌ جزؤه الأعلى مكسور بزاوية مائلة . ثانٍ رسم امرأةً بلا عينين ولها ثديان كبيران ، وشَعرٌ طويلٌ يغطّي نصفها الأعلى . ثالثٌ رسم إطارًا مَهولاً لشاحنةٍ كبيرة ، وتحته رجلٌ يدهسه هذا الإطار فيقسمه إلى نصفين . رابعٌ رسم ذبابةً تحطّ على قطعة (هريسة) يهمّ أحد الصّبية الفقراء بأكلهما معًا .

أنا كنتُ صاحب لوحة الغراب والقبر!!

في قاعة امتحان شهادة الثّانوية العامّة ، كان الأوّل يبدو قَلِقًا يحرّك رجليه القارّتين أسفل الدّرج بتوتّر واضح ، ويلعب بالقلم بين إصبعين من أصابع يده . وكان الثّاني يقرأ الأسئلة وهو يصمت صمتًا عميقًا ، وفجأة يضحك ضحكة عالية ، ويقطعها بغتةً ، فعل الأمر في الامتحان أكثر من خمس مرّات ولم تُجدِ محاولة المراقبين ثَنيَه عن ذلك منذ المرّة الأولى . وكان الثالث منشغلاً عن الإجابة بتصحيح أخطاء الأسئلة النّحويّة المتكرّرة في الامتحان . وكان الرّابع مُنهمِكًا في الإجابة ذاهِلاً عمّا يدور حوله حتّى إنّه لم ينتبه لضحكات زميله الهستيريّة .

أنا كنتُ صاحب الانشغالات بتصحيح الأخطاء النّحويّة!!

في الجامعة ، سقط الأوّل على الأرض حينَ هوى أحدهم بالواقِيات الزّجاجية على رأسه فندّت منه آهةٌ مرعوبة ، وعلتْ من فمه استغاثات راجِفة دون فائدة . ركض الثّاني باتّجاه البوّابة الشّماليّة

فتعثّر في الطّريق بأحد أصص الشّجيرات فوقع على فمه وانكسرت بعضُ أسنانه . غطّى الثّالث وجهه بيديه يتّقي الهراوات عن رأسه فكُسرت عِظام يديه . هرب الرّابع من رصاصةٍ قصدتْه دون سِواه فلم يفلح فأردتْه قتيلاً .

أنا كنتُ صاحب الآهة المرعوبة!!

اجتمع ما تبقّى منهم بعد أكثر من ربع قرن من الزّمان ، شكا الأوّل زوجته إلى رفقائه ؛ تخلّتْ عنه في أحلك الظّروف ورمتْه مثل كلبٍ في مزبلةٍ للدّواب . وبكى الثّاني وهو يسرد عليهم كيف ماتتْ ابنته الوحيدة في حادث سير رهيب . وأطرق الثّالث وهو يروي لهم الأحداث والذّكريات بتفاصيلها كأنّه يقرؤها من كتاب لا يستدعيها من الذّاكرة . وزفر الرّابع زفرةً طويلة وهو يقصّ عليهم تعثّره في الحياة وعدم مكوثه في وظيفةٍ واحدة أكثر من شهرين .

أنا كنتُ صاحب هذه الذّكريات!!!!

(١)
التَّوقُ إلى المَعرِفة

رائحة الخشب المُنبعثة من المقاعد المرصوصة على هيئة قوس مُنبعج – وقد لوّحتْها الشّمس – زكمتْ أنفي وأنا أدخل القاعة (٢٠١) بعد درج طويل ؛ التقطتُ أنفاسي لبرهةٍ على المدخل ، ثمّ دلفتُ إليها وجلسْتُ في المقاعد الأخيرة أنتظر امتلاءً الفضاء الفارغ المبثوث على المسرح في أوّل القاعة . القاعة الّتي تتّسع لحوالي ٣٠٠ شخص كادت تعجّ بالحاضرين ، أكثر المقاعد حملتْ أجساد صبايا فاتنات ، داخَلني الشّكّ قليلاً ؛ لقد كنّ يغرقْنَ في أحاديث لا معنى لها بانتظار بدء الحفلة ؛ على أكتافهنّ سالت الأنهار السّوداء في الغالب ، وإن شاب بعضَها خليطٌ من الألوان يصعب التنبّؤ بدرجاته .

التفتُّ عن يميني ويساري علّي أحظى بشابٍّ يزيح جبال الشّكّ الّتي بدأت تجثم على عقلي فما اهتديتُ إلى ذلك سبيلاً . بعد دقائق لم تزد عن خمسٍ ، انبثق من طرف المسرح فتىً يلبس (الشارلستون) ، بقميصٍ أحمر جسّد جِذعه المشدود ، وأبرز قامته الممشوقة ، انفتح القميصُ عن الثلث الأعلى من صدره ، فبانت الأرض البُنّيّة القاحلة الّتي لم تُنبِتْ شجرًا ولا عُشبًا ، واحتلّ (جيتارٌ) يدَه اليسرى ، وبيده اليمنى راح يلوّح للحاضرين وهو يذرع ما تبقّى له من خطوات ليقف في منتصف المسرح وينحني انحناءةً تامّة للجمهور . . لم يُمهله الجمهور

من أوّل لحظة ، فقد بدأ التّصفيق والتّصفير والهياج ، وراحتْ عبارات الإعجاب تنطلق من أفواه الصّبايا وتعبُر الفراغ الواصل بينهما ، ثمّ تلتصق بجسده الغضّ فيزداد زهوًا وتثنّيًا . . . قفزتُ من مقعدي مرتبِكًا ؛ حدّثْتُني :

– أليسَ من المفروض أن تكون هذه محاضرة في كيفيّة استقبال رمضان؟!

– ولكنّ الحاضرات قادِماتٌ من أوروبّا بالبريد المُستَعجل .

– وماذا في ذلك؟! قد تكون هذه أولى خُطواتهنّ في الإيقاع بالشّيطان ، وتركه على الأرض يتلّوى من سياط الفضيلة .

صفعتُني ، وأنا أرى المشهد كاملاً يختصر الحقيقة الّتي حاولتُ إخفائها خلف ستار التّبريرات : صبايا يتأوّهن ، ويتمايَلْنَ وهنّ يُصفِّقْن ، وأذيال الخيل الملفوفة خلف رؤوسهنّ تتأرجح في حركةٍ نصف دائريّة ، وأنا . . . أنا . . . لا أدري ما الّذي يحدث!!

كان ذو الجيتار أوّل الغيث ، إذ انهمرتْ بعده الفرقة الموسيقيّة تتقاطر على المسرح من جانبيه ، اكتملتْ حوافّ الإطار ؛ وبدت الصّورة قادِمةً من أيّ بلدٍ غير الّذي أعيشُ فيه . هدّأتُ من رَوْعي قليلاً ، حينَ جذبني أحد الحاضرين الّذي حضر للتّوّ من يدي ، وأجْلسني على المَقعد . امتثلتُ بحركةٍ لا إراديّة للأمر . وجلستُ وعينا قلبي ما زالتا معلّقتين بأهداب الدّهشة .

وابتدأت الحفلة . . . امتشق عازفُ الجيتار جيتاره كقائدٍ في معركةٍ فاصلةٍ يمتشقُ سيفه ، ونقر بإصبعه بعض النّقرات متهيّئًا للدّخول في اللّحنِ ، ثمّ راحت أصابعه تتحرّك على الأوتار كأطيار سابحةٍ في أفقٍ بعيد ، وانساب اللحن انسياب الماء في الغدير الرّقراق ، وعبرتْني موجةٌ

بحريّةٌ سارعتْ في جعلي أتماهى معه ، وشعرتُ أنّني مع المجموع الكلّي في القاعة آذانٌ تتلقّف اللحن من صاحبه ، كأنّنا مأخوذون بسحره!! ثمّ قفز اللّحن إلى مستوى جديد من الدّهشة حين راحتْ يده اليمنى تضرب على خشب الجيتار ، معَ يده اليسرى الّتي تعبث في الأعلى بأوجاع الأوتار ، واختلج اللّحن واختلجتْ نفسي معه ؛ نفضتُ رأسي كمن يحاول أن يُنقِذه من غيبوبةٍ محمومة ، جاهدتُ لكي أعتدل في وقفتي ، جررتُ حقيبتي وفيها مِسطرة الرسم الهندسية خلفي ، وخرجتُ من القاعة وأنا أستغفر الله على كلّ دقيقة قضيتُها في أحضان هذه الحفلة المشبوهة .

في الشّارع الفاصل بين كليّة العلوم وأسفل القاعة لقيني (وصفي طلب) ، طويل ، ونحيل ، وأسمر ، ولكنّه شيوعيّ أحمر . توقّفتُ أمامه ، وفركتُ ذقني الشّقراء الخفيفة ، قبل أن أمدّ يدي إليه مُصافِحًا :

- كيفك يا رفيق؟!

- بأسوأ حال يا أخي!!

- عافاك الله!!

- دعْكَ من لَوْكِ عبارات النّفاق هذه ؛ ولا تنسَ الأمسية الشّعريّة عصر اليوم في قاعة الكندي .

- سأحاول أن أحضر .

- لا تقل أحاول ؛ احضر فحسب ؛ تعال واسمع الشّعر الحقيقي بدل القصائد المنبريّة الّتي تتشدّقون بها ؛ كأنّها خطبة جمعة لا يُصغي إليها إلاّ التّائهون والنّائمون .

- وهل تسمّي الهَذَيان الّذي تُثرثِرون به شعرًا!!

كانت نوافذ القاعة مفتوحةً ، حين وصل صوتُ الفرقة الموسيقيّة

بقيادة عازف الجيتار إلى آذاننا ، أراد وصفي أن يصنع لنفسه انتصارًا ثقافيًا ولو كان موهومًا ، حين قال :

- أنتم الإسلاميّين لا تعرفون في الفنّ شيئًا .

- تركناه لكم أيّها العباقرة!!

- لو كنتَ مُثقّفًا حقيقيًا ، فقل لي هذه الأغنية الّتي تهبط من درجات القاعة مَنْ مُغنّيها الأوّل؟!

- إنّها بالإنجليزيّة!!

- بالإنجليزيّة والإسبانيّة معًا ؛ ولكن ما الغريب؟ هنا ينكشف معيار ثقافتكم المزعومة ؛ ولتكنْ بهما ، مَنْ غنّاها يا فَهلويّ؟!

- لا أدري ، ولا يهمّني أن أدري . . .

- طبعًا لا يهمّك ، أنت وجماعتك تزعمون أنّكم تقدّميّون ؛ هذه هي الرّجعية تُفصح عن نفسها .

- فُكْ عنّي يا زَلَمِةْ إنتا ولينين تَبَعَكْ!!

- فرصة أخيرة!!

- روح إلعب غيرها .

- هاي أغنية (خوليو إغليسياس) . وطبعًا ما رح تعرفو!!

- لو (ماركس) أسهل حَبِّة .

- واحد صفر ؛ سأغفر لك جهلك إذا حضرتَ الأمسية الشّعرية اليوم ؛ يا أخي أنا بحبّك ، وبديّاك تِثّقف شوي . و(نعيمة) لم تعد تحتمل نقاشاتنا الصّاخبة في منتصف اللّيل .

في مطلع الثّمانينات ؛ كانت جامعة اليرموك تموج بالتّيّارات الفكريّة كافّة ، وكانت تغلي كقِدْر لم تُطفأ تحتها النّار من عشرة قرون ، كانت تهرب من نفسها إلى نفسها بالحركة الدّؤوب ، لم يكنْ هناك ما

يُشبـهـها إلاّ خليّـة نحلٍ أصـاب خلودُ العـمل كلَّ أفرادها ، فلم يعـرف القعود إليها سبيلاً .

لم يكنْ لقاعةٍ أيّ نصيبٍ من الاختلاء بنفسها!! القاعات تذمّرتْ من كثرة الّذين لم يُبارحوا مدرّجاتها ولا مساربها ولا أدراجها ولا كراسيّها ولا مسارحها ؛ كلّ قاعةٍ تنتظر اللّيل لترتاح قليلاً من عبث الأقدام الّتي تملؤها سحابةَ النّهار .

خالي الّذي كان يكبرني بأربعة أعوام كان يدرس معي في هذه الجامعة الّتي استقطبتْ كلّ مهووس إلى التّغيير والمناهج الحديثة ؛ خالي هذا ترك أرقى جامعات لندن ، وأفخم معاهدها وجاء إلى اليرموك لأنّه يعتقد أنّها النّموذج الأمثل لكي يرتقي بإنجليزيّته الّتي طاردها طوال أعوام مريرة ، ولم يفلح بالقبض عليها ؛ اللهمّ إلاّ هنا!!

أينَ تذّهب الجامعة بكلّ هذا السّيل المُتدفّق من الطّلاّب وأفكارهم؟! أين تُلقي بكلّ هذه الينابيع الّتي جاءت لتجرّب هنا حظّها ، ولترسم لنفسها طريقًا ، وتُثبتَ لكِيانها وجودًا؟! على أيّ الضّفاف سيستريح هذا اللّهاث الّذي لا ينتهي ، وأيّ البِحار تستطيع أن تستوعب كلّ هذه الروافد والأنهار الضّاجّة بكلّ شيء؟!

«تجمّع فيها كلّ لِسْنٍ وأمّة» ، وما من بلدٍ إلاّ وجاء منه أستاذٌ ليُلقي بيده ورأسه على كَتف هذه الفاتنة ، ويعبث بشعرها الغجريّ السّاحر . أقسمَ الرّئيس أنّ كلّ خِبرته في أمريكا وفي أوروبّا سوف ينثرها وردًا على مُسطّحات الجامعة الخضراء ، وحملِ معه من هناك ماءً جديدًا على غير ما عهدتهُ أختُها الكبرى ؛ كان ماءً مُقدّسًا ، تعمّدَ به كلّ تائقٍ إلى المجد وتائقة إلى الحُلم ، وكلّ عابدٍ متبتّل في محراب الحياة النّاشِئة .

ما من كليّة نهضتْ ؛ إلاّ نافستْها أخرى ، كان عهدًا ذهبيًا بكلّ معنى الكلمة . الإعلام من هنا ابتدأ حكايته ، واحتاجتْ أوّلُ جامعة من بعدُ أكثرَ من عَقدين لتُنشئ كلّيّةً شبيهة . ونهضتْ كلّ الكليّات تطاول الواحدة الأخرى ، وتبتدئ عهدًا يرموكيًّا غير مسبوق في الأردنّ ، وتصنع جيلاً فريدًا شكّل علامة فارقة في الحياة الطّلاّبيّة ، ورسم انعطافةً خبأت وراءها أجمل المفاجأت وأخطرها على الإطلاق!!

أمّا الدّول ، فمدّ لها الرّئيس خيطًا من ذهب ليجذبها إلى ساحته ، وكتب معها ميثاق الولاء للفكرة ، والحياة ليست مادّةً فحسبُ ؛ هناك ما ينبغي أن تُضحّي من أجله : المعرفة ؛ بل التّوق إلى المعرفة!! من أجل هذا حضرتْ سوريّة ومصر والعراق ولبنان والسودان وتركيا وبريطانيا وألمانيا وأمريكا ، وما بقيتْ دولةٌ في الشّتات إلاّ وانصهرتْ ثقافةً وأسلوبًا في جسد هذه النَّهِمة إلى كلّ شيء ، الجائعة إلى كلّ تجربة .

(٢)
النّخلة الّتي ظلّلَنا سَعَفُها في الهَجير

وادعةٌ كحلم في ليـة صحو ، هادئةٌ كحوّاءَ غافيـةٍ تحت شجرةِ الخلد ، حاضرةٌ كمُلْكٍ لا يبلى . تمدّ يدها كأنّها تُهدي الرّاحة لكلّ قادمٍ نحوها ، تلبس فُستانها الأبيض الموشّى بأفق قرمزيّ في المساءات ، وتلقي على كتفيها بشالها المصنوع من خُضرة الرّوح في الصّباحات .

كانت النّخلة الّتي ظلّلَنا سَعَفُها في الهجير ، وأطعمنا في المَخاض ، وحَنا علينا بعد الميلاد ؛ وميلادٌ دون دم لا يمكن أن يكون! وكانت الأرض الّتي زرعنا فيها طموحاتنا ؛ نحن القادمين من الوطن المحتلّ ؛ قريبةً من القلب ، تُشبه برتقالة خبأنا في مائها ذوبَ قلوبنا .

جسدها المنبسط على السّهول الممتدّة ، كان يبدو عاشقةً لا تردّ يدَ لامِس!!

نعم أحببناها لأنّها أحبّتْنا ؛ وفي النّهاية لأنّ دماءَنا سالت على ساحاتها مهرًا لهذا الحبّ!!

في بيوتاتها المنتشرة في أحيائها ذات الجهات الأربع سكنّا ، وبين زواريبها وأزقّتها عِشنا . ولم تسلم قُراها كذلك من أن تحطّ أجنحتُنا على مدارجها ؛ كنتُ أنا وعشرات الحالِمين مثلي ندور في شوارعها ، ننظر في وجوه قاطنيها في تلهّف إلى فرح ما ، إلى وردة ما ، إلى عشق ما ، وحين كانت أعيُننا تلتقي بفاتِناتها كان الطّرْف يرتدّ إلينا وهو حسير .

نعم . . . كان الفرح حاضرًا ، والوردة يانعةً ، والعشق أخضر ؛ ولكنّ يدًا ما امتدّت في الظلام لتخنق ذلك الفرح ، وتدوس تلك الوردة ، وتُيبِّس ذلك العشق!!

سكنّا في روف على سطح بيتٍ من طابق واحد ، يقع قريبًا من حيّ (الإسكان) ، وكانت الشّقّة لأرملةٍ خمسينيّة من إحدى القُرى ، مات عنها زوجها قبل حوالي ثلاثين عامًا حين كانت في ريعان الشّباب ، أمّا البيت فقد منحتْه الدّولة لها لأنّ زوجها استشهد عام ١٩٥٤ مع إحدى وحدات الجيش الأردني الرّابضة قريبًا من (كفر أسد) والمُطلّة على الغور . رحل زوجها وتركها خلفه دون أولاد ؛ إمّا أنّ أرضها لم تُخصِب ، وإمّا أنّ ماءه لم يُنبِتْ ، ولم يُفلح في استثمار خصائص الأرض الّتي يصبُّ فوقَها . ولم تجد الدّولة من سبيل لتخفّف حزنها إلاّ أن تهبها هذه الحجارة ، أمّا هي فلم تستطع التّخلّص من ذكراه إلاّ باستحضار ذكراه في كلّ فرصةٍ سانحة .

كان في الرّوف ثلاث غرف ، وكنّا خمسةً ، أنا و(سِراج سلهب) نحتلّ واحدة ، و(نعمان حسين) و (وصفي طلب) يحتلاّن الثانية ، و(سالم حمدان) يحتلّ الثّالثة .

فيما بعد سوف تصبح (نعيمة) أُمًّنا ، وستشهد الشّقّة ما لا يُمكن أن يتنبأ أوسع خيال بحدوثه!!

كان البيت مُحاطًا بسياجٍ من أشجار السّرو ، وأمامه مدخل يُفضي إلى دربٍ مرصوفة بالحجارة السّوداء يمتدّ حتّى الباب الدّاخليّ ، وأمّا الرّوف فكان يُصعد إليه بسلالم من الجهة الغربيّة للبيت .

من (نابلس) حيثُ جبال النّار شاهدة على أحداثٍ أعظمَ من أن تُحصَى جئتُ ، وسِراج من (غزّة) ، ونعمان ووصفي من (رام الله) ،

وحدَه سالم كان من (القدس) ، وجميعًا كنّا من الوطن الّذي هتفْنا له : فليحيَ الوطن ؛ وهو يُباع ويُشترى!!

شربنا من نبع واحد هو الغربة ، ولكنّنا لم نقرأ على شيخ واحد ، فلطالَما علتْ صيحَاتُنا في منتصف اللّيل ونحن نجتمع في غرفة (سالم) ، وحينَ يطول الأمر بنا تضرب (نعيمة) بكوز من حديد على ماسورة قريبة من شُبّاك غرفتها تصعد إلى خزّان يُجاور غرفتنا ، فنعلم حينئذ أنّ فترة النّقاش قد انتهتْ وأنّه آن لنا أن نخلُد جميعًا إلى النّوم .

درسْتُ الهندسة لأنّ أبي كان يملك ورشةً صناعيّة في البلدة القديمة بنابلس ، وأرادني أن أطوّرها في المستقبل ، فتصبح قادرةً على صنع الأجهزة الكهربائيّة ؛ فيتحسّن حالُنا ؛ كان طموحًا إلى أن يغيّر واقعه إلى ما هو أفضل ، مع أنّه يعلم أنّ حياتنا لا يُمكن أن تكون أفضل مِمّا هي عليه ما دامت مداهمة الصّهاينة لحيّنا لا تتوقّف في ليل أو نهار ؛ بيتُنا بالذّات كان يُفتّش في اليوم الواحد مرّتين أو ثلاثًا ، والسّبب أخي ؛ كان قد آمن أنّ النّصر لا يكون إلاّ بالسّلاح . لم يكنْ يبيت في البيت أبدًا ، لربّما مرّت شهورٌ قبل أن نحظى بطلّته البهيّة لساعة أو ساعتين ، كان يأتي من أجل أن يقبّل يد أمّي ، ينسلّ إلى البيت في جنح الظّلام ، يدخل من الشّبابيك الخلفيّة ، يهوي على يد أمّي ، يلثمها ، ويشمّها طويلاً وهو يسألها أن تدعو له ؛ أمّا هي فتظلّ تذرف من بعده دموعًا لا يعرف مدى حرقتها إلاّ قلبُ أمٍّ مفجوعة ، وحين يخرج كنتُ أراه شبحًا يتراقص ظلّه على الجدار كأسطورة قادمة من الماضي السّحيق . ثمّ يغيب كأنّ شبحه لم يكنْ يحجز مساحةً في الفراغ القاتم .

(وصفي) الطّويل النّحيل الأسمر أشدُّنا حماسةً لمناقشة أيّة فكرةٍ ،

والجِـدال في أيّ مـوضـوع ، يؤمن بماركس ونظريّاته أكـثـر مِـمّـا يؤمن بالغزاليّ ووصاياه ، درس الشيوعيّة بشكلٍ تأصيليّ ، وسافر إلى روسيا أكثر من مرّة مع كوادر حزبه ، وهنا في الجامعة كان يغيب كثيرًا عن محاضراته في كلّيّة الاقتصاد حتّى ننسى أنّه يدرس فيها . أمّا (نعمان) فكان من الجبـهـة الشّـعـبيّـة ، لم يكنْ يبُتّ في أمرٍ ولا يقطع به دون الرّجوع إلى حزبه ، مربوع ، زحف الصّلع إلى رأسه ، شديد السّمرة ، يدخّن بشكلٍ هادئ وهستيريّ ، نحيل يخفق القميص على بطنه الضّامر ، وأسنانه اكتسبتْ صفرةً لا تفارقه بسبب شراهته في التّدخين ، وكان يقطع الجملة الّتي يحكيها بضحكةٍ باهتة ، ولم تمرّ جملتان من بين فكّيه دون أن يقطعهما بمثل هذه الضّحكة الّتي لم تكن تحمل أيّ معنى غير الاتّكاء عليها لقَوْل الجملة التّالية ، وكان أقرب إليّ - بحكم عقلانيّته - من وصفي . وأمّا (سالم) فكان يشبهني إلى حدّ كبير ، متوسّط الطّول ، أبيض البشرة ، تضربُ شُقرةَ شَعْرِه غبرةُ ذئبٍ رماديّ ، مشدود الجسم ، ذقنه من الأسفل عريض وواسع ، وشواربه خفيفة ، لم يكنْ يميّز بيننا في الهيئة العامّة غير اللحية ، وأحيانًا احمرارُ الخدّ ؛ كان خدّي يتوهّج لأيّ ارتفاع في الحركة أو الحرارة . وأمّا (سِراج) فكان يميل إلى الطّول قليلاً ، أسمر ، لحِيتُه صَبّارٌ نبتَ في صحراء قاحلة ، وصوته قادمٌ من بئرٍ عميقةٍ ، وفيه بحّةٌ مميّزة ؛ أنا و(سِراج) كنّا من الإخوان ، وكنتُ أكبره بعام .

بمثل هذه التّعدّدية ، وبسببٍ منها ، نشأ في (روفنًا) جوّ صاخبٌ ، ومحتدم ، ولكنّه في الوقت نفسه حميميّ ، فلقد كنّا نغلّب المنطق في النّقاش على كلّ شيء ، وأحيانًا نناقش دون أن يغيّر أيٌّ منّا قناعاته بسبب ارتباطاته الحزبيّة ، ومرجعيّاته الدّينيّة . كان (الرّوف) يتحوّل إلى

خليّة فائرة في بعض اللّيالي ؛ يفد إلينا طلاّبٌ كثيرون ، يجلسون يدخّنون ويناقِشون ، ولم تكنْ (نعيمة) تنزعج من كثرة القادمين ، اللهمّ إلاّ إذا علا صوتُهم ووصل إليها في هدأتها ، أو تجاوزوا الوقت المسموح به للنّقاش ، فقد كانت تُمهلنا نصف ساعة بعد منتصف اللّيل ، وكنّا نحبّها ونحترمها ، وبمجرّد أن تطرق بكوزها على ماسورة الخزّان كنّا نتوقّف على الفور ، ويرجع إلى بيته من قَدِم ، وينام مَنْ ظلّ!!

مثل هذه الخليّة الّتي شكّلناها هنا كانت قد تشكّل شبيهَها مئاتٌ من الخلايا ذات مرجعيّات فكريّة مختلفة ، ومشارب متنوّعة ، وإحالات جغرافيّة متعدّدة ، على أحياء متباعدة من إربد وقُراها .

أوّل رمضان هبط علينا هنا كان في صيف ١٩٨١ ، وكنّا في السّنة الأولى أو الثّانية ، أقسمتْ (نعيمة) علينا وقتها ألاّ نُفطِر في أيّ مكانٍ إلاّ عندها ، حينَها عرفنا كثيرًا من الطّبخات الأردنيّة ، وطريقةَ إعدادها ، وكانت (نعيمة) تخصّص كلّ جمعة للمنسف ، وتتفنّن في إتقانه ؛ الأرزّ الأبيض يشكّل تلّة فوق السّدر ، وقطع اللحم تتوزّع بصورةٍ مرتّبة في دوائر متداخلة تكبر كلّما ابتعدتَ عن المركز حيثُ الرأس أحيانًا يفغر فاه ، وهو يلتقم عروقًا من البقدونس ، واللّبن الأبيض المُشبع بالسّمن يسيل على ظهور اللّحم ببطء مثل ينابيع صغيرة نزّتْ من شقوق صخورٍ صلدة ، يبرق أصفرها مختلطًا بأبيضها فيُماهي أحمر اللحم الّذي يكون أنضج ما يكون ، وتتناثر على تلّة الأرزّ وما نزل من سفحها حبّات الصّنوبر الشّقراء وهي تلمع بزيتها ، فتزيد المنظر جمالاً ؛ ونحن؟! بطون جائعة صائمة أو غير صائمة تتوق إلى لحظة الانقضاض ، وفي النّهاية؟! (فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ) وهم جائِعون ، (فَأَصْبَحَتْ كالصَّريم)!! لا نُبقي ولا نذر!!

كان يتكرّر هذا المشهد كلّ جمعة تقريبًا ؛ أنزل أنا من (الرّوف) إليها وأصعد به إلى الشّباب الجائعة المستعدّة لأكل الحجارة ، ونحجزه أنا وسراج في غرفتنا ، ونُجبرهم على انتظارنا حتّى نصلّي ، وندفع إليهم بالتّمر والماء ، فيحتجّ وصفي ، ويُرغي ويُزبد ، وهو يصيح :

– يا رجل فُكنا من ترّهاتك ، مُـتنا من الجـوع ؛ يعني دينك حكالك تموّتْنا من الجوع!!!

فأستغلّ الفرصة لأغضبه أكثر :

– مُتت من الجوع ؟! على أساس إنّك صايم!! مهي غرفتك من الصّبح وهي تمتلئ من دخان سجائرك يا رفيق . . .

فيستشيط غضبًا ، فأدفع إليه بالماء ، ثمّ أقرّب وجهي من وجهه ، وأنظر في عينيه ، وأشدّه من كتفه إليّ :

– يا رفيق كلامي واضح . بس نخلّص صلاة ، يعني بس نخلّص صلاة . تفكّرني رح أخلّيك توكل وأنا بصلّي . . . أي عليّ الجيرة إنّو ما بضلّ منّو إشي . . .

فيهدأ ويرضخ للأمر الواقع ، ونصلّي ، وكان (سِراج) يؤمّنا أحيانًا فيطيل في الصّلاة في بعض المرّات فيزداد الحَنَق والغضب عند وصفي ، ويقطع الوقت وهو يصفّر أو يزفر أو يغنّي .

(٣)
في الدّاخل تغيّرتْ أشياءُ كثيرةٌ

في الكافتيريا سوقٌ قائمة ، كُلٌّ يعرضُ بضاعته ، والبضاعة متنوّعة ، والعَرْضُ لا يحمل صفة الإكراه ، لديّ ما لديّ ؛ إنْ أعجبكَ فلنكنْ شركاء ، وإن لم يُعجِبْكَ فدعني أبحثْ عن سِواك . لم يكنِ العرض مُقتصرًا على شيء بعينه ؛ ولم يكن أوّله الأفكار ولا آخره الأجساد ، كلّ شيءٍ يبدو مُباحًا ؛ وإربد بجامعتها الفتيّة تصحو على عهدٍ جديدٍ لم يكنْ لها به صلةٌ من قبلُ ، ورئيس الجامعة نقل كلّ ما يُمكنٍ أن ينقله من هناك ؛ من الغرب البعيد إلى هنا ، ولو استطاع لنقل الأرض والمكان والزّمان والشّخوص ، ولسرق من أوروبّا الحدائق الغنّاء التي تُحيط بكلّ جامعة ، وحاول أن يُسيّج الجامعة من أيّ عدوٍّ مُحتَمل ؛ أكبر أعدائه - في نظر آرائه المتحرّرة - ذوو اللّحى ، لا أريد لحية تدخل جامعتي ، هي بيتي وأنا أدرى بترتيب أثاثه ، وبتنضيد موائده ، وبتنسيق حدائقه ؛ وهؤلاء ذوو الرّؤوس المُغلَقة سوف يدمّرون ما جئتُ من أجله إلى هنا ، سوف يعكّرون مِزاج الثّورة على القديم ، على الأفكار البالية والمهترئة ؛ إنّها ليست كأيّ جامعة ، ولأنّها كذلك فيجب أن يكون صانعوها ليسوا كأيّ صَنَعَة!!

كلّما رآني خالي من بعيد هتف بي من دون تكلّف أو تحفّظ :

- شيخ وَرْد . . . شيخ وَرْد . . . هنا . . . هنا . . .

وأراه وسط الزّحام واقِفًا يُشيرُ إليّ بيديه ، أقتربُ منه ؛ خالي بلا اتّجاه ؛ وأحيانًا لا أعرف بأيّ دينٍ يَدين!! أجلس بجانبه ، يهتف بي مازِحًا :

- أيّ صبيّة تُعجبك لأخطِبها لك؟!

- لو كانت أمّي هنا لأسكَتَتْكَ .

- لا أظنّ أنّ أختي هي من ستُسكِتني ؛ شيخُك هو الّذي سيفعل ، ماذا تُسمّونه عندكم ؛ المرشد أم المراقب أم النّقيب أم ماذا؟!

- يا خالي كم لك في هذه الجامعة؟!

- تغيّر الموضوع ؛ لا بأس ، أنا أسَّسْتُها مع الرّئيس ؛ دخلتُ في اليوم الأوّل الّذي افتُتِحتْ فيه ، وأظنّ أنّ الرئيس سيخرج من هنا قبلي .

- لكَ فيها ما يقرب من خمس سنوات؟!!!

- وربّما أحتاج إلى خمسٍ أخرى!!

- لماذا تفعل ذلك؟!

- أوّلاً ، كلّ شيء في هذه الجامعة يُعجبني ، وأنتَ تعرف أكثر ما يُعجبني فيها ؛ ثانِيًا : عليّ أن أطمئنّ على الرّئيس ؛ سيتخرّج هو في البداية من هنا ، وأنا سأتبعه .

مرّ من أمامنا ، شعرُه الكثّ والأسود ينزل على كتفيه كأنّه قبّعة ، عندما صار قريبًا جداً منّا استرعتْ انتباهي رائحةُ الجلود الّتي تفوح منه ، أحسستُ أنّ دبَقها لَصِق بأنفي ، كان يلبس (فلِدةً خضراء) ، ويضع يده اليسرى في جيبها ، ويستعمل اليُمنى من أجل أن يُصافح من يتوقّف عنده ، رأيتُه يُصافح كلّ من وجد في طريقه ، لاحظ خالي متابعة عينيَّ له ، فبادر :

- أتعرفه؟!

- لا ؛ ولكنّه يبدو دبّاغًا .

- سميح عبابنة ؛ طالب صحافة ، دأب على استغلال اكتظاظ الكافتيريا ليوزّع فيها المنشورات .

- يوزّع المنشورات؟!! ألا يجدر أن يكون حَذِرًا؟!!

- وهل رأيتَهُ يعطيك إحداها ؛ إنّه يعرف لمن يُعطي ، أنتَ معروف بتحجّرك أنت وجماعتك ، راقبْه جيِّدا وستُدرك مدى حَذَرِه .

كان يمرّ على الطّاولات ، يبتسم في وجه الجالسين إليها ، يُصافح بعضهم ، ثمّ يرفع دفترًا من دفاتر المحاضرات الموجودة فوقها ، ويدسّ فيها المنشور ، ويمضي حتّى دون أن يلتفت حوله ، أو إلى صاحب الدّفتر ؛ كأنّ شيئًا لم يَكُنْ!!

سألتُ خالي :

- سميح عبابنة!! أليس أردنيًّا؟!

- ألهذا الحدّ وصل جهلك يا أخي ، ومن لا يعرف أنّه أردنيّ!!

- أليستْ مخاطرة أن يقوم بتوزيع المنشورات؟!

- مخاطرة كبيرة ، قد تكلّفه أعوامًا خلف القُضبان .

- وماذا في هذه الّتي يُمكن أن تذهب به إلى السّجن؟!

استلّ خالي من جيبه إحدى هذه المنشورات ، ودفع به إليّ ، تلفتُّ حولي ، قبل أن ألتقطه منه ، وأدسّه في جيبي . هتف بي :

- لم أكنْ أعرف أنّكم جبناء إلى هذا الحدّ؟!

- لا أريد أن أُسجن بسبب ورقة!!

- إنّها ليستْ أيّ ورقة ، هاتِها ، واقرأ قليلاً فيها يا . . .

أخرجتُها من جيبي مُكرَهًا ، وقعَ نظري على بعض العبارات الّتي

كان خالي قد وضع تحتها خطوطًا حمراء ، قرأتُ على عجل ، كان المنشور : يدعو إلى أردنّ ديمقراطيّ يتمتّع فيه الجميع بالمساواة ، ويدعو إلى تخفيض الأسعار ، والتّعليم المجّاني ، وتخفيف معاناة الأسر الفقيرة و . . . . وأشياء أخرى عاديّة لم أرَ فيها ذلك الخطر الماحق!!

وفي النّهاية كان المنشور مُوقَّعًا باسم : (حزب الحرّاثين)!!

ندّتْ منّي ضحكةٌ عالية وأنا أقرأ هذا التّوقيع ، قلت :

– إذًا هذه الرّائحة الّتي كانت تفوح منه هي رائحة العجول ، بما أنّه ينتمي إلى هذا الحزب!!

– هذا ما أنتم فالِحون فيه ؛ الاستهزاء بالآخرين ، هل تعرف حضرتك أنّ سميح هذا يطوف على محلاَّت بيع الأضاحي في الصّباح الباكر ، يشتري منهم جلود الخرفان ويحملها على ظهره ، ويسير بها إلى مدبغة والده ويعمل معه في دباغة الجلود حتّى إذا حان وقت محاضرته ، غسل رأسه ويديه على عجل ، وأتى ليلحق بدراسته ، على الأقلّ هو كادحٌ ويعمل ما فيه فائدة لمجتمعه ، أمّا أنتَ فماذا تفعل؟!

– على هونك يا خالي ، لماذا تُدافعُ عنه كلّ هذا الدّفاع؟!

– لأنّني أنتمي إلى حزب الحرّاثين مثله! هات . . هاتِ . . .

أخذ خالي منّي المنشور بغضب ، وأعاده إلى جيبه ، نفث دخان سجائره في وجهي قبل أن يقوم ، ويغادر الكافتيريا .

كلّ العيون هنا غير العيون هناك ، هنا تتحوّل كلّ حواسّنا الخمس أو السّتّ إلى عيون ، تتكثّف حاسّة النّظر ، لكي نؤسّس بناءً على مُعطياتها كلّ شيءٍ فيما بعد ؛ الحركةَ القادمة!! والحركةُ القادمة فيها كلّ شيء ؛ الثورة ؛ الغضب ؛ الانهيار ، الفوز ، الخسارة ، الحبّ ، الاعتقاد ، الشّكّ ، الإيمان ، و . . . وقائمة تطول من النّظريّات المُستنتَجة .

وأكبر العيون هنا وأوسعها على الإطلاق كانت عيون الدّولة ، سخّرتْ لذلك كلّ عينٍ مُمكِنة ، فهي تنظر وتتفحّص وتتقصّى ، تبحث عمّن تراهم مناسبين لكي ينضمّوا تحت لوائها ، أو تطحنهم تحت بُسطارها . وتبحث عمّن هم أَوْلى بعطفها وأولئك الّذين هم أحرى بغضبها . ومن هنا ، من هذا المكان الّذي يبلور صورة الجامعة مُصغّرةً عرفتِ الدّولة كلّ شيء ؛ أو أشياء كثيرة ؛ عرفتْ :

سامر أبو خربوش ؛ وكمال عبيدات ، وسلطان رواشدة ، وباسم معايعة ، ونائل أبو صبحة ، وكريم العجلوني ، وآخرين . . . وأعدكم أنّني سأقصّ عليكم بعض قصصهم إذا أسعفتْني الذّاكرة ، فقد مرّ على هذه الذّكريات أكثر من ربع قرنٍ ، وماذا يتبقّى من الإنسان حين تطحنه كلّ تلك السّنوات ؛ تَغيّرَ الماء ، وتغيّر الوطن ، وفي الدّاخل تغيّرت أشياء كثيرة لا يُمكن الحَدْسُ بها!!!

(٤)
أَحَبَّ الحياةَ ولكنَّ الموتَ أحبَّه

كنتُ أعدّ له بِزّته العسكريّة من الفجر ، أعيشُ معه في بيتٍ لضبّاط سلاح الجوّ بَنتْه الدّولة للطّيّارين ، يُصلّي الفجر في البيت ؛ فلم يكنْ في سكن الضّبّاط مسجد ، كان هناك مُصلّى وحيد في القاعدة أنشأه زوجي (ناصر) مع صديقه في السّلاح (وفيق) ؛ كانا معًا يحبّان استعراض قدراتهما العسكريّة في الجوّ ؛ مجنونَين آخرين من مجانين هذا الاستعراض ، يصعدان إلى أعلى نقطة مُمكنة ، ثمّ يَهْويان بشكل عموديّ إلى الأرض ، وبسرعةٍ مرعبة ، حتّى يُخيّل إلينا نحن المُصطفّين في المدارج أنّهما قرّرا الانتحار ، وتنحبس الأنفاس مع تتابع سقوطهما ، وأضع يدي على قلبي خائفةً من أن أفقد زوجي في لحظةٍ غادرة ، حيثُ يكون حساب الزّمن خارج احتمالات الحياة ، من يدري؟ قد ينفلتُ الزّمن الّذي هو أقلّ من ثانية من يده ، فيخرّ صريعًا على الأرض هو وطائرته ؛ ليقول لنا : الفِرار من القَدَر لا يستطيعه البشر!!

ويخرج من طائرته ، أكاد لا أصدّق أنّه نجا ؛ (يطأ الثّرى مُترفّقًا من تيههِ)!!

يمدّ يديه الاثنتين إلى خوذة الرّأس ، يخلعها ، ثمّ يضعها تحت إبطه الأيسر ، وبخطًا واثقةٍ يسير على المدرّج ، طوله الفارع ، وجسده الممشوق ذو الأسر الشّديد ، وابتسامته الّتي تشفّ عن بياضٍ ناصع جعلتْه يبدو

في عينيّ كما لو كان ملاكًا ليس من أهل هذه الأرض ، كان أكثر من زوج ، كان أخًا وأبًا وحبيبًا ، ورفيق درب ، وفي النهاية بطلاً من أبطال الأردنّ النّادرين!!

أحبَّ الحياة ، ولكنّ الموت أحبَّه . لم يُمهلني حتّى أغرف من عينيه ما يجعلني قادرًا على أن أتمّ العُمر بعده ، ورحل قبل أن يترك ابنًا شبيهًا به من صُلبه يُعينني على احتمال هذه القوس الّتي أحملها اليوم فوق ظهري ، ولم يبقَ منه إلاّ ابتسامةٌ تشعّ في الظّلمات ، فتكشف عن بصيص أملٍ فيما تبقّى لي من أيّام .

لم تُغرِهِ الأوسمة الّتي حملها على صدره ، ظلّ ينتظر وسامًا واحِدًا ، بدا أغلى مِمّا كنّا نظنّ ، أن يرى فلسطين المحتلّة من طائرته ، ويقصف مطار (بن غوريون)!!

قال لي ذات مرّة :

– كلّ طلعةٍ أطلعها بطائرتي ، أدرك كم هي المسافة قصيرة بين الموت والحياة!!

– وكلّ مرّة تطلع فيها بطائرتك أدرك كم هي المسافة متداخلةٌ بيني وبينك ؛ وفي كلّ طلعةٍ أحبّك أكثر ؛ كأنّني صرتُ أشتهي أن تكثر طلعاتك .

– ألا تخافين من ذلك؟!

– أحيانًا ، حينَ أحسّ أنّها طلعتك الأخيرة ، كم أخشى ألاّ تعود بعدها . يقتلني تخيّل ذلك ولو للحظةٍ واحدة .

– على الحالين سأعود ؛ الفارقُ هو لون اللّباس الّذي سأعود به ؛ أبيض أم أزرق!!

– أنتَ تُخيفني بهذا الكلام .

- لا تخافي ، إذا كان الموت سيفعلها معي ؛ سأتجاهله ؛ سأتظاهر بأنّني لم أره وهو يقوم بواجبه ؛ على مقدّمة طائرتي يسكن قَدَري ، أحاول أن يكون شريفًا ، ليس المرعب النّهاية بحدّ ذاتها ، المرعب أكثر هو شكل هذه النّهاية!!

- يكفي . . . يكفي . . . سيصل رفيقك (وفيق) بعد قليل ؛ يجب أن تكون جاهِزًا .

وأشرد بأحلامي إلى الماضي ؛ إلى أوّل يومٍ التقتْ فيه العينان ، واشتبكتْ فيه اليدان . ويأتي صوت الجرسِ يوقِظني من أحلامي ، ويعلن وصول (وفيق) ، ويخرج زوجي متهاديًا على ضوء الممرّ ، كان جسده يحجز هذا الضّوء الخافت فيبدو بطلاً ماضِيًا إلى قَدَرٍ محتوم .

جاءني خبر استشهاده ، وأنا نائمة ، أيقظني جرس الهاتف الخاصّ ببيتنا ، صحوتُ مذعورةً ، جاءني صوت قائد السلاح على الطّرف الآخر :

- سيّدنا يريد الحديث إليكِ .

ارتبكتُ ؛ لم أكنْ أتوقّع أنّه يُمكن أن يحدث ، عرفتُ على الفور ما يُمكن أن تخبّئه الكلمات القادمة ، ندّتْ دمعات ساخناتٌ على خدّي ، كدتُ أجهشُ بالبكاء وأنا أصغي إلى بحّته المعروفة ، بدأ صوتي يعلو ، حاولتُ كتْمه ، نجحتُ قليلاً ، قال :

- البقيّة بحياتك ، عاش بطلاً ، ومات بطلاً .

حينها انفجرتُ بالبكاء ، وغبتُ عن الوعي ، واستيقظتُ في المستشفى .

مات من أجل فلسطين ، كلّنا دافعنا عن هذه الأرض ؛ إنّها لنا ولا يُمكن أن نفرّط فيها ، ولو كان عندي أولاد لربّيتهم على أن يتبعوا خُطا

أبيــهم ، أوقن أنّ أباهم مــات بشــرفٍ ، ودافع عن وطنه الأقــدس ؛ ففلسطين وطننا جميعًا .

قالت نعيمة كلّ ذلك في سهرة شاي في الحوش أمام بيتها!!

لم تكنْ تنسَى أن تصعد لنا بفَطور أيّام الامتحانات ؛ تقول : أنتم محتاجون إلى غذاء يحرّك عقولكم ؛ الامتحانات تحتاج إلى تركيز .

تستيقظ في الصّباح ، تعجن العجين ، وتخبز مناقيش الزّعتر ، وإلى جانب هذه المناقيش ، تضع صحنًا كبيرًا من اللبن الرّائب ، وحبّات من البندورة ، والشّاي الحلو . . . كان كلّ شيءٍ مُعدًا لنا بمجرّد أن نفكّر فيه ؛ كانت أمًّا بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى . بل أكثر من هذا ؛ لقد كان الأمر يصل إلى حدّ أن تصعد الدّرج بقوسها لتُوقِظنا حتّى لا نتغيّب عن محاضراتنا أو لا نتأخّر عنها!!

ما الّذي كانت تفعله (نعيمة) معنا؟! لِمَ كانت تهتمّ بنا كلّ هذا الاهتمام؟! أهكذا التّوق إلى ابنٍ تحنو عليها فجّر فيها كلّ ينابيع الرّحمة ، وكنّا نحن المحظوظين بهذاً كلّه؟! أم أنّها تفعل ما تفعل لأنّها ترانا دون أمّ ، وقد عاشتْ حرمانًا مُشابِهًا ، حينَ ماتت أمّها وهي في الخامسة فأرادتْ أن تعوّض حرمانها من حنان الأمّ بإغداقه علينا؟! أم أنّ اعتيادها على العطاء لم يمنعها من الاستمرار فيه رغم تقدّم الزّمن واحديداب الظّهر ، بل أكسبه مستوياتٍ جديدةً من البذل اللامنتهي؟! أم أنّه كلّ ذلك مجتمعًا؟!!

كم كنّا نخجل مِمّا تفعل ، ونتصاغر أمامه ؛ غير أنّ السّؤال الّذي كان يؤرّقنا أكثر من كلّ ما سبق : هل يُمكن أن نردّ لها هذا الجميل؟! وكيف؟!

وصل بطائرته إلى (ناتانيا) ليقصف منشآتها ، تقول وهي ترفع

رأسها بفخر ، ثمّ تسكت وتُطرق في الأرض وهي تُداري دموعًا عبثًا حاولتْ منعها من الانهمار . . . تستعيد رباطة جأشها ، وتحدّق في الفراغ كأنّما تستحضر صورته ، وتتابع :

– كان يحلم أن يكون أوّل طيّار يدكّ معاقل الصّهاينة دون أمرٍ مباشرٍ ممّن هو أعلى منه ؛ هل كان متمرّدًا؟

(تسأل نفسها) ، ثمّ تجيب :

– بلى ، كان كذلك ، ولكنّه لم يكنْ يفعل غير ما يُمليه عليه الواجب ، أحيانًا يُمكن أن يكون التّمرّد فضيلة!!

ما زالتْ (نعيمة) قادرة بعد كلّ هذا العمر على استجلاب طائر الذكرى ، من الأمس البعيد إلى شجرة الحاضر ، هي فَهِمتِ المعادلة : لا يُمكن أن أنساه؟!

– هناك سبيل واحدة للنّسيان . . .!!

– ما هي؟

– أن تتذكّر!!

وهكذا فرّت منه باللّجوء إليه ، وهربتْ من ذكراه بالارتماء بين أحضان هذه الذّكرى ؛ وفي الحالين تُدرك أنّها مُعذَّبة ، ولكنّ وطأة العذاب في استرجاع الماضي أخفّ من الإعراض عن طائره الّذي يأكلُ من طُمَأنينتك في كلّ حين!!

كانت بناطيل (الجينز) لا تفارقنا نحن الخمسة في أكثر الأيّام ، ومع هذا فإنّنا كنّا نلبس القمصان وبناطيل القماش أحيانًا ، وهي – ولم يطلب منها أحدٌ ذلك – تولّتْ مهمّة الكيّ ورتْق ما انفتق ؛ وللمرّة الألف : لماذا؟! وحدها كانت تملك الإجابة ، وأمّا نحن فعَدَدْناها – في الغياب القسريّ – أُمًّنا ، وخفنا من أنفسنا في مرحلةٍ لاحقة ، حينَ

بدأنا نُفضي لها بهمومنا ، ومشاكلنا الصّغيرة أن نكون قد سِرنا في طريقٍ غير صائبٍ في النّهاية!!

كان يحفظ الأرض كما يحفظ النّشيد الوطنيّ ، تمنّى أن ينتهي جسدهُ هناك ؛ الشّرفاء يموتون بصمت ، بعيدًا عن أيّ انتصارٍ موهوم ، أو أوسمة كاذبة . والموت؟! يعرف طريقه إليهم بسهولة؟! لماذا للموت كلّ هذه الأنانيّة؟! لماذا يُباغت الأخيار فيستصفيهم إلى جانبه ، ويستأثر بوجودهم في مَلَكوته ، ويُمهِل الأشرار فيعيشون أطول مِمّا عاشه نوح؟!

وتُنهي هواجسها بالاستغفار ، وتقوم من أجل ذكرى جديدة!!

(٥)
البدِاياتُ الطّيّبةُ لا تُفضي بالضّرورة إلى نِهاياتٍ شَبِيهَة

جامعةٌ أُسِّستْ من أجل أن يكونَ هو رئيسَها!! وأوطان تُساق إلى المذبح من أجل أن يظلّ الّذي سيقتْ له زعيمَها!! من يُنقذ الأوطان وهي تهوي إلى الجحيم بسبب نزواتٍ ساديّة عند حفنة من المَعاتيه!!

أحسّ الرّئيسُ أنّه الحاكم بأمره ؛ وأنّ هذه الجامعة عجينةٌ بين يديه يجرّب فيها كلّ يوم شيئًا جديدًا ، وشكلاً حديثًا . والهدف؟! أن تُنافس أرقى الجامعاتِ في العالَم؟! هدفٌ نبيل ، لكنّ الوصول إليه قد يكون عبر طريقٍ تعسّفيّة ، لا يُدرك الرّئيس حماقَتها إلاّ حين (تقع الفاس بالرّاس)!!

(نائل أبو صبحة) ، لم أحدّثكم عنه سابِقًا ؛ لأنّه برز بغتةً مثل ذئبٍ أقتر في غابة لفّاء ، كانت أشجارها تتراقص بهدوء على ضوء قمرٍ أبيضَ ؛ فأحال ظهورُه المكان إلى فوضى عارمة ، فوضى تغرس سكّيناً في خاصرة المكان ، وتزرع شتلة الحيرة في هدأة النّفوس ، وتتفاقم إلى درجة الانفجار ، ولم يكنْ أحدٌ يعرف – حتّى هو – لماذا تزمجر الكلمات حين يَفُوه بها ، ولماذا تغلي القلوب حين يُزلزِلها بخطابته العالية وصوته الجهوريّ ، كان هو البدء لحالةٍ لا يعرف كيف تنتهي ، ولا يملك توجيه نهايتها!! هو من نوعيّة الطّلاّبِ الّذين إذا حضروا تحضر معهم العواصف ، وإذا رحلوا يجرّون خلفهم جَبَلاً من الكوارث ، وكان

إخوانيًا آخرَ في السلسلة الممتدّة من نابلس إلى عمّان مرورًا بالمخيّمات بينهما .

طويل ، ضخم الجثّة ، كثّ اللحية ، بُنّيّ البشرة ، عريض المنكبين ، يخبّئ خلف هدوئه الظّاهريّ ثورةً عارمة لا يُمكن التّنبّؤ بتوقيت انفجارها ، وخُطاه الواسعة تختصر نصف المسافة لأمثالِنا!! وعيناه؟! كانتا مُسيّجتَيْن بهالةٍ من الهيبة تجعل كلّ من يراهما يقف مشدوهًا!! كان يسكن جبلَ اللويبدة بعمّان ، ويأتي كلّ يومٍ إلى إربد ليلحق بمحاضراته ، وبدأ حياته الجامعيّة في السّنة الأولى بتفوّق عزّ نظيره ، فقد كان الأوّل على دفعته في الهندسة الميكانيكيّة ، وحينَ التحقَ بِرَكْبنا ؛ رسب في نصف الموادّ في الفصل الأوّل من السّنة الثانية ، فنصحتهُ – ولا أدري إن كنتُ ناصِحًا أمينًا يومها – أن يترك عمّان ، ويسكن إربد ، فذلك أكثرُ راحةً له ، وأفضلُ لوقته ، ويستطيع أن يستغلّ الزمن المُختَصر من الذّهاب والمجيء بالدّراسة . وبحكم العلاقة الّتي توطّدتْ بيننا ، وإن كنتُ أكبره بعامٍ واحد ، فقد استجاب لطلبي ، وسكنَ في الحيّ الجنوبي على بعد مئاتٍ الأمتار من البوّابة الشّماليّة .

استدعى العملُ الطُّلاّبيّ فيما بعد أن أزوره في شقّته الّتي يسكن فيها مع خمسةٍ آخرين أكثر من مرّة في الأسبوع ، وأحيانًا في اليوم . ومن هناك تعرّفتُ إلى زميله في الغرفة (صالح جرادات) من الكرك ، ويدرس الإحصاء في الجامعة ؛ صالح يميل إلى القصر ، خفيف الوزن ، لا يسير إلاّ ويداه في جيبه ، وبسمته تشفّ عن أسنان عريضة يركب بعضُها فوق بعض ، وبشرته المائلة إلى السّمرة غضناء ؛ فيها أخاديد ينتشر أكثرها على الخدّين ، وكان صوتُه في النّشيد جميلاً ، وإذا ما احتجنا إلى نبرته فهو عالٍ كذلك ؛ سيصبح أحد الّذين اضطُررنا إلى

حملهم على الأكتاف فيما بعد ؛ وسأخبركم لماذا!!

البدايات الطيّبة لا تُفضي بالضّرورة إلى نهاياتٍ شبيهة ، والحَزم من يدٍ عوراء يهدم ولا يبني ، والنّوايا محلّها القلب ، والعمل لا يكشف عنها في أوّله ؛ قد يحتاج إلى ضحايا من أجل أن يُظهر فساد الطّويّة في نهايته . كم أخطأ المسؤولون في جامعتنا حينَ فكّروا بعقلٍ منفردٍ ، وظنّوا أنّ عينًا واحدة يُمكن أن ترى المشهد من جوانبه كافّة!!

كلّ الزّعماء تتضخّم عندهم (الأنا) إلى الدّرجة الّتي نحتاج فيها إلى تفسيرٍ إلهيّ يُخرجنا من المتاهات ، ويُلقي بنا – بعد أن كدنا نغرق – إلى شاطئ الحكمة ، وينتشلنا بعنايةٍ سماوية من طوفانٍ لفّ أرواحنا حدّ الاختِناق!! ولم يكنْ في هذا الطّوفان جبلٌ يعصمُ من مائه ، ويحمي من طُغيانه ، ويقي من تَغَوُّله!!

بدا الرّئيس مُنتفِشًا ؛ غليونه لا يُفارق زاوية فمه ، وكرسيّه الهزّاز تهتزّ تحته القرارات ، دؤوب الحركة ، كانت الجامعة مقرّه الأخير ، ولكنّها لم تكن الوحيد ، سافر شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا وهو ينتقي الخِبرات ، ويبحث عن الدّرر ، وينقّب عن اللآلئ ، ويَعِدُ وطنه وسيّدَه بمستقبلٍ تعليميّ مُدهِش .

ارتبطتْ هيئته بالغليون ، كان الغليون في السّبعينيّات والثّمانينيّات من القرن المنصرم موضةً يتحلّى بها عِلية القوم ، ويتباهى بها الكُبراء ؛ رأيته مرّات كثيرة يفعل ذلك ؛ سنوات العمل الطّلاّبي المريرة اضطرّتْني أنا ومجموعة قليلة من الزملاء أن ندخل عليه مُتّكأَه ، ونقتحم عليه مكتبه الوثير . ووجهه؟! كان من الوجوه الّتي لا يُمكن أن تُنسَى ؛ لستُ اليوم في معرض الحكم عليه ، بقدر ما أنا مؤتَمنٌ على التّاريخ ؛ تاريخنا نحن ، الّذي كتبْناه بالدّماء والدّموع والحُرَق والآهات ،

وفي النّهاية ماذا ظلّ لنا أو ظلّ منّا ؛ مجرّد ذكريات تطيش على صفحة الزّمن ، قلّما يتوقّف عندها أحدٌ ما ليتلقّطَ منها شيئًا!!

وجهه ؛ لو أخطأتْهُ كلّ العيون فلا يُمكن أن أُخطئه أنا ، حفظتُه غيبًا ، لم أتّخذ منه موقفًا عدائيًّا يومًا واحدًا ، ولكنّها الظّروف الّتي ألجأتنا نحن الأصدقاء – ربّما – أن نقف على طرفَي نقيضٍ في الحياة ، وقف هو – مرغمًا أو بإرادته – في مواجَهتنا ، ووقفنا نحن – مُرغَمين أو بإرادتنا – في مواجهته . ما الّذي يضطرّ الأصدقاء الّذين حملوا الحقيبة نفسها ، ومشوا الطُّرُقَ نفسها أن يفترقوا في النّهاية؟! وأن يولّي الواحد ظهره للآخر متّخذًا طريقًا مُضادًّا؟! ظنّنا أنّ الدّروب مليئةٌ بالورود والرّياحين فاكتشفنا أنّ خلف هذه الورود وتلك الرّياحين أشواكًا مؤذية وأحيانًا سامّة ، لا تظهر بمجرّد النّظر ، بل تُهاجمك عند الاحتكاك ، وعندما تصبح التّفاصيل الدّقيقة في العلاقات الكبرى مهمّة جداً ؛ نعم : عند الاحتكاك اتّقدتِ النّار وأشعلتْ أصابعنا معًا ، وفي النّهاية لم يَفُزْ أحدٌ من الطرفين ؛ خَسِرا معًا ، أو قل : ربحا الخسارة معًا!!

وجهه ؛ لا يعرفه أحدٌ أكثر منّي ؛ حتّى نوابه وعمداؤه ومديروه وسُكرتيراتُه ، كانوا ينظرون إلى موطئ أقدامه وهو يمشي أمامهم كبطريرك ويمشون خلفه كقساوسة ، أمّا أنا فلم أمشِ خلفه يومًا ، ولم أتبع خُطاه ساعةً ، كنتُ أقف في مواجهته وأنظر في عينيه عميقًا ، وأُلجِئه إلى ألاّ يُدير عينيه عنّي حين يُحدّثني!!

وجهه ؛ هُوَ هُوَ ؛ لأنّني تعلّمتُ أنّ أولى خطوات استرداد الحقوق هي النّظر في العيون ، إنْ كانتْ حبيبةً تريدُ استعادة قلبها المُضيَّع عند حبيبٍ فلتنظرْ في عينَيه ، وإنْ كان مظلومًا يريد استعادة حقّه المسلوب عند ظالم فلينظر في عينيه ، فإنّ العيون لا تصمد أمام الحقّ إلاّ ريثما

تتحوّل إليه ؛ العيون أبلغ من اللّسان في الحديث ، ومن اليد في العطاء!!

وجهه ؛ هُوَ هُوَ . . . كان الغليون يرافقه في كلّ مشاويره ، حتّى أصبح جزءًا من هيئته العامّة ، يُمسك به في يده اليُسرَى حينَ يهمّ بالصّعود إلى السّيارة ، وحين ينزل منها ، وحينَ يصعد الدّرج ، وحين يجلس إلى المكتب ، وحينَ يشرب القهوة ، وحين يوقّع الأوراق ، وحينَ يفرغ من الغداء ، وحين يُقابل الطّلاب ، وحين يخرج من المنزل ، وحين يدخله ، لم يكنْ هذا الغليون اللّعين يفارقه إلاّ عند النّوم ، وربّما وضعه تحت مِخدّته لتظلّ رائحته تعبق في أنفه كي يتمكّن من الخلود إلى النّوم بسرعة!!

حجز الغليون في زاوية فمه اليُسرى مكانه المعتاد ، فتشكلّتْ تلك الزّاوية على هيأته ، فبدا أنّ حلقةً صغيرةً فارغة تظلّ مزمومةً حتّى ولو لم يكن الغليون يملؤها ، كان يتناول من الحشوة شيئًا فيدسّه في تجويف الغليون ، يفعل ذلك أربع مرّات أو خمسًا ، في كلّ مرّة يشكّل طبقةً مرصوصةً بشكلٍ جيّد ، ويضيف إليها طبقةً جديدة ، فإنّ كلّ طبقةٍ يُراكِمُها فوق أختها تساوي مُستوىً جديدًا من اعتدال المَزاج ، يفعل ذلك بشكلٍ آليّ وهو يتحدّث إلى جلسائه ، حتّى إذا استوتْ على الجوديّ ، أتاها بالنّار ، فأشعل فيها ، وطاف على أطرافها يتأكّد أنّ النّار مسّتْ كلّ حوافّها ، وأنضجتْ كلّ جوانبها ، ثمّ تلتهبُ الأقباس كأنّها في الطُّور ، فيسحب أنفاسه منها إلى صدره بحنوّ ، فتنسحب معها غمّازتاه إلى الدّاخل ، وتبدأ النّشوة تذرع طريقها إليه . سَحَبات مُتتابعات ، ووقْدُ النّار يلتمع في كلّ سحبة ، حتّى تحترق الذّروة وتتركُ كلّ ما تحتها رمادًا ، وهو في الحالات كلّها يُحافِظ على هذا (البايب)

في الزّاوية اليُسرى ، وينفث ما استجمع من نشوته في الزّاوية اليُمنى ، والجمر يتّقد مع تتابع السّحبات فتنتشر الأدخنة تُتخم المكان برائحتها المُميّزة . كان يفعل ذلك بحركات مدروسةٍ رائعة ، ولا أكتمكم اليوم أنّني كنتُ أتابع ما يفعل مأخوذًا به ؛ فلقد أحببتُ طريقته في التّدخين!!

كان يجمع بين يديه ، ويُطبق أصابعه العشر عليها ، ويرجع بكرسيّه المهتزّ إلى الوراء ، ويُدخل شفته السّفلى تحت العُليا ، ويحدّق في عينيّ ؛ فأعرف حينها أنّه مُهيّأٌ للاستماع ؛ كلّ شيءٍ عنده كان له طقوس ، وحين يختلّ توازن طقسه يُصبح عصبيًّا ، يُنقذه من عصبيّته شيئان ؛ فنجان قهوةٍ من غير سكّر ، وغليونٌ يُخفي ضبابُ نُفاثِه وجهَهُ عن الآخرين ، كأنّه يهرب منهم ، أو يهرب من مزاجه المُعكّر .

كان غموضُه يغلب وضوحَه ، والتوائيّتُه تغلب صراحتَه ، وانطوائيّته تتفوّق على اجتماعيّته ، وخلف صفحة وجهه كانت تختبئ آلاف الحكايا والحالات والتّحوّلات ، حاولتُ أن أقرأه في مواقف كثيرة وفشلتُ ، نجحتُ ربّما أحيانًا في بعض هذه المواقف ، كان هذا النّجاح يعني تجاوز طامّة يُمكن أن تحدث ، وعندما وقعت الواقعة ، بعد قراءةٍ خاطئةٍ للوجه ؛ اكتشفنا أنّ الخسارة كانت على مستوى الوطن ، وأنّ المصيبةً كانت أكبر منّا جميعًا ، واكتشفتُ أنا شخصيًّا أنّ الوجوه كتبٌ ليست مفتوحةً دائمًا ، وأنّه إن قرأتَ منها كتابًا واحدًا فقد فاتتكَ مئاتٌ أخرى ، وإنْ قلّبْتَ منها صفحةً ، فإنّ آلافًا من هذه الصّفحات ما زالتْ مَطويّة . ولا تنهار الكتب من العينين إلاّ عندما تهتزّ الثّقة في الأعماق ، عندها تتدحرج رفوف الكتب على رؤوس قارئيها ، وتبدأ بأقربهم إليها ، ثمّ تطمر تحتها كلّ شيءٍ!!

نظّارته الخفيفة ، بزجاجها الشّفّاف ، وإطارها الرّقيق ، كانت تُبدي عينيه كما هما واضحتَين تمامًا ، ولولا أنّني أهوى النّظرة بعد النّظرة لما اكتشفتُ أنّه يلبس نظّارة بالأساس ، غير أنّ محاولته لإخفاء وجود نظّارتين تُحيطان بعينيه كانت تنكشف حين يخفض رأسه من أجل أن ينظر في مطلبٍ من مطالبنا ، أو يوقّع على ورقةٍ من أوراقنا .

حينَ يبتسم – ونادرًا ما رأيته يفعل ذلك – تبتسم عيناه قبل شفتيه ، ولولا أنّ عينَيه تُوحِيان بتلك الابتسامة ، لخالفتْ ظنّك الشّفتان فاعتقدتَ أنّه غاضب . لم يكنْ كرسيّه الهزّاز موطنه الأثير في مكتبه الوثير ، لقد كانت هناك مساحات واسعة في المكتب لا يحتلّ الأثاث شيئًا منها ، كثيرًا ما كان يقوم من كرسيّه ، ويطوف بالفراغ في مكتبه ، ينقل خطواته بهدوء ، وهو يرمي ببصره إلى الأرض ، ويضع يده على ذقنه جاعِلاً من إصبعيه السبّابة والإبهام حلقةً تُحيط بتلك الذّقن ؛ كان يفعل ذلك حين نُلجِئه إلى قرارٍ صعب أقسمنا على أنفسنا أنْ ننتزعه من أجل زملائنا . تبدأ خطواته بطيئةً ، ثمّ لا تلبث أن تُسرع ، وتصبح الدّائرة أضيق فيدور على نفسه بعصبيّة واضحة ، ثمّ لا يلبث أن يرفع رأسه ويتوقّف عن ذَرْع المكان ويعود إلى مكتبه ؛ فنعرف حينها أنّه قد اتّخذ القرار لصالحِنا ؛ ومنْ قال إنّه لم يكنْ معنا في كثيرٍ من الأحيان!!

بَدْلتان رافقتاه أكثر من غيرهما ؛ الزرقاء الغامقة قليلاً ، والبُنّيّة المائلة إلى لون التّراب قليلاً ، ولم يكنْ يهوى كثيرًا وضع ربطة العنق فوق قميصه ، كان أنيقًا ، ودقيقًا ، وبرجوازيًا ، وعمليًّا من طرازٍ فريد . ومازالت صورته منطبعةً في ذهني وهو يقف ببدلته البنّيّة ، واضعًا يده اليمنى في جيب البنطال ، وقابِضًا بيده اليسرى على غليونه ، وقد

رفعـها حـتى وازتْ ياقـة القـميص ، لكنْ من دون أن يمارس هوايتـه في نفث كل ما في صدره في وجهنا نحن أبناءَه ؛ أبناء جامعته!!

مـشكلة المسـتـقبل أنّه لا يُمكن أن يكون خلفك أبدًا ، ولا حـتّى بجـانبك ، لو كـان كـذلك لحـاولنا أن نتنبـأ بما يُمكن أن يحـدث بمجـرّد التفـاتة بسيطة إلى الوراء ، غير أنّ هذا المستقبل يسبـقنا مختبـئًا خلف جبال الغيب ، ولا يظهر إلاّ عندما نتخطّاه أو يتأخّر عنّا . هل كان بمقدور الواحد منّا – بعد كلّ هذه السّنوات – أن يعرف على أيّ دربٍ ستنتهي الأمور ، وفي أيّ صحراء أو سماء ستحطّ أقدارُنا؟!

(٦)
هل الحُبُّ يَتراكَمُ على الفُؤادِ بِطُولِ العَهْدِ !!

ساحرةٌ في اللّيل ، تشدّني نحوها بجاذبيّة غامضة ، أجد نفسي مأخوذًا بعشقها ، كأنّ شيئًا ما فيها يُناديني ، وأنا ذلك المسكين الّذي انفتح قلبه على العشق دفعةً واحدةً!!

على الجسر ؛ الّذي تحوّل فيما بعد إلى رمزٍ للكراهية ، أقف في طابورٍ طويل من أجل أن أعبر الضّفّةَ إلى الضّفّة ؛ معاناة الجسر نقطةٌ في بحرِ المعاناة المتّسع ، وخطوة في هذه الدّرب الطّويلة .

دولتان ، وتفتيشان ، وزيّان عسكريّان ، أحدهما يقول لك : ارحل ولا تعُدْ ، والآخر يقول لك : خُذ (ملوخيّاتك) وارحلْ . وفي الحالين رحيل ، وكلٌّ يُرَحِّلنا ؛ نحن الهمَّ المُتخثّر في القلب إلى دولة الآخَر ، وأنا؟! كان لا يُعجبني الرّحيل إلى أيّ جهة ، فاخترتُ أن أعيش على الجسر!!

وأصلُ إلى إربد ؛ حبّةِ القلب ؛ كانت عشقًا قديمًا لكنّه مؤجّل ، ظلّ في الأعماق نائمًا حتّى استيقظَ هنا ؛ هل كنّا نحن أبناءَ الجبل مُتلهّفين إلى سهولٍ لا تصعد في الوجه بالنّار ، أم توّاقين إلى الأرض التي تنبسط أمام القلب كأنّها صفحة الغيب الحُلو المرقومة بالأحلام الشّذيّة ، كانت إربد تنفتح على المُطلق فنحسّ أنّ آفاقًا جديدةً تتشكّل ، وأنّ زمنًا قادِمًا ستشعر الأزمان السّابقة كلّها أمامَه بالتّصاغر .

والمُطلَق هنا حالةٌ كائنةٌ لا مُتَخَيَّلة!! هل الحبّ يتراكم على الفؤاد بطول العهد؟! أم أنّه يتشكّل جنينًا يكون التّقادُم كفيلاً ببعثه إلى الحياة ، ونحن مَنْ يرعاه بعد ذلك أو يقتله!! مُخطِئون أولئك الّذين قالوا : الحبّ من أوّل نظرة ؛ على الأقلّ في حالتي لم يحدث هذا ؛ في أوّل يوم قدمتُ فيه إلى إربد ، بعد رحيلٍ مرٍّ ذرفتْ فيه أمّي دموعًا مُضاعفة ، شيّعني أنا وأخي المُقاتِل إلى المجهول ؛ كانت الشّمس تأذن بالمغيب في آخر شهر آب ، تلقّاني خالي الّذي يسكن هنا عَزَبًا منذ سنواتٍ ، كنتُ مصابًا بنزيفٍ داخليّ يُسمّونه الحنين ، تلقّاني خالي بعبثيّةٍ فجّة لم أتعوّدْها ؛ خالي البوهيميّ ، عاش على أطراف الفقر والجنون ، مكثتُ عنده ليلةً واحدة ، ولم أُطِق أن أعيش عنده ليلةً أخرى ، فرجَوتُه أن يبحث لي عن شقّة أسكن فيها مع طلاّبٍ آخرين في الجامعة ، فإنّ أبي قد ادّخر نقودًا قبل أن يرسلني إلى هنا تكفي لأن أستأجر شقّة وحدي ، ولكنّي أريد أن أتعرّف إلى الشّباب هنا ، نظر خالي إليّ بلا مبالاة ونفث من زاوية فمه دخان سيجارته ، وقال :

– مع مؤمنين ولا كُفّار؟!

– أعوذ بالله . طبعًا مع مؤمنين!!

– مَعناتو مع (وصفي طلب) ؛ أحسن مؤمن في الأردنّ من شمالها إلى جنوبها .

– من بُكرا دِلْني عليه!!

في الليل ؛ جسدها الغَضّ ليس جسدًا طينيًّا ؛ إنّه هابِطٌ من السّماء ، إنّه الجسد الّذي هبط مع آدم فمسّتهُ النّجوم ، وطيّبتْهُ الشّهب ، وعمّدتْهُ الكواكب ، ونسّمتْهُ الرّياح ، ثمّ جاءَ إلى هنا مُكتمِل الجمال والجلال .

عُقدة الجسر ظلّتْ ترافقني أنا وزملائي القادمين إلى هذه المدينة الهادئة من أجل الدّراسة ؛ إربد ليست مدينةً ظاهرة الجمال ، إلاّ أنّها فائقة الرّوعة ، هناك بعض المدن تستقبلك بروحها لا بجسدها ، وتفتح لك نافذةً على الجمال من قلبها المُترَع بالحبّ ، حينَ تحتضنك مدينةٌ على بساطةِ بيوتها فهي تحبّك ، وحين تبتلعك أخرى ببناياتِها الشّاهقة وشوارعها الصّاخبة فهي تكرهك ، كان يكفي في إربد أن تبتسم في وجهك زيتونةٌ على جانب الطّريق ، أو نخلةٌ في جزيرةِ شارعٍ حَيويّ ، أو فتاةٌ ترمي بطرفها السّاهم بعيدًا عنك حين تلتقي العينان!!

عُقدة الجسر لا تبتدئ بنا ؛ ربّما تنتهي بنا ، عقدة الجسر تتمثّل في الحكايا الّتي تعود إلى حوالي عَقدين من الزّمان ، حين كان خشبيًا ؛ وقيل إنّهم استبدلوا به جسرًا إسمنتيًّا ؛ لأنّه أقدر على تحمّل الآهات والدّموع والآلام الّتي عاناها مَنْ عَبَر فوقه بعد هزيمة ١٩٦٧ . الخشب يرقّ للدّموع الّتي تتساقطُ فوقه ، والحجر يرقّ للكلام الّذي يتنزّل عليه ؛ وفي حالة آبائنا فإنّهم عبروا هذا الجسر صامتين إلاّ من الدّموع الّتي كانوا ينزفونها . ولّما مادَ الجسرُ بِمَنْ فوقه ، وتفاقمت المُصيبة ، رأفوا به ؛ فبدّلوا به إسمنتًا بَليدًا!!

إنّه الجسر الّذي كان يُفتَح ويُغلق بكبسة زرٍّ واحدة من مسؤول هنا أو هناك دون إبداء أيّ سبب ، ضاربًا بعُرض الحَائط كلَّ المصائب الّتي تحطّ على رؤوس العالِقين فوقه!! وحينَها ؛ حينَ نَعلَق هناك ؛ يصبح الجسر وطنًا!! هل رأيتم في كلّ أصقاع العالَم بشرًا يتحوّل فيها الجسر عندهم إلى وطن!! بلى ؛ نحن . نحن الّذين تناوشتْنا الجسور والمرافي والمنافي ، وتناهشتْنا الطّرقات ، وظلّلتْنا الدرّوب الجافّة ، وضيّعتْنا الضِّفاف ، ولفظتْنا حتّى الصّحارى القاحِلة!!

خالي ظلّ – لزمنٍ ليس باليسير – يُحاول أن يُقنعني أنّ الحياة هي عبارةٌ عن جسر ، وأنّنا الآن عالِقون فوقه ؛ وكان يقول لي : انظر إلى الأمر بشكلٍ إيجابيّ أيّها الأبله ، أنتَ تحسب أنّنا نُعاني ، لكنّنا نعيش اليوم أجملَ المراحل المُمكِنة ؛ وسيأتي زمانٌ تترحّم فيه على هذه الأيّام ، وكان يختم نصائحه المُتدفّقة بالعبارة ذاتها : أنْ تَعلَق فوق الجسر خيرٌ لك من أنْ تعبره ؛ فالجحيم ينتظرك على الطّرفَين!!

شارعها الّذي يبتدئ من البوّابة الشّمالية كان عمودَها الفقريّ ، أتسلّل إليه في اللّيل ، أصافح الحرّاس على الباب ، يعرفونني جيّدا ، يَدَعونني أدخل دون أيّ سؤال ، ويطمئنّون إلى سَمْتي الّذي ظلّ هادئًا حتّى جاء من يقلبه رأسًا على عقب . أدخلُ عاشِقًا من دون عشيقة ، أتمشّى على ضوء الأعمدة الخافت ، فالأصفر الّذي ينبعث منه ، كان يُهيّج مُحيطات الحُزن في أعماقي ، لا أدري لماذا كانت الأضواء الكَسولة القادمة من تلك الأعمدة تجرحني ، تمسك أزرار قميصي ، تفتحه ، وتتغلغل في مساماتي ، وكنتُ أعشق الحزن الّذي يثور حينما يلبس ذلك الضّوء جسدي بالكامل ، أضع يديّ في جيبي ، وأمشي . . . أظلّ ماشيًا على أمل ألاّ ينتهي الشّارع ويمتدّ إلى الأبد ؛ حتّى تمتدّ مواجعي المُشتهاة إلى الأبد كذلك ، إلاّ أنّ الدُّوّار الّذي يحمل شِعار الجامعة في نهايته يقطع أمامي هذا الأبد ، فأتفاجأ من وجوده في كلّ مرّة ؛ مع أنّني مشيتُ في الشّارع نفسه عَشَرات المرّات من قبل!!

كنتُ أسير في هذا الشّارع الخالي إلاّ منّي لأربع ساعاتٍ أو خمس ، والحَرَس ينظرون إليّ من بعيد «وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ» ؛ وحينَ يلسعني البرد في بعض اللّيالي أزداد التِصاقًا به ، وأرفع رأسي

إلى الأعلى قليلاً ، وأشتمّ نَفَسًا طويلاً ، وأضَنّ به أن أُخرجه ، كنتُ أريد أن أملأ رئتيّ من هواء هذه الجامعة حتّى يبقى معي ما تبقّى لي من عُمرٍ هنا ، فمَنْ عَرَفها كما عرفْتُها فإنّه لا بُدّ أن يقع في حُبّها!!

عَمّ أبحث في هذا المدى الممزوج بالخيبة؟! وبِمَ أفكّر في هذا الخِضمّ المزروع بالوحشة؟! هل كان القلب خاليًا قبلَها ووافقَ من حبّها قدَرًا فامتلأ بها؟!! أيّ جامعةٍ يُمكن أن يكون لها هذه السّطوة على عُشّاقها؟! لماذا كنتُ أُتعب نفسي باللّهاث في شوارعها خلف المجهول؟! وأيّ مجهولٍ كان ينتظرنا والحياة ما زالتْ حَرِيّةً بأن تُعاش ، وجديرةً بأن تُعشَق ، ونحن صِبْيتُها الواهمون ، وأطفالها الحالمون؟!!

على جانبَي الشّارع وقفتْ أشجار السَّرو الّتي يقطعُ اتّصالَها قيامُ كلّيّةٍ أو مكتبةٍ أو كافتيريا . أمّا الجزيرة الّتي تمدّ قناتَها في وسط الشّارع فكانت لا تسمح لأحدٍ أن يُوقف امتدادَها العذْب ؛ وفي حوضها سَمقتْ أشجارُ النّخيل بقامتها العالية ، وبسَعَفها الّذي لا يُثمر إلاّ الحُنُوّ ، ولا يَلِدُ إلاّ الرّضى . وأمشي ، وتظلّ هذه الأشجار تمشي إلى جانِبي كأنّها تعوّضني عن حبيبةٍ مُتوقّعة ، أو معشوقةٍ مُنتَظَرة ، تمدّ السَّعَفاتُ أيديَها حتّى يُطامنَ طرفُها هامتي فأشعر أنّها يدُ أمٍّ سكبتْ من ندى عطْفِها على أبنائها ، ففاضت النّفس بالطّمأنينة!!

في ليالي المشي الخالدة حفظتُ الطّريق كأنّها قصيدةٌ لشاعرٍ مفجوع ، ورسمْتُها في خيالي كأنّها لوحةٌ لرسّامٍ موجوع ، وظَلِلتُ أمشي بلا هدف ، ولا غاية لسنةٍ كاملة قبل أن يُوقفَني تيّار الإخوان الّذي جَذَبني إلى دوّامته بالعمل حتّى أنساني نفسي!!

لا شيءَ يبقى هادئًا ؛ الحياة تكتسب جمالَها حين تتخلّى عن الهدوء ، وترمي بالسّكون خلفَها . ولولا دوران الأرض وحركتها

السّرمدية لما رأينا الشّمس ، ولولا إرسال الشّمس خيوطها الذّهبيّة لما انبثقت الحياة في الكائنات . وحينَ نكون في الطّريق الغامضة لا يُمكن أن نلتقط منها الكنوز المُخبأة إلاّ بالحركة ؛ الحركة هي الحياة ، والسّكون هو الموت ، ونحن؟! كنّا ننتظر الحركة القادمة ، ولكنّنا لم نكنْ ندري أنّها ستبدو مُرعبةً بشكلٍ سافر!!

(٧)
لا وقتَ للحُبّ.. ولا حياةَ بِدُونِ حُبّ..!!

نائلِ أبو صبحة ، تعالَ ؛ أريد أن أعقدَ معك اتّفاقًا :

أوّلاً : لا وقتَ للحبّ!!

ثانيًا : لا حياةَ بدون حُبّ!!

ثالثًا : نختار الحبّ أم يختارُنا؟! هو يختارنا ؛ فاتركْ ضَخامة جَسدِك لسلامةَ قَلبِك .

رابعًا : مادّة ميكانيكا الموائع ميّعتْ لي عقلي ، انفلتُّ من بين سوائلها اللّزجة بصعوبة ، ربّما تحتاج جسدًا ثابتًا مثل جسدك من أجل أن تستقرّ عند قدميه!!

خامسًا : أريد أن أعترف : قد يوجعني أن أحبس الكلمات في أعماقي ، فلا أنثرها بين يديك ، ولكنْ يوجعني أكثر أن أقولها على مذبح الحقيقة ؛ أنا أكثر من مُتيَّمٍ يا صديقي!!

سادسًا :

مَشَيْناها خُطًا كُتِبتْ علينا

ومَنْ كُتِبَتْ عليه خُطًا مَشاها

هذا الاتّفاق تمّ من دون أن يدور حديثٌ بيني وبين (نائل) ، تمّ في عقلي فقط ، حاورتُ عددًا كبيرًا من الأصدقاء بهذه الطّريقة ، وعقدتُ اتّفاقات مطوّلة بيني وبينهم دون أن أعطيهم حقّ القبول أو الرّفض ؛ أنا

صاحب المخيلة الواسعة ، وحريّتي في تشكيل شخوصها يعنيني وحدي ، ولا يملك أحدٌ أن يُحاسبني على ما أفكّر فيه ، لا شريعةَ في السّماء ولا في الأرض تفعل ذلك!!

المختبرات في الجامعة هي عجائزُ شُمْطٌ مَلعونة ، لا تتقن سوى شتم كلّ مَنْ تراه ، أو من يدخل إليها . قاعاتها عالية الأسقف ، وطاولتها الممتدّة بشكل متّصل في قلب القاعة تنبعث منها روائح فاسقة . كانت تقع في طَرَف قصيّ من الجامعة ، مُحاطة بالأتربة من كلِّ جهة ، وتخلو ساحاتُها من أيّ نبتة تدلّ على أنّ الحياة كانت موجودةً هنا ، ندخلها من أجل أن نسير خُطوةً أخرى إلى الأمام في مشوار الدّراسة ، وندرك بعدها أنّنا مشينا خُطوتين إلى الوراء في مجال الحياة!!

كانت الخامسة مساءً حين أردتُ أن أرتاح قليلاً في الكافتيريا من عناء يوم دراسيّ شاقّ ، لم تكن مكتظّة إلى الدّرجة الّتي تضطرّ فيها الأجسادَ إلى الاحتكاك من أجل العبور ، دفعتُ ثمن وجبة من أرزّ ودجاج ، وجلستُ في إحدى الزّوايا وحيدًا ، قتلني أن أجلس في هذا الرّكن القصيّ من دون أنيس ، تمنّيت لو أنّ خالي الّذي اتّخذ من الكافتيريا محلّ إقامة دائمًا له أن يكون موجودًا ويبدأ بإلقاء حِكَمه وفلسفاته عليّ ، فهي وإنْ كان فيها شيءٌ من الجنون وقليلٌ من المنطق ، إلاّ أنّها تُثير في النفس شيئًا . حانت منّي التفاتةٌ إلى الطّرف الآخر من الكافتيريا ، فبدا لي (سميح عبابنة) يجلس مع خمسةٍ آخرين ، وبدا أنّ الموضوع الّذي يديران دِفّة النّقاش حوله مُهمًا ، إذ اقتربت الرّؤوس من الرّؤوس ، وراحت بعض العيون بحركةٍ ساذجة تحاول إخفاء طبيعة النّقاش بتمويه الآثار للمارّين من جانبهم .

لم يعد المشهد بعد ذلك مُهمًّا أو خطيرًا ، تكرّر عشرات المرّات دون أن يحسّ أحدٌ أنّ تقارب الرّؤوس يُمكن أن يعني قنبلةً من الحركة سوف تنفجر في ساحة السّكون ، بدت المياه راكدةً أكثر من اللازم ، وبدا أنّ القدود المائسة ، والعيون النّاعسة ، قد استحوذتْ على كلّ شيءٍ!!

كان مشهدًا مألوفًا أن ترى الطّلبة يلبسون بناطيل الجينز أو بناطيل (الشارلستون) القديمة ، وينتعلون الأحذية ذات الأطراف المدبّبة ، وينسدل البنطال على الأرجل ماسحًا كلّ عضوٍ في طريقه ، ضائقًا بكلّ علوّ ، حتّى إذا هبط فَوازى القدمين انفتح من كلّ جانب ، والمشي ببنطلون (الشارلستون) له طريقةٌ خاصّةٌ ؛ والهدف من وراء كلّ حركةٍ في الكون : لفتُ الانتباه ؛ نحنُ هنا!! وكان (الشّارلستون) إحدى هذه النظريّات المُطبّقة عمليًا .

أمّا القمصان فانتشرت الألوان الصّارخة ؛ الأصفر الفاقع ، والأحمر القاني ، والأخضر اليانع ، وأحيانًا مزيجٌ من هذه الألوان يزيدها حدّة في القلب والعين معًا ، وفي أعلى القميص ، ياقةٌ واسعةٌ عريضةٌ لو انفردتْ أمام وجهِ لابِسها لغطّته ، ولا بُدّ من انفتاحٍ من الأعلى يكشف – غالبًا – عن غابةٍ في الصّدر تحتاجُ إلى راعٍ أو قطيع!! والغرض؟! ألم أقل لكم : لفت الانتباه!! ولكنّ القلب لا يلتَفتُ إلاّ إلى الجميل ، الآخذ بالألباب ؛ فهل كانوا يعتقدون في هذا جَمالاً!!

إنّها ما تبقى من موضة السّبعينيّات ، زحفت إلى الثّمانينيّات ، ولكنّها لم تتغوّل عليه ؛ إذ كان عهد الثّمانينيّات هو عهد (الجينز) بلا مُنازِع ، وكان للجنسين ، لم يسلم من هيمنته أحدٌ ، وفي حالة الصّبايا أظهرَ أكثرَ مِمّا أخفى ، وباح أكثر مِمّا كتم ، وجسّدَ أكثر مِمّا مَوَّه!!

أيّها الرّئيس : سؤال ساذج ؛ هل تظنّ نفسكَ رئيسًا للدّولة؟ أنتَ ما زلتَ في الأربعينيّات من عمرك ، فَلِمَ تتصرّف كأنّك تملك هذه المزرعة منذ خمسة قرون؟! هوّن عليك : لم نكنْ يومًا رعاياك ، ولن نكون . ولسنا أحجارًا تتحرّك على رقعة شطرنجك ؛ تُضحّي بالجنود ؛ بالمئات منهم ، من أجل أن تسلمَ لك القلعة ، أو أن يظلّ الوزير بجانبك يُغطّي أذنيك اللّتَين لم تتعوّدا غير عبارات المديح ، ولم ينصبّ فيهما غيرُ قيح النّفاق . لم نلتقِ إلاّ لأنّ أقدارًا عُلويّة شاءت لنا الزّمان والمكان ، فاَجتمعت فيهما الأقدام ، غير أنّ الحقيقة الّتي أدين بها حتّى هذه اللحظة : نحن حدثٌ عابرٌ في حياتك ، وأنتَ حَدَثٌ عابرٌ في حياتنا ؛ وفي النّهاية لنا في الرّحيل عبرةُ الماضين والآتين ، نحنُ سنرحل وأنتَ سترحل ، ولن يبقى غيرُ أطيافنا الّتي تُشفِقُ من أعمالنا خلفَنا!!

أيّها الرّئيس : عذرًا ؛ قد نكون حَدَثًا عابرًا في حياتك ، ولكنّنا اكتشفنا أنّك لم تكن حدثًا عابِرًا في حياتنا!!

فما الّذي حدث؟!!! وما الّذي جعل الكوارث مِن بعدُ تتوالى حتّى تراكمت على القلوب فصدّعتْها ، وجعلتْها قاعًا صَفْصفًا!!!!

قرّرَ الرّئيس في الفصل الأوّل من العام ٨٤/٨٣ الدّراسيّ أن يضع خطّة دراسيّة جديدةً ، يرفع بموجبها المعدّل التّراكميّ إلى (٧٠) وعلامة النّجاح إلى (٦٥) ؛ كان الهدف الأوّل من هذه الخُطّة المُباغِتة أن يرتقي بمستوى الجامعة ، ومن تقويمها حتى إذا قيستْ إلى زميلاتها في الغرب وأمريكا تقدّمتْ عليهنّ ؛ هدفٌ كان سيكون في مكانه لو كانت المقدّمات لا تفضي إلى النّتائج المبنيّة عليه ؛ فهل نظر الرّئيس إلى سياسات القبول في البداية ، وإلى عُقَد بعض الدّكاترة في ترسيب

الطّلاّب ، وإلى ظروف مَنْ كان يدرُس فيها من شتّى أصقاع العرب!!

أطلق الرّئيس صاروخ القرار على رؤوس الطّلبة المساكين ، فسقط في الحال ٤٠٠ قتيل ؛ نعم ؛ كان سيُطرَد بمجرّد جرّة قلم من الرّئيس هذا العدد الّذي يُكافئ عُشر الطّلاّب حينئذ ، ومضى الرّئيس في قراره غير عابئٍ بما يجرّه من ويلاتٍ على الطّلاّبٍ وأهاليهم ، وكان سيجد (٤٠٠) طالبٍ أنفسهم في الشّوارع لو لم تحدث انعطافة في تاريخ الحركة الطّلاّبيّة في الجامعة كان لها ما بعدها .

ثار الطّلاّب على القرار ، وعلى الفور تظاهروا في السّاحات والميادين وعملوا على إسقاط القرار ، ولم يكنْ حجم الطّلاّب كافيًا ليفهم الرّئيس السّبب من وراء هذه الحراكات الطّلاّبيّة الّتي رآها مريبة وغريبة وجديدة على قاموسه ؛ ظلّ يظنّ أنّه ما دام يَصِلُ الليل بالنّهار من أجل رِفعة الجامعة ، وما دام لا يرتاح من نهارٍ طويل إلاّ ليفكّر في الخطوة التنمويّة القادمة ؛ فإنّه يستحقّ الشّكر والإشادة ، لا التّظاهر والمشاغبة . . . وظلّ – على عادته – يُرجع كرسيّة الهزّاز إلى الوراء ، ويميل برأسه ناحية الشّبّاك لينظر إلى حشود الطّلبة المُتجمهرين أمام مبنى الرّئاسة ، وهو يتوقّع أن ينفصل عن هذا الجسم الطّلابيّ الكبير مجموعةٌ ولو كانت صغيرة فترتقي دَرَج الرّئاسة اللّولبيّ وبيدها شتلةٌ من الأزهار الملوّنة الزاهية ، وتطرق عليه باب مكتبه دون أن توقفهم السّكرتيرات ، ثمّ تنحني هذه المجموعة بإجلالٍ أمامه ، وتقدّم له ورود الطّاعة . ثمّ تواضعتْ مخيّلته قليلاً ، فتمنّى بدل أن يصعد الطّلبة الدّرج ، أن تنبري مجموعة والأفضل أن تكون من الصّبايا ، فترمي جهة المبنى ، أو جهة مكتبه وردةً بيضاء من هنا ، وتلويحًا باليد عرفانًا من هناك . لكنّ أيًا من ذلك لم يحدث!!

استمرّت اعتصامات الطّلبة ومسيراتهم أسبوعًا كاملاً ، كان (وصفي طلب) وقودها الأكثر قابليّة للاشتعال ، والأكثر ديمومة . هذا الرّجل لا يكفّ عن الصّراخ العالي والهتاف الهادر . في البيت كان يفعل ذلك في خضمّ نقاشاته الطّويلة معنا أو مع زوّاره ؛ فكيف هنا؟!

كان يخبّئ في غرفته أدوات ثورته ؛ الحزب أمّنه بكلّ شيء يُمكن أن يجعله رأس حربةٍ في لعبة غير مضمونة النّتائج . تحرّك وخلفه قيادات الصّفّ الثّاني ، غرفته الّتي تلاصِق غرفتي كانت لا تنام ، يظلّ مع الرّفاق وهم يُخطّطون بهدوء ، ويُتمّمون دورتهم بتأنٍّ حتّى يأذن الصّباح بالقدوم ، وفي الصّباح يتحوّلون إلى جمراتٍ ملتهبة بعد أن كانوا قد ملؤوا قلوبهم بالنّار .

تضيق غرفته بالثّوريّين ، فيحتلّ غرفتنا أنا و(سِراج) دون أن يطلب منّا إذنًا بذلك ، يفتح الباب عليها ، ويمدّ الفَرْشات على الجانِبَين ، ويهمس في أذني : (مساعدة من أجل العمل الطّلاّبي المشترك) ثمّ يُبعِد رأسه قليلاً عن أذنيّ ، ويعود إليها مرّة أخرى هامِسًا : اصنع لنا شايًا ؛ (مساعدة من أجل العمل الثّوريّ المُشترَك) . ربّما يأتي يوم وتكون رفيقًا معنا ، سيكون ذلك اليوم يومًا جميلاً بالنّسبة لي ؛ لأنّني أنا الّذي سأكون مسؤولاً فيه عنك ؛ وحينها سوف آمرك أن تصنع الشاي والقهوة ، وربّما آمرك أن تُعِدّ العَشاء أمرًا ، لا طلبًا مؤدَّبًا مُصطنَعًا كما هو الحال الآن!!

نحن لا نحمي أنفسنا من السّلطة بحسنِ الظّنّ في ديمقراطيّتها ؛ في العالَم كلّه لا يوجد إلاّ نوعٌ واحدٌ من الدّيمقراطيّة : إنّها ديمقراطيّة البنادق ؛ حينَ يتخلّى الحقّ عن القوّة يجترئ عليه كلّ باطل ؛ إذا أردتَ أن يظلّ الحقّ واقِفًا على قدمين فضعْ على كتفه بندقيّة ؛ هذا ما كان

يؤمن به (وصفي) وحزبه وكثيرُ مِمّن تَبع ؛ وفي النّهاية اكتشفتُ أنا وجماعتي ذلك!

حمله أحدُ رفاقه على الأكتاف ، ووقف به وسط حشود التفّتْ حوله من كلّ جهة ، وراح يُطلِق أعيرته النّاريّة عبر السّمّاعة اليدويّة الّتي يحملها في يده :

يـــــا مَجْلِـسِ الجامْعَةْ بَدْنا حُــــجّةْ دامْغَةْ
كِيفْ بِتْوافِــقْ عَ القَــرارْ وبِتْشعِّلْ في قلبي النّـارْ
هَا القَــرارْ وَصْمِــةْ عــارْ فـــــي جَبِينِ الجامْعَةْ

وخلفه يسيل طوفانُ الهتاف ، وطوفان البشر . وأدرك أنا أنّ الحقّ لا بدّ له من رِجال ؛ وأنّ الفكرة لا بدّ لها من مادّة تُحولّها من نظريّة إلى واقع ، وأنّ الإيمان لا يصدّقه إلاّ العمل . وأنّنا في نهاية المطاف نتحرّك بدافع من غرائزنا التوّاقة إلى الأفضل ، وبدافعٍ من أحلامنا المنبثقة من فطرة الحريّة!!

وما الحـرّيّة؟! ما تلك الّتي بيمين الله وتفعل فينا كلَّ ذلك؟! أليست الحرّيّةُ «فطرةَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها» منذ بدء الخلق ، فإذا ما خبا وَهَجُها تحت رماد العبوديّة ، جاء جمر الإرداة ليبعثها من جديد؟!

وما الحرّيّة؟! أن ترى ما تريد ؛ زرقةَ السّماء في الصّباحات الصّيفيّة ، وزمجرةَ الأفق في اللّيالي الشّتويّة ، واخضرار الحقول في الضّحَوات الرّبيعيّة ، وعُري الأشجار في المساءات الخريفيّة ، وبَحْرُ الشّوق «يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِه سَبْعَةُ أَبْحُر» من هُيام . وأنتَ؟! أنتَ كما تشتهي ؛ تجلس على حافّة الانهيار محاولاً التّخلص من عبثك الطّفوليّ ، وتمشي بلا هدفٍ في طريق التّوق اللانهائيّ ، تمشي وتمشي

دون أن تدري لماذا؟! بعضُ ما نقومُ به يظلّ سؤالاً مُعلّقًا ، ويظلّ جميلاً ما دام مُعلّقًا ، فإذا أجابت عنه الأقدار سقط . والحبُّ الّذي لم تستطع تفسيره في كلّ مرّة ، قد ينجح هذه المرّة ؛ الحبّ جنون ؛ فإذا دخله العقل فسد ، وتحوّل إلى سذاجةٍ تنتهي بندمٍ لا يزول!!

كان هذا الطّوفان قادمًا من الجحيمِ ذاته ، فتحوّل إلى بركان انتفضت به جَنَبات الجامعة ، وسار هذا الطّوفان يمخر الطّرقات إلى مبنى الرّئاسة ، فتنضمّ إليه على الجانبين روافد لم نكنْ نحسب حسابَها ، لكنّها آمنتْ بنفسها وبقدرتها على أن تُغيّر ، وآمنتْ أنّ الحقّ لا يُمكن أن يضيع إذا وجدَ خلفه جموعًا ثائرة .

في اليوم الرّابع رأى الرّئيس الطّلبةَ من شبّاك مكتبه وهم يرفعون يافطات تُندّد به وبمجلس عمدائه ، وبطاركته ، وقساوسته ، وشيوخه ، ومُفتيه . وفي اليوم الخامس رآهم يرمون مكتبه بالبيض الفاسد بدل أن يرموه بالورود ، ويلوحّون بالعصيّ غضبًا ، بدل أن يلوّحوا بالأيدي عرفانًا وشكرًا ؛ فابتلعتْه الدّهشة ، وراح يحدّق طويلاً في المشهد الغريب أمامه ، ويضيّق عينيه ليتأكّد أنّه يرى ما يرى في الواقع ، وأنّه ليس حلمًا ، وفي غمرة تحديقه هذه ، وذهوله بالمشهد ، طارت نحوه بيضةٌ فاسدة ، فشدّه وهو يراها تشقّ الفضاء باتّجاهه ، ولم يلبث أن تراجع إلى الوراء ليتّقي إصابتها له في وجهه إصابةً مباشرة ؛ المسكين نسي أنّ زجاج نافذة المكتب يقف حائلاً بينه وبين البيضة ، فاصطدمت بذلك الزّجاج وسال أصفرها عليه بقعةً كبيرةً في البداية لم تلبث أن تشعّبتْ في خطوط صغيرة ، نفض الرّئيس رأسه ليُوقظ نفسه من صدمةٍ مُفاجِئة ، ونظر مرّة أخرى إلى الحشود الطّلابيّة ، فجاءه سربٌ من البيضِ المُهاجرِ باتّجاهه ، سحب نَفَسًا سريعًا داخل صدره ، وانسحب

من المكتب بينما راحت البيوض تفقس على جدار النّافذة ، وهي تُطلق روائحها الكريهة في المبنى كلّه .

في صباح اليوم التّالي لهذه الحادثة الشّهيرة ، تولّى نائب الرّئيس إذاعة القرار : (لقد تراجَعْنا عن القرار السّابق)!!

انسحبتْ كتلة الطّلاب إلى داخلها ، بَرَد يقينُهم ، خاروا خُوار العجل ، ظلّوا أسبوعًا لافِحًا ينتظرون هذه اللّحظة ، وحين أتتْ تلقّوها كما لو كانوا لا يريدونها!! لا بُدّ أن الهياج الّذي صنعتْه حركتهم خلال هذا الأسبوع أدخلتْ إليهم مستوياتٍ من المتعة عالية ، فأدمنوا تعاطيها ، وحين سُحِبَ البساط من تحت أقدامهم بسحْب القرار ، شعروا أنّهم طبولٌ منفوخة لكنّها فارغة من الدّاخل ؛ يبدو أنَّ بعضنا يثور ليستمتع بثورته ، ليشعر أنّه تجاوز مألوفه القاتل ، ليُحسّ أنّه مختلفٌ عن البهائم ، ليستعيد بعضًا من إنسانيّته المفقودة برتابة الجريان ؛ حينَ تريد من الماء أن يصبح شلالاً فلا بدّ أن تفجّره من أعلى قمّة ؛ المياه الّتي تجري على الأرض لا تسقي غير نفسها ، أمّا تلك الّتي تتساقط من القمم فإنّها تروي كلّ ما حولها ، أمّا رذاذها فيملأ كلّ الكائنات بالنّشوة!!

قال لنا العرّاف : لا حقّ يأتيكَ طواعية ؛ الحقوق تستجلبُ المُدافعة ؛ كما أنّه لا نار تتّقد بداهة ؛ النّيران مبدؤها احتكاكٌ دائمٌ يرفع الحرارة إلى مستوى الاشتعال .

أيّها الرّئيس : الرّقاب المُعوجّة لا تحتاج إلى تقويم ، بل تحتاج إلى خلع!! (قال خالي لي هذا الكلام ذات مرّة) .

(٩)
ضيّعتَ مُستقبلكَ في السّياسَة

قبل أن يصدح أذان الفجر من المساجد الثلاثة القريبة منّا بقليل، تسلّلتْ موجةٌ باردة حادّة من الهواء، وسحبتْ على وجهي غطاءها الكُحليّ؛ كان شباط ما زال في بدايته، قمتُ لأُحكِم إغلاق الشّبّاك الّذي غَدَرني فسمح لهذه اللّسعة البرديّة أن تُفسِدَ عليّ نومي، ما إنْ وصلتُ إلى الشّبّاك حتّى تراءى لي شبحٌ واقِفٌ خلفه، راعني المنظر في البداية، ففركتُ عينيّ لأتأكّد مِمّا أرى، فلمّا عاينتُ المشهد انفتح فمي على الرعب، وقام الخوف من أعماقي فشهق، تراجعتُ إلى الخلف خُطوتين، ترنّحتُ في الخطوة الثّانية، وغطّيتُ فمي بيدي؛ لأمنع صرخةً يُمكن أن تُحيل كلّ هذا الهدوء إلى صخب، أو أمنع شهقةً يُمكن أن تُحيل كلّ هذه الحركة إلى سكون مُطلَق!!

عَثرتُ (بسِراج) في تقهقري المُفاجِئ، هبطتُ أهزّه من كتفه لأوقظه، فحرّك يدي بعيدًا عنه، وشخر لثانيتين انزعاجًا، وتقلّب على جنبه الآخر، وغطّى رأسه بوسادته، وتابع نومه كأنّ شيئًا لم يكنْ!! كان الشّبح الّذي على الشّبّاك قد هبط عليه ضوء العمود الكهربائيّ القادم من الدّوّار القريب من شقّتنا، وبدا واضِحًا بعد أن أزلتُ الغَبَش عن عينيّ بفَرْكهما جيّدًا، تحرّك ناحية الباب، ومن خلفه سارت أشباح ثلاثةٌ يرتدون زِيًّا متماثِلاً!!

مرّتْ ثوانٍ ثقيلةٌ جداً ، خلتها أياديَ من حديد تعتصر قلبي بين أصابعها ، ريثما دارتِ المجموعة من الشّبّاك إلى باب الشّقّة ، كان الطّرْقُ عليها عنيفًا ، هُرِعتُ إلى الباب أفتحه وأنا أرتجف من اثنين : البرد والخوف ، قابلني وجه أحدهم الّذي تقدّمهم بلباسٍ مدنيّ :

- نحن ضُبّاط أمن ، أين (وصفي طلب)؟!

- ليس هنا!!

أزاحني بفظاظة عن الباب ، ودخل هو والثّلاثة الّذين معه إلى داخل الشّقّة ، على زوايا (الرّوف) كان يقف أربعةٌ ومعهم بنادقهم تتدلّى فوق أكتافهم ، كانوا يحرسون الزّوايا من أن يهرب أحدٌ منّا كما يبدو . تناهَى إلى سمعي صوتُ ضوضاء وضجيج في الدّاخل ، هُرِعت ، كانوا قد كَلْبَشُوا (وصفي) ، وقيّدوا يديه خلف ظهره ، اجتمعنا كلّنا في الغرفة ؛ استيقظ (سراج) رمقتُهُ بعينٍ من عتاب ، أشاحَ بطرفه عنّي ، واصطفّ إلى جانبه (نعمان) و (سالًم) ؛ كانت الدّهشةُ قد عقدتْ ألسنتنا جميعًا ، لم نكد نصحو من هذه الصّفعة حتّى صاح ذو اللّباس المدني في وجه (وصفي) :

- إنتو ما كفّاكم تخربوا بلادكم جايين تخربوا هون؟! والله شلّة همل!!

- . . . .!!

أمر عسكريّيه أن يُفتّشوا الدّار ، ويُركّزوا على غرفة (وصفي) ؛ بدأت الكنوز تخرج من هذه الغرفة ، والعساكر مُنهمِكون في جمعها : السّمّاعة اليدويّة كانت أكبر دليل على أنّ هذا المجرم المقبوض عليه هو بالفعل (وصفي) ، والأوراق الّتي عليها الهُتافات والكلمات والمُخطّطات ، ثمّ منشورات الحزب الشّيوعيّ . . . كان العسكر بين كلّ

فترةٍ وأخرى يعرضون ما يجدونه على رئيسهم فيهزّ رأسه ، ويطلب منهم أن يضعوه في كيسٍ كبير أحضروه معهم لهذه الغاية .

انسحب (سِراجٌ) إلى غرفته بهدوء ظاهريّ تجتثّه العواصف من الدّاخل ، فتح الخزانة ذات الأدراج البلاستيكيّة ، أمسك مجموعة من الأوراق ، وطواها على غير انتظام ، وسارع إلى الشبّاك فألقاها من هناك ، غاص بعضها إلى أسفل الحوش ، غير أنّ بعضها الآخر قد تناثر فحملتْه الرّيح فارتفع إلى أعلى ؛ من شبّاك غرفة وصفي الّتي يتمّ فيها اعتقاله في هذه اللّحظة عبرتْ بعض هذه الأوراق على مرأى من الجميع ، وواصلتْ تأرجحها في الفضاء قبل أن تستقرّ على سطح بيتٍ آخر أو على أرضٍ غير أرضنا . رَمَق الضّابط المدنيّ عسكريًا ، وأشار له برأسه : فتّش بقيّةً الغُرَف . كانت الغُرَف شبه آمنة من مُستَندات يُمكن أن تقذف بنا جميعًا إلى السّجن بأبسط وسيلة!!

تفرّق الجمع ، وخلا المشهد ؛ اقتيد (وصفي) إلى السّجن! أيّ سجن؟! لا ندري . العساكر الثلاثة تَبِعوا سيّدهم ، والأربعة الّذين على الزّاويا أمّنوا الخروج لزملائهم ، وفي أقلّ من دقيقة كان المشهد قد تغيّر عن سابِقه ، وبدت اللوحة ناقِصةً لونًا واحدًا .

حملتْهُ سيّارة مدنيّة بسائقها الّذي ظلّ فيها من أوّل الاقتحام ، الضّابط المدنيّ يجلس في المقدّمة ، ووصفي وعسكريّان أحدهما على يمينه والآخر على يساره يجلسون في المقعد الخلفيّ . أمّا البقيّة فذابوا في الطّرقات الفرعيّة ، ربّما كانت تنتظرهم سيّارة هُناك ، لا ندري .

من الرّوف بدا دوّار الإسكان هادِئًا تمامًا وخالِيًا من الحياة ، فقط أذان الفجر هو الّذي قطع السّكينة التّامّة الّتي كانت تلفّ المكان ، والبرد ظلّ يغلّف قلوبنا بسؤالات الحيرة ، ونحن نحاول أن نبعث فيه الدّفء

بإجابات الطّمأنينة ؛ ننجح حينًا ، ونفشل أحيانًا كثيرة ، وفي النّهاية : يجب أن نفعل شيئًا ؛ هذا ما قلناه ونحن نخفض أبصارنا إلى الأرض خجلاً من أنفسنا ، وقلقًا من القادم المختبئ خلف أكَمَة المجهول!!

ظللنا أكثر من ساعة صامتين ؛ عقد الموقف ألسنتنا ، حلّ ابتلاع الدّهشة هذه الألسنة بعد ذلك ؛ تشاورْنا فيما يُمكن أن نفعله ؛ هل نُخبر أهله في رام الله ، أم نُعيّن له مُحامِيًا ، أم نُسيّر مظاهرة في الجامعة دِفاعًا عن الحرّيّات الطّلاّبيّة ، أم نُصدر نشرة توضيحيّة تبيّن ظروف اعتقاله وتحتجّ كذلك على هذا الأسلوب الهمجيّ ، وتتساءل عن أسبابه وتُوزَّع على الطّلبة في الجامعة كلّها ، أم نضع واسِطةً من أقاربه المتنفّذين في الأردنّ ؛ أم نفعل كلّ ذلك مُجتمِعًا؟! قرّرْنا في النّهاية أنّ المظاهرة من جهة والواسطة من جهةٍ أخرى هُما أهمّ وسيلتين .

كانت الأردنّ يومها تغرق في مستنقع الأحكام العُرفيّة والقضاء العسكريّ ، كان يُمكن للسّلطة الحاكمة حينها أن تقتَنِصَ أيّ فردٍ من الشّارع ترى فيه خطرًا على الدّولة وتزجّ به في غياهب السّجون لفتراتٍ غير مُحدّدة ، ودون أن يُعرَض على محكمة ، وبهذا القانون العسكريّ احتضنت الزّنازين عددًا منّا ، وللأمانة لم يكنْ عددًا كبيرًا ، لكنّ تفجير الظّروف فيما بعدُ جعلها أكبر عدد مُمكن في فترةٍ لاحقة في تاريخ الاعتقالات العسكريّة ربّما!!

من بوّابة مبنى المُخابرات الحديديّة دخلت السّيّارة الّتي تُقلّ (وصفي) ، كانت التّجربة الأولى بالنّسبة له ، ولذلك ظلّ صامِتًا وهو يُحاوِل أن يتآلف معها قبل أن يجد وسيلةً لفهمها ، وتفسير دوافعها . نزل ويداه مُقيّدتان خلف ظهره ، زحف خلف الضّابط كي يُنزل رجليه على الأرضيّة الإسمنتيّة القديمة ، كانت الشّمس قد شقّتْ خيوطَها

أوّل هذا الصّباح الباكر ، فطبعتْ تلك الأشعّة على ظهره موجةً من إشراقاتها ، وفيما راح القَلَق يأكلُ من صدره المحجوب عن الشّمس ، راح الدّفء يُسربِل ظهره المُواجه لها ، فيشعر بقليلٍ من الطّمأنينة .

شَتَمه العسكريّ الّذي تلقّاه على باب الزّنزانة ، وهوى بيده على وجهه فلطمه لطمةً شديدة اهتزّ وصفي لها ، تلقّى أنفُه وعيناه الضّربة فشعر بدوار ، ترنّح قليلاً قبل أن يسقط على جانبه ويداه ما زالتا تنجدلان خلف ظهره .

سالَ بعضُ الدّم من أنفه ، أنّ أنينًا خفيفًا ، قبل أن يلتقطه أحد العساكر ويُنهِضه من جديد ، قائلاً :

- ضيّعتْ مُستَقبلكْ ، مش لو خلّيتْ حالَك بدراسْتك أحسن؟!!

تساءل في سرّه عن مستقبله الّذي يقرّر هذا العسكريّ للتّوّ أنّه قد ضاع ، حاول أن يتخيّله أو يُشخّصه ففشل ، أغمض إحدى عينيه نصف إغماضة ، ورفع ذقنه قليلاً ، وكتم نفسه ، كأنّما يُحاول أن يستحضره ؛ ففشل مرّة أخرى ، أيقظتْه من خيالاته دفْعةُ الحارس له من الخلف ، سارا صامتَينْ كأنّ إرثًا ثقيلاً من الكآبة هبط عليهما فجأة ، فازداد الصّقيع الّذي يغلّف كلّ شيء .

في قلب العتمة الّتي تحتلّ قلب الزّنزانة وجد (وصفي) نفسه أمام عالَم جديد . حدّثَ نفسَه : أوّل خطوات الطمأنينة أن تألف المكان . مدّ يده بثقةٍ إليها كي يُصافحها فمدّتْ إليه يدًا باردة غارقة في السّواد ؛ لا بأس ؛ قال لنفسه : إن أبقيتُ على يدِها في يدي فسيتسرّب الدّفء إلى إحداهما عاجلاً أم آجلاً ؛ مهما حلّقت الأمنيات فإنّها ستقع في شِباك الصّبر . والنّهايات لا تقرّرها البدايات بالضّرورة .

ظنّ أنّ الدّولة يُمكن أن تملّ من فكره الشّيوعيّ في أقلّ من

أسبوع ؛ حدّث نفسه : سأصدّع رؤوسهم بكلّ ما تعلّمتُه . اطمأنّ إلى خيالٍ أبعد من الخيال ؛ في النّهاية ستُلقي به الدّولة خارج هذه الزّنازين العَفِنة ليعود إلى ممارسة حياته الطّبيعيّة ، حياته الّتي يسفح ماءَها في الغرف المُغلَقة مع مجانين آخرين وهم يُخطّطون لمظاهرة ، أو يؤسّسون لمناظرة ؛ غير أنّ مُعتَقداته الماركسيّة وفلسفاته الوجوديّة نَفِدت وهو يلقيها على مسامع مُحقّقيه قبل أن تنتهي فترة احتجازه .

أخبرنا أهله في رام الله ، صرخ أبوه أوّل ما سمع الخبر في وجه أمّه :

– أنا كنت عارف إنّو هالولد ما رح يجيبها البر . .

– يا حَجْ . . . شو عامل هُو؟!

– عاملّي فيها روكس ولا روكسين ، هاظا إلّي ما إلو اسم . . .

– قصدك ماركس ، هيك كان يقولها . . .

– آه . . . آه صحيح ماركس . . . الله يلعنو لهاظا إلّي اسمو ماركس ضيّعلنا الولد . . هو بدل ما ينتبه لدراسته . . . يصير يْلَفْلِفْ ورا ماركس وجماعته . . . اتْفِي على هيك جماعة . . . (تجمّع بُصاقه قريبًا من قدميه فيما شرعتْ زوجته تهيّئ نفسها لبكاءٍ مخزونٍ في المحاجر منذ غادر ابنها البلد قبل أكثر من عامين ولم تره) :

– يا حج شوفلّك حاجي . . . ابني حبيبي . . . لا تخلّيه بالحبس . . .

خرج من الزّنزانة للتّحقيق المعتاد في اليوم الواحد والعشرين ، تلقّاه الضّابط الجالس إلى طاولة خشبيّة تقف على أقدام مهترئة ، وجوفها فارغ إلاّ من الهواء الفاسد ، كانت يدا (وصفي) مُقيّدتين ، مشى إليه الضّابط وهو ينظر بهدوء إلى الأرض عاقِدًا يديه خلف ظهره ،

وناثرًا رجله في كلّ خطوة يخطوها باتّجاهه ، توقّف في المسافة الفاصلة بينهما لأقلّ من ثانية ، صمتت الغرفة خلالها صمتًا رهيبًا ، استلّ الضابط يده فجأةً من خلف ظهره ، وأرجع جذعه إلى الخلف قليلاً ، وبكلّ ما أوتي من قوّة هوى بباطن كفّه على وجه (وصفي) ، وقع على الأرض مثل كيس ، صعد الدّم المُتراكض من قلبه إلى لثّته ، انثعب من هناك بخيوط متقطّعه ، كوّم رجليه على بطنه لا إراديًا ، شعر أنّه يُمكن أن يُرفَس في أيّة لحظة ، كتمَ بكاءً كاد يتفجّر من شدّة القهر والغيظ ، حبس أنفاسه ، وبدل أن يُطلقها عبر أنفه المتورّم أو فمه المشقوق راح جسده يرتجّ كأنّه دوّامةٌ مائيّة تبحث لها عن مصبّ هارب!!

تراجع الضّابط إلى الوراء ، ضغط على جرسٍ مُهمل في طرف الطّاولة ، دخل أحد العساكر ، أشار الضّابط إليه ، توجّه نحو (وصفي) أقامه من الأرض ، وأجلسه على كرسيّ يُقابله ، سأله الضّابط بصوت يفحّ كفحيح الأفعى :

– هل أنتَ جائع؟!

– «إنّ تاريخ العالَم هو تاريخ البحث عن الطّعام» (لم تُسعفه غير هذه العبارة الّتي تذكّرها من مطالعاته الماركسيّة) .

– لم أفهم أيّها العبقريّ!! تريد طعامًا أم لا؟!

– نعم . (أدرك أنّ كلمة واحدة يُمكن أن تحلّ المسألة بدلاً من التعقيدات الّتي يُدخل نفسه فيها أحيانًا) .

– إذا أعطيتني خمسة أسماء أخرى ، ستأتيك وجبة من أشهى ما مرّ في حياتك؟!

– مقابلٌ زهيد ؛ الأسماء لا مُقابل لها!!

– وسيرتفع أجرك عند ربّك وعند النّاس ، أنتَ بهذا تخدم دينك!!

– «الدّين حيلة ووسيلة للعيش من خلال خِداع النّاس» (مرّة أخرى لا تُسعفه غير هذه العبارات الّتي تعلّمها في بدايات انتسابه إلى الحزب الشّيوعي ؛ فرح لشيءٍ واحد ؛ ها هو يطبّقها بعد أن ظلّ معلّمه الأوّل يُصدّع رأسه بها) .

لا تُفلح المناورة مع الّذين يمتلكون عقلاً زئبقيًّا ، أسهل طريقةٍ لاستخراج المعلومة ، أن تجد المُعتقَل يختبئ خلف عقلٍ حديديّ ، العقول الحديديّة لا تحتاج إلى أكثر من مِطرقة لتبسيطها ، أو إلى فأس لاقتلاعها ، أمّا العقول الزّئبقيّة فلا تنفع معها أيّ أداة . وكان (وصفي) يتمتّع بجاذبيّة العقل الزّئبقيّ!!

أخبرْنا أهله بعد شهرٍ كاملٍ ، كنّا نظنّ أنّه سيخرج قبل ذلك ؛ المُظاهرات الّتي نظّمْناها من أجله لم تُثمر ؛ توصّلنا إلى نتيجةٍ استنطقناها من قلبٍ مرعوب ؛ أوّلاً : لا يُمكن أن يسمعك من لا يمتلك أذنين سليمتَين . وثانيًا : تحتاج – أحيانًا – إلى قنبلة لتفجّرها من أجل أن تتوجّه إلى مطالبك الآذان والعيون والأفئدة . ولأنّ الجامعة كانت تُعير أذنيها للأجهزة الأمنيّة ، وهذه الأخيرة تقوم بحشو هذه الآذان بالرّصاص ، فلا ينفذ من خلالها شيء ، ولأنّنا – كذلك – لا نملك القنبلة ؛ فقد رضينا بالانتقال إلى خطّة جديدة من أجل الدّفاع عن صاحِبنا .

جاءنا أخوه (نِهاد) من (رام الله) ؛ هو أخوه الأوسط ، كان نحيلاً ، قمحيّ اللّون ، احدودب ظهره من الأعلى فشكّل قُبّة خفيفة ، نظّارته السّميكة جعلتْ عينيه تبدُوان كعينَي ضفدع ، هادئ إلى أبعد الحدود ، يقف في هدوئه على الجهة المُقابلة من صخب أخيه

(وصـفي) . كـان يجلس السّـاعـات الطّويلة دون أن يتكلّم ، أو يكلّم أحدًا ، استفزّ هدوؤه القاتل (سالمًا) فصرخ في وجهه ذات مرّة :

– ما لقى أهلك غيـرك يودّوه مشان وصـفي . يا رجل لو بِسّـة كان دافعتْ عن أخوك أكثر منّك!!

تلقّى الإهانة وهو صامت ، لم يفعل شيئًا ، ضيّق عينيه فحسب ، ورفع نظّارته عن وجهه ، وحَدَجها مطرقًا رأسه ، ثمّ أعادها لتستقرّ على أذنيه مرّة أخرى .

مرّ أسبوعان (ونهاد) يخرج من البيت معنا في الصّباح ، ولا ندري إلى أين يذهب ، وأحيانًا نعود ولا نجده . يجلس في غرفة (سالم) في الزّاوية عـاقِدًا رِجـلاً على رجل ، وينفث دُخـان سـجـائره دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة . خرج (سالم) في ذلك اليوم من غرفته ، وجاءني وهو يزفر :

– يا أخي هاي بَلوة ؛ مثله مثل الحيط .

– طوّل بالك (قلتُ له)

– إذا ما بخبّرنا شو بِدّو يعمل مشان أخوه راح أطرده .

– تُطرده!! أجا من الضّفّة وهو عندنا ضيف . . .

– لا مش ضيف ؛ هو والحيط سَوَا!!

في الأسـبـوع الثّـالـث ، زارتْنا شـخـصيّـة مـهـمّـة ، دارتْ حـول دوّار الإسكان ، وانحرفت إلى اليمين ، لتصطفّ أمام بيتنا ، لوحتها الرّسميّة ذات الأرقام الحمراء أثارتْ فُضولنا ، حاولْنا أن نتكهّن بالّذي يحدث ، لكنّنا فشلْنا ، خلف سيّـارة المرسيدس الّتي راحتْ تلمع لأناقـتهـا على ضوء الشّارع ، كانت هناك سيّارة (فولفو) تتبعها ، اصطفّتْ خلفها تمامًا ، استطعتُ أن أرى في المقدّمة حارِسًا أمنيًا يجلس بجوار السّائق الّذي

عرفتُ أنّه هو الآخر شرطيّ من الطّاقيّة الّتي يعتمرها . وفي الكرسيّ الخلفيّ جلس رجلٌ في الخمسينيّات من عمره ، تتشاطر مساحة قميصه الظّاهرة – مِمّا تبقّى من البذلة الرّسميّة – ربطةُ عنق أنيقة . عن يساره جلس شخصٌ ما لم نستطعْ أن نتبيّنه تمامًا ، بدا أنَّ هيئته العامّة ليستْ غريبةً علينا ، كان نصفُ هيكله يظهر باتّجاهنا والنّصف الآخر يُغطّيه سقف السّيّارة الفارهة!!

(١٠)
هل يُشفَى الإنسانُ مِن نفسِه؟!

لم أتزوّج ؛ لأنّه ظلّ حاضِرًا في حياتي حضور الماء في ذاكرة السّحاب ؛ كلّما تخلّص ممّا يُثقله من الماء بالهُطول ، عاد إليه الماء من جديد لمجرّد الحركة . ولم أَنْسَه ؛ لأنّه وجعٌ في القلب ، كلّما ضُخّت دماء الذّكريات فيه ازداد وجعًا وتألّقًا . ولست أستطيع إغماضةَ عيني دون أن أراه ؛ لأنّني لم أُشفَ منه ، وهل يُشفى الإنسان من نفسه!!

كان كلّ شيءٍ بالنّسبة لي ؛ امتلك كياني من الجذور ، رجولتُه الآسرة أحاطتْ قلبي بسياج من ياسمين ؛ ظلّ عَبَقُه يملأ الحجرات حتّى اليوم ؛ أعيشُ رائحتَه وإنْ كان قد مرّ عليها أكثر من ثلاثين عامًا ؛ بعض الرّوائح تعلق بأهداب الرّوح فتصبح خالدة ؛ تستحوذ علينا حينَ ينبشُها الحنين ؛ ورائحته من النّوع الّذي يُستعاد بمجرّد استحضار صورته السّاحرة في الذّهن ؛ إنّها موجودة هناك في الذّاكرة الّتي تنهض لأدنى سبب ، وتُستثار لأقلّ دافع ؛ تأتي ذكراه تحمل على جناحها اثنين : طيفَه الّذي يتأبّى على الرّحيل ، ورائحته الّتي تتأبّى على الامّحاء ؛ وهو : ذلك الّذي صنع من كلماته العذبة جنّة من الجَمال ، وغادرني دون أن يدلّني على طريقٍ واحدة للخروج من هذه الجنّة!!

حين أخلو في الليل إلى نفسي ، تجرحني دمعةٌ حارّة تسيل على خدّي وهي تقول : إلى هذا الحدّ تحبّينه؟! وأصمتُ برهةً لعلّي أجد

جوابًا يهدّئ من ثورة السّؤال الذّابحة ، وحينها تتبع الدّمعةَ الأولى دمعةٌ أخرى تدفع أختها إلى ما هو أعمق ، وتُجيبها بلسانٍ مُبينٍ : ولم أحبّ في حياتي سواه!! وربّما لو وُهِبتُ عمرين إلى عمريَ فلن يستحوذ على قلبي غيرُه!!

ما زالتْ (نعيمة) تحتفظ في غرفتهما ببِزّته العسكريّة ، حينَ تستيقظُ في الصّباح ، وقبل أن تفعل أيّ شيءٍ ، تواجه البِزّة بخشوع ؛ كأنّما تقف أمام مَلِكٍ مهيب ، تمسح بيدٍ من وَلَهٍ على صدر البِزّة الأزرق ، وتشدّ بلطفٍ أكمامها لتُحافظَ على انسدالهما المنضبط على الجانبين ، تتراجع خطوةً إلى الوراء ، تنظر بشغفٍ إليها كأنّها تنظر إليه ، ثمّ تلغي المسافةَ الفاصلةَ بينهما ، وتحتضنها كأنّها تحتضنه هو ، وترخي رأسها على النّياشين الصّفراء اللامعة ، وتنسكب دمعتان من وفاء ، تغادران مَحجرين أمضّهما بُعدُ الشّوق ، وطولُ العشق ، ثمّ تُمرّغ رأسها هناك ، فتختلطُ الدّموع بنشيج خافتٍ يُبين عن مدى حرقةٍ لاسعةٍ لا يمكن لأيّ مخلوق أن يفهمها إلاّ إذا كابدَ ما كابدتْ . . . تبقى على هذه الحال لساعةٍ أو أكثر ، قبل أن ترتخي يداها على جنبها ، وتعود إلى ممارسةِ شيءٍ من حياتها الطّبيعيّة!

تلمس طرفَ كمّها ، هذه البِزّةَ الخالدة ، تشعر أنّها تلمسُ يده ، حينَ غاب في جوف التّراب غاب معه الكلام ، اليوم تستعيد هذا الكلام باللّمس ، تُدرِك أنّه أصدق من الكلام نفسه ، قد يكذب اللّسان ، ولكنّ اليد لا تكذب ، تتذكّر . . . حين كانت يده التّوّاقة تمتدّ إلى يدها المشتاقة ، تضغط بحنوّ على عروقها فتنساب موجةٌ من العشق ، وتجتاح كِيانها رفّة من سِحر ؛ فيرتاح كلّ تَعَبٍ في كيانها ، كانت تقول له : لمساتُك تشفي جروحي أكثر من كلماتك ، يدك أبلغ

من لسانك ، وما تقوله يدك لا يُمكن أن تقوله الكلمات ، فاجعل الصّمتَ سيّدَنا لتنوب عن الكلام أيادينا!!

ثلاثون عامًا لم يتغيّر في البِزّة العسكريّة شيءٌ ، ظلّتْ تُحافِظُ عليها أكثر مِمّا تُحافِظُ على روحها ، تغسلها هي بعناية فائقة بيديها ، وتكويها ، وترشّ عليها عِطرهما المُفضّل الّذي جمعهما في أوّل لقاءٍ حميميّ . زُجاجات هذا العِطر تملأ أدراجها ، ما زالت تحتفظ بالعشرات منها دون أن تُفرّط في زجاجةٍ واحدة ، أمّا النّياشين الّتي كان أكثرها نُحاسيًا فكانت تستخدم لها سائلاً خاصًا ، يُبقيها لامعةً طوال الوقت . قالت لنا ذات مرّة : كان يريد أن يطير فيها عندما طار لآخر مرّة ، لكنّه استبدل بها أخرى ، تمزّقتْ مع جسده ، أعرف أنّه كان يقول لي دون أن يقول : أبقيتُني لكِ في هذه البِزّة لأظّل حيًا ، ولبستُني في تلك البِزّة لكي ننتهي معًا . في ذهني هو لم يمتْ ما دام ينتفض حيًا في كلّ صباح كلّما وقعتْ عيناي على ما أبقى لي!!

وأظلّ غريبةً عن نفسي ، غيرَ مُتصالحة معي ، منفصلةً عنّي ، وحيدةً إلاّ منه ، تأكلني الوَحدة ، وتنهش في عافيتي السّنون الغابرات ، وهل هناك ما هو أكثر غربةً من امرأة فقدتْ نفسها بِفَقْد حبيبها!! أبحث عمّا يُعزّيني فلا أجد ، لا عزاء للّذين صار التّراب يغلّف قلوب أحبابهم ، وأصبحت القبور تضمّ رفاتَ أرواحهم . أيّ عزاء؟! وكلّ حبيب دونه كريه ، وكلّ قريبٍ غيره بعيد ، وكلّ ماءٍ في غير كأسهِ أُجاج ، وكلّ طعام في غير إنائه مُرّ!! أيّ عزاء وأنا الّتي انشطرتْ بعدَ رحيله إلى ألف شظّيّة ، أبحث عنّي لكي ألملمني ، فيجتمع بعضي ثمّ يتفرّق كُلّي ، فلا أعود أنا إيّاي ، وفي كلّ يومٍ أبتعد عنّي بما يكفي لأجوع أكثر ، وأعطش أشدّ ، وأشتاقَ أكثر!!

كان مائي في الصّحارى الّتي لا قطرةً واحدة فيها غير السّراب يلفّها من كلّ الجهات ؛ وجعٌ للماء ولا ماء ؛ «وما في النّار للظّمآنِ ماءٌ» . وكان فيئي في الشّمس الحارقة ، أهيم تحت أشعّتها بلا هدى أبحث عن جدارٍ يقيني الحرّ فلا أجد إلاّ الخُواء . وكان حناني حين أفتقده كطفلةٍ هاربةٍ من وحش الخوف . وكان قلبي حين يعذّبني كعاشقةٍ لها ألفُ جارحةٍ . وكان ردائي حين يوقظني ليلُ البرد ، فيلفّني هو بجسده فينسرب فيه العشق والدّفء!!

أيّ نوعٍ من الرّجال كنت؟! وأيّ فصيلة من النّساء أنا؟! كان لي عقلٌ حينَ رتّب الحبُّ لقاءَنا التّاريخيّ ثمّ لَمَّا دخلتَ فِيَّ فقدتُه إلى الأبد ، ليت ما كان ما كان ، فربّ لقاءٍ أورث سعادةً عابرة وشقاءً مُقيمًا!! وكيفَ يُعرّف النّاسُ الموت إنْ لم يكنْ ما تركتَني عليه ؛ أتساءل وأنا العارفة : أيّنا الميّت وأيّنا الحيّ؟! وحينَ تحضر الذّكرى يختصرُ الحالُ الجوابَ : مُتُّ أنا في حياتك ، وحييتَ أنتَ في مماتي!!

ولا طقسَ إلاّ وأنتَ فيه السّيّد والأمير ، ولا مكان إلاّ وأنتَ كلّ ذرّة فيه ، ولا زمان إلاّ وأنتَ كلّ ثانيةٍ فيه ، ولا جَمالَ إلاّ وأنتَ عينُه ، ولا حُبَّ إلا وأنتَ عُنوانه ، ولا وردةَ إلّا وأنتَ فوحُها ، ولا بسمةَ إلاّ وأنتَ إشراقُها ، ولا حزنَ إلاّ وأنتَ إيماضتُه!!

تصرخ كلّ قطرةِ دم أنتَ سكنْتَها فِيّ : أَعْتِقْني منك . . . تستغيثُ كلّ دمعة خطّتْ طريقَها المألوف على خدّيّ : أَعْتِقْني منك . . . تستجير كلُّ شهقةٍ كادتْ تودي بحياتي وهي تصطحب معها الرّوح في الخروج : أَعْتِقْني منك . . . وحينَ ينهضُ طيفُكَ ليرحل ويخلّصني من هذه الجِراح كُلّها أتوسّل إليكَ أن تبقَى ؛ فإنّي قد أدمنتُك ؛ وأدمنتُ وطأةَ العذاب معك ، وصرتُ أجدُ فيكَ هذا العذابَ عَذْبًا!!

يا آسر الكلمة إلاّ أن تكونَ أنتَ القائل ؛ ما الكأس إلاّ وأنتَ الماء فيه ، ما الرّوض إلاّ وأنتَ الزّهر فيه ، ما الدّرب إلاّ وأنتَ الهَدْيُ فيه ، ما اللّيل إلاّ وأنتَ الحُلم فيه ، ما الفجر إلاّ وأنتَ النّور فيه ، ما الكون إلاّ وأنتَ المدار فيه ، ما النجّم إلاّ وأنتَ البريق له ، أينَ أهرب منكَ وأنتَ فِيّ؟! أينَ أنعتق منك وأنتَ أنا؟! أينَ أخلصُ منك نَجِيًّا وأنتَ في كلّ شيءٍ . . . يا . . . يا . . . أنا . . .!!

سارتْ (نعيمة) أمامنا تتهادَى في الممرّ الّذي تقع على آخره غرفةٌ تظلّ في العادةِ مُغلَقة ، إلاّ أن تمتدّ يدُ صاحِبتها ، فتدسّ المفتاح في القُفل ، وبهدوءٍ مُبالَغ فيه تدفع دَفّةَ الباب ، وتقف على أوّلها ، وقبل أن تسمح لنا بالدّخول خلفها تأخذُ نَفَسًا عميقًا كأنّما تملأ من هواء الغرفة رئتَيها ، ثمّ تتنهّد تنهيدةً طويلة ، قبل أن تخفض رأسها سامِحةً لنا بالدّخول ؛ هنا عالَمٌ آخر ، يُمكن أن يكون تاريخًا لا يكذب على عادة التّاريخ ، وأسطورةً تصدق على غير عادة الأساطير .

كانت غرفةَ الصّور التّذكاريّة ، كلّ صورةٍ في هذه الغرفة لها قصّة ، وكلّ قصّة تختبئ خلفها آهاتٌ ودموع ، وضحكات وشموع ؛ والقصص لا تنتهي ، قالتْها لنا (نعيمة) على مدى عام أو أكثر ، وما زالتْ تحتفظ في جُعبتها بالكثير الّذي لم يُقَل ؛ بودّي لو أقول لكم كلّ هذه الحكايات ، لكنّني خَجِلٌ من وفاء هذه المرأة العجيب ، وفي المقابل لا بدّ أن أحدّثكم ببعضها إكرامًا لهذا الوفاء المُطلَق .

ستائر الغرفة تبقى مُسدَلَةً طَوال العام ؛ أخاف أن تعبث الشّمس بوجه حبيبي فتغيّر لونه البهيّ ، أو تُجعّد صورته (تقول لنا نعيمة) ، فقط أسمح للشمس أن تدخل من الشّبابيك مرّة واحدة في الأسبوع ؛ أزيح السّتائر ، وأفتح النّوافذ ، وأقول لهما : هذه فرصتكما الوحيدة

لتقابلوا حبيبي ، ثلاث ساعات ثمّ أُغلق كلّ شيءٍ مرّة أخرى . ضوءٌ أبيض ساطع هو الّذي أضاء عتمة الغرفة فأحالها إلى هالة ، كانت في الغرفة خزائن خشبيّة ذات واجهات زجاجيّة على شكل نصف دائرة ، كلّ واحدة تحتلّ زاوية ؛ الخشب البنّيّ الفاتح بدا عتيقًا ، يبدو أنّه شهد تاريخ استشهاده قبل ثلاثين عامًا ، ومع ذلك كان يبدو لامِعًا ، لا بدّ أنّ (نعيمة) تحرص على إبقائه نظيفًا طوال الوقت . في منتصف الغرفة سجّادة تمتدّ على مساحة أرضيّة الغرفة تاركةً قليلاً من الفراغ على الأطراف ؛ كانت السّجادة من النّوع الفارسيّ المشغول باليد ، تعلو وجهها زخرفةٌ مُدهِشة ، ألوانها جاذبةٌ للرّوح ، شيءٌ ما فيها ينادي لا أدري ما هو ؛ كانت من النّوع الّذي يُسمّى (كاشان) ، أزرقها الدّاكن ، وزخارفها العميقة حوّلها إلى قطعه فنّيّة ، أمّا زواياها فكانت تحمل رسومًا بديعة لأزهار تتناسب مع اللّون الأزرق كالجوري والبنفسج والسّوسن والزّنبق . وعلى امتداد الحوافّ كانت هناك كتابات بالفارسيّة بدا فيها الخطّ العربيّ ماثِلاً ، لكنّني لم أستطع أن أفهم شيئًا ، قالت (نعيمة) : كان يعرف ماذا تقول هذه الحروف ؛ إنّها تتحدّث عن معركةٍ فارسيّة حدثت في القرن الخامس قبل الميلاد انتصر فيها الفرس على الإغريق ، وقالت : إنّ قُطَب الحروف مصنوعة من الحرير . في وسط هذه السّجّادة التّاريخيّة ، ارتفعتْ طاولةٌ دائريّة بقطر مترٍ ونصف ، وغطّتْ قاعِدتُها نصفَ مترٍ فقط من وجه السّجّادة مِمّا أتاح لنا أن نتلمّس وجه الجمال الماثل في الصّفحة المفتوحة أمامنا!! معركةٌ مكتملة عبرتْ آلاف السّنين لنكون شهودًا لها أو عليها . كيفَ لتاريخ دارتْ حوله الأساطير أن يجتمع على أرضيّة هذه الغرفة؟! هتفتُ في سِرّي : هذه المرأة محبوسةٌ في الماضي بلا شكّ ، يبدو أنّها لا يُمكن أن تنعتق من هذا

السّجن القاسي لتعيشَ الحاضر . الأساطير تتلاقَى وتجمَع المُصابين على مائدتها!!

الأزرق المائل إلى الكُحليّ الّذي يصبغ معظم مساحات السّجّادة أعطانا شعورًا بالغموض ، ونحن ننقل الخُطا بلطفٍ شديدٍ وحَذَرٍ كبير خلفَ المرأة الوالِهة . وببطء سلحفاة ، ورهافة فراشةٍ ، وحياءِ فتاة عذراء كُنّا نُصغي إلى (نعيمة) وهي تقصّ علينا أحسنَ القَصص ؛ عِشقها اللامنتهي لكلّ ما يتعلّق بزوجها حوّل حديثها الرّخيم إلى كاهنةٍ في مذبح الاعتراف ، وإلى قدّيسة في حضرة الإله ؛ تحكي عن الغائب كأنّه مُنتَظر ، وعن الرّاحل كأنّه عائد ، وعن الّذي أصبح ترابًا بالِيًا كأنّه سينتفض حيّاً بعد حين . (وسالم) أقلّنا صبرًا وأكثرنا حِدّة تعلّم في حضرتها فضيلة الصّبر ، والإصغاء دون التّلفّظ بهمسة . وجميعنا أدركْنا في هيبة استحضارها لتاريخ حبيبها أنّ العشق انبثاق ، وأنّه ميلادُ المُعجِزات!!

على ظهر الطّاولة الدّائريّة انسدل غِطاءٌ من المُخمل الأحمر البهيج ، وفوقه توزّعت الصّور بطريقةٍ هندسيّة واضِحة ، كان يبدو أنّ (نعيمة) قد اجتهدتْ في تصنيفِ مواضيع الصّور ومضامينها وتواريخها ، لم تقف صورةٌ لتحجز فراغًا دون هدف ؛ كلٌّ يجري على قَدَر . أمّا الخزائن النّصفيّة الّتي تملأ زوايا الغرفة الأربع ، فكان في كلّ خِزانة خمسة أرفف ؛ وعلى كلّ رفٍّ صُورٌ تتحدّث عن نفسها ؛ ماذا يُمكنٍ أن نسمّي الغرفة والمشهد برُمّته : عالَمٌ يضجّ بالحياة السّابقة!! أم : متحف الموتى الأحياء!! أم : حياة مُستعادة!! أم : إيقاف الزّمن من أجل لحظة خالدة!! أم . . .!!

بالنّسبةٍ لي عامٌ كاملٌ أو أكثر و(نعيمة) تتحدّث لا يُمكن أن

أختـصره في بضع صفـحات ، هِيَ ظلّت تتحـدّث حتّى حين تكون وحدها عن تاريخ هذه الصّور الّذي عاشتْه مع حبيبها فيه أو الّذي لم تعشه ؛ طوال زواجهما الّذي استمرّ ثلاث سنوات استطاعت أن تقبض على آلاف الذّكريات من أن تفرّ منها أو من ذاكرتها ؛ كيف فعلت ذلك ؛ بالصّورة ؛ بهذا المُتحَف المُصغّر . وأنا؟! التقطتُ لكم بعض هذه الصور لبعض الحكايات ؛ إذا لم أُعتَقل سأرويها لكم أو ربّما أروي غيرها ؛ هناك مَنْ ينوب عنّا في الحياة ، ولكنْ لا يوجد مَنْ ينوب عنّا في الموت ؛ الاعتقال موتٌ مؤقّت مرهونٌ بالحياة ، والإفراج حياةٌ مؤقّتة مرهونةٌ بالموت!! في الموت روحٌ مُستكنّة قابلةٌ لأن تبعث الحياة في الكائنات من جديد ؛ الموت خادِمٌ في حضرة الحياة ، يستأذنها أن يكنُسَ من فنائها ما تساقطَ من ثمَر!!

(١١)
أنا دَوْلةٌ بِلا حُدود !!

غدًا سآخذك إلى (وصفي طلب) ، قال لي خالي هذه الجملة ، ونحن نهمّ بالخُلود إلى النّوم في اليوم الأوّل الّذي قَدِمتُ فيه من نابلس إلى الأردنّ . كانت ليلةً عصيبةً لم أُطِقْ فيها نفسي ؛ فبالإضافة إلى زجاجات الخمر الّتي تكدّستْ في زاوية غرفته ، وروائحتها العَفِنة المُنبعثة من بقاياها الّتي تزكم الأنوف ، ظلّ دُخان سجائره يعبق في الأجواء حتّى ملأني بالاختناق . كانت غرفةً وحيدةً ، يسكنها على ظهر بيت إسمنتيٍّ قديم ، في شارع صغير متفرّع من شارع (إيدون) جنوب دوّار النّسيم ، يُصعَد إليها بدرج متهافت ليس على جوانبه ما يقي الصّاعد أو النّازل من السّقوط ، وفي اللّيل تكون المصيبة أعظم ، إذ لا ترى شيئًا في حوافّ مُهيّأةٍ أن ترمي بك إلى حتفك في أيّة لحظة .

على جدران الغرفة التصقتْ صورتان كبيرتان (لداني ويليامز) ، و(جورج هاريسون) احتلّتا نصف مساحة الجِدار ، تحت صورة (ويليامز) ، قرأتُ هذه العبارة : (غَنِّ من القلب ، فأنتَ لا تعرف متى تموت) وتوقيعه مطبوعًا تحتها ، أمّا صورة (هاريسون) فكانت العبارة الّتي تمتد أسفلها لتحتضن تلك الصورة ، تقول : (املأ قلبك بحبّ النّاس ، فالله خلق الكون من أجل الحبّ) . شرح لي خالي بإسهاب أسباب هَوَسه بهما ، وخاصّة (بِهاريسون) ، وتغزّل بشعره الطّويل الّذي ينسدل من فروة رأسه

على كتفيه ، وتنزاح بعض خصلاته عن جبهته العريضة ، وبشاربَيه المتدّين بشكل أفقيّ لافت فوق شفتيه ؛ سألني ، وهو يشير إليهما :

- تعرفهما؟!

- لا!! ولكنْ يمكن أن نتشّرف إذا سنحتْ فرصة .

- طبعًا . وماذا يُمكن أن تكون قد تعلّمت غير (المأثورات) لتقرأها في الصّباح أو المساء ، أمّا عظماء الفنّ فيا حسرتي على هذا الجيل المُجهَّل!!

- يا خالي ، يكفي أنّني أعرف عظيمًا مثلك .

صرخ بوجهي حين أحسّ لهجة الاستهزاء باديةً من شقوق الكلمات ، وطلب منّي أن أُعِدّ الشّاي :

- اصنع شيئًا واحِدًا مفيدًا في حياتك ، لا يكفي أنّك تُكلّف أباك كلّ هذه المصاريف ، أخوك هو الآخر يُثقل ظهر والدك بالاختباء في الجُحور ، يظنّ أنّ الاحتلال المنزرع في أفئدتنا قبل بيوتنا وحاراتنا يُمكن أن ينخلع من هذه الأفئدة باعتكافه في تلك الجحور ، قل لي : ماذا يصنع أخوك فيها؟ هل يُخطّط لتفجير إسرائيل؟!

- يا خالي ، دَعْ أبي في همومه ، كأنّك أنتَ الّذي تحمل الهمّ عنه .

- الشّاي يا فَهلويّ ، الشّاي . . قبل أن أضربك!!

صحفٌ كثيرة تناثرتْ حول السّرير ، وتحته . وكتب باللغة الإنجليزيّة بدا لي أنّها روايات كانت تتوزّع على أنحاء الغرفة دون ترتيب ، وقبّعة (كاوبوي) كانت معلّقة على مسمارٍ خلف الباب ، ولمبة الغرفة جاءنا ضوءها شحيحًا ، حتّى أحسستُ أنّنا قد أشعلنا سراجَ زيتٍ بدلاً منها . تناولتُ إحدى هذه الجرائد ، فوجدتُ أنّها جريدة : (طلبةِ اليرموك) الّتي تُصدرها الجامعة ، ويكتب فيها عدد من الأساتذة والطّلاّب ، في

الصّفحة الأولى لعدد منها صادرٍ في ١٩٨١ قرأت أنّ الرّئيس قد حصل على شهادة دوليّةٍ في الغطس تحت الماء ، فقلتُ : لعلّ الجامعة عائمة على بحرٍ ويريد أنْ يتعلّم الغطس لكي ينجو من الغرق فيما إذا مالت السّفينة الّتي تُقلّنا جميعًا . في عدد آخر لفت انتباهي مقالٌ لخالي مُعنونٌ بـ : (المادّيّة الدّيالكتيكيّة بين النّظريّة والتّطبيق) .

فتحتُ دفّتي الجريدة على مصراعيهما ، وأدنيتها من وجه خالي وأنا أشير بعينيّ إلى المقالة الموسومة باسمه ، فهزّ رأسه هزّتين بطيئتين ، بدا أنّهما تعبّران عن فخره الشّديد بكتاباته!! سألته : ما هي المادّيّة الدّيالكتيكيّة يا خالي؟ أجابني وهو يزفر : هاي شغله بتنباع بالفُستقيّات!!!

كانت العاشرة من صباح الجمعة حينَ فتحتْ لنا البابَ سيّدةٌ مَهيبةٌ لفَّ الحزنُ وجهها بالهدوء التّامّ ، ورمى على صفحته غلالةً من صفاء ، فبدا وجهًا ملائكيًّا .

– خالة (نعيمة) هذا (وَرْد) ابن أختي ، كان (وصفي) قد قال إنّه يودّ لو يسكنُ معهم أحدٌ في البيت ، ليكونوا أقدر على اقتسام الأجرة . (قال خالي) .

رحّبت بنا المرأة الخمسينيّة ، ولم تنبس ببنت شفة ، فقط ابتسمت ابتسامةً هادئة ، وسرنا خلفها كقططٍ أليفةٍ تتبع ربّة المنزل ، لفَفْنا حول سياج الأشجار من الدّاخل ، وصعدنا معهاً عبر درج أوصلنا إلى سطح البيت ، حيثُ الرّوف ، دلفتْ إلى الدّاخل وقرعتْ قَرْعًا خفيفًا على الباب الخارجيّ ، ونادت (وصفي) . خرج وهو يفرك عينيه ، وحين رأى خالي احتضنه ، ورحّب بنا جميعًا . تركتنا (نعيمة) وحدنا ، وسارتْ عائدةً إلى الأسفل وقد زرعتْ في قلبي طمأنينةً سقتْها بهدوئها القاتل ، وبحزنها الشّفيف .

– (سراج) القادم من غزّة ينتظرك ، ربّما يروق لك ؛ أنا متأكّد من ذلك ؛ إنّ الطّيور على أشكالها تقع .

***

أيّها الرّئيس لقد اجتمعتْ عليك الدّواهي ، كيف تستطيع أن تواجه كلّ هذا الطّوفان الملتهب من غضب الجماهير ، لقد بدأتْ دولتك بالانحسار ، وعليك أن تتقبّل ذلك ، حالةُ الإنكار لا تنفع ؛ عليك أن تُدرّب نفسك على الاستيقاظ على الواقع ، الواقع هو الواقع بك بين أيدي هؤلاء المحتشدين ببابك ، وقد أقسموا ألاّ يبرحوا المكان حتّى يقضوا على دولتك!!

– واهم ؛ أنا دولةٌ بلا حدود ؛ حدودها ترسمها حوافر خيلي الممتدّة في كلّ اتّجاه .

– لقد آن لخيولك أن تسقط!!

– ما زلتُ أعيش عظمة انتصاراتي ، أنّى لي أن أُهزَم!!

– الوهم إذا انتشر في العقل قتل صاحبه . والحقيقة رمحٌ يفقأ عيون المُنكرين .

– الحقيقة ما أنا عليه اليوم ؛ انظر إلى كلّ هذه العَظَمة ؛ إنّها ماثلةٌ في كلّ مشهد .

– أيّها الرّئيس ؛ سأختصر : هل أنتَ مستعدٌّ للتّنازل عن كلّ هذا النّعيم؟! هل أنتَ قادرٌ على تركِ هذا العرش الّذي تجلس فوقه بسهولة؟! أينَ تهرب عيناك منّي أيّها الرّئيس؟! أنا سِرُّكَ المخبوء خلف أبواب وهمك؟! أنا اشتعال النّار في شفتيك ، أنا مَنْ سيُطيح بكَ ، ويُطيحُ بكلّ شيءٍ حولي!!

(١٢)
عَلى اليَرْمُوكِ أَقْسَمْنا اليَمِينَا

كان النّسيج الطّلابيّ غريبًا ، متعدّد الألوان والأطياف ، مختلف التوجّه والانتماءات ، ومع ذلك كان هناك دافعٌ خفيّ يعمد إلى هذه الألوان ، فيخلطها معًا ويعيدُ تشكيلها من جديد ، ويقصد إلى هذه التّوجّهات فيجمعها في بوتقةٍ واحدة ويدفع بها إلى الاستمرار واستكمال الدّرب!!

في المُسطّح الأخضر ، خلف الكافتيريا كان يجتمع ما لفظتْه بطنُ الكافتيريا مِمّا حملتْه من طلاّبٍ في رَحِمِها ، يخرجون من أجل أن يغنّوا أو يعزفوا أو يُلقوا أشعارهم ، في مجموعات مُتباينة ، كلّ عشرة طُلاّب أو عشرين ، يشكّلون حلقةً دائريّةً يحفّون بمغنٍّ أو عازفٍ أو شاعر ، هذه المرّة اجتمعنا أنا وسِراج ونائل ووصفي وسالم ونعمان وصالح وسميح ، وعدد كبير حول ثلاثة شعراء راحوا يُطربوننا بأشعارهم الجميلة ، أمّا الشّعراء (كريم العجلوني) ، و(زاهر أبو طالب) ، و(حمد اسعيّد) فقد تفنّنوا في جذب مشاعر النّاس نحوهم ، كان كريم أبلغهم ، وجهٌ نحيلٌ بشكلٍ لافت ، يُرجع شَعره الطّويل إلى الوراء ، ويلبس قميصًا يخفق جذعه النّحيل داخله . أمّا زاهر فكان مربوعًا ، ممتلئ الجسم ، شارباه كثّان ، واللحية تستمرّ بخطٍّ عريض من أذنيه إلى ما قبل ذقنه ، حيثُ تتوقّف هناك ، ليبرز الذّقنُ حليقًا حول فكَّين بلا

شوارب . وأمّا حمد فكان يلبس قبّعةً مثل قبّعة توفيق الحكيم والعقّاد ، وقد التفّ شعر رأسه المنفلت من أطراف القبّعة في دوائر صغيرة مُجعّدة ، وكان صوته فخمًا ، تغلب عليه البداوة .

طربْنا يومها كما لم نطربْ من قبل ، ونقدْنا أشعارهم ونحن واقفون وهم يسمعون ، وقلنا ما نرى في اللغة والموسيقى دون أيّ انحياز أو تحفّظ ، أخذنا على كريم خَطابيّته ؛ قلنا له : يجب أن تخفّف منها قليلاً لصالح الشّعريّة ، وأخذنا على زاهر رمزيّته وإغراقه فيها ، وقلنا له : يجب أن تخفّف منها قليلاً لصالح المُتلقّي . وأخذنا على حمد مَطْله للقوافي في نهاية الأبيات وهو يُلقيها : إلقاؤكَ كان فيه تصنُّع . . . غير أنّ كلّ ذلك لم يكنْ ليحولَ دون متعة الاستماع والمشاركة والرّوح الطّلابيّة السّائدة!!

المرجعيّات السّياسيّة والحزبيّة يجب أن تتراجع وتختفي ؛ ليحلّ محلّها التّوافق الطلاّبي الّذي شكّل حالةً عاليةً من المسؤوليّة . كان الواحد يصرّح في أعماق نفسه : لتكنْ كما تريد ؛ لكنْ في المجتمع الممتدّ كُنْ ذكيًا لتفهم ما يُريد . واختلاف الرأي طبيعة بشريّة ، لكنّ فرض الرأي سفْكٌ لهذه الطّبيعة . اترك دائمًا مسافةً بينَك وبين مَن يُخالِفك الرّأي ؛ لأنّه ربّما ألغى هو هذه المسافة فاصطفّ إلى جانبك ، أو ألغيتَها أنت فاصطففتَ إلى جانبه .

كنّا نطبّق هذا الكلام عمليًا في النّشاطات العامّة ، حدث ذلك يوم الأرض في ٣٠-٣-١٩٨٥ ، تقاطر الطّلبة من كلّ صوبٍ إلى السّاحة القائمة أمام مبنى العلوم الجديد (مج) ، كانت السّاحة مكتظّة بالطّلاب ، وكنّا نهوي إليها كالقَطا ، كأنّ منبعًا للماء العذب في نهاية هذه الدّروب ينتظرنا ، وقد كان . كلّ قطاةٍ وردتْ كما ترد الطّيور

المُهاجرة ، خفقتْ بجناحيها فوق النّبع فتناثر رذاذ الماء فوق جسدها ، ثمّ هوتْ مرّة أخرى لتملأ أعماقها من هذا النّدى المبتلّ بالحبّ ، وشربتْ حتّى ارتوتْ ، ثمّ طارتْ لتصنع مستقبلاً جديدًا ، وجيلاً قادرًا أن يكون عنوانًا لتلك المرحلة!!

صعد أربعةٌ من الطّلبة فوق الجدار المنخفض لأحد أحواض الشّجر ، كان أحدهم يُمسك في يده سمّاعةً يدويّة ، يُقدّم زملاءه الآخرين في هذا الاحتفال البهيج ، (سِراج) كان الثّاني على يمين مُقدّم الحفل ، حينَ هوى على رأسنا بكلماته الحماسيّة رحنا نهتف : الله أكبر . . . الله أكبر . . . ومادتْ من هذا الهتاف الجموعُ من خلفنا ، وما إن استقرّتْ حتّى صعدتْ موجةٌ جديدةٌ من الهتاف شكّلها فريقٌ من الشّباب والصّبايا الّذي راح يهتف :

غَـــــــلاّبَة يا فَتِـحْ   يــــا ثَوْرتْنا غَـــــــــلاّبَـةْ

وحدث هياجٌ كبيرٌ ، فكّرنا نحن الإسلاميّين أنّ نغطّي عليه ، لولا أنّ فريقًا آخر قام بالمهمّة عنّا ، فهتف :

شِدّوا الهِمّة الهِمّة قويّـةْ   مَــــــركَبْ ينِدَه عَ البحريّـةْ

ويا بحريّة هيلا . . هيــلا   هيلا . . هيلا . . هيلا . . هيلا

لكنّ الاحتفال استمرّ بشكلٍ طبيعيّ ، ولم يحدث فيه ما يُمكن أن يُعكّر صَفْوَ الجموع ؛ كانت هناكَ منافسة لكنّها شريفة ، وكان هناك مُجاراة لكنّها عفيفة . والمُسيّسون منّا كانوا لا يُشكّلون خُمس عدد الطّلاّب ، ولكنّنا كنّا نرفع راياتنا من خلال أصواتنا بمودّة طافحة ، وكان الطّلبة يسمعون ويُراقِبون ، يُعجِبهم فيبقَون وينضمّون إلى تكتّلنا ، أو لا يُعجبهم فينصرفون وينسلّون من النّسيج .

كنّا جوعَى إلى أن نرفعَ عقيرتَنا ؛ الرّئيس – والشّهادة للتّاريخ – لم

يكنْ في الأعمّ الأغلب يمنعنا من أن نفعل ذلك ، تخيّلوا أنّه طبّق الدّيمقراطيّة الّتي شَرِب كأسَها في أمريكا على مظاهراتنا السّياسيّة ، ولكنّه حين انطلقنا في تحرّكاتنا الطّلابيّة المطلبيّة خانتْه هذه الدّيمقراطيّة نفسها ، ومنعه كبرياؤه المُتعاظِم يومًا بعد يوم أن يُقرّ بخطئه أو يتراجع ؛ كان ودودًا ولكنّه كان عنيدًا ، كان مُحبًّا للحركة الطّلابيّة المتفجّرة في جامعته ولكنّه كان حادًّا في قراراته ، كان حانِيًا أغلب الفُصول ، ولكنّ الخريف الّذي قُدّر للجامعة فيما بعد جعله قاسِيًا ؛ اجتمع كلّ ذلك في هذا الرّئيس ، واجتمع كلّ هذا فينا نحن!!

في هذا العام أقمْنا أنشطتنا في يوم معركة الكرامة ، ويوم الأرض ، ووعد بلفور ، وذكرى احتلال فلسطين ، وذكرى استقلال الأردنّ ، ولم نترك مناسبةً وطنيّةً إلاّ وفغَرْنا أفواهنا ونحن نهتف لها ، ورفعنا أعلام الحبّ بين أكتافنا ، وسقطتْ على تلك الأكتاف قطراتُ المودّة بشكلٍ رقيقٍ فَجَرى ينبوعُها العذب في مسامات روحنا المُتعبة ، فملأها بالسّكِينة!!

لم تتوقّف الحشود عند (مج) ، بل انطلقتْ في الشّارع الطّويل الّذي كنتُ أطبع عليه قبُلات قلبي في الليل الهادئ البارد لساعاتٍ طويلة فيما مضى . نعم سارت الحشود الّتي اتّشحتْ بالحناجر الصّادحة ، وظلّتْ تتضخّم بانضمام أعداد غفيرةٍ من الطّلاب ، تدخل إلى هذا النّهر المتدفّق من روافده الجانبيّة ، حينَ تُلقي المُحاضرات بطلاّبها عقب انتهائها ، يخرج الطّلبة من هناك توّاقين إلى أنْ يفرّغوا الجمود الجسديّ الّذي ران عليهم داخل الصّفوف ، ويبعثوا الحيويّة والقوّة والاندفاع في تلك الأجساد بانضمامهم إلينا .

ويقف رأس النّهر عند الدّوار الّذي يحمل مُجسّم الشّعار ، ويلتفّ

النّهر على ذلك الدّوار يُحيط به من كلّ جانب كأنّه أفعى أحاطت بالقلب ، ويستمر ذيل النّهر بالتّدفّق ، ويستمرّ معه الالتفاف ، حتّى إذا أتمّ دورته ، كان الدّوار قد اتّسع في قُطره عشرة أضعاف حجمه الطّبيعيّ ، يصعد (كريم العجلوني) شاعر المُظاهرات بلا مُنازع ، يُمسك بالسّمّاعة اليدويّة ، ويهتف بالنّشيد الّذي يحفظه كلّ الطّلاّب عن ظهر قلب ، ويردّدون من ورائه كشلاّلٍ هادر ، قادمٍ من جبلٍ شاهق :

عَلَى اليَرْمُوكِ أَقْسَمْنا اليَمِينَا بِأَنْ نَبْقَى لَهُ الحِصْنَ الأَمِينا

وعاهَدْناهُ أنْ نَرعــــاهُ نهرًا يُجدّدُ خـــالِدَ الإيمانِ فينا

وكان نشيدًا حماسيًّا ، ظلّت أصداؤه تعشّش في أرواحنا زمنًا طويلاً . وانفرط العقد بعد أن انتظم ، ووجدنا أنفسنا نتفرّق في شوارع الجامعة إمّا إلى المُحاضَرات أو إلى الكافتيريا ، تفرّقنا نعم ، ولكنّ شيئًا ما في داخلنا كان يتشكّل ، وعشقًا ما في أعماقنا كان ينضج ، وإرادةً ما في جوارحنا كانت تتجذّر .

– طبق الأرزّ الأصفر في الكافتيريا لم يتغيّر منذ سنة!! (قلت ذلك لنائل أبوصبحة ؛ في محاولة فاشِلة منّي لأفتح موضوعًا معه ، غير أنّه استمرّ في التهام صحنه بنهمٍ واضح دون أن يقول كلمةً واحدة . وتابعتُ في محاولةٍ أخرى :

– ربّما لو كانَ صحن الخُضار أكثر سخونة لكان مُستساغًا أكثر ، أمّا وهو بارد فأظنّ أنّ خدماتهم هنا لم تعد كما كانت في السّابق ؛ أليس كذلك؟! (فشلتُ للمرّة الثّانية أن أحرّك لسانه بغير الطّعام الّذي يلتهمه) وبدأت محاولة ثالثة :

– وهذا الدّجاج ؛ ليس ناضِجًا بما يكفي ؛ أحسّ وأنا آكله بأنّني

أعلكه عَلْكًا . (تابعَ هو ابتـلاع مـا تبـقّى في صحنَيـه ، ونظر إليّ نظرةً استهزاء ، ونطق أخيرًا) :

- لا يُعجِبُك!!

- لا . . . يجب أن نحتجّ لدى مدير الخدمات على ذلك .

- المسألة بسيطة ؛ أنتَ لا يُعجبك ، وأنا يُعجِبني . هاتِ صحنَيك وتنتهي المشكلة . (أخذ صحنَ الأرزّ والدّجاج وصحنَ الخُضار وأنا أنظر إليه مشدوهًا ؛ أزاح صحنيه الفارغين ، وبدأ بالتهـام حصّتي ، في أقلّ من دقيقتين ، كان قد ازدردَها كلّها)!!

وقف وهو يحرّك لسانه داخل فمه ، ليجمع ما ظلّ من بقايا الطّعام فيه ، ثمّ يبتلعه ، مدّ يده إلى قميصه ، وأزاح بعض حبّات الأرزّ الّتي علقت به ، وهتف بي :

- قم إلى بيتنا أنا أحتاج إليك هذه اللّيلة .

- خيرًا إن شـاء الله (قلتُ ذلك وأنا متحسّر على الوجبة الّتي استقرّت في بطن صديقي العملاق)

- غدًا عندي امتحان .

- وما شأني بامتحانك؟!

- امتحاني في مادّة ميكانيكا الموائع ، بما أنّك نجحتَ فيها الفصل الفائت ، فلا بدّ أن تشرحها لي ؛ هذه المرّة الثالثة الّتي أعيدُها!!

(١٣)
اللَّيلُ ليسَ عَتَمةً فَحسبُ؛ إنَّهُ حَرَكةُ الذَّبْذَبات

قضى نصف الشّهر الّذي مكثه عندنا ، وهو مُستلق على فرشةٍ خفيفةٍ على الأرض ، يعقد رِجلَيه في زاويةٍ قائمة ، ويُمارِسُ أحدَ الأمرين : إمّا التّدخين النّهِم ، أو القراءة الشّرِهة ، كان يُبقي نفسه على هذه الحال ساعاتٍ طويلةً ، دون أن يتكلّمَ حرفًا واحِدًا ، ولا يتحرّك من موقعه إلاّ إذا احتاجٍ أن يدخل الحمّام .

تحفّز (سالم) وامتلأ صدره بسيّالات الحَنَق ، أرجع رجله إلى الوراء وبقدْر ما في قِدْره من الغضب المغليّ ركل (نهادًا) في بطنه ، وصاح فيه :

– بسْ شاطِرْ ادّخّن ، وتِمْسِكلي ها الكتب . . . وأخوك بِتعذّب بالسّجن . .!!

لم يردّ (نهاد) بحرفٍ واحدٍ ، تلوّى من شدّة الألم ، وشدّ على بطنه مُحاوِلاً أن يخفّف حدّةً الرّكلة فلم يُفلِح ، غادر الغرفة على عجل ، وتوجّه نحو الحمّام وهو يَعصِب يده حول خصره ، وهناك أفرغ ما في بطنه ، وهو يصيح من شدّة الألم .

هُرِعنا أنا وسِراج على الصّياح ، كان وجه (نهاد) قد انسحب منه الماء ؛ بدا أصفر شاحِبًا ، وكان ما يزال يحني جذعه إلى الأمام قليلاً ويشدّ على بطنه من أثر الضّربة . تلقّينا (سالمًا) بالعِتاب :

- لماذا فعلتَ هذا؟! حرام عليك!!

- حرام عليه هوّه ، قاعد مثل السّطل ، وأخوه بالسّجن ماكِل هَوا . . .

- طيّب تزيد همّه بالضّرب ، بدل ما تساعده . .!!

أخذتُ (نهادًا) إلى الخارج في المساحة الفارغة أمام الرّوف ، ربَّتُّ على كتفيَه :

- حقّك علينا . . . (سالم) طيّب ، ولا أدري لماذا فعل ذلك ؛ لا بُدّ أنّه يحبّ أخاكَ كثيرًا!!

طلبتُ من (سراج) أن يُعدّ لنا شايا بالميرميّة ، قلتُ وأنا أقدّم له الكأس مُكرّرًا اعتذاري :

- مَنْ هذا الّذي كنتَ تركب إلى جواره في تلك السّيّارة؟!

تململَ مكانه ، وهمّ بالكلام لكنّه تراجع . . . تابعتُ لكي أستلّ منه جملةً كانت على وشك الانزلاق من بين شفتَيه ، لكنّ التّردّد حَبَسها هناك :

- يبدو أنّه شخصيّة مهمّة!!

- عبد الرّحمن أمجد .

- ومَنْ يكون؟!

- وزير التّموين . (قالَها على عجلٍ ، كأنّه يريد أن يهرب من الكلمات)

- وزير التّموين؟!

- من أقرباء أبي .

- عجيب ، ماذا كنتَ تفعل معه؟!

- حاولَ أن يستصدر قرارًا بالإفراج بكفالة عن (وصفي) .

- وهل نجح؟!
- لا!
- لماذا؟!
- الأحكام العُرفيّة أكبر من الورزاء!!

من اليوم ستنام في غرفتنا أنا وسِراج ، دعْك من (سالم) وتصرّفاته ، ستنام على تختي ، وأنا سأنام على الأرض . يجب أن نتحدّث في شأن (وصفي) مُطوّلاً .

مرّ على احتجازه ستّة أشهر دون أن تصدر بحقّه أيّ تهمة ، وأخوه الّذي لم ينطق إلاّ في تلك اللّيلة غادر إلى (رام الله) دون أن يودّعنا ، أو يُخبِرنا بذلك ، كلّ ما فعلَهُ أنّه كتبَ على باب شقّتنا ورقةً صغيرة : (أشكركم ، كنتم أصدقاء رائعين ، شكر خاصّ إلى سالم . وأخي سوف يخرج بوزير أو بدون وزير ، كنتُ أودّ أن أوصِل له سلامًا بطلبٍ مُلِحّ من أمّنا لكنّني لم أتمكّن من زِيارته ، إذا حدث وزرتُموه أو قابلتموه فلا تنسَوا هذه الوصيّة ، لعلّ أمّنا ترتاح في قبرها) .

شهقتُ وأنا أشدّ الورقة بين أصابعي ، ودمعات حارّات يتساقطْن بهدوء على خدّي : المجنون لم يُخبرنا أنّ أمّه قد ماتت!!

***

منذ أربعين يومًا لم أرَ الشّمس ، ظلّ اللّيل يلتصق بوجه ملابسي من الدّاخل رفيقًا لا يُمكن التّخلّص منه ، تعودتْ عيناي على العتمة ، تعطّلتا ، في حين استيقظتْ كلّ الحواسّ الأخرى ؛ يداي تلمّستا الجدران ، ومكانَ قضاء الحاجة ، ومكان النّوم ، بهما استطعتُ أن أعرف مدى اتساع العالَم الّذي أعيش فيه ويعيشُ فِيّ . وأنفي ظلّتْ فتحتاه تتحرّكان على شكل ذبذبات كلّما وفد الطّعام إلى هنا ، أنا نفسي لم

أصدّق أنّني بعد أسبوعين من تدريبه على روائح الطّعام صرتُ أميّز نوعيّة هذا الطّعام المُقدَّمة لي قبل أن يضعها العسكريّ أمامي ، كانت الرّائحة تخترق الممرّ الطّويل الّذي يفصل بين الزّنازين ، تقفز من على الصّينيّة الّتي تهتزّ بين يدي العسكريّ القادم من بعيد ، وحين تصل في عبورها للطّريق المستقيم من أوّل الممرّ إلى باب زنزانتي كان بمقدور أنفي أن يلتقطها على باب الزّنزانة ويَلوي عُنُقَ أبخرتها من على الباب ويُدخِلها من الفَتْحة لتستقرّ في تجاويف خياشيمي ، وتلعب هناك بشعيراتها الحسّاسة ، فيزداد شعوري بقدرتي الفائقة على معرفتها . بعد دقيقة أو دقيقتين ، يصل العسكريّ ، وقبل أن يفتح الطّاقة ويمدّ الصّينيّة من خلالها أكون قد قلتُ له : (ملوخيّة . . . أو يخنة بالباذنجان ، أو زهرة ، أو أرزّ ، أو شوربة عدس ، أو خبز ، أو بطاطا مسلوقة ، أو . . .) تفاجأ في أوّل مرّة عرفتُ فيها ما بين يديه ، ثمّ بدأت المُفاجآت تنسحب بالاعتِياد . ما أدركتُه : أنّ الرّائحة تسبق المادّة ، ولكلّ مادّة فلسفتُها الوجوديّة ، لا يُمكن أن تفهم فلسفة تلك المادّة إذا لم تكنْ قادِرًا على تمييز رائحتها!!

الليل ليس عتمةً فحسب ، إنّه حركة الذّبذبات ؛ في سكون الأمسيات الشّتويّة الطّويلة ، يأوي المساجين إلى النّوم ، وحدي أبقى مستيقظًا ، يبدأ اللّيل يقول شيئًا ثمّ أشياء أخرى كثيرة ، البداية من الإصغاء العميق ؛ وصلتُ إلى الحدّ الّذي كنتُ أكتُمُ فيه نَفَسي من أجل أن أستمع إلى ما يقوله اللّيل . . . عند اللّيل كلامٌ كثير ، لكنّه لا يقوله لأيّ أحدٍ ، كان عليّ أن أغادِرني لصالح اللّيل ، أترك كلّ هواجسي وأفكاري وعلاقاتي وأصدقائي في الخارج ، وآتي إلى اللّيل عارِيًا إلاّ منه ، أقف بين يديه ؛ كان عليّ أن أقف ، الجلوس في الليل لا

يُشجّعه على أن يقول ، حينَ تقف ، وتعقد يديكَ على صدرك ، وتُغمِضَ عينيك حتّى لا يدخل إلى عقلك شيءٌ سوى أمواج اللّيل ، وترفعَ صدركَ إلى الأمام ، وتُلقي برأسك إلى الوراء ، ثمّ تحبس أنفاسَك ؛ تكون قد دخلتَ أوّل طقسٍ في حديث اللّيلِ المُدهِش .

أصغِ ، فهناك مَنْ يقول . اصمتْ فهناك من يبوح بالسِّحر . ألقِ بكَ بين يديه فهناك مَنْ يُعطيكَ أفضلَ ممّا أعطيته ، هبْ له طاعتك ليهبَ لك سرّه ، ابذُلْ له تذلُّلك ليبذل لك فُيوضه .

أطبق الصّمتُ على كلّ شيءٍ وأنا واقفٌ ببابه ، اللّيلة باردة ، وساكنة ، ولا نأمة قَطّ . . . في المنطقة الفاصلة بين السّرّ والسِّحر تحرّكَ حفيفُه ، كان صوتًا خفيفًا لفّ روحي الباردة بشالٍ من غمام ، أشعر به يلمس كلّ مسامات جسدي الفاني ، نَسَماته تُحيط بكياني ، فتحَ مخيّلتي على المُطلَق ، فرأيتُ من أَثَر الّذي قال (لَنْ تَرانِي) ما لا يُرى ؛ من بعيد خيولٌ تركض في حقول خضراء ، وأشجار باسِقة تحفّ جانِبَي الطّريق ، اقتربتِ الخيول ، تحوّلتْ إلى وجوه أصدقائي ، بعضهم كان حزينًا ، قال نعمان : (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ) ، وقال سالم : (لأَذْبَحَنَّهُ) كان غاضِبًا ، فردّ عليه وَرْد : (أَفَتُمارُونَهُ عَلَى ما يَرَى) خرجتْ كلمات وَرْد من فمه على شكلِ هالاتٍ من النّور ، أمسك بها (سالم) وابتلعها . صهلتْ خيولهم الّتي كانوها ، تحوّلوا إليها ، ثمّ ركضتْ إلى البعيد لتعود من حيثُ أتتْ!!

ظَهَر شقيقي (نهاد) بعد أن غابوا ، قال لي : (بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الّذِي تَقولُ) ، نَفَرت الكلمات من فمه نُفور الماء من شقٍّ حابِسٍ ، وصمتَ بعدها على عادته ، وددتُ أن أُحادثه ، أن أقول له شيئًا ، ولكنّني كنتُ مسلوبًا من الكلام ، كنتُ فقط قادِرًا على الاستِماع ؛

هذه هي قوانين اللّيل حينَ يُحدّثك . جثا (نهاد) أمامي على رُكبتيه ، نظرتُ إليه بطرف عينيّ لم يكن بإمكاني أن أنحني لأعرف ما به ، دفن (نهاد) رأسه في رجليه وصدره ، وسكن لثوانٍ معدودة ، بعدها أحسستُ أنّ كتلته الجاثية عند قدميّ بدأتْ ترتجّ ، شيئًا فشيئًا . تعالَى ارتِجاجُها حتّى كاد يُفقِدني توازني ، سقطتْ دموعه على أصابع قدميّ ، فأحسستُ أنّ نارًا قد اشتعلتْ فيهما ، لم أستطع الحركة ، نظرتُ بعقلي إلى اللّيل ورجوته أن يطفئ النّار النّاشبة تحتي ، تحرّك الحفيف إليها ، لفّها برذاذ لُطفه فانطفأتْ . وقف (نهاد) واحتضنني ، شدّ بيديه وهو يحتضنني حتّى كاد يمزّق جسدي ، وكادَ اللّيل أن ينفضّ من المجلس ، أطلقْتُ صيحة استغاثة غير مسموعة ، ارتختْ قبضتا (نهاد) المُنزعِتان حول جذعي ، تداعى كأنّه كِيانٌ من ورق ، وذابَ كما لو كان قد هوى في بئر اللّيل . وأنا؟! سقطتُ من الحزن مثل حبّة جوز فارغة ، ونمتُ . في النّوم رأيتُني بلا يد ، وعندما استيقظتُ في الليل التّالي تحسّسْتُ موضعها لأتأكّد إذا ما كانت لا تزال في مكانها أم لا!!

منذ أربعينيّة اللّيل ، وأنا أقسم اليوم اللّيليّ إلى نصفين ، أسمّي الأوّل : اللّيل الصّباحي ، وأسمّي الثّاني : اللّيل المسائي . والرّوائح ارتبطتْ بطبيعة الحال بهذه الأنصاف ، صار لكلّ نصف طقوسُه وروائحُه ، اختلاط الرّوائح ممنوع ، ومن المعلوم من الرّائحة بالضّرورة ، أنّ موسم الرّائحة مُقدّس ، وأنّ هناك منطقة تُشبه الأعراف بين الجنّة والنّار ، وتُشبه البرزخ بين الحياة والموت ، هي الّتي يُمكن أن تستريح فيها خيول الرّائحة اللاهثة طوال الوقت ، لكي تُعيد الحيويّة والنّشاط إلى الذّهنيّة الرّائحيّة ، بتنظيف ساحاتها لاستقبال الجديد منها .

الطّعام الّذي يخون عبرَ رائحةٍ في غير موسمها كنتُ أرفض أن أتناوله ، أو آكل شيئًا منه ، أعيده إلى العسكريّ ، قائلاً له : هذا طعامٌ خائنٌ ، رائحته تقول إنّها في الموعد الخاطئ ، موعدها اللّيل المسائيّ وأنتَ تأتيني بها في اللّيل الصّباحي . في البداية ظنّ أنّني مجنون بحسب تعبيره ، الجنون نفسه في زنازين اللّيل يحتاج إلى إعادة تعريف ، مَنْ فينا المجنون يا تُرى!! في البداية كنتُ أصمت . فيما بعد حينَ كانت الرّوائح تخون ، كنتُ آخذ صحن الطّعام وأقلبه على أرضيّة الزنزانة ثمّ أطلب من العسكريّ أن ينظّفه . فيما بعد قلّتِ الخيانات ، ثمّ بعد عقود من اللّيالي اختفتْ تلك الخيانات إلى غير رجعة!!

(١٤)
التّاريخ خُطُواتٌ لاهِثَةٌ خَلْفَ العَدَم

التّـاريخ حَـرَكَـةٌ دائبـة ، وهو من أمـره في شَـأن ؛ يأكل ، يسـرق ، ينهش ، يضحك ، يسخر ، يتشفّى ، يلعن ، يهرب إلى الأمام ، يدوسك بأقدامه ويتركك خلفه تتخبّط في دم حيرتك ، يصفع المُصطفّين في طابور المتفرّجين على وجوههم : استفيقوا ؛ لا مكان للمتفرّجين ، ولا عزاء للواقفين! يتقدّم كذئب معتادٍ على اتّباع الرّائحة ، رائحة الدّم ، يشمّ فريسته طويلاً قبل أن تستقرّ في جوفه ، تتحلّل هناك ، ثمّ تخرج إلى المزبلة ؛ التّاريخ لا يرحم ؛ يُقبِل نحوك بابتسامة على مقاس الأفق ، تطمئنّ إلى طيبته ، يتقدّم بهدوءٍ لا يُمكّنك من أن تشكّ فيه ويُعانقُكَ طويلاً ، والمرآةُ الّتي خلفَكَ تُظهر اصطِكاكَ أسنانه فوق كتفيكَ من الغيظ ، والدّفء الّذي يتسللّ إلى بطنك هو خنجره الغائص في لحم معِدتك ، تسيل روحك مع قطراتِ دمك ، وأنتَ تطلق آخر صيحاتك البلِهاء نادبًا : كان عليّ ألاّ أثق به!! ولكنْ لا فوت!!

التّاريخ خطواتٌ لاهثة خلف العدم ، سائرة إلى الوادي ذي الجرف العميق ، ما كُنّا نقبله قبل الخطوة الأخيرة لم يعدْ ممكنًا أن نقبله بعدها ، وبين القَبْل والبَعْد لحظات معدودات ، لا يُمكن أن تتنبّأ بانقضائها إلاّ بعد أن تكون قد ابتلعتَ الطّعنة في الظّهر ؛ لا تُولّ للتّاريخ ظهرك ؛ فأنتَ لستَ أكبر منه ؛ وهو؟! لن يغضب ولن يتأثّر

بإهمالك له ، فقط سوف ينفي وجودكَ إلى العدم!!

مـا بين قـرارٍ وقـرار نعـيشُ جـزءًا من دورة الحـيـاة الّتي نكون نـحن أدوات تشكّلها ، نحاول أن نتصالح مع الماضي ؛ ننساه ، أو نُسامحه ، أو نلغيه من الذّاكرة!! ولكن : مَنِ الآثم فينا؟! نحن أم هو؟! حينَ نسيناه تذكّرَنا ، وحين سامَحْناه حقدَ علينا ، وحينَ ألغيْناه من الذّاكرة أثبَتَنا في ذاكرته المريضة ؛ ذاكرة القتل والتّشويه وسرقة الأحلام ، واختطاف الأمنيات!!

قرّر الرّئيس المُوقّر استحداث مساق إجباريّ في كلّيّة الهندسة باسم (٤٩٨ تدريب) وتغيير الخطّة الدّراسيّة لطلبة كلّيّة الهندسة ، لِتُضاف ستّ ساعات إجباريّة على الطّلاّب مع دَفْع رسومها ، السّاعة لِلطّلبة القُدامى بـ (١٠) دنانير ، مِمّا يعني أنّه سيدفع (٦٠) دينارًا ، أمّا الّذين وفدوا إلى الجامعة مسجّلين كطلبة بعد هذا القرار الصّادر في العام الدّراسيّ ١٩٨٥ – ١٩٨٦ ، فإنّهم مُطالَبون بدفْع (١٥) دينارًا للسّاعة مِمّا يعني أنّ هذه الرّسوم الإضافيّة على الخطّة تُكلّفهم (٩٠) دينارًا .

أوّل الخبر شائعة ؛ والشّائعة دائمًا مُغرِضة إذا لم تكنْ في صالح صانع القرار ، وغالبًا ما يُسارِع إلى نفْيها ، وتراه يطلب بلطفٍ زائف : أرجوكم تحرّوا الدّقّة في نقل الأخبار ، وإحالتها إلى مصادرها الصّحيحة . والمصدر الّذي تنتج عنه قرارات مثل هذه هو مجلس عمداء الجامعة ، الّذي كان كثيرًا ما يُختزَل بشخص الرّئيس ؛ فلقد كان يردّد بمناسبةٍ أو بدونها : «الجامعة كلّها واحد ونُص . أنا الواحد والباقي نُص»!!

تلقّى اليساريّون ؛ الشّيوعيّون والجبهة الشّعبيّة الخبر – الإشاعة

بجوع كبير إلى الحركة الّتي يُمكن أن تتوافق مع الهِياج الّذي كانت تعيشهُ العقول في تلك الفترة بسبب ضعف عمل الجمعيّات الطّلاّبيّة ، وعدم قدرتها على تحقيق مصالح الطّلاب ، وسكوتها المَريب في أكثر من حادثة .

بدأ الشّيوعيّون يُشيعون هم وسواهم مِمّن شايَعهم الشّائعة على أنّها خبرٌ أكيدٌ ، وأنّ الجامعة تحوّلتْ إلى مقصلة ، مرّة برمْيها مئات الطّلبة خارج الجامعة في الشّوارع بعد قرار المعدّل التّراكميّ ، ومرّة ثانية بسحقها لجيوب المُعدَمين والمُعوزين والفقراء بفرض رسوم لا يستطيعها ميسورو الحال ، فما بالك بالّذين (لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا)؟! كان الرّقم (٩٠) دينارًا بالفعل رقمًا كبيرًا على كثيرٍ من أولياء أمور الطّلبة ، ولم يكنْ يخفى على أحد أنّ هناك نماذج من الطّلبة – وهم عدد غير قليل – كانوا يدرسون فصلاً دراسيًا ويؤجّلون فصلاً دراسيًا آخر يعملون فيه من أجل جمع الرّسوم الكافية للفصل اللاحق ، وبعضهم كان يقسم أيّام الأسبوع نصفين ، نصفها للدّراسة ، والنّصف الآخر للعمل ، وصنفٌ ثالثٌ كان يضع محاضراته في المساء بعد الثّالثة لكيْ يتمكّن من العمل في الصّباح أو العكس . (توفيق) مثالٌ حيٌّ على ذلك ؛ عملَ حجّارًا ، تخيّلوا أنا رأيتُه في هذا العمل القاسي . كانت هناك محجرة على مثلّث (دير يوسف) ، تأخذ حيّزًا كبيرًا من الجبل الصّخريّ الواقع على يسار الذّاهب إلى (عجلون) . قرّرتُ مرّة أن أزوره أنا وصالح جرادات فهو ابن بلدته ، وكلاهما من (دِمْنة) إحدى القرى الواقعة في محافظة الكرك . مشينا أنا وصالح إلى دوّار النّسيم ، ومن هناك كانت تمرّ باصات (دير يوسف) و(حَبَكا) القادمة من المجمّع القديم ، كان ذلك في أحد أيّام الصّيف اللاهبة ، وصلْنا المحجرة السّاعة

الثّانية ظهرًا ، ودخلنا إلى السّاحة الّتي يعمل فيها الحجّارون ؛ وكم دُهشْتُ لمنظره ؛ كان جالسًا على قفاه ، مادًا إحدى رجليه أمامه ، وثانيًا الأخرى تحته ، ومُمْسكًا بإحدى يديه إزميلاً ، وبالأخرى منقاشًا ، يطرق المنقاش بالإزميل على صفحة حجر أبيض أملس . كانت السّاحة تمتلئ بغبرة الحجارة البيضاء ، وكانت هذه الغبرة تغلّف كلّ شيءٍ يحيط بها ، بدا التّعب على وجهه الأسمر الّذي ابيضّ لكثرة ما علاه من هذا الغُبار ، رموش عينيه وحواجبه كانت كذلك بيضاء ، كلّما ضرب بالإزميل على المنقاش ضربات متتابعات ، أراح نفسه قليلاً ، وربّما استغلّ ذلك لمسح عرقه الّذي يتصبّب فوق جبهته بطرف قميصه ، راقبْناه أنا وصالح من بعيد ، كان يبدو سعيدًا رغم التّعب الّذي يرتسم على وجهه ، ولربّما مرّتْ به لحظات يطرق فيها بالمنقاش والإزميل فوق الحجر بإيقاع موسيقيّ ويردّد مع هذا الإيقاع بعض الأشعار أو الأغاني . حينَ باغتْناه بالسلام عليه والظّهور فجأةً أمامه ، قام وعانقنا ، واعتذر عن اتّساخ ملابسه . في ذلك اليوم قضينا المساء كلّه عنده ، صنعْنا الشّاي على الحطب ، وشربْناه تحت أشجار اللزّاب والسّرو القريبة من المحجر . كان راضيًا عن نفسه ؛ قال : لا يملك أبي ثمن الباص الّذي يأتي بي من الكرك إلى هنا . والشّغل مش عيب . ورسوم دراستي أدفعها من عملي هنا .

بالفعل خجلتُ من نفسي ، أنا الّذي تأتيني رسوم التّسجيل ومصاريف الحياة جاهزةً طيّبة باردةً من أهلي دون أن أقدّر هذه النّعمة . وعلى أيّة حال فقد تمنّيتُ أن تكون لديّ هذه النّفسيّة العالية الّتي يمتلكها (توفيق) .

في وقتٍ متأخّر من اللّيل تركناه ليبيت في محجره ، قلتُ له :

بالتّوفيق يا توفيق . ومشينا أنا وصالح حتّى وصلنا الطّريق العامّ ، ووقفْنا هناك ربّما لساعة حتّى جاء أحد (البكبات) وقَبل أن يُوصِلنا إلى إربد .

كان عام ١٩٨٥ هو العام الأشهر بالنّسبة للإسلاميّين في استلام الجمعيّات الطّلاّبيّة ، حقّقوا انتصارًا ساحِقًا على كلّ التوجّهات الأخرى ، واستطاعوا بتنظيم بسيطٍ لصفوفهم ، واستخدام الخِطاب الدّينيّ الأقرب إلى الفِطرة والقلب ، والتّحرّك المدروس المدعوم من المسؤولين عنهم في الخارج أن يكتسحوا ما يزيد عن ٩٠ ٪ من الأصوات .

بيد أنّ هذا الانتصار المُدوّي بدا في نظر الّذين لم يقف الحظّ إلى جانبهم على أنّه رَقْصٌ في مأتم ، ولَعِبٌ برؤوس جُثث ميّتة . كانت الحركة الطّلاّبيّة في تلك الفترة تُعاني من ترهّل غير مسبوق ، ومع أنّ الصّوتَ كان عالِيًا ، والجامعة تضجّ بالحركة ، وتنفتح على كلّ مُمْكِن ، إلاّ أنّ الخلفيّة الفكريّة للحركات المُؤدْلجة لم تنجح في إعادة لُحمة منتسبيها ، باستثناء التّيّار الإسلاميّ الّذي نجا من هذه التّهمة قليلاً . ولكنْ لا يُمكنْ استبعاد هذا التّيّار من هذه التّهمة بشكلٍ كامل!!

انفرطَ عقد اليساريّين بشكلٍ واضح ، الشّيوعيّون الّذين ظلّوا يُصدّعون الرّؤوس بأنّهم تقدّميّون ، تبيّن بأنّ أفكارهم التّقدّميّة هي أوّل من كذّبهم ، فما زالتْ منذ مطلع القرن العشرين هي هي ، ونحن في نهايته ، وما طُبّق في روسيا وتشيكسلوفاكيا وبولونيا ويوغسلافيا ورومانيا هو ذاته الّذي يُطبّق في البلاد العربيّة ، وإذا كانت الخصوصيّة في البلاد العربيّة نفسها تختلف من بلدٍ إلى آخر ، فما بالك بِما قَدِم من أفكار شيوعيّة من بلاد ذات طبيعة مجتمعيّة وإنتاجيّة وجغرافيّة مختلفة!!

عوّض الكثيرون من اليساريّين عن صِغَر حجمهم ووجودهم بافتعال عداوات مع بعضهم بعضًا بدرجة أوّليّة ، ومع الاتّجاه الإسلاميّ بدرجةٍ أكبر . وبدا أنّ العرس الدّيمقراطيّ الّذي كنّا ننضوي تحت خيمته جميعًا قبل عام ١٩٨٥ قد انفضّ ، وذهبت السّكرة وجاءت الفكرة . نعم بدأتْ نُذُر الشّرّ تلوح في الأفق ؛ اتّهم اليساريّون الإسلاميّين بأنّهم لا يعملون وبأنّهم إقصائيّون ، وردّ عليهم الإسلاميّون : وأنتم ما حجمكم في السّاحة حتّى تتشدّقوا بهذا الكلام؟! وظللْنا لعامٍ كامل لا نتقن إلاّ كيل الاتّهامات ، وتربّص كلّ طرفٍ بالآخر مع كلّ فرصةٍ سانحة ، ولولا أنّ حَدَثًا كبيرًا تاريخيًّا عاد ليجمعنا من جديد لكنّا نتعارك بالأيدي والألسن داخل حرم الجامعة ، ولكنّ الله سلّم .

أطلق اليساريّون الطّلقة الأخيرة في وجه الإسلاميّين : الجمعيّات كلّها بين أيديكم وأنتم لا تعملون شيئًا ، القرارات تأتي تِباعًا من إدارة الجامعة وأنتم تتفرّجون ، الرّئيس يُصدِر فَرَمانًا بعد فرَمان يفرم به أجسادنا وأنتم تصمتون كأنّ الأمر لا يعنيكم ولا يعنينا ، ارتفاع الرّسوم يُنذِر بارتفاع أعناق آبائنا على مشنقة الفقر وأنتم لا تقومون إلاّ بإحصاء عدد هذه المشانق ، عمادة شؤون الطّلبة ترتكب مجزرة بحقّ كُتلتنا الطّلابيّة الواحدة وأنتم ما زلتم تعيشون نشوة الانتصار المزعوم ، تعدّدون الأرقام الفلكيّة الّتي حصلتم عليها في الانتخابات ، وتُحصون عدد الجمعيّات الّتي فزتم فيها ، هل من موقفٍ يستحقّ وصف (الغباء) أكثر من هذا الموقف؟!! تحرّكوا يا مَنْ تدّعون الوقوف إلى جانب زملائكم الطّلبة ، قولوا شيئًا أيّها الصّامتون صمت الحجارة ، انتفضوا قليلاً أيّها المُتفرّجون على نَحْرنا جميعًا ، أتعتقدون أنّ السّكين لن تصل إلى

أعناقكم ، هِيَ ذاتها الّتي أجهزتْ علينا ستُجهِز عليكم ولو بعدَ حين!!

كانت الاتّهامات قاتِلة ، وذابِحة ، ونافِثة . رصاصات طائشة أطلقها اليساريّون فأربكت الإسلاميّين ، ولم تكَنْ كلّها برئية ، كان كثيرٌ منها تشفّيًا بالشّلل الّذي أصاب جسم الجمعيّات الّتي لم تستطع أن تقف على قدميها ، في حين أنّ الحالة لا تستدعي الوقوف فحسب ، بل وتستدعي القِتال والمُقاومة حتّى آخر رمق .

والجامعة فعلتْ ما لم نكنْ نتوقّعه ، كنّا نأمل أن نُستشار ، ولو كانت هذه الاستشارة لبعض رؤساء الجمعيّات في مثل هذه القرارات الحاسِمة لتجنّبتِ الجامعة ما لا يُحمَد عُقباه ، ولكنّ صانعي القرار يعتقدون أنفسهم سادةً وحدهم ، وما دونهم عبيدًا ، فهل يستشير السّيّدُ عبدَه؟!!

بلى ؛ لقد كان قرار رفع الرسوم مفاجِئا . . . ومُحزِنًا . . . ومربِكًا . . . وأعترف أنّ الوقوف أمامه والتّصدّي له ومقاومته استدعى نفيرًا عامًّا على كافّة الأصعدة!!

(١٥)
ما الّذي يَصْنعُ مِنَ الإنسانِ إنسانًا؟!

طرقَ الباب بعنف ، وصاح بازدراء : وَرْد . . . وَله يا وَرْد . . .

استيقظتُ على صوت صُراخه المؤذي ، عرجتُ وأنا أحاول أن أنتعل حذائي ، وخرجتُ مسرِعًا ؛ لأواجهه أمام الباب ، فركتُ عينيّ لأراه بوضوح ، كاد يبصق في وجهي ، أو يلطمني ، لولا أنّ يده المتشنّجة تسمّرتْ في مكانها كأنّ قَدَرًا خفيًّا كان يُمسكها أن تقع على وجهي ، اصطكّتْ أسنانه قبل أن ينفث ثورته ، ويفرّغ غضبَه :

– خُذْ . . . (ومدّ إليّ بحقيبة . . ثمّ تابَعَ) :

– لولا أنّ أختي ربّتْني بعد موت أمّي ، لما رضيتُ أن آتيك منها بشيء . . . ولماذا عليّ أن أساعدَ فاشِلاً يظنّ أنّ تخرّجه في الهندسة يصنع منه إنسانًا!!

رحّبْتُ به ، وأنا أدعوه إلى الدّخول :

– وما الّذي يصنع من الإنسان إنسانًا يا خالي العزيز؟!!

– الكتاب . . . الكتاب يا جاهل . . . الكتاب يا مُغفّل . . . الكتِاااااب . . .!!

– يا خالي . . . لماذا تُصرّ على أن تنعتني بهذه النّعوت الجميلة؟!

– دَعْني أخبرْك بحقيقة اكتشفتُها بعد أن قرأتُ ألف كتابٍ ، وربّما سأكتشف حقيقةً جديدةً بعدَ الألف الثّانية!!

– نعم . .!!!

– الكُتب ذواتنا المُضيَّعة ؛ نتعرّف إليها حينَ نبدأ بتقليب صفحاتِ كتابٍ ما ، نعرفها حينَ نبدأ القراءة ، تعرفنا حينَ نُنهي القراءة!!

– لم أفقهْ كثيرًا ممّا تقول!!

– طبيعيّ . . . فكّرْ بما قلتُهُ لك وأنت تُعِدّ لنا شايًا بالنّعنع . . . قلتَ لي إنّ (نعيمة) تزرع في حاكورتها شتلاتٍ من النّعنع المُشعشَع ، دعْنا نتذوّق الشّاي به في هذا الصّباح . . . شيئًا واحدًا مُفيدًا يا ابن أختي . . .

– ليست هذه هي المرّة الوحيدة الّتي أصنع لك فيها شيئًا مفيدًا يا خالي ؛ أليسَ كذلك؟!

– صحيح . . . صحيح . . .

وضعتُ الحقيبةَ الّتي جاء بها خالي ، على يمين باب الغرفة ، وهبطتُ الدّرجات لآتي بشتلةِ النّعنع للشّاي ، جاءني صوتُهُ وأنا أهبط الدّرجات من بعيد ، فأوقفني في مُنتَصفها :

– مَنْ رمى خلفه بكتابٍ دون أن يفقهه كأنّما رمى بمِفتاحِ بيتٍ دون أن يدخله .

– حاضِر يا خالي . . . حاضر يا خالي . . . (قلتُ ذلك وأنا أُدير وجهي إلى الأعلى وأصيح ليسمعني) .

رشفَ شفةً طويلةً من الكأس ، وأطلق بعدها تنهيدةً أطول : نابلس تضيع يا وَرْد ، ما كان جميلاً بالأمس شوّهتْهُ أيدي الرّجعيّة ، لم يعدْ من وجه للمدينة ، كلّما جئتُها أطلبُ السّلوّ من مُحيطات بؤسي غرقتُ في حزنها هي ، وبدل أن أبرأ مِمّا تراكم على صدري من الهموم ، أراني

تحوّلتُ إلى مسخ من أمساخ (كافكا) ، وأنا أتلوّى كحصانٍ عجوز أطلقوا عليه ألفَ رصاصةً ، كلانا ضحيّة يا صديقي!!

وفي حاراتها القديمة ماذا أجد؟! حُبًّا ضاع بالرّحيل ، أم جنّة تحوّلتْ إلى جحيم بالاحتلال ، أمّي ماتتْ وأنا في الرّابعة ، لا أتذكّر سوى اجتماع عددٍ كبيرٍ من النّسوة في الغرفة الغربيّة ، بعيدًا عن أعين الرّجال ، جلسْنَ في دائرةٍ كبيرةٍ ورُحنْ ينحبْنَ ، بعضُ النّساء خلعنَ حجابهنّ ورحنَ يشددن شعورهنّ ويصرخنَ بصوتٍ عالٍ ، قامتْ أختي الكبرى وأغلقت باب الغرفة حتّى لا يصل الصّوتُ إلى الرّجال ، وعادتْ إلى الحلقة النّادِبة ، من بعيد رأيتُها تبكي بصمت ، تتقاطر دموعها على خدّيها وهي تمسحُها بين لحظةٍ وأخرى ، وتنشق نشقةً طويلة تُسكتُ بها صرخةً مكتومةً تكادُ تفرّ من الأفواه!!

أختي الكُبرى أصبحت أمّي بعد موت أمّي ، عنيتْ بنا - نحن الإخوة - جميعًا ، وكنّا صِغارًا ، أنا في الرّابعة ، وعليّ في الخامسة ، ونورة في الثّانية ، وهي؟! لم تكنْ تتجاوز السّابعة ، ولكنّ رحيل أمّنا المُفاجِئ ألجأها إلى أن تتولّى مكانها ؛ وكان ذلك عبئًا ثقيلاً ؛ غير أنّها عوّضتْ كثيرًا عن الغياب القسريّ الّذي لم نكنْ نفهمه ، ولم يكنْ أحدٌ يستطيع له ردًّا .

هي الّتي كانت تخبز الخبز في الفرن الطّينيّ المستقرّ على يمين الدّاخل من بوّابة الدّار الكُبرَى ، تعجنُ في اللّيل ، وتركنُ العجين في زاوية الغرفة ، وتنتظر الفجر قبل الشّروق ، ثمّ تهبط الدّرجات من الغرف العلويّة إلى ساحة البيت عند المدخل ، وهي تحمل (لقن) العجين فوق رأسِها كأنّها امرأةٌ كبيرةٌ ناضِجة ، وتصل الفرن لتوقِدَ النّار في التنّور ، وتبدأ رَقَّ العجين على حجرٍ دائريّ قالت لي فيما بعد إنّه قاعدة أحد

الأعـمـدة الأثريّة ، وتدفع بالعـجين المرقـوق إلى داخل الفـرن بمهـارةٍ اكتسبَتْها لطول المُعايشة ، وتتصاعد رائحة الخبز السّاحرة ، تدخل إلى أعماق روحي فأنتشي ، في الصّيف كانت أختي تمسح عرقَها عن جبينها لشدّة الحرارة المنبعثة من الفرن ومن الجوّ ، وفي الشّتاء كانت حرارة الفرن تدفّئ كلّ من يجلس حول أختي منّا نحن الإخوة جميعًا .

المصائب تزيدُ في أعمار النّاس ، موتُ أمّي دفعَ بعمر أختي عشر سنين إلى الأمام ، نحنُ نولدَ بالقَدَر ، ونكبرُ بالمصيبة ، ونقلّ بالموت ؛ فأيُّ حياةٍ هذه؟! كانت أختي الكُبرى قد ملأتْ حياتَنا جميًعا ؛ الطّعام يُعدّ في مواعيده على يديها ، ويُقدّم على يديها ، وهي الّتي تغسل ، وتنشر ، وتلمّ ، وتنظّف وسَخنا ، وقاذوراتنا الخارجة من أقفيتنا ، وتمسحُ دموعنا المنحدرة على خدودنا بسببٍ أو من دون سبب ، وتسحب الغطاء على أجسامنا الصّغيرة في الليل ، وتُدفِئنا في الشّتاء ، وتوقظنا في الصّباح ، وتختار لنا ملابسنا ، وتخلعها عنّا ، وتُلبِسنا سواها ، وتراقب مواعيد الطّعام ، والمدرسة ، والذّهاب ، والإياب ، وحينَ كبرنا قليلاً كانت تُمسِك بكتبنا وتُعلّمنا واحِدًا واحِدًا . . . ولم أرها في حياتي شاكيةً ، ولا باكيةً إلاّ في ذلك اليوم الّذي فقدنا فيه أمّنا . . . ولا أدري إنْ كانت تفعل ذلك سِرًّا بينها وبين نفسها بعيدًا عن أعيننا حتّى لا نرى دمعةَ حزنٍ أو بؤسٍ واحدة تسقط من عينيها!!

مَنْ كانت هذه الصّبيّة الصّغيرة الّتي قامت بدور الملائكة في رعايتنا ، وحَمْلِ همّنا؟! وأبي؟! كان أكثر دهره صامِتًا كأنّ الدّار الّتي أقلّته منذ عقدٍ من الزّمان بعد أن ورثها عن أبيه قد انهدّ جدارها فوق ظهره ، وانحطم سورها على صدره ، فصار يمشي ولا يدري أنّه يمشي . . . كئيبًا ، وحيدًا ، وفي غَور عينه آلاف الدّموع الّتي تتراكم منتظرةً لحظةً

خاليةً لكي تسيل ، ولكنّه حُرِمَ حتّى من هذه اللّحظة ، فعاش مذهولاً كأنّه لا يُدركُ ما يدور حوله!!

لم أعرف اليُتم إلاّ من لقطةٍ واحدة في ذلك اليوم الّذي رأيتُ فيه النّساء يَجتمعْنَ ويبكينَ . . . قالوا لي : إنّ أمّنا قد ماتت ، لم يشكّل ذلك كبير فرق بالنّسبة لطفلٍ في الرابعة مثلي . ولكنّني شعرتُ باليُتم الحقيقي عندما قِيلَ لنا إنّ (شاهر) العامل في ورشةٍ كهربائيّة في البلدة القديمة يتقدّم لأبي كي يتزوّج من (سارة) ، كانت (سارة) قد بلغتِ السّابعة عشرة من عمرها ، وآن لها أن تجد طريقها في غير البؤس الّذي حملتْه راضيةً فوق ظهرها منذ رحيل أمّنا المُباغت .

ووافق أبي ، ورحلتْ (سارة) إلى بيت (شاهر) ، وخلتْ دارُنا من بعدها ، وصارتْ خاويةً على عروشها ، وامتدّتْ ظِلال الحزن في أرجائها ، تُعرّش فوق جدرانها ، وتمدّ أغصانها السّوداء على كلّ حجارتها ، وبعد يوم واحدٍ انهدّ كلّ شيء ، وسقطتْ روحي في الغياب والقهر ، وتدحرجتْ على الطّرقات ، وحينَها فقط شعرتُ باليُتم الحقيقيّ ؛ إنّها أمّك الآن وهنيئًا لك بها يا وَرْد .

تعرف أنّني تمرّدتُ على نفسي وعلى أبي حينَ كبرتُ ، وسافرتُ مغتاظًا إلى لندن وأنا في السّادسة عشرة من عمري لكي أرى حياتي وطريقي ، وعشتُ كما أهوى ، ورأيتُ الغرب وتحرّره ، واقتنعتُ بكثيرٍ من أفكاره وعاداته ، غير أنّ أقصى ما أتمنّاه اليومَ أن أعيش في أكنافِ أختي ، وأمسّح خدّيّ بقدميها عِرفانًا لها بالجميل . إنّ حضارات الدّنيا كلّها تصنعها امرأةٌ متفانية مثل أمّك!!

أتعرفُ لماذا آتيكَ بالأغراض منها ، مع أنّ أبي لو طلب منّي ذلك فلربّما أرفض ، أمّا هي فلو طلبتْ منّي أن آتيكَ مشيًا على الأقدام من

نابلس ، أو حبوًا على البطن من هناك لفعلتُ إكرامًا لها . كنتُ ألعبُ بالحصى والأعواد والكرات القماشيّة في الحارات وأعود خَلْقًا آخر ، وقد اغبرّ وجهي ، واتّسختْ ملابسي ، وأعلم أن صرخةً واحدةً من أبي قد ينخلع لها فؤادي ، غير أنّني أدرك في المقابل أنّ بسمةً واحدةً من أختي سوف تجعل سحابات الطّمأنينة تلفّ روحي ، وبالفعل تستقبلني على البوّابة الكبيرة كمن تخشى على تأخّري ، بسمتها الصّافية تُزيل كلّ أذىً في الرّوح أو في القلب ، تمدّ يديها كمن تستقبل غائبًا مُنتَظَرًا ، وبكلّ الحبّ تحتضنني ، ثمّ تُمسك بيدي ، وتدخلني إلى الحمّام ، تُعيدني خَلْقًا آخر ، تُمشّط لي شعري ، وتقول : انظر في المرأة . . . آه . . . كم أنتَ جميل!! تخيّل : أنّني عرفتُ الجمال كلّه على يديها ، وكلّ دراستي في لندن لم تُضف إلى قيمة الجمال الّذي تعلّمْتُه منها شيئًا!!

حينَ رحلتْ إلى أبيكَ رحل كلّ شيء معها ، ولهذا قرّرتُ ألاّ آسى على شيءٍ يُمكن أن أفقده ما دمتُ قد فقدتُ وجودها في حياتي . . . انهرتُ في الأسابيع الأولى ، وانطويتُ على نفسي ، واختليتُ بي . . . ثمّ في لحظةٍ فارقة ، تركتُ كلّ شيءٍ خلفي إخوتي وأخواتي وأبي ؛ ولم يعد شيءٌ هناك يربطنا بنابلس كلّها إلاّ (سارة) . . . وحينَ أزورها كلّ عام مرّة ، أزورها لأجلها لا لأجل أيّ شيءٍ آخر . . . واليوم وبعد كلّ هذهِ السّنين أتمنّى أنّ أمّي كانت تحبّني مثلها . . . يتنهّد طويلاً ، ثمّ يُتابع : ليت أمّي كانت تُحبّني مثلما تحبّك أختي . . . ومَنْ كان يدري ، لكنّها رحلتْ قبل الأوان . . .!!!

***

علاقتي المتقطّعة بخالي ، أرتْني – ربّما – الوجه القبيح له أكثر من ذلك الوجه الجميل ؛ لكنّني مع الزّمن اكتشفتُ أنّ لخالي وجهًا جميلاً يبرز من بين شتائمه المُتلاحقة لي ، ويطلع من بين دُخان سجائره المُتراقص أمامي .

غير أنّه على كثرة المفاسد الّتي كانت تنزل على رأسي كأنّها سِهامٌ صدئة تخترق نقاء ما تربّيتُ عليه في مسجد (البيك) في البلدة القديمة ؛ إلاّ أنّني تعلّمتُ منه شيئًا واحدًا مُفيدًا ورائعًا ، ولو لم يكنْ له من فضلٍ عليّ إلاّ هو لكان كافِيًا من أجل أن يرمّم أجزاء تلك الصّورة السّوداء المنطبعة في ذهني عنه ، ويُعيد إليّ بهاءها ، وجمال ألوانها ؛ ذلك الشيء كان : حبّ القراءة .

في مسجد (البيك) حفظْنا أنا ومجموعةٌ من زملاء المرحلة الدّراسيّة عشرة أجزاء من القرآن الكريم ، وكنّا بعد صلاة فجرِ كلّ جمعة نتلاقى في أحد الملاعب القريبة من المسجد ، ونلعب كرة القدم ، وبعضُنا يلعب كرة الطّائرة ، وبعد أن تنتهي الأشواط ، نجلس في حلقات دائريّة على طرف الملعب ، كلّ ستّةٍ في حلقة ، ونتناول الفَطور ، الّذي هو – عادةً – حمّص وفول وفلافل ، ومتبّل أحيانًا ، وبعض المُخلّلات . كان عصر مسجد (البيك) عصرًا ذهبيًّا ، كوّن لدينا حِسًّا بالعمل الجماعيّ لا يُمكن أن ننسى أثره الطّيّب فينا فيما بعد .

حالَما ننتهي من وجبة الفَطور ، كنّا نوسّع الدّائرة باجتماعنا في حَلَقةٍ واحدة ، في عددٍ يزيد عن الثلاثين ، ونقرأ بشكلٍ جماعيّ أذكار الصّباح : (المأثورات) ، ولا أنسى ما كُنّا نكتسبه في القلب والرّوح والوجدان من تكرار هذه الأدعية ، وخصوصًا ما تضمّنتْه من آيات خالِدات ؛ لن أنسى صوت الشّيخ (أسامة) وهو يرتّل قوله تعالى : (آمنَ

الرّسولُ بما أُنزِلَ إليه من ربِّهِ والمُؤمِنون) . وكثيرًا ما كان الشّيخ نفسه يُتحِفُنا بصوتٍ نديّ ساحِر ببعض الأناشيد الّتي حفِظناها عن ظهر قلب ، كان يجود بما يهوى من هذه الأناشيد ، ولكنّه يختمها بأنشودة : (هو الحقُّ يحشُدُ أجنادَهُ) ، وحينَ يأتي دور هذه الأنشودة ، نقف جميعًا من أجل أن نرتّلها ، كانت تستحقّ الوقوف وتستدعيه .

على الضّفّة الأخرى من الحياة ، نشأ خالي ناقِمًا على نفسه ، انعزل عن النّاس بعد زواج أمّي ، وانكفأ على نفسه ، واختار أن يبقى بعيدًا عن كلّ الأعين ، راثِيًا لحال أسرته ، مُشفِقًا على أمّي بسبب ما تحمّلتْه من مسؤوليّة جسيمة تُجاهه وتُجاه بقيّة أخوالي وخالاتي . ولم يكنْ يستطيع أن يفعل لها شيئًا ، فقد كان جدّي نفسه يُداري مرارة الواقع بدَفْنِ وجهه بين يديه كي لا يره أولادُه باكِيًا!!

عوّض خالي حالةَ النّكوص الّتي اختارها لذاته بشيءٍ واحدٍ وجد فيه سلوته ؛ القراءة . تهيّأ له أستاذ ماركسيّ في المدرسة كان يُلقمه بالأدبيّات الماركسيّة ، ويحشو دِماغه بلينين وهيجل وسارتر ، ووجد خالي في القراءة فرصةً ثمينةً للهروب من الواقع ومن أيّ تَبِعات ؛ كان يقرأ في كلّ يوم تقريبًا كتابًا ، ولم يكن يُعير دراستهُ أيّ اهتمام ، واطّلاعه على الأدب الغربي ، كوّن عنده نظرةً استعلائيّة على الآخرين ، فكان يعمد دائمًا إلى سؤالهم عن شاعرٍ أو فنّان أو موسيقيّ أوروبيّ أو أمريكيّ ينفرد هو بكمّ هائلٍ من المعلومات عنه ، ويُباغت بها سائلَه لكي يشعر بزهو الانتصار ، وبتفوّقه عليه ، فعل معي ذلك مرّات كثيرة ، في البداية كنتُ أنزعج ، لكنّني فيما بعد صرتُ انتظر ذلك منه لأنّني أعلم أنّها يُمكن أن تكون إشارةً جيّدة لأبدأ القراءة حول الموضوع والاستِزادة منه ، وسعيًا منّي لتخفيف حدّة الاستهزاء الّتي

كان يُدمنها خالي رحتُ أحاول التّخلّص من ذلك بالقراءة ، وبالقراءة انفتحتْ لي عوالم لم أكنْ لأراها من قبل ؛ القراءة نافذةُ القارئ على السِّحر ، ومَنْ قرأ كتابًا فتح نافذةً جديدة .

مكث خالي في بريطانيا سنواتٍ لم يُحصّل فيها شهادةً ، قضاها يقرأ بالإنكليزيّة كلّ ما كتب شكسبير وملتون وإليوت وشيلي وبايرون وجون كيتس ، وآخرون . . . وهو هنا يفعل الشّيء ذاته ، سنواته الخمس في اليرموك لم تُلقِ بشهادة البكالوريوس في الأدب الإنجليزيّ بين يديه ، ولا أحد يدري كم سيبقى من سنواتٍ أُخر قبل أن تسقط تلك الشّهادة في تلك اليد!!

(١٦)
العِشقُ أكبرُ مِنَ الجُنون

أهلي قالوا لي بعد بضعة أشهر من رحيله إلى المَلَكوت الأعلى : عليكِ أن تجدي طريقكِ ؛ هو عليه رحمةُ الله ، أمّا أنتِ فلماذا تدفنينَ نفسكِ في القيعان المُظلِمة وأنتِ شابّةٌ جميلة؟!

وما دَرَوا أنّه رحل ورحلتْ معه الطّريق ، فكيف أجد من بعده طريقًا تدلّني عليّ!! وهو الّذي كان رحيله رحيل كلّ شيءٍ معه ؛ الطّريق ، والحياة ، والنّور ، والأمسيات ، والشّمس ، والقمر ، و . . . وأنا . . . أخذ كلّ شيءٍ وأبقى سلّةً من الذّكريات لا أستطيع أن أهرب منها!! وإلى أين الهرب وهو حاضِرٌ في كلّ شيءٍ؟!! أيكون الهرب منه إليه ، أتكون نجاتي به كنجاتي منه؟! وإذا كان من هلاكٍ ينتظرني في آخر العمر ، ففي هذا الهلاك البُشرى بلقائه ؛ ما أجملَ النّهاية حينَ تكون من أجله .

جميلة؟! وما كنتُ جميلةً إلاّ له ، كان حضوره في حياتي يبعث الدّماء في عروقي فأبدو عروسًا من خلال بريق عينَيه . ماذا أفعل اليوم من دونهما ، وقد أظلمتِ الدّروب ، وسُدّت الطّرق ، وابتعلتْني حُفَر الحزن ، وقضتْ على شبابي آهاتُ الفِراق؟! لم يكنْ للجَمال معنى إلاّ حينَ أنظر إليه بفؤاد الوالهة السّكرى ، ولم يكنْ للأيّام طعمٌ إلاّ حينَ تكون يدي المرتجفة تنام في يده الحانية!! ما من مرّة لمستْ يداه كفّيَّ إلاّ

نبتتْ في عروقهما الرّياحين ، وعبقتْ في فضائهما الأشذاء العاطِرة . وما من مرّة مشيتُ إلى جانِبه إلاّ شعرتُ أنّني ملكةٌ تسير بجوار مَلِكها المُتوّج على عرش الفؤاد .

الجمال لا يُعرّف بالحُسنِ في الوجه ، إنّما بحلول مَنْ تحبُّ في الشّغاف . وهو ؛ كان الشّغاف وكان السّويداء وكان القلب ، وكان كلّ شيء!!!

وقفتُ أمامها ، صورةٌ قديمة يعود تاريخُها إلى عام ١٩٤٩ ، بالأبيض والأسود ، واضحةٌ رغم قِدَمها ، يبدو أنّ الّذي قام بالتقاطها هو مُصوّرٌ مُحترِف ، على يمين الصّورة وقف (ناصر) ؛ قَدٌّ مَمشوق ، وصدرٌ مرفوعٌ ، وخوذةٌ تغطّي نصف الرّأس ، وابتسامة بيضاء مُشعّة ، وإلى جانبه وقف رفيق دربه (وفيق) أطول منه قليلاً ، لكنّه يبدو أقلّ جدّيّة ، كان يُمسك الخوذة بيده اليُسرى ، ويلفّ اليمنى راكِزًا إياها على وسطه وضاحِكًا ملء فمه . خلفهما تظهر ثلاث طائرات مُقاتلة ، رابضة بشكل متعامد على الأرض ، وفي الإطار الأبعد من الصّورة يظهر عدد من الطّيارات تحوّلتْ إلى خيالات لبعدها من مركز الصّورة ، مساحةٌ شاسعة من مدرج الطّائرات بدتْ خالِيةً ، وعلى أرضيّة هذا المدرج تظهر خطوط بيضاء مستقيمة مرّت إحداها من تحت أقدام ناصر ، واستمرّت في التوغّل إلى آخر الصّورة . قالت نعيمة : هذه الصّورة بعد إحدى الطّلعات الّتي نفّذها زوجي مع رفيقه ، كانت طلعة قِتاليّة ، نال بعدها كلٌّ منهما وِسامًا من الملك عبد الله الأوّل . ثمّ أشارت إلى إطار آخر كان يرقد بجانب الصّورة ، وقد انقسم إلى نصفين ، في النّصف الأوّل صحيفةٌ عبريّة تكتب خبرًا عن هذه الطّلعة ، وفي الخبر صورة الطّيّار (ناصر) ، وتحته بالخطّ عريض : مجرمٌ إرهابيّ يخترق سماء وطننا

المقدّس . وفي النّصف السفليّ صورةٌ شبيهةٌ بالصّورة العلويّة ، والخبر في صحيفة عربيّة ، وبالخطّ العريض : صقرٌ من صقورنا وبطلٌ من أبطالنا يخترق سماء العدوّ . قلتُ في نفسي : تشابهت الأخبار واختلفت الصّفات في الموصوف الواحد ؛ الأبطال ليسوا أبطالاً إلاّ من وجهة نظر مُقدّسيهم ، والمجرمون ليسوا مجرمين إلاّ في ذهنيّة أعدائهم!!

دُرنا حول الطّاولة ، ننظر باهتمام إلى هذه الصّور المصفوفة بعناية ، توقّفتْ (نعيمة) عند واحدةٍ منها ، قرّبتْها إلى صدْرها طويلاً ، قبل أن ترفعها لتشمّها ، ثمّ تهوي عليها بقبلةٍ هادئة ، وتعيدها إلى مكانها .

كانت تلفّ إحدى ذراعيها حولَ كتفه الأبعد ، وتحطّ الأخرى على كتفه الأقرب وهي تميل ناحيتها وقد نابتْ ابتسامتُها عن قاموسٍ كامل ليفسّر معنى السّعادة ، كانا يقفان على حافّة بحيرةٍ ممتدّةٍ من خلفهما ، في وسط البحيرة يبدو جسرٌ بأحجار صغيرة مُربّعة ، ارتكز على ثلاث قناطر ، تتسّع كلّ قنطرة منها لدخول قاربٍ صغير ، كان الجسر يصل بين طرفي البحيرة ، على الحافّة اليُمنى منها بسقتْ أشجار ملتفّة متداخلة شكلّتْ قبابًا لتداخلها ، وانعسكتْ صورها على الماء في البحيرة فزادها جمالاً إلى جمال ، وفي الحافّة اليُسرى تظهر أنواعٌ كثيرةٌ من الورود تمتدّ على طول الحافّة ، كان يبدو جليًا اختلاف أشكالها وألوانها ، وبالطّبع انعكستْ صورها في ماء البحيرة ، وعمل الماء كمرآة أعاد آية الجَمال الماثِلة . كان (ناصر) يلبس بذلة رياضيّة ، وحذاء (أديداس) أبيض ، ويبدو في عنفوان شبابه وقوّته ، وقد برقتْ عيناه بالرّضى والأمن . قالتْ وهي تشير نحوها : استُشهِدَ بعدها بثلاثة أسابيع ، كنّا معًا في تركيّا ، ذهب ليأخذ دورة أركان في الكليّة العسكريّة هناك . لا أحدَ يعلم ما يختبئ خلف المُنعطف ؛ الأقدار سِهامٌ

نازِلةٌ من السّماء لا تُخطئ أصحابَها . كنّا ننتظر ذلك السّهم ونحن نبتسم ؛ ولكنْ مَنْ يدري : ربّما كان سهمُنا واحِدًا ، فناب زوجي في تلقّيه عنّي ، لو أصابَنا معًا ، أو أصابني وحدي لكنتُ مرتاحةً الآن من وجع الذّكرى ؛ مَنْ يحتمل سهمَين في لحظة واحدة ، السّهم الّذي أصاب زوجي فارتقى به إلى هناك ، والسّهم الّذي أصابني برحيله ولكنّه أبقاني هنا ؛ «أَيُّنَا أَشَدُّ عَذابًا وَأَبْقَى» يا تُرى؟!!

هذه الصّورة يبدو فيها الجانب الأيمن من وجه (ناصر) ، وهو يلفّ ذراعه حول خصر (نعيمة) ، لا يبدو من وجه (نعيمة) شيءٌ ، فقط شعرها المنسدل على كتفِها من الخلف ، كانت تبدو مُستسلمةً له بين ذراعه الّتي تحيطُ بها ، وهو ينظُر إليها من أعلى ، إذ بدا مستوى رأسها عند منتصف صدره ، كانت عيناه تُشعّان بحميميّة واضحة ، يلبس (بدلة) رسميّة ذات خطوط متقاربة مستقيمة ، وقميصًا أبيض ، وببيونة سوداء تستقرّ أعلى القميص ، المقعد الّذي يتشاركان الجلوس عليه كان من الحجارة ، أعلى مسنده يلتفّ بشكلٍ دائريّ يعطيه مسحةً من الجمال ، يبدو أنّه منحوتٌ وليس قالبًا جاهزًا ، أمامها أرضيّة امتلأتْ بالأوراق المختلفة الألوان ، قد تناثرت بشكل عشوائيّ مُهمَل ، لكنّها أعطتْ شعورًا بالحرّيّة والجمال ، في أعلى الصّورة تبدو الشّمس باهتةً وهي تتسلّل من خلال المساحات الخالية من بين عدد من الأشجار الواقفة على الطّرف القصيّ . في الجزء الأسفل من الصّورة يظهر طرف غِطاء صوفيّ ، يبدو أنّ نعيمة وضعتْه تحتهما ليجلسا على الحجر وقتًا أطول ، من طرف هذا الغطاء تتناثر خيطان ملفوفة تُحيط بالجزء الأقرب من المقعد الحجريّ .
قالت : هذه الصّورة التُقطت لنا في كاليفورنيا ، كان سلاح الجوّ قد ابتعث عددًا من الطّيّارين إلى أمريكا لمزيدٍ من الخبرة والمعلومات .

الغرفة متحف حقيقيّ ، الصّور وحدها تنطق بألف قصّة وقصّة ، ونعيمة كانت قد أعدّتْ هذا المتحف خلال عام من وفاة زوجها ، وبقيتْ تُحافظُ عليه طوال ثلاثة عقود ، ولا تفتحه كمًا تقول إلاّ لمن تثق بهم ، وتشعر أنّهم يمكن أن يقدّروا الكلمات الّتي تقولها ، قالت لنا : إنّ الإذاعة قد جاءت إلى هنا ، وأذاعتْ تقريرًا عن زوجي وتاريخه في سلاح الجوّ ، وضمّنتْه لقاءً معي عن ذكريات هاربة لا سبيل إلى إمساكها أو اللّحاق بها!!

في الغرفة رائحةٌ غريبةٌ ، تشدُّكَ نحوها ، تختصر لك أزمنةً وأمكنةً ، وتكثّف لك مشاعر وأحاسيس ، وتصنع في داخلكَ شيئًا لم يكنْ من قبل أن تدخلها ؛ هناك قصّة أقلّ عنوانٍ من عناوينها : الوفاء ، وأبسطها : العشق!! كلّ ذرةٍ من هواء هذه الغرفة يسطّر لحظةً خالدةً من زمنٍ ما عاشتْهُ هذه المرأة .

حينَ خرجنا من الغرفة ، قال لي (سالم) : هذه المرأة مجنونة!! قلت له : العشق أكبر من الجنون ، والجنون أحد تعريفات العشق حينَ لا تجد ما تعرّفه به إلاّ هو ، أرجوك وفّرْ أحكامَك القاسية بعد أن تقع أنتَ فيه!! فردّ عليّ : وهل يجب على الإنسان أن يكون عاشقًا ليحكم على الحبّ؟! يكفيه أن يرى أحوال المُحبّين ليشعر بهم!! أجبتُه : واهِم ، العُشّاق أنفسهم لا يستطيعون أن يَصِفوا في كلماتهم صدق أحوالهم ، تنوب عنهم أحاسيسهم ، لكنّ الكلمات كثيرًا ما تخون الأحاسيس ، وكلّ الّذي قالتْه لنا (نعيمة) وظنّنا أنّها مجنونة به ، لا يُساوي عُشر ما يعتمل في أعماقها ، هي عاشقة حدّ الموت يا صديقي ، فلا تُفسِد عليها عشقها الّذي لا تفهمه بكلماتك الجوفاء ، وادّعاءاتكَ السّاذجة!!

(١٧)
الحَقِيقةُ لا تَقبلُ القِسْمةَ على اثنَين

مقالة (الضّفادع المُعمَّمة) في جريدة (طلبة اليرموك) الصّادرة عن عمادة شؤون الطّلبة في الجامعة ، أثارتْ زوبعةً كبيرةً في وسط الطّلاّب والأساتذة ، وشعر الإسلاميّون أنّ هذه المقالة تسخر منهم وتهزأ من الأسلوب الّذي يتشكّل به تنظيمهم ، وتحاول النّيل من مسيرتهم ، وابتدأت التّحليلات تغزو عقول الطّلبة ، ويصرّح بها أكثر من واحد ، وعلى طاولات الاتّهام الجاهزة لتلقّي أيّ تحليل .

قالوا : إنّ سوريّة دفعتْ كاتب المقالة من أجل أن يحاول التّشويش على الإسلاميّين وبالذّات الإخوان المسلمين ، إذ إنّ حربًا لم تضع أوزارها على الوجه الّذي يُرضي الدّولة كانت قد نشبت بين الإخوان وبين النّظام في سوريّة . وقال آخرون : إنّ كاتِبها اصطفّ إلى جانب الشّيوعيّين باعتباره واحدًا منهم ، ذهب إلى هذا التّحليل فريقان : الأوّل قال بذلك بسبب التّوقيع الّذي وقّع به صاحب المقالة بـ (حزب الحرّاثين) ، والثّاني قال بذلك بسبب الهزيمة الّتي مُنِيَ بها التّيّار اليساريّ في الجامعة ، حيثُ لم تعدْ له مساحةٌ للتّحرّك إلاّ عبر إلقاء هذه القنابل الكلاميّة ، والحرائق المُفتَعلة في السّاحة الخلفيّة لبيت الإسلاميّين .

انتشرتِ المقالة بين الطّلاّب ، ووجد فيها الهامِزون في قناة

الإسلاميّين فرصةً للتندّر ، وفسحةً للتّشفّي ، ووقعتْ بسببها مشادّات كلاميّة تطوّر بعضُها إلى العِراك بالأيدي ، لكنّه سرعان ما يهدأ ، حينَ يُدرك المُتناقشون حول المقال أنّه في النهاية مقال ؛ حروف وكلمات ، وأنَّ هذه الحروف وإنْ أثارت هذا اللّغَط الكبير في الجامعة ، إلاّ أنّها يجب ألاّ تؤدّي في النّهاية إلى وقيعةٍ بين الطّلاّب ، فهم أسمى من أن تسلك بهم مسالك الكراهية العمياء حروفٌ اصطفّتْ لغايةٍ ما على صفحاتِ جريدةٍ طلابيّة محصورة في دائرة الحرم الجامعيّ الّذي لم يكنْ كبيرًا بجغرافيّته ، وإنْ بدا – من خلال الحِوار الممتدّ – كبيرًا بأفكاره!!

في الكافتيريا اجتمع عددٌ من الطّلبة ذوو اتّجاهات مختلفة ، بدأ النّقاش هادئًا سرعان ما تطوّر إلى نقاش بصوتٍ عالٍ مع دخول عناصر جديدة ، اضطرّ الجالِسون إلى أن يوسّعوا طاولة النّقاش ، وبعد أن التفّ حولها في البداية ثلاثة ، انتهى بهم المقام إلى عشرين شخصًا ، التفّوا حول ثلاث طاولاتٍ صُففْنَ بعضهنّ إلى بعض من أجل احتمال العدد المتزايد . لم أرَ منظرًا بشريًّا أجمل منه ، كنتُ أحدَ مكوّناته ، بيد أنّني سمحتُ لنفسي الانسحاب من هذا المجموع إلى الوراء قليلاً لألتقط صورةً معبّرة له : كانوا أيادي ترتفع في كلّ لحظةٍ كأنّها أشجار تنمو بقولة : (كُنْ) مُباشرة ، ثمّ تنتهي (كَأَنَّها أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَة) بقولة (كُنْ) أخرى . يبدأ أحدهم الكلام هادئًا ، وسرعان ما تأخذه الحماسة فيرتفع صوته قليلاً ، وحينَ يُقاطعه أحد الواترين في الجلسة يتناهى الصّوت إلى مدىً أعلى ، واستِتْباعًا للصّوت يقف الجسد ليقول هو أيضًا بالحركات المتسارعة ما لم تستطع الكلماتُ قوله . قالوا بدون أن أرتّب مَنْ قال أوّلاً ، أو من قال تاليًا :

– هذا أحدُ المدسوسين الّذين يريدون تمزيق الصّف!!

– كيفَ عرفتَ ذلك . هذا اتّهامٌ لأحد الزّملاء ، إمّا أن تُثبت بالدّليل القاطع أنّه مدسوس ، أو تسكت ، وهذا أفضل .

– لو لم يكنْ مدسوسًا ، لوقّع باسمه الحقيقيّ ، لكنّه وقع بحزب الحرّاثين ؛ هل سمع أحدكم من قبل بهذا الحزب ، إنّه مدعاةٌ للسّخرية .

– ليس مدعاةً للسّخريّة ، إنّه حزبٌ قائمٌ ، وهو حزب الكادحين ، وأنا أحد منتسبيه يا جاهل .

– الجاهل مَنْ يدّعي على الإخوان ، ويصفهم بهذه الأوصاف القبيحة ، ولو أنّ وصفًا من هذه الأوصاف ألصقْناه بك لثارتْ ثائرتُك!

– يا جماعة ، لماذا أنتم تُبادرون إلى محاسبة كاتب المقال ؛ صحيح أنّه يجب أن يُحاسَب ، لكنّ الّذي يجب أن يُحاسَب رئيس تحرير الصّحيفة الّذي سمح لمقال مثل هذا أن يُنشَر فيها .

– صحيح . . . ولكنْ ألم يكنْ يُقدّر ما يُمكن أن يُحدث مقالٌ كهذا من شرخ في الجسم الطّلاّبي .

– بلى . . . ولكن قد يكون الكاتب هو رئيس التّحرير نفسه ، وهو شخصٌ مُعيَّن من المخابرات ، والمخابرات يهمّها الآن أن توقع العداوة بيننا .

– العداوة موجودة يا صديقي قبل المخابرات وبعدها ، لماذا دائمًا تعلّقون كلّ المشاكل في رقبة المخابرات .

– يبدو أنّك تريد أن تقول : إنّ المخابرات ستدخل الجنّة من كثرة التّهم الّتي نلقيها جُزافًا عليها .

– سيبونا من المخابرات . . . علينا أن نفعل شيئًا . . .

– لا تفعلوا شيئًا . . . دعوا العاصفة تمرّ . تنحني الأشجار للعاصفة

حتّى لا تُقتَلعَ . لو طوّرنا الحدث لربّما يكون الضّرر أشدّ مِمّا لو تركْناه يمضي في حال سبيله!!

- وَفِّرْ حِكَمك لنفسك ؛ الوضع خطيرٌ ويستدعي الحركةَ سريعًا .

- ماذا تقترح إذًا؟!

- اقترحوا أنتم ، ليستْ لديّ أدنى فكرة!!

- الّذين يُوقِدون النّار لم يكنْ في أيديهم إلاّ الشّعلة ، أمّا الحطب فكان جاهِزًا . . . يا شباب لا تكونوا النّار الّتي تشبّ في أجسامنا . والله اقتراح نسيان الموضوع اقتراحٌ في مكانه ؛ لا تنسوا أنّ هناك أولويّات .

- السّكوتُ على ما يمزّق الوحدة الطّلابيّة جُبن . . . الشّجاعة يجب أن تكون في زمانها الطّبيعيّ ، وهذا أفضل وقتٍ لها ؛ الفُرَص الّتي يمنحها القَدَر لتكون مع الحقّ قليلةٌ ؛ فلا تُضيّعها بفقهِ الأولويّات .

- اخرسْ . . . تتهمني بالجبن ، أنتَ الجبان ، موقفك من رفع الرّسوم أنتَ وجماعتك ما زال شاهِدًا على خزيكم .

- هدّئ قليلاً . . . لا تشتم أحدًا ؛ فإنّ الشّتيمة تتحوّل إلى مبارزةٍ في مدى سلاطة اللّسان ، وغالِبًا ما تجدُ مَنْ لسانُه أشدُّ سلاطةً منك ، وأكثر إفحاشًا .

- يا شباب . . . استشيروا بعض الأساتذة الواقفين إلى جانب قضايانا .

- يا رجل هذه قضيّة فكريّة ، وليست قضيّة طلابيّة ، لا أرى أن نكلّم أحدًا . . . النّابِحون كثيرون ، ومَنْ وقف ليُحصيهم غَفِل عن الطّريق وتأخّر عن الرّكب!

- يا سيدي . . . !!!!

ويستمرّ النّقاش على هذا النّحو لأكثر من أربع ساعاتٍ ، والآراء يضربُ بعضُها وجوهَ بعضٍ ، فتسقط كلّها في فِناء الخلاف . ولا يبقى إلاّ صوتٌ أخير لا يسمعه أحدٌ ، لأنّ الّذين قالوا كلَّ آرائهم ، وتَعِبوا ممّا قالوا انصرفوا قبل أن يسمعوا لهذا الرّأي الأخير ، ومَنْ يدري ، ربّما تكون فيه النّجاة!!

أعرفُ أنّه يملك ثقافةً نوعيّة ، وأنّني في الطّريق إليها ، ولا بدّ من أجلها أن أمرّ به ؛ هذا ما فعلتُ . صعدتُ الدّرجات الإسمنتيّات ليلة الخميس ، كان البدر مُحاقًا ، والظّلمة تُحيط بالمكان ، وكان بيته في آخر (إربد) من جهة الجنوب ، وأوّل (إيدون) من جهة الشّمال ، خفتُ أنْ أسقط على رأسي في بيت الدّرج ، ولم يكنْ هناك من دَرَبْزين ولا ضوء ، تلمّستُ الحائط الّذي ما زالتْ بعضُ أسلاك البناء تنبثق منه ، أمسكتُ بها لكي أحمي نفسي من السّقوط ، ووصلتُ بابه الأسود الصّدئ ، وطرقتُ عليه ، فجاءني صوته من الدّاخل :

- مين؟!
- وَرْد يا خالي . . . وَرْد . . .
- شو إلّي جابك . . . مش فاضي . . .
- دقائق يا خالي دقائق . . .
- الله يْخَلْخِل عظامك (تناهى إلى سمعي طَرْق زُجاجاتٍ فارغة ، فتح الباب ، وبدا في الضّوء الخارج من غرفته صعلوكًا قادمًا من الحُفَر العميقة ، كان يلبس (فانيلة) حَفْر ، و(شُرْتًا) لا يستر الكثير من ساقيه . . . تنحّى قليلاً عن فتحة الباب ، وأشار إليّ بيده ، فدخلتُ) .
- شو إلّي جابَك بها السّاعة . . خرّبت عليّ الكيف يا بهيم!
- استشارة بسيطة يا خالي ، لن أُطيل عليك .

جلستُ مُـتـربّعًـا ، على الحـائط المُقـابل لي ، ظهـرتْ صـورتان جديدتان ، يبدو أنّ خالي مُغرَم بصور الموسيقيّين كثيرًا ، بعد أن جلسَ مدّ إليّ زُجاجة من زجاجاته المتناسِلة حوله ، فاستعذتُ بالله من الشّيطان الرّجيم :

– يا خالي . . . ألا تعرف طريقكَ إلى الله ولو يومًا وحِدًا!!

– أعرفهُ أكثر منك أيّها المُغَفّل!!

– كيف . .؟! والشَّيطانُ يحضر في حياتك حضور هذه الزّجاجاتِ في غُرفتك!!

– في طريقكَ إلى الله تحتاج أن تعرف الشّيطان أيضًا ليدلّك عليه .

– جئتُ لأعرف رأيك في المقالة الّتي أثارتْ كلّ هذه الضّجّة .

– أنا مع كاتِبها .

– . . . . . .!!

– لا تستغربْ . بعضُ الفئران الّتي تأكل الحقول الخضراء تحتاج إلى سُمّ من أجل التّخلّص منها .

– ولكنْ هذا يُوقع الشّقاق بين التّيّارات الطّلابيّة . يجب أن يكون الخِطاب بينهم متوازِنًا .

– أنا لا أعترف بالخِطابات المتوازنة ؛ فهي صورة من صُور النّفاق ، إمّا أن تقول رأيكَ دون مجاملة أو لا تقوله من الأساس ؛ القول المُجامِل يُخفي نصف الحقيقة ويشوّه نِصفها المتبقّي ، والحقيقةُ لا تقبل القِسمة على اثنين .

– ماذا إذا كان كلّ ما في المقالة افتراءً!!

– الفِرية لا تصمد طويلاً .

- وماذا لو كانت هذه الفِرية قد بُنِيَ عليها بنيانٌ كامِلٌ من القرارات .

- سينهار البنيان أسرع مِمّا تتصوّر .

- وماذا لو ظلّ صاحِبُ الفرية مُستترًا تحت غطاءٍ كثيفٍ من الأقنعة؟!

- المُتزيّون بالأقنعة سرعان ما ينكشفون . نار الحقيقة كفيلةٌ بأنْ تُسقِطَها عند أوّل هُبوب!!

(١٨)
شَجَرةُ الخُلْدِ بِنَهرِ الصَّبْرِ تَخْضرّ

عـامٌ كـاملٌ مـرّ على ائتـلافـه مع هذه الجُـدران ، تعلّم كلّ شيءٍ يختصّ بهذه الزّنزانة الصّغيرة ، ابتداءً من اللّغة ، وانتهاءً بالكتابة ، ثمّ ما بينهـما . وفي هذا العـام تدرّب على أن يتـخلّص من الحنين ؛ لأنّه كـان يعتـقد أنّ الحنين يُشوّش عليه أفكاره ، واسـتعـادَ صـفـاءَه الذّهنيّ ليُبقي على ما يعتقدُ دونَ أيّ اختلالٍ طارئ .

كتبَ على الجِدار يوميّاته ، قرأها لنا فيما بعد حينَ قابلْناه ، وجدْنا فيها روحًا مُختلفة ، هذا على الأقلّ ما يصنعه السّجن في الإنسان ، ما تصنعـه سـاعـات الخلوة في الرّوح ، الخَلوة مِـعـراج ، والرّوح عُـروج ، وسـاعـات الالتقاء بالنّفس لا يُمكن أن تتاح في أيّ مكان أفضلَ من الخلوة ، وفي ظلُمـاتهـا تُشـرق الكلمـات ، مـا يُكتبَ هناك في تلك العتمات يحتفظ بنورٍ سرمديّ لا يخبو مع الزّمن ، ولا يستطيع تعاقُب الأيّام أن يُطفِئ وهَجَه .

اليوميّة (١):

السّجن يُظهر أحسنَ ما في الإنسان وأسوأ ما فيه . والتّحقيق يُعطيكَ الفرصةَ كاملةً من أجل ذلك . لسنا أبطالاً كما يتخيّل النّاس ، كثيرًا ما نقع لأتفه الأسباب ، وغالِبًا ما تغلبنا العاطفة على الفكرة ،

ويستبدّ بنا الخوف لمجرّد زَعقة بسيطةٍ من المُحقّق . ليس لديّ مشكلة مع التّحقيق ولا مع العذاب ؛ مشكلتي الكبرى مع نفسي ، أحاول ألاّ تفقدَ احترامها لي بالانهيار في جلسات التّحقيق . الحقيقة أنّها تغفر لي بعض السّقطات الخفيفة ، لكنّها قد تعذّبني أكثر من العذاب نفسه حينَ أنهار كلّيّة باتّجاه اعترافاتٍ كُبرى . بدا لي أنّ السّجن مثل المرأة تغفر لك بعض الخطايا الصّغيرة ، لكنّها لا يُمكن أن تُسامحك إذا كَبُرتْ تلك الخطايا ، أو مسّتْ كرامتَها!!

اليوميّة (٢):

حرّاس السّجن أدوات يلعب بهم الكِبار ؛ مثل الشّعوب تمامًا يلعب بهم الزّعماء . عندما يُلوّح لك العسكريّ بالعقاب ، فاعلمْ أنّ أمّة بأكملها يُمكن أن تُقاد بسوط امرئٍ جاهل ؛ أمّة بكلّ ما فيها من علماء ومفكّرين وشعراء يُمكن أن تقع في قبضة جلاّد منزوع من إنسانيّته ، يسوقها على هواه ويوجّهها على رغبته ؛ وهو نفسه لا يدري ماذا يريد ، ولا يعرف لماذا يفعل ما يفعل!!

اليوميّة (٣):

اكتشفتُ أنّ كلّ انهيارٍ سببُه عدم الاقتناع الكافي بالفكرة . الّذين آمنوا بأفكارهم وصدّقوا ما يعتقدون لم يستطع أشدّ الجلاّدين أن يزحزحهم عن مبادئهم . أمّا الّذين لم يملكوا الإيمان الحارّ بمعتقداتهم انهاروا بعد خطوة أو اثنتين أو ثلاثٍ ، في أوّل المشوار أو آخره لا يهمّ ؛ ما يهمّ هو النتيجةُ الّتي آلوا إليها ، ولربّما تحوّلوا إلى جلاّدين يُسيؤُون إلى زملائهم في النّضال أكثر من الجلاّدين أنفسهم ؛ أن تعذّبني

بالسّوط أهون بكثير من أن تعذّبني بتنكّرك للفكرة الّتي آمنّا بها معًا ، وتعاهدنا على افتدائها مهما شطّتْ بنا الطّريق!!

اليوميّة (٤):

فمي مملوءٌ بالرّماد ، أبتلعه ولا أكاد ، لم ينبعث من فمي طائر العنقاء فتلك أسطورةٌ وأنا هنا واقعٌ بئيسٌ ، أحاول جاهدًا أن أُبعد كومة الرّماد الّتي تسدّ فمي وتُعجّل باختناقي ، لفظتُ ما استطعتُ منها ، وظلّتْ بقاياها تعتمل تحت لساني فتُشعرني بالغثيان ؛ أطلبُ ماءً ولا أحد يستجيبُ لي هنا ، وهناك أصواتٌ تهزأ بي من بعيد ، أحاول أن أحرّك يديّ لأزيل بعض هذا الرّماد ، ولكنّهما مُقيّدتان أسفل ظهري ؛ حينَ تفتح بوّابة عقلك وتُدخل إليه بعضَ الأفكار الفاسِدة ، فإنّ التخلّص من آثارها يبدو مستحيلاً ، كما هي حالتي الآن . المتلوّثون بالسّلطة مُراوغون يُحاولون النّجاة وهم يرقصون على حدّ السّيف!

اليوميّة (٥):

«أنْ يقرأ النّاس كتابًا يعني أن تُغلِقَ الدّولة سجنًا» لا أدري مَنْ قال هذه العبارة مِنْ قبلُ ؛ غير أنّني وأنا أحتال هنا على الزّمن بالقراءة ، أرى أنّ السّجون تزداد عددًا ، وتزداد ضِيقًا . في بلادنا العربيّة أعتقد أنّ السّجون تمتلئ بالمُثقّفين ، وعليه فإنّ العبارة تُصبح ببساطة : أن يقرأ النّاس كتابًا يعني أن تفتح الدّولة سجنًا ؛ سجنًا يتّسع لكلّ المثقّفين الّذين لا يُصفّقون للسلطة ؛ العداء بين السّلطة والمثقّف قائمٌ منذ أن خطرتْ ببال أوّل إنسان فكرةُ السّجن . ولكنْ لماذا لا يفهم السّجّانون فكرةً مُحايدة قد تجسّر الهوّة بيننا : أقبلُ الاختلاف عنك ، ولكنّ

اختلافي عنك لا يعني اختلافي معك . واحذرْ أنْ تُخطّئني في الرأي لمجرّد أنّه لا يُعجِبك ؛ فإنّما آراءُ النّاس صورةٌ عنهم ، وأنتَ لا تستطيع أن تجمع النّاسَ على صورةٍ واحدة ، وليس بالضّرورة أنْ أُشبِهك ولا أن تُشبِهني .

اليوميّة (٦):

نحنُ نحتاجُ إلى ترميم بينَ فترةٍ وأخرى ، الإنسان مادّة ، والموادّ يصيبُها التّلف ما لم تُتَعَهّدً بالعناية ؛ العقول تصدأ ، الجوارح تذبُل ، الرّوح تهرَم ، القلب يَشيخ ، والكلمات تشحّ ، وشجرة الخُلد تتساقط ورقةً ورقةً . لا بُدّ من إعادة الإنتاج ؛ في السّجن الفرصة أوسع ما يُمكن ؛ كيف؟! العقل : بالتّفكّر يُجلَى . والجوارح : بماء الحِكْمة تُسقَى . والرّوح : بساعات الخلوة تصفو . والقلب : بنسمات العشق يعود شبابًا . والكلماتُ : بالقراءة تنمو . وشجرة الخُلد : بنهر الصّبر تخضرّ .

اليوميّة (٧):

لا صديقَ أخلصَ من الكتاب ، ولا دربَ أوحشَ من السّجن . وأنا هنا أُعاني وحشةً مُضاعفة ؛ سجنٌ تضغط جدرانه على صدرك كقبر ، وكتابٌ عزيزٌ يفرّ من بين أصابعك كأمنيةٍ مُستحيلة ، بالكتاب يُمكن أن تتخلّص من السّجن ، فإذا فُقدَ الكتاب كان السّجن مُضاعفًا . نحن نغيّر حَيَواتنا ، ونُبدّل عوالِمَنا ، ونُجدّد أحلامَنا ، ونزيد أعمارنا بالكتاب ؛ وحده الكتاب قادرٌ على أن يحرّرك من قيد المكان والزّمان والعقل والرّوح والجسد ؛ فأين هو اليوم منّي ، يا لَها من عبوديّة قاتلةِ!!

اليوميّة (٨)

أتداعَى ، وأقفُ شـامِـخًـا . . . أتدحـرجُ أمـامي ككرةٍ باليـة ، وأصمد . . . أضحكُ بجنون ، وأبكي بحرقة . . . أتذكّرُ الماضي ، وأنسى كلّ شيء . . . أركضُ عنّي ، وأعود إليّ . . . أهرب منّي ، وألتقيني . . . أخاف منّي ، وأطمئنّ إليّ . . . أسألني فأحتار ، وأُجِيبُني فأزداد حيرةً . . . أكلّمني فيُقال يَهذي ، وأصمت فيُقال يذوي . . . أرتجف كورقة ، وأمتدّ كغصنٍ باسق . . . أخرج منّي ، وأنسحب إلى داخلي . . . أرتقب النّهايات ، وتصفعني البدايات . . . لا شيء يستطيع السّجنُ أن يفعله فِيّ ولم يفعله ، أنا ورقةٌ بيضاء خجلى تخطّ فوقها يدُ السّجن البغيضةِ أقدارَها!!

بعد ستّة عشر شهرًا ناداني المُحقّق ، خرجتُ مُهرولاً ، كحبيبٍ يفرّ إلى حبيبه ، وقبل أن يسألني أيّ سؤال ، كان نهر الكلام يتفجّر من بين فَكَّيّ ، العَطش المُتخثّر فِيّ إلى تجربة الحروف على اللّسان مع مَنْ يُشبِهني في الهيئة البشريّة كان قد فاق حدّ التّصوّر . سلّمتُ عليه ، وسألتُه عن أخباره ، وأخبار أهله ، أبنائه ، وبناته ، وجيرانه ، والمحقّقين الآخرين ، وكيف يتدبّر أمره ، وعن راتبه ، وعن السّيّارة الّتي يركبُها ، وطلبتُ منه طعامًا جيّدًا ، وكتابًا ، وامرأةً ، وصحيفةً ، وعلبةَ تبغ ، وزجاجةً ، وماءً نظيفًا ، وفِراشًا ، وغِطاءً كافِيًا ، وسألتُه عن عددَ المساجين ، ومدّة محكوميّاتهم ، ومَن خرج منهم ، ومَنْ بقي ، ومنْ رُحّل إلى سجونٍ نظاميّة ، ومَنِ الّذي ظلّ هنا يقتسم معنا الزّنازين ، و . . . وقف مثل مشدوهٍ فاتِحًا عينيه على اتّساعهما ، وفاغرًا شِدقَيه على انفراجهما ، ثمّ صرخ بوجهي لكي يُوقِف السّيل الهادر من

الحروف والكلمات الّذي كاد يُغرقه في مكتبه . . . توقّفتُ لبرهةٍ مع علوّ صوته الفاضح ، ثمّ عُدتُ إلى النّهر المتدفّق من جديد ، لم يكُنْ عطشي قد ارتوى بعد : أينَ تسكن ، سلّم لي على الأصدقاء ، هل أحدُ منهم هنا ، سالم ، سِراج ، ورد ، آه يا وَرْد . . . تعرفون إنّه من الإخوان ، أظنّ أنّه هو الأولى أن يكون مكاني هنا لا أنا . . كريم ، صالح ، مُوفّق ، عادل ، شلّة الأنس كلّها ، نعمان ، آه نعمان الأسمر ، لو أتيتم به هنا ربّما ابيضّ من طول القبوع في الدّهاليز ، الشّمس لا تعرفنا ولا نعرفها ، مكانٌ مناسبٌ ليكتسب لونه بعض البّياض . . . كمال ، سلطان ، باسم ، لا يُمكن أن تكون هذه الشّلّة هنا ، أعتقد أنّهم من المُصفّقين لكم ، قد يتحوّل أحدهم إلى محقّق ، زميل ومحقّق ؛ يحدث أحيانًا ، ربّما أفضل ، ستكون هناك مساحة مشتركة من الذّكريات ، الذّكريات الّتي نقولها ، نحاول أن نتخفّف من وجعها بالقول ، هاتِ لي ورقة أريد أن أعترف . . بدون ورقة ، سجّل إذا أردتَ . . . ماذا يُمكن أن أقول : أنا ماركسي شيوعيّ صوفيٌّ لينينيّ أحمر أبيض أصفر بطّيخ . . .

أغرقه هذه المرّة طوفان الكلام ، أحسستُ بقليلٍ من الارتواء ، أمّا هو فقد غلا مِرجل رأسه من الدّهشة والغضب ، خبط سطح مكتبه بيده ، وضغط بعصبيّة على جرسٍ على طرف المكتب ، وهو يقول : إنتا مجنون . . . مجنووووون . .

دخل أحد العساكر ، قال له : ريّحني من هذا المعتوه . . . انتشلني العسكريّ ؛ شيءٌ ما في أعماقي قد ارتاح ، لساني اخضرّ ، وجوفي تندّى ، وروحي أينعتْ . . . في الطريق من غرفة التّحقيق إلى الزّنزانة تابعتُ مع العسكريّ سيل الكلام ، ألقى بي في الزنزانة وهو يزفر .

***

قال سالم لي :

- سيفقد (وصفي) مقعده الجامعيّ إذا استمرّ في السّجن ، لم يُحاكَم ، ولم يُتّهم ، وطَوال هذه الفترة لم يستطعْ أحدٌ من زيارته .

- نؤجّل له الفُصول . (قلتُ)

- تأجيل الفصول له مدى أيضًا ، نخاف أن يتجاوزه .

- لا نملك له أفضل من ذلك . نأمل أن يخرج قريبًا .

أجّلنا له حتّى الآن ثلاثة فصول . خلالها جرتْ أحداثٌ كثيرة . حينَ لم تنفع وساطة الوزير ، حاول الحزب ببعض رموزه الكبيرة أن يتدخّل .

***

بعد شهر نادَوه مرّة أخرى ، بدأ (وصفي) الكلام كعادته ، هذه المرّة مُحقّق جديد ، يعرف ما يفعل . ظلّ صامِتًا وعجلة الكلام اللاهِثة على الأرصفة تطحن رأسه . بعد عشر دقائق من الانسكاب المُتتابع تباطأتِ العجلة ، ابتسم المُحقّق ، انتظرها تُكمل دورتها حتّى تتوقّف بإرادتها . وحينَ توقّفتْ ظلّ صامتًا مُبتَسمًا على غير العادة ، وانتظر فترةً أخرى من الوقت لكي ينظّف المخلّفات الّتي طحنتْها العجلاتُ في رأسه ، بعدها حوّل نظرَه المَركوز على (وصفي) وراح يقلّب أوراقًا بين يديه دون أن ينظر لشيءٍ سواها وبسمته تزداد اتّساعًا ، استلّ من الأوراق ورقةً وراح ينظر فيها دون أن يتحدّث . بينما تحوّلتْ أنظار (وصفي) إلى الورقة وصمتتْ شفتاه بانتظار ما سيقوله المحقّق ، نجح الأخير بلا شكّ أن يجرّه إلى ساحته ، وأن يعكس الأدوار ، وأن يجعل (وصفي) صامتًا بطوعيّته ، منتظرًا أن يُطرَح عليه السّؤال ، متشوّقًا إلى الكلمات الّتي سيقولها المُحقّق .

– من الّذي نظّمكَ في الحزب؟!

– جدّتي (صَبْحا) (أجابَ وصفي بسخرية جارحة)

– جدّتك شيوعيّة أصيلة على هذا؟!

– رفيقة (ماركس) نفسه ، صاغتْ وإيّاه البيان الشّيوعيّ الأوّل .

– يعقوب زيّادين ، تعرفه؟!

– نعم .

– ما حدود علاقتك به؟!

– أعتقد أنّ كلّ المنشورات التي وَزّعتُها في الجامعة هو الّذي يكتُبها . أظنّ أنّكم تعرفونه أكثر منّي ، وتحتفِظون به عندكم أكثر مِمّا تحتفِظون بي .

– وفؤاد نصّار؟!

– لا أعرفه .

– وسليمان النّابلسيّ؟!

– الله يرحمه . من جماعِتْكم أصلاً .

– ونايف حواتمة؟! وجورج حبش؟!

– الله يسهّل عليهم ؛ شِكلَكْ مْلَخْبِطْ!!

– يا أخي كم حزب إنتو . . .؟!

– لا أعرف إلاّ (يعقوب)!!

– مَرّة حزب شيوعيّ أردني ، ومرّة : تجمّع يساريّين ، ومرّة : حركة شبيبة ، ومرّة : الجناح اللّينينيّ ، ومرّة الجناح الماركسيّ ، ومرّة شيوعيّون مستقلّون ، ومرّة . . . يا أخي اِرْسُولْكُو على بَرْ .

– لا أعرف إلاّ (يعقوب) .

– بسيطة . . . هانتْ . ليس لديّ ما أريده منك بعد اليوم .

– سبعة عشر شهرًا في ضيافتكم ، ثمّ يتبيّن بعدها أنّكم لا تريدون منّي شيئًا!!
– هانتْ . . . هانتْ يا رفيق . . .!!

جاءنا (كمال عبيدات) مساء الأربعاء ، استضفْناه في غرفة (سالم) ، قال لنا : لا أريد أن أجلس طويلاً ، (وصفي) سيخرج غدًا في التّاسعة صباحًا ، يُفضّل أن يذهب أحدُكم ليتلقّاه .

في السّابعة ، أخذنا جميعًا أنا وسِراج وسالم ونعمان (تكسي) وانطلقْنا إلى العبدليّ في عمّان ، في الثّامنة والنّصف كان الحارس على الباب قد عرف سبب مجيئنا ، طلب منّا أن ننتظر قليلاً ، لم يطل المقام بنا حتّى رأينا (وصفي) يتهادَى بين اثنين من بعيد ، كان يبدو مُرهَقًا ، وقد ازداد ضُمورًا وطُولاً ، احتضنّاه طويلاً ، ونحن نصيح من الفرحة . شيءٌ ما فيه قد تغيّر ؛ بريقُ عينيه صار أكثر صفاءً ، وفيهما بدا إيمانٌ عميق ، وإصرارٌ أعمق .

خرجَ قبل أحداث ١٩٨٦ بقليل ؛ خرج قبل الثورة العارمة الّتي شكّلتْ مُنعَطفًا حادًا في تاريخ الحركة الطّلابيّة ، بل في التّاريخ السّياسيّ للأردنّ . قال لي طيفُه وهو يشعّ بابتسامةٍ وَدودة :

– دخلتُ بسبب ثورة ، وخرجت لأواجه ثورةً أخرى ؛ أنخرط فيها من جديد . هناك أناس تقع أقدارُهم بين ثورتَين!! أنا من هذا الصّنف يا رفيقي .

(١٩)
نُذُرُ الشَّرِّ قادِمَة

إذا أردتَ أن تُفشِلَ عملاً فَشكّلْ له لجنةً للمتابعة ، وإذا أردتَ أن تُمزّق شعبًا فاصنعْ من كلّ مواطنٍ فيه زعيمًا ، وإذا أردتَ أن تقتل وطنًا فأطلق المنابر للمُتسابقينَ في هواه!!

حتّى العام ١٩٨٤ - ١٩٨٥ كانت تعليمات الجامعة تنصّ على أنّ عدد الجمعيّات الطّلابيّة ستّ ، هي : جمعيّة العلوم ، وجمعيّة الهندسة ، وجمعيّة الصّيدلة ، وجمعيّة الآداب ، وجمعيّة العلوم الطّبّيّة ، وجمعيّة الاقتصاد ؛ بمعنى أنّ لكلّ كلّيّة من كلّيّات الجامعة جمعيّةٌ طلاّبيّة تقوم على تنفيذ الأنشطة ، وعَقْد النّدوات والاجتماعات ، والاهتمام بقضايا الطّلبة المُختلفة . وكان هذا الأمر يُعطيها قوّة في الطّرح ، وسعةً في الحركة ، وشموليّة في المتابعة ، وتزايدًا في الاهتمام .

لم يَرُق الأمر لعمادة شؤون الطّلبة فأرادتْ أن تمزّق هذه اللُّحمة بين هذه الجمعيّات الممثّلة للطّلبة ، فسنّتْ عددًا من القوانين ، وطبّقتْ مجموعةً من الإجراءات الّتي تهدف إلى إضعاف العمل وتشتيت الجهود ، وكان أوّل ما عملتْ عليه هو تسطيح الجمعيّات السّتّ إلى سبع وعشرين جمعيّة ، وهكذا صار لكلّ قسم جمعيّة بدل أن يكون لكلّ كلّيّة ، فبدلاً - على سبيل المثال - من أنْ تكون هناك جمعيّة

واحدة للآداب صار هناك سبع أو ثمان لها ، بعدد الأقسام التّابعة لها ، وهكذا انفرط عِقدٌ واحِدٌ كان ينظم كلّ هذه الأعمال ، ودبّ الضّعف في الجسم بوجهٍ عامّ .

قصدتْ رئاسةُ الجامعة بهذا التّمزيق أن تضرب كلّ التّوجّهات الفكريّة والحزبيّة في الجامعة ، وأرادتْ بالطّلقة الحاسِمة الحركةَ الإسلاميّة ، لأنّها تعرف أنّها الأكثر قدرةً على الحشد ، والأوسع انتشارًا بين الطّلاّب ، ولأنّ هذه الحركة تضمّ مُنتسبين من كِلتا الضّفّتين ، وهو عامل قوّة من زاوية أنّها لا تتعامل مع فريقٍ واحدٍ تعرف كيف توجّه له الضّربة المُميتة . أمّا بالنّسبة لبعض التّنظيمات فقد كان قدْرٌ كبيرٌ من النّجاح مضمونًا لهم ، ويُمكن أن تحقّقه هذه الخُطوة الاستِباقيّة ، حدث هذا لأعضاء حركة (فتح) ؛ أنتم من غربيّ النّهر فما شأنكم بأمورٍ لا تهمّ إلاّ مَنْ هُم شرقيُّه ؛ ولماذا تدخلون ساحةً ليست لكم ، وتُشارِكون في موقعةٍ خسارتُكم فيها واضحة لأنّ أدواتكم لا يُمكن أن تكون صالحةً للاستِعمال في هذه الموقعة!!

وبالرّغم من أنّ تهميش الإسلاميّين كان الهدف الأعمق في الذّهنيّة الأمنيّة الّتي تُسيّر قرارات عمادة شؤون الطّلبة ؛ إلاّ أنهم – أي الإسلاميّين – استطاعوا أن يُمسِكوا بقنبلة الغاز الّتي أُطلِقتْ نحوهم لتفريقهم وتغبيش الرّؤية عليهم ، ويقوموا بقذْفها من جديدٍ إلى ملعب العمادة .

عمد الإسلاميّون إلى اجتماعات لا تعترف بشروق الشّمس أو غروبها ، نظّموا الصّفوف المُبعثرة ، استَدعَوا عامِلين مُؤازرين من خارج الجامعة ، رتّبوا أوراقهم ، ووزّعوا مَهمّاتهم ، وقسّموا العمل إلى خلايا ، لكلّ قسمٍ خليّة ، وكلّ خليّة تتبع مسؤولاً طلاّبيًّا ، وكلّ المسؤولين عن

الخلايا كافّة يتبعون مسؤولاً أوّلاً في إربد ، ومسؤولاً ثانيًا في عمّان . أمّا الدّعاية الانتخابيّة وهي عاملٌ رئيسٌ ومهمّ في العمليّة برمّتها فقد تولّت الحركةُ الإسلاميّة تمويلها بالكامل ؛ الأمر لا يحتاج إلى ميزانيّة كبيرة ، فاليافطات المركزيّة من القماش ، واليافطات الفرعيّة من الكرتون ، والخطّاطون من الإخوان وهم كُثر ، وخطّاطان اثنان يُمكن أن يحملوا عبء اليافطات جميعها . أمّا العُنصر النّسائيّ فكان الأبرز في ترجيح الكفّة ؛ النّساء بطبعهنّ يَعْمَلْنَ بجدٍّ وبدأبٍ أكثر من الرّجال . وفي اليوم الّذي جرتْ فيه الانتخابات تحوّل الإسلاميّون إلى خليّة نحلٍ لا تعرف الهدوء . . . ثمّ جاءت النّتيجة لتسحب البِساط من تحت أقدامِ كلّ الحركات والتّوجّهات ، وتمدّه بشكلٍ باذخ تحت أقدام الإسلاميّين ؛ وكانت النّتيجة مُفاجئةً لكلّ المُراقبين والمُنتظِرين لما سوف ينكشف عنه النّقع ، كان ذلك مُباغِتًا حتّى للإسلاميّين ؛ فقد حصدوا (٢٥) من أصل (٢٧) جمعيّة!!

ظننّا أنّها نعمة كبيرة ، وأنّ الله مَنّ بها علينا ، ولكن لم تمرّ بضعة أسابيع بعد أن عِشْنا حلاوة الانتصار حتّى انقلب بنا المركب ، وبدأتِ السّهام تتطاير من فوق رؤوسنا مُصوّبةً نحونا من كلّ حَدَبٍ وصوب ، تتّهمنا بأنّنا لم نفعل شيئًا ، ولم نقدّم بين يدي نجوانا صدقةً ، وأنّنا انفردْنا بالعمل ، وأقصينا كلّ مَن اقتسمْنا معهم الطّريق ذاتها ، والجوعَ ذاته ، والعلقمَ ذاتَه ، واستقْبلتْ صدورنا العارية معًا طعنات العمادة!!

بعد كلّ سنوات العمل الطّلابيّ الّتي أفنيتُ فيها جُلّ مرحلتي الجامعيّة ، وبذلتُ لها زهرةَ شبابي ، وخُلاصةَ تجربتي ؛ اكتشفْتُ أنّنا جميعًا كبشرٍ لا نؤمن إلاّ بالدّيمقراطيّة الّتي تقف إلى جانبنا وتجعلنا نتصدّر المشهدَ ، أمّا تلك الّتي تُقدّمُ غيرَنا فإنّنا نحن الّذين كُنّا نلهجُ

بذكرها وذِكر محاسنها بالأمس أوّل مَنْ يكفرُ بها اليوم . واكتشفتُ أنّ صناديق الاقتراعِ الّتي نلقي إليها بورقة الانتخاب ونحن نحلم بالورد ، تعود إلينا شوكًا تنغرس رؤوسه في أجسادنا . وأنّ أولئكَ الّذين وقفوا معنا أمام الصّندوق ونَفَحونا بابتسامةٍ عميقة ، ونحنُ نُدلي بأصواتنا معًا ، عادوا ليشكّكوا بنزاهة تلك الصّناديق ، ويُحطّموها على رؤوسنا لمجرّد أنّها أفرزتْنا ولم تُفرِزْهم!! ومَنْ يدري؟! ربما لو كنّا مكانهم لفعلْنا ما فعلوا ، ولوقعنا في الوَحْل الّذي وقعوا فيه!! فمن أينَ إذًا يكتسب المُنتَخَبون شرعيّتهم في العمل إذا جرتْ أوراق الانتخاب على غير ما يشتهي الخاسِرون؟!! ألا لعنة الله على هذه الصّناديق . . . ألا لعنةُ الله على هذه االصّناديق . . .!!

اتّبعتِ العمادة خُطواتٍ مدروسة في إفشال نجاح الإسلاميّين ، فقد قامت بإلغاء (المجلس العامّ للكليّات الطّلابيّة) ، وهو مجلسٌ يضمّ اثنين من كلّ كلّيّة من الكلّيات السّتّ السّابقة ، يضمّ رئيس الجمعيّة وأمين السّرّ ، بمعنى أنّه كان مجلسًا يضمّ ١٢ عضوًا من شباب الجامعة الممثّلين لجميع الكلّيّات ، وقد كان مجلسًا تنسيقيًّا ، كثيرًا ما يقوم بالنّشاطات المركزيّة الّتي غالِبًا ما تكون قويّة ويُكتَب لها النّجاح والحُضور الجماهيريّ . وعلى الرّغم من أنّ هذا المجلس العامّ قبل إلغائه كان يُعاني من الوصاية المفروضة عليه من قِبَل العمادة ، وكانت صلاحيّاته محدودة ، إلاّ أنّه حتّى وهو بهذه الصّلاحيّات المحدودة كان يقوم بدورٍ لا يُمكن الاستهانة به . الآن المجلس ألغي وصار حلقةً من الفراغ ، وازداد الطّوق المفروض لحصار عمل الجمعيّات من المسؤولين!!

قالوا في المثل : عندما يقع الجَمَل تكثر سكاكينه ؛ وبالفعل هذا ما حدث : لم تكتفِ الرّئاسة بتمزيق أوصال الجمعيّات ، بل منعتْ

تعليماتها الجديدة أن تتّفق جمعيّتان من الـ (٢٧) جمعيّة على نشاطٍ واحد ، فحتى تجمُّع اثنتين تحت رايةٍ واحدة كان مُحرَّمًا . ثمّ تتابعت السّكاكين في الجسد الطّلاّبي ؛ فمُنِعت الجمعيّات من التّدخّل في قضايا الطّلاب ومشاكلهم ، وقالوا ليس من حقٍّ للجمعيّات في التّدخّل في شيء إلاّ فيما يخصّ الطّلبة من نشاطات لا منهجيّة كالرّحلات التّرفيهيّة والحفلات الفنّيّة واللّقاءات التّعارفيّة ، و . . . وبدأ الجسد يدخل في النّفق المُظلِم ، كان الدّخول لا يسمح بالرّجوع ، وفي المدى البعيد لا يسمح بالخروج لأنّه أغلقَ علينا بعد أن دخلناه ، وهو لا يُفضي في نهايته إلاّ إلى جدارٍ مُصمت يقف كموتٍ متربّص بالقادمين من الضّياع ، وخارج هذا النّفق تعالتْ أصواتُ اليساريّين والبعثيّين والتّقدّميّين والوطنيّين وسواهم وهي تصيح : أيّها الإسلاميّون : أدخلتمونا نفقَ غبائِكم ، وأوقعتمونا في حفرة بَلادتكم ، وتخلّيتم عنّا ونحن أحوج ما نكون فيه إلى المظلّة الّتي تستظلّون بها . . . وكانت الأصوات قاتلة والخناجر مُشرَعة والبنادق مُصوّبة . . . وبالفعل شعرنا باللاجدوى ، وكادت الأمور تفلت من أيدينا .

ورقصَ قلبُ العمادة طَرَبًا لما حلّ بنا ، غُلَّتْ أيدينا كي نُراوحَ مكاننا دون خطوةٍ للأمام ، وفي المقابل سمحتْ لكلّ الزّملاء الّذين لم يشربوا من مائنا نفسه أن يفغروا أفواههم في وجوهنا ويسلقونا (بِألْسِنَةٍ حِداد) . جَمَعنا ما انسكبَ من ماء وجوهنا ، وأصلحنا ما رثَّ من ثيابنا ، وتقدّمنا بثقة إلى العمادة ، ووضعنا بين أيديها برنامجًا كاملاً ليُقام تحت عنوان : (أسبوع فلسطين) ، وكان البرنامج يتضمّن كلّ شيء : المحاضرين ، والزّمان ، والمكان ، والتكلفة المادّية ، والمسؤولين عنه من الطّلاب . . . وكان هذا الأسبوع يتّخذ من يوم الأرض في ٣١ آذار

من كلّ سنة بوّابة لانطلاقه . وعلى غير المُتوقَّع رفضت العمادة برنامج الأسبوع كاملاً ، وكانت حُجَجُها أنّ أسماء المُحاضِرين غير مرغوبٍ فيها ، وأنّ هذه الأسماء اعتادتْ على مهاجمة الجامعة والمسؤولين فيها في مُحاضراتهم ، وقالوا أيضًا إنّ الاسم (أسبوع فلسطين) يُثير النّعرات ، ويعكس توجّهًا عنصريًّا ، وتحت هذا العنوان لا يُمكن أن يُقام ؛ الغريب أنّ هذا العنوان قد أقيم تحته الأسبوع لثلاث مرّات في سنواتٍ سابقة ولم تحدث مثل هذه الحساسيّة الّتي قد تبدو مُبالَغًا فيها ، فسألنا : وماذا تقترحون أن يُسمّى الأسبوع ، فقالوا : أسبوع الأردنّ وفلسطين ، أو أسبوع التّراث الأردنيّ والفلسطينيّ . وبدا لنا أنّ الاسم الجديد للأسبوع يُثير العنصريّة أكثر من السّابق . وأصرّ زملائي على أن يبقى باسمه السّابق ، وأصرّتِ العمادة على تغييره . وأعتقد أنّ كلا الطّرفين كان مُخطِئًا ، وأنّ خطوةً إلى الأمام باتّجاه العمادة ، وخطوة إلى الأمام من العمادة باتّجاهنا كانتا كفيلتَين برأب الصّدع . غير أنّ حماسة الشّباب تتجاوز أحيانًا حدود الرّؤية والتّفكير بعقلانيّة ، وتعنُّت صاحب السّلطة يتجاوز حدود الإقناع وقَبول الفكرة بالمُحاورة . فرضُ الرّأي بالقوّة دان العمادة ، وتصلّب موقفنا ظنًّا بأنّه ثباتٌ وقِتالٌ في ميادين المُناورة دان موقِفَنا . وحينَ تكون هناك خسارةٌ فإنّني أعتقد أنّ الجميع سوف يصيبُه شررُها!!

ورأينا في التّراجع عن موقفنا هزيمةً ، ونحن الّذين نملك خِطام ٢٥ جمعيّة من أصل ٢٧ ؛ فكيف لنا أن نقبل هذه الإملاءات من دائرة النّشاط الطّلاّبي ، وتبرّع (نائل) دون مشاورة أن يقول لمدير الدائرة : إنّ التعليمات تنصّ على أن نبلّغكم بالأنشطة فحسب ، وليس في التّعليمات أن توافقوا عليها أو لا تُوافِقوا ، وها نحن قد أبلغناكم ،

وسنقيم الأسبوع في موعده بجميع فعاليّاته ، وخرجنا غاضبِين .

في المساء ارتأيتُ أن أهاتِفَ عميد شؤون الطّلبة لأهدّئ الأجواء ، وأستخلص منه موافقةً ولو مبدئيّة ، وتوصّلتُ معه إلى حلّ يُرضي الطّرفين : تُلغَى لافتة الأسبوع ، وتُقام الأنشطة منفردةً ، كلّ نشاطٍ على حدة ، لا على أنّه أسبوع . قلتُ في نفسي : ضحّينا بالعنوان وكسبنا المضمون . ونحن العرب تقتلنا الأسماء لأنّها تتحوّل إلى وحشٍ في عقولنا فحسب ، ونقيم لها صرحًا في خيالنا لا غير ، وأمّا النّظر إلى ما تحت هذه الأسماء فلا يهمّنا ؛ تُثير القشرة جنوننا ، ولا يحظى اللبّ إلاّ بإهمالنا ؛ ألا فلتذهب القشرة إلى الجحيم إنْ سَلِم جوفُ الثّمرة!!

مَنْ يقول إنّ نُذُر الشّرّ قادِمة!! كلّ قادم من الغيب أنّى للمُبصرين أن يروه ولو أطالوا التّحديق؟! كلّ دائرةٍ في مَركز البُحيرة تحيطُ بها دائرةٌ أوسعُ منها بعدها ، وتتسع على الحوافّ حتّى تتكسّر . لم نكنْ في تلك المرحلة نرى إلاّ الدّائرة الضّيّقة الأولى ، لأنّنا كنّا الحجر الّذي ألقيناه في تلك البحيرة ، ولم نكن نعلم أنّ دوائرَ بين حكومات أو منظّمات أكبر منّا تلتفّ حولنا .

عملتُ مع زملائي الآخرين على إقناع عُمداء الكلّيّات بالعودة إلى (٧) بدل (٢٧) ، وما في ذلك من توفيرٍ للجهود والطّاقات ، وفي النّهاية للميزانيّة ، وأنّ النّشاط الواحد المتميّز ينوب عن بقيّة الأقسام الّتي تصل إلى (٨) أقسام في الكلّيّة الواحدة ، وبعد نقاشٍ طويل اقتنع كلّ العمداء باستثناء عميد كلّيّة الآداب ، فقد أصرّ على أن تبقى الجمعيّات مُقسّمة . ورضينا بذلك ، وما إن وصل الخبر إلى نائب رئيس الجامعة حتّى ثارتْ ثائرته ، وظنّ ظنّ السّوء بالعمداء ، وعدّ ذلك ضعفًا في شخصيّاتهم ، ومخالفةً للتّعليمات الجديدة ، والتّعليمات ليستْ

قانونًا ، إنّما هي بنود يُسترشَدُ بها ويُمكن تجاوزها بالاتّفاق بين المُنتَخبين من الأقسام وبين عميد الكّليّة . وتوعّد نائب الرّئيس ناطِقًا باسم سيّده أن يُفشِل الاتّفاق ، ويُعيدها كما كانت منزوعةً مُشتّتة ، وكان له ما أراد ، وبِتنا نقتنع يومًا بعد يوم أنّ هناك اتفاقًا بإفشال عملنا ، وإظهارنا بمظهر الضّعيف الّذي يملك السّلطة شكلاً ولا يملكها فعلاً ، لديه تفويض شفويّ بالعمل ، ولكنّه لا يملك الإرادة على تنفيذ ذلك العمل .

ظَلِلتُ – مع عدد غير يسير من زملائي – نُمسكُ العصا من الوسط ، وكنتُ أعمدُ إلى النّظر إلى الجانب الإيجابيّ في كلّ مناكفة تحصل بيننا وبين الجامعة ، واتّخذتُ أهون الشّرّين في كلّ نشاطٍ ننوي القيام به ، وإنْ كان يظهر بيننا من الزّملاء من يعد ذلك ضعفًا وخَوَرًا ، ومنْ ينعتني بعدم الوفاء للأمانة الّتي وضعها الطّلاب في أعناقنا بانتخابهم لنا ، وهم يرون أنّنا لا نقوم بواجبنا بصورةٍ صحيحة تُجاههم . كان أبرز هؤلاء الّذي حملوا السّيف نائل أبو صبحة . قال لي بالحرف الواحد : سوف تقضي على العمل الطّلاّبي في الجامعة ، وسوف تُنهي نِضالاً طويلاً ، وتخطيطًا مُحكَمًا عملنا عليه من أجل حَمْل الرّاية في الطّريق ، واسترشاد الزّملاء بنا . قلتُ له : الرّاية لا يحملها واحدٌ ، تعرف أنّه في أشهر المواقع تولّى حَمْلها أكثرُ من ثلاثة ، فلا تُرهق نفسك بتحميلها فوق طاقتها ؛ فقال لي : الراية واحدة ، والطّريق واضِحة ، وأنا أخاف بتلايُنِك أن تُسقِطَ الرّاية في الطّين!!

جرّبنا حظّنا من جديد : تقدّمْنا بطلبٍ لتسيير رحلة عُمرة في العام الدّراسيّ ١٩٨٥ – ١٩٨٦ ، فجاء الرّد : هذا ليس من اختِصاصكم ، هو من اختصاص دائرة النّشاط في عمادة شؤون الطّلبة ، ويُشرف عليه

أساتذة من الجامعة لا من الطّلاّب . ابتلعْنا الغُصّة ، ووجهتُ أنا الدّفّة نحو القَبول بها ولو عن طريقهم ، ففي النّهاية ٩٠٪ من الذّاهبين في رحلة كهذه سيكونون طلاّبًا ، وقلتُ لنائل الّذي سرعان ما يثور : دَعْهم يتولّواً هم المسؤوليّة كاملةً في الإعداد وليكنِ الرّابح الأكبر من هذه المعركة نحن الطّلبة بذهابنا ورؤوسنا خاليةٌ من أيّة مسؤوليّة ؛ اقتنع على مَضَض .

جرّبنا مرّة أخرى : قُلنا للعمادة نريد إقامة معرض للكتاب الإسلاميّ . تحرّجوا من كلمة (إسلاميّ) ، غيّرتُه على الفور دون موافقة (نائل) إلى (معرض للكتاب الأدبيّ) ، لم يقتنعوا تمامًا ، فكّروا بعراقيل جديدة ، قالوا : ولكنّ القاعات كلّها محجوزة ، ولا نستطيع أن نقيمه في أيّ قاعةٍ من قاعات المعارض ، اقترحتُ بسرعة : نقبل أن يُقام في أيّ ساحةٍ من ساحات الكليّات ليس شرطًا أن يكون في قاعة ، السّاحة لا تحتاج إلى حجز ، فهي مفتوحةٌ على السّماء ، والطّقس جيّدٌ لا يحول بيننا وبين إقامته في الهواء الطّلق ، وافقوا لسببٍ واحدٍ : لم تُعد هناك حجّةٌ يُمكن الاختِباء خلفها لعرقلة النّشاط . وأقيم المعرض أمام مبنى كلّيّة الآداب في السّاحة الفسيحة على يمين الدّاخل ، وكان منظرًا بهيًّا بهيجًا استقطبَ مزيدًا من الطّلبة ، ونجح أفضل ممّا لو كُنّا سنعقده في القاعات المُغلَقة ؛ همستُ في أذن نائل : لو توقَّف النّهر عند أوّل صخرةٍ تواجهه لجفّ ماؤه منذ زمنٍ ؛ يا أخي تحوّل عن الصّخرة بما يضمن لك استمراريّة التّدفُّق ؛ عِنادُ الصّخرة لا يُمكّنكَ من اقتلاعها ، وعِنادُها لا يُمكّنها من إيقافك!! الأرض تبلع الماء الرّاكد ، والحقول ترتوي بالماء الجاري .

(٢٠)
العاملِون لا يَضُرُّهم كيدُ كائِدٍ ولا حَسَدُ حاسِدٍ

تتغيّر القناعات في النّفس البشريّة تغيُّرَ السُّحُب في صفحة السّماء، وموجةُ القناعة المُتلاطِمة في النّفس تحرّكها المواقف كما تُحرّك الرّياح السّحاب، وكما أنّه لا سحاب يستقرّ في موضعه بفعل دافع خارجيّ كذلك لا قناعةَ تستقرّ في قلب صاحِبها بفعل دافع خارجيٍّ أيضًا. يحدثُ هذا حينَ تضغطُ على صدرك صخرةُ الجَاهلين، وتنتصب في وجهك حِراب الحاقِدين.

في نهاية الفصل الأوّل من ذلك العام بدأتُ أميلُ إلى ما كان يقوله (نائل)، لم تغيّرني مواقفه بالدّرجة الأولى؛ غيّرتْني مواقف إدارة الجامعة بإصرارها على تنفيذ ما خطّطتْ له من بداية هذا الفصل. وبدا أنّنا نؤمن بالدّيمقراطيّة في القوانين، ونكفر بها في الممارسات. نؤمن بالدّيمقراطيّة أمام بصر العالَم وسَمْعه، ونكفر بها في السّرّ. نؤمن بالدّيمقراطيّة إنْ أبقتْنا في صدارة المشهد، ونكفر بها حين تُخفينا وراء ظهرها. العالَم كاذب ومُنافِق ومُراوغ؛ والدّيمقراطيّة لا وجود لها إلاّ في العالَم الافتراضيّ؛ وهي ليستْ إلاّ كذبةً اخترعها خيالٌ فاشيٍّ مريض أراد أن يسيطر باسمها، وأن يفرض بسطاره بديكورها، وأنْ يحكم البشر بمدافعها!!

لم نكن نعمل وحدنا في الميدان، كان هناك كثيرون، ولكنّنا

وحدنا الّذين كنّا نحمل لافتة الجمعيّات المُنتخَبة ، في المقابل أنشأت الجامعة تيّارًا مُوازِيًا للجمعيّات ليكون بديلاً أو مُنافِسًا ؛ تحت شعار : إذا لم نستطع هزيمتهم في الصّندوق فلنكُسّر الصّندوق على رؤوسهم ولكنْ تحت لافتة قانونيّة . وإذا جاء بك الصّندوق على رؤوس الأشهاد ، فلأزرعْ الألغام في طريقك من وراء السّتار وفي جنح الظّلام . التّيّار البديل الدّخيل الّذي أُقحِمَ في سياق الحركة الطّلابيّة إقحامًا يُمكن أن نسمّيه التّيّار الرسميّ ، رُصدتْ له ميزانيّة ضخمة ، وأنشطته كانت تصدر باسم عمادة شؤون الطَّلبة ، وهذا الجسم غير المنتخب ، والّذي لا يحظى بمساندة شعبيّة كافية ، كان الطّفل المُدلّل لرئاسة الجامعة ؛ إذ كلّ الأبواب له مُفتَّحة ، وكلّ الأموال له مبذولة ، ولا يحتاج إلاّ أن يفكّر أصحابه بالنشاط مجرّد تفكير ، أو يحلموا به حتّى تتضافر كلّ جهود الموظّفين والعاملِين لإنجاحه ، وهو عكس ما كان يجري معنا تمامًا كجمعيّات تمّ اختيارنا لتمثيل الطّلبة من الطّلبة أنفسهم!! والأمثلة على أنّهم كانوا أبناء المحظيّة ، وكنّا نحن أبناء المُطلّقة ، كثيرةٌ حاسِرة ، فارعةٌ دارِعة .

في العام المشهود ، طلبْنا قاعةً لإقامة ندوة تحت عنوان : تحرير المرأة في الإسلام . لسعتْهم كلمة الإسلام كأنّها داءٌ يُصيبُ ناطقِها بالجَرَب ، فقلنا تحرير المرأة فحسب ، قالوا : نعم ، وأينَ تودّون إقامتها؟! قلنا في (مدرج الكنديّ) ، قالوا محجوز . كلّ المدارج في ذلك الأسبوع الّذي نويْنا فيه إقامة النّشاط صارتْ محجوزة في غفلةٍ منّا . والقاعات؟! كلّها محجوزة . والمدرّج (ق ٢٠١)؟! محجوز يومَي السبت والاثنين للجنة النّدوات ، والأحد والثلاثاء للمُحاضرات الأكاديميّة ، وبقيّة الأيّام بما فيها الجمعة للعلوم العسكريّة ، وإذا لم يكنْ في يومٍ من الأيّام

محجوزًا فإنّه تلقائيًّا يُصبح كذلك للبروفات المسرحيّة الّتي يتدرّب عليها طلبة العمادة ، كانت هذه البروفات تحجز لنفسها أيّ قاعة حتّى دون إذن مُسبق ، وتستمرّ هذه البروفات لمدد طويلة لا يعلمها إلاّ الله ورئيسُ الفرقة المسرحيّة!! أمّا صالة المعارض والقاعة الماسيّة فهي دائمًا محجوزة إمّا لأنشطة الجامعة الّتي تُخترع اختِراعًا ، وإمّا لجهات ومؤسّسات من خارج الجامعة ، وكان ذلك يستمرّ لشهور طويلة ، وربّما تبقى بعض هذه القاعات محجوزةً لفصول . وحينَ نتكلّم معهم عن الرّحلات وتوفير باصات الجامعة لتُقِلّ الطّلاّب ، يكون الرّدّ الجاهز ، والّذي يبدو أنّه تحوّل إلى نصٍّ محفوظ : (الباصات مشغولة يوم الخميس لخدمة المُجتمع ، والجمعة عطلة رسميّة ، والسّائق لا بدّ له من صرف أجرة في حال موافقته) . وبالعربي الفصيح : ما فيش مَجالْ ؛ حِلّوا عَنّا!!

وضاقتْ علينا قاعات الجامعة ومدرّجاتها بما رَحُبَت . وامتدّ لا وعي الطّلاّب إلى السّاحات ، كونها قاعات بلا جدران ، ولا بُدّ أن نعترف جميعًا : إنّ سياسة الجامعة من إغلاق القاعات في وجوه أنشطة الطّلبة ، جرّأتْ هؤلاء الطّلاّب على فكرة استخدام السّاحات للأنشطة في البداية ، واستخدامها في أنشطةٍ بريئةٍ في البداية جعلَها قابلةً لأنْ تتحوّل – في غفلةٍ من الرّقباء – فيما بعدُ لاستخدامها في المُظاهرات الحاشِدة والمسيرات الاحتجاجيّة والاعتصامات الثّائرة . ولو أنّ رجلاً رشيدًا في الإدارة أغلق على أنشطةِ الطّلاّب قاعاتِ الجامعة ، لما علا صوتُ هؤلاء الطّلاّب حتى بلغ عنانَ السّماء ، وحتّى أسمعَ الأردنّ وخارجه وهو يصرخ في الفضاء الرّحب : أريد حقّي ، أريد حقّي!!

كنتُ لا أزال حتّى تلك اللحظة – وقد خبرتُ العمل الطّلاّبي لأربع سنوات خلتْ – أحاول أن أجدَ مساحةً مُشتركةً من أجل أن يشعر زملائي في أنشطتهم بالحرّيّة والرّضى، وفي المُقابِل أن تشعر الرّئاسة بوقوفها على مفاصل العمل الطّلاّبي، وأنّ الأمر لم يخرج من يدها، نعم كنتُ حريصًا على استمرار هذا الشّعور في قلب المسؤولين في الجامعة. غير أنّ هذه الجامعة العزيزة في جانبها النَشاطيّ ظلّتْ مُعلّقة بشخصيّة الرّئيس من جهةٍ وهي شخصيّة ذات كبرياء عجيب، ونظرة استعلائيّة فارقة. ومشدودةٍ بخيطٍ أمنيّ غير مرئيّ لكنّه متين يخرج من بين دهاليز أصحاب القرار الأمني ليقيّد حرّيّة أنشطتنا باسم العمادة من جهةٍ أخرى. ولم يكن أحدٌ يعلم أنّ الهواء وهو أضعفُ محسوسٍ يستطيع أنّ يجد له طريقًا من بين شقوق النّافذة المُغلَّقة.

في ذكرى المولد النّبويّ الشّريف تقدّمتْ جمعيّة اللغة العربيّة للعمادة بإقامة أمسية بهذه المُناسَبة، وتظاهرتْ العمادة بأنّها موافقة، ولكنّ الخيط المخابراتيّ لا يُمكن أن يبقى صامِتًا، فقالوا: نقترح الاسم الفلانيّ، بدل الّذي اقترحتموه. فقلنا لها: نحن نريد هذا الشّاعر ولا نريد شاعركم، ولو كان الأمر كما ترون إذًا فلماذا نتقدّم لكم بطلب إقامة الأمسية، فلتقيموا أنتم الأمسية تحت إشرافكم ما دمتم تقترحون أسماء المشاركين فيها من عندكم؛ إنّه لا دورَ لنا في هذه الحالة، ولا ضرورة. قالوا: نوافق، ولكنّ الشّاعر الفلاني عليه أن يقدّم صورةً مِن قصائده لنا قبل أن يُلقيها!! فقلنا: يعني مرّة أخرى أنتم تفصّلون النّشاط على مقاسكم، نحن نقول لكم هذا النّشاط لنا، وليس لكم، لِمَ كلّ هذا التّعنّت، والاستخفاف، والعُنجهيّة؟! وما فائدة أن نكون أعضاء في مجلس الجمعيّات وليس لنا صلاحيّة إقامة أمسية شعريّة

واحدة لا تتدخّلون فيها ، كان الأحرى بنا إذًا ألاّ ندخل الجمعيّات ، ولا أن تُجرَى انتخابات ؛ فإنّ فوزَنا فيها لم يُحدِث أيّ فرق ، ولو أنّنا تقدّمنا لكم بنشاطٍ ولم يكنْ هناك جمعيّات ، وقدّمه طالبٌ باسمه الفرديّ ، لربّما كان القَبول بالنّشاط والتّقبّل له من جهتكم أفضل ؛ لماذا تتحسّسون من كلّ نشاطٍ يفكّر به طلبة الجمعيّات ولو كان رحلةً ترفيهيّة؟!! ستقولون عنّا : إنّنا في هذه الرّحلة سنقوم بتنظيم عددٍ جديد من الطّلبة في صفوف الإخوان!! كم من رحلة عُمرةٍ بعثتمْ فيها عيونًا علينا باسم مُمثّلين عن العمادة وأحصيتم علينا في الدّيار المُقدّسة أنفاسَنا ، وذهابَنا وإيابَنا ، ولباسَنا ومنامَنا ، وطعامَنا وشرابَنا!!! وحينَ تخرّج بعضُنا بعد سنين أخرجتمُ الملفّات ، وأبرزتمُ الأقوالَ والشّهادات ، وابتززْتُم بها أصحاب الكفاءات الباحثين عن أحلامهم ، وكأنّها إداناتٌ تستحقّ العقاب ، أو جرائم تستدعي التحقيق والحِرمان من الوظيفة أو العمل!!

وتوالتْ سلسلة التّضييقات المُمنهَجة في إلغاء نشاطاتنا ، وحدثَ في هذا العام من التّضييق ما لم يحدث في سواه من الأعوام الّتي سبقتْه ؛ وأنا شاهدٌ عليها جميعها . كان واضحًا أنّ إدارة الجامعة سادرةٌ في غيّها ، مُصمّمَةٌ على أن تطمسَ كلّ جهدٍ يُمكن أن نقوم به ، وأدّتْ هذه الممارَسات المَعيبة ، ولا أريد أن أقول القمعيّة لأنّني أرى فيها صِبيانيّة واضحة ، أدّتْ إلى احتقانٍ غير مسبوق في نفوس الطّلبة . ولا يخفى على أحدٍ أنّ الطّلبة العاملين هم قدورٌ تَفور ومراجل تغلي لشدّة حماستهم ؛ نظرًا للعمر الّذي هم فيه ، وللبيئة الّتي يتحرّكون خلالها . ولقد كان نفرٌ من الشّباب يثور لأدنى الأسباب حين يرى عرقلةً من نوعٍ ما من قِبَل الجامعة ، ولقد تولّيتُ أنا وعددٌ من زملائي الّذين جرّبوا

العمل الطّلاّبي أكثر من سواهم وخبروا عراقيل الجامعة أفضل من غيرهم ، أقول : تولّينا مهمّة ضبط هذه النّفوس ، وتهدئة الخواطر ، وكان الهدف : الخروج بأقلّ الخسائر ، مع تمرير أكبر عدد ممكن من النّشاطات في الظّروف الرّاهنة . ولم تُقدّر الجامعة لنا ذلك ، ولم تأبه لفورة شبابنا ، ولم تلتفت إلى سياساتها المُجحفة . ومع توافر العنصرين : شبابٌ يُطالِب بحقّ ، وسياسةٌ تُمعِنُ في الظّلم تقوم الثّورات ، وتحدث الانتفاضات ، وتنهار الجُدران . وحينَ تشتدّ العصا ، ويُلوَّح بها في وجه الثّائر ويُتعمَّد استفزازه ، فإنّ الخاسِر الأكبر مَنْ لوّح بها ، وليس مَنْ لُوحّ بها في وجهه .

هدّأتُ ما استطعتُ من نفوس الزّملاء ، ولكنّ القدور تعاظمت ، والسّهام تضافرت ، والصّدور تنافرت ، والعقابيل تكاثرتْ ، وصِرنا كمن أصابتْه النِّبال من كلّ جانبٍ فتكسّرت النّصال على النّصال ، وأصبح وقوع الكارثة وشيكًا . ولم تُفلِح علاقاتي الجيّدة مع كثيرٍ من المسؤولين في لملمة الشّعث ، وجفّتْ ينابيع التّواصل بيننا ، وترعرعتْ بدلاً منها حناظل الاتّهامات الّتي تُكالُ جزافًا ، وشعرتُ أنا وزملائي بالعجز والحسرة ، ووقْفنا وجهًا لوجه أمام الباب المُوصَد ، ولم يكن لنا من حيلةٍ أبدًا .

كان (نائل) عقَبتي الكُبرى في سبيل تهدئة الأوضاع ؛ هو بركانٌ في صورة رجل . كان لي عليه دالّة ؛ أكبر منه بعام ، ورفيقَ دربٍ طويل ، وشاركْتُه سنوات البِذار الحُلو والحصاد المُرّ ، كلّماً رمتْنا الأفاعي بدائها وانسلّتْ كان يفكّر بالانتقام ، ورجاني غيرَ مرّة أن يردّ باللّسان إذا لم يستطع أن يردّ باليد ؛ كان توّاقًا إلى أن يُقدّم كشفًا بأسباب غضبه من تعامل العمادة معنا إلى الرّئيس حين يجتمع به ، فأوقفْتُه . وكان

يريد أن يكتب مقالاً في جريدة (طلبة اليرموك) وأوقفْتُه . وكان يريد أن ينظّم وقفةً احتجاجيّة صامتةً رمزيّة وأوقفْتُه . وكنتُ في كلّ مرّة أقول له : مَنْ عملَ لم يأمن من أن يكثر حاسِدوه ويقلّ حامِدوه ، (فاصبر على كيد الحسودِ فإنّ صبركَ قاتِلُهْ) ، فيردّ : الصّبر حيلة العاجز . فأُردِف : (والنّار تأكل بعضها إنْ لم تجِدْ ما تأكله) ، فيردّ : أرى أنّها ستأكلنا ، وسيقفون هم يتفرّجون علينا . فأُتبع : العاملِون لا يضرّهم كيدُ كائد ، ولا حسدُ حاسِد . فيردّ بزفرة طويلة تكاد تقتلع بنارها الأحشاء .

اليوم بعد أنْ وقعتِ الفأسُ بالرّأس ، أَعترف : بأنّني كنتُ مخطِئًا ، وأنّ (نائل) كان أبصرَ منّي بالطّريق . وأنّ الّذين قالوا : اخفض رأسك للعاصفة لتمرّ بسلام ، هم الّذين استغلّوا هذه العاصفة لِيمتطُوا ظهورنا!!

(٢١)
(اتّسعَ الخَرْقُ على الرّاتقِ)

«نقرأ فتخضرّ الحقول في السّهوب . . . نقرأ فتتدفّقُ المياه في الينابيع . . . نقرأ فتحطّ أسراب السّنونو على أكتافِنا . . . نقرأ فنجدُ لكلّ شيءٍ طعمًا ومعنى» قالَ لنا ذلك خالي ونحن نهمّ بالدّخول أنا و(صالح جرادات) إلى غرفته ، حينَ برز لنا في ثياب النّاسكين وهو يحمل بين يديه مسرحيّة (الملك لير) لشكسبير . أخبرتُه في اليوم السّابق لموعد زيارتِنا هذه أن يُخفِيَ كلّ أثرٍ غير صالحٍ من الغرفة حينَ نأتيه ، حِفاظًا على شعورنا المُقدّس أنا و(صالح) . (صَالح) الشّيخ وذو الحنجرة القويّة ، والصّوت الشّجيّ ، يملك إلى ذلك قلبًا طاهِرًا ، ولا أريدكَ أن تخدشَ براءته حينَ يرى آثارك السّوداء مِمّا تشرب وتُحشّش . وكأنّ خالي سمع الكلام معكوسًا ، ذلك أنّ أوّل ما واجهَنا عند الدّخول طاولةٌ خشبيّة بلونٍ بنّيّ نخر السّوسُ معظم سطحها ، مُتهالَكة ، بلا غِطاء يحمي عورتَها ، وقد صفَّ فوقها الزّجاجات الفارغة بشكلٍ هرميّ ، وقدّم بين يدَي هذا الهرم زُجاجتَين مَليئتين بالمُنكر الأحمر .

أتيناه أنا و(صالح) ، لنستأنسَ برأيه فيما يحدث في الجامعة ، بادرتُه :

- أترى ما يحدثُ في الجامعة من تضييق على أنشطتنا؟!
- وهل تحسبني أعمى؟!

– وما الحلّ فيما ترى؟!
– أنتم مجموعة من الحمقى .
– يا خالي . . . إذا أردتَ أن تبدأ معي مشوار الشّتائم ، فدعني أرحلْ منها .
– مع السّلامة .
وقام وفتح الباب ، وأشار لنا بيده لنخرج ، أذهل الموقف (صالح) ، وأذهلني كذلك ولكنْ بدرجةٍ أقل . عندما وصلنا العتبة الخارجيّة ، قال :
– سأقول لكما شيئًا : الحلّ . . . (وسكت)
– ما الحلّ يا خالي؟!
– أن تقلع عينَيِ الجامعة .
– يا خالي!!
– إنْ بقيتَ على هَبَلك فستصبح (أوديب) الجامعة ؛ الخيار بين اثنين دون ثالثٍ لهما : إمّا أن تقلع عينَي الجامعة ، أو أن تقلع عينيك بنفسِكَ لتعيشَ طوال حياتك بعدها في البؤس!!

خرجنا من عنده وصالح يضربُ كفًّا بكفّ ، ويُحادث نفسه كالَمسوس ، كانت الدّروب مُظلِمة ، وموحِشة ، وطويلة ، والذّئاب تعوي بلا توقّف . وأصابني هاجِسٌ من كلام خالي ، وشعرتُ أنّني أمشي بلا عينين ، وأنّ (صالح) يقودني ونحن نتخبّط في شوكٍ ، ونتداعَى في حُفَر .
كان (نائل) ينتظرنا في غرفتي هو و(سِراج) ليرى النّتيجة الّتي خرجتُ بها من عند خالي ، تلقّاني بتهكّم :

– خالك مع احترامي لك مريضٌ نفسيّ ؛ أنا لا أدري كيف تستشيره في أمور مصيريّة!!

– أتدري ما قال؟!

– ماذا يُمكن أن تقول البَعْرة ، وأيّ رائحة يُمكن أن تفوح منها . طبعًا مع احترامي لمقامكَ السّامي .

– قال : يجب أن نقلَع عينَي الجامعة قبل أن تقلع هي أعيُننا .

عدّل (نائل) من جلسته ، وهزّ رأسه هزّتين أو ثلاثًا إعجابًا ، وغيّر نبرة صوته السّابقة ، وقال :

– والله بِفْهَم . . . هذا الكلام موزون . .!!

غاب (سِراج) و(صالح) في دهاليز الشّارع ليأتونا بعشاء لجميع مَنْ في البيت ، في هذه الأثناء ، كان (نائل) يُقدّم كشفَ حِسابٍ جديدًا يزيدُ من الوَخَم على القلب ، ويسحب ذيلاً من رمادٍ على الأرض .

قال : لم نستطع أن نطبع في مطابع الجامعة منذ شهرين مطبوعةً واحدةً ولو كانت عن فضل الصّلاة ، أو معلوماتٍ صحيّة أو طبّية ، أو حتّى علميّة ، أو أيّ معلومات من أيّ نوعٍ كان ، كانوا يردّون : المطبعة مشغولةٌ على مدار الفصل بما هو أهمّ ، ولسناً في حاجةٍ لبعض المطويّات الّتي لا تُقدّم شيئًا لعقول الطّلبة ، وحينَ نردّ : فلتطبعوها خارج الجامعة ، يقولون : التّكلفة في الخارج عاليةٌ جداً ، وسِعر الورق في ارتفاع ، والأحبار مثل النّار ، وميزانيّة الجمعيّات لا تكفي . فنردّ : أينَ تذهب الميزانيّة الكاملة لكلّ الجمعيّات ، ونحن لم نُنفِق منها إلاّ أقلّ القليل ، على بعض النّشاطات الهاربة من رَقابتكم هنا أو هُناك!!

ثمّ وقفتْ في وجهنا بيروقراطيّة مَقيتة لا يُمكن احتمالُها ،

اختلقت العمادة قانونًا خاصًا بالأنشطة ؛ أيّ نشاط مُقترح لكي يُوافَق عليه يجب أن يمرّ برَتْلٍ من التّوقيعات ، يوقّع أوّلاً على النّشاط المُقتَرح رئيس الجمعيّة ، ثمّ أمين السّرّ ثانيًا ، ثمّ مشرف الجمعيّة ثالثًا ، ثمّ مستشارها رابعًا ، ثمّ مدير النّشاط خامسًا ، ثمّ رئيس القسم سادسًا ، وربّما عميد الكلّيّة سابعًا ، وكلّ هذه التواقيع تحتاج إلى أن تلفّ الجامعة من أقصاها إلى أقصاها من أن تجمعها في ورقة واحدة ، ممّا استدعى في بعض الأحيان أسبوعًا كاملاً من اللّهاث وراء الإمضاءات والتّواشيح ، وكلٌّ يُحيل إلى الآخر ، هذا إذا وُجِدَ الأوّل والآخَر . . . أدّى ذلك في النّهاية إلى تثبيط روح القائمين على الأنشطة ، وشعورهم بالعبثيّة ، وركنَ بعضنا إلى التّخلّي عن دوره الأخلاقيّ هربًا من هذه الفِخاخ المنصوبة على كافّة الأصعدة ، والأخاديد المحفورة في كلّ جانب .

هل يحمل كلّ واحد منّا همّه ويترك السّاحة؟! ماذا عن أولئك الّذين أملوا فينا الخير كلّه ، عندما وقفوا أمام الصّناديق وقوف الرّهبان في الصّوامع ، وخطّوا بأيديهم أسماء ممثّليهم في الأوراق خُطوطَ كتبة الوحي في الرّقاق ، وهم يحلمون بعام ورديّ ، تطلع فيه الزّنابق من الأطراف ، تحيّي القادمين والعابرين وأبناء السّبيل ، فإذا بهم تدمى أرجلهم حين لا يجدون إلاّ الشّوك ينغرز في الوجوه قبل الأكف والأقدام!!

لم أجدْ من كان أمينًا على التّفنّن في اختلاق المعاذير من أجل إفشال الأنشطة أكثر مِمّا حدث في هذا العام البئيس ؛ لقد تقدّمْنا في الفصل الأوّل باثنَي عشر نشاطًا متنوّعًا ، ولم يُوافَق إلاّ على اثنين منه ، وحين كان هذا الفصل يولّي وجهه شطر النّصف الثّاني ، تقدّمنا – قبل

نهايته – إلى الجامعة باثني عشر نشاطًا آخر ، آيات مُفصّلات ، بالتّاريخ والزّمان والمكان والميزانيّة ، ولم تسمح رَدَهات العمادة المُظلمة بأن يرى النّور من هذه الأنشطة سوى نشاط واحد ، بعد قتال ضار استمرّ لأسابيع ، وانتزعناه كما لو كنّا ننتزع حملاً وديعًا من بين أشداق ستّين ذئبًا عاديًا!!

وحدثَ ذاتَ نشاط أنّه ووفِقَ عليه ، ورُتّبتْ الأمور ، ودُعِيَ المُحاضِر ، وحُدّد كلّ شيء ، ووزّعتْ إعلاناته على الأمكنة المُخصّصة ، واحتشد الطّلبة في مكان النّشاط . . . ثمّ جاء القرار بإلغاء النّشاط ، والضّيف المسكين لم يمسح جبينه من وَعثاء السّفر بعدُ ، ولم تكُنْ من حجّة ، وإنْ كانتْ فبلا طعم ولا لون ولا رائحة ، إلاّ طعم الظّمأ ، ولون الصّدأ ، ورائحة الخُواء!!

وهُناك . . . في صفّ المتفرّجين ؛ أولئك الّذين يرقبون ويُراقبون ، ويقفون على الجانبَين يشحذون السّكاكين ، ينتظرون الفرصة المُناسِبة ليُغمِدوها في جسد العمل الطّلاّبي المُنهَك ، ممّن لم يحظَوا بفرصة النّجاح في الانتخابات ، أو أن يكونوا مكاننا ، فأعطتهم الجامعة فرصةً أكبر ؛ فرصة الشّماتة ، فرصة الانتقاد الواسع على واقعنا الذي كان أشبه بجدار مائل عبثًا نُحاولُ تقويمه .

وأدركْنا أنّنا بين فكّين ، العمادة من الأعلى ، وكلّ الخصوم السّياسيّين من الأسفل ، يتحرّك الفكّ الأعلى ، ويُلقمه رفاق الدّرب حَبَّنا من الأسفل فنطحن ، ولم يلتفتْ أحدٌ منّا أو من زملائنا اليساريّين أنّنا في الطّاحون سواء ، وفي النّهاية نكتشف أنّنا سُحِقنا معًا ، وأنّ بعضنا هيّأ الفرصة المُناسِبة واللّحظة المواتِية لكي يضغط بعضَنا الآخر تحت حجر الرّحى في الآنِ ذاته .

لفّ العجزُ جسدنا جميعًا ، وثقبتْ أفئدتنا حالةٌ من اليأس جارحةٌ ، وكان لا بُدّ من التّحرّك في اتّجاه آخر بعيدًا عن الرّيح العاصفة الّتي تهبّ نحونا اللّحظة . فكّرتُ : إذا تطلّب الأمر أن نسبح في غير مائنا فسنفعل من أجل إنقاذ الجسم المُتداعي للجمعيّات . من المُنصِف أن نقول : إنّ صورة الجمعيّات عند الطّلبة أصبحتْ ممسوخة ، ومُشوّهة ، وكسيحة ، وتُعاني من شلل كلّي ، وتغرق في وحلٍ من الإخفاق المُريع والقاصِم .

الجُدُر تنهار ، والعواصف تتوالى ، والأمواج تتلاطم ، والدّروب تُقفِر . . . ونحن ؛ شبابَ الإخوان المسلمين المسؤولون بالدّرجة الأولى عن كلّ ذلك مسؤوليّةً أخلاقيّةً كاملةً أمام زملائنا الطّلاّب في كلّ الجامعة . ونحن إلى ذلك نُقذَف بالحجارة المغموسة بزيت الشّماتة وأيدينا مُقيّدة ، وأجنحتنا مَهيضة ، وعُيوننا مُطفأة . ولا أحد يعترف بأنّنا ضحيّةُ خديعةٍ مُمنهجة ، وفخٍّ مَركوزٍ أُعِدّ فيه الطُّعم من زمنٍ بعيد . لا أحد يعرف سوى أنّنا ألقينا بالعَمل الطّلاّبي في جُرُفِ العدم ، وأنّنا احتللنا هذه المواقع ، واستغللنا تلك المكاتب لمصالح ضيّقة ، وفي النّهاية لم نُقدّم شيئًا!!

صرختُ : النّهر لا بدّ له من مصبّ ، والطّريق لا بدّ لها من دليل ، والدّليل لا بُدّ له من قلب ؛ فتّشْتُ عن القلوب ، القلوبِ الطّاهرات لتحملَ هذا الكَلّ ، فإنّ النّيّة إذا صفتْ صلَحَ العمل ، وإذا سُقيَتْ بماء الإخلاص أينعت الثّمرة .

اجتمعتُ مع رؤساء الجمعيّات جميعًا ، والمسؤولين عنّا في إربد ، قَدِموا إليّ في البيت ، استأذنتُ زملائي الماركسيّين واليساريّين في أن يُخلوا لنا البيت ، كان يومَ خميسٍ ، وبإمكانهم أن يبحثوا عن منفىً

جديد لهم ، قال لي (وصفي) بتحدٍّ لعين : سنرى ما يُمكن أن تفعلوه أيّها المُبارَكون! وقال لي (سالم) باستهزاء : ما دمتم أبطال المُناورة والمُكتَسبات فبلا شكّ سنكسب مزيدًا من الخسارات . أمّا (نعمان) فطلب أن ينضمّ إلينا في الاجتِماع قائلاً : ما يضيركم أن أصبح أخًا ، أو تُصبحوا أنتم رُفقاء!! اعتذرتُ له بلطف . وكان ما كان .

استمرّ الاجتماع حتّى صلاة فجر الجمعة ، وتداول إنقاذ الجمعيّات ، وتلخّصت القرارات في إيجاد لجنة خاصّة ، يُمكن تسميتها : (لجنة الإنقاذ) ، تتشكّل من عشرةٍ من الشّباب على أن يكونوا رؤساء لجمعيّاتهم ضمن الـ (٢٥) جمعيّةً ، يُنتدَب رئيس لهم منهم أيضًا ، ومسؤول حركيّ من خارج الجامعة ، لكي يُتابعَ النّشاط ، ويسهر على تنفيذ القرارات . وهذه اللّجنة هي ذاتها اللّجنة الّتي رفضتْ عمادة الشّؤون تشكيلها باسم مجلس الجمعيّات ، وأصرّتْ على بقاء تلك الجمعيّات مُشتّتة مُتفرّقة . وهكذا تشكّلتْ اللجنة خارج رَحِم الجامعة بدل أن تكون داخله ، وبأسلوب الإخوان وتكتيكهم .

بعد أسبوعين من هذا التّشكيل بدأتِ المياه تتسرّب من شقوق السّدّ ، اتّضح أنّ السّدّ الّذي بُنِي لم يؤخذ فيه بعين الاعتبار مهارة الباني ؛ وكأنّ أيّ بِناء يُمكن أن يبنيه أيّ أحدٍ؟! وبدأ الخَرْقُ يتّسع على الرّاتق ؛ وتأكّد لي أنّ هذه اللّجنة أسرع في الهرولة نحو الفشل مِمّا لو لم تُشكّل من الأصل ؛ برزتْ تحدّياتٌ جديدةٌ لم تكنْ في حسباننا نحن الجيل الأوّل من العامِلين من شباب الإخوان ؛ صار عند بعضنا هوىً في الانفراد بالرّأي والقرار ، وكان العمل أكبر من اللّجنة نفسها ، والسّوس قد وصل إلى الأعصاب ، وأنّ طريق العِلاج الأنسب هو الخَلْع ، والتمعَ أمامَ عينيّ اقتراح خالي بِفَقأ العينين ، وظهر مع كلّ هذه

العـيـوب أنّ بعض زمـلائنا في هذه اللّجنة قليلو الخـبـرة في العـمل الطّلاّبي ، بل عديموها . وأنّ بعضـهم لا يملك أيّ شـخصـيّة في اتّخاذ القرار ، ولا الدّفاع عنه ، ولا تحمّل المسؤوليّة ، وليس معروفًا عند طلبة قِسمِه ، ولم يكنْ له رغبةٌ في التّرشّح للانتِخابات ابتداء ، ولا نيّة في العمل لخدمة زملائه في القِسم ، وأنّه نجح بالدّفع الذّاتي الّذي تضخّه الآلة الإخوانيّة في الحملة الانتخابيّة ، وهو إلى الآن لم يحضر اجتماعًا واحِدًا في جمعيّته الخاصّة بقِسمه!!

واجتمعتِ الظّروف كلّها لتُعانِدَ التّيّار الإصلاحيّ الّذي تداعيتُ أنا والحريصون من زملائي لبثّ الرّوح فيه من جديد ، وقلتُ : ما ينفعُ البنيان كثرةُ بانيه إذا قامَ على الماء!!

وازداد الوضعُ سوءًا ، ولم تُجدِ حيلةٌ من الّتي احتلْنا بها على ما نحنُ فيه ؛ وكشّرت العمادة عن جديدٍ من الأنياب ، وراحتْ سكّينُها تجول في الأحشاء المُبعثرة لتُمعن في بعثرتها من جديد ، ولم يملك أحدٌ لسياساتها إيقافًا ، ولا لممارساتها رَدًّا . وصارتْ كلّ جمعيّة تُعاني وقد افتُلِتتْ من الجسد الكامل ، وتمّ كَشفُ عشرات من شباب الإخوان من خلال نشاطات مبتورة أو مُوقَفة ، وصاروا في مرمى الأهداف ، ولم يُتحَصّل شيءٌ مُقابِلَ هذا الانكشاف . وأصبحت الأمور تسير نحو الانتحار الجماعيّ ، أو الثورة الكاملة!! ووقفتُ أنا على التّلّة من بعيد لأرى المشهد بوضوح ، لكنّه كان مُضَبَّبًا ، ومَوبوءًا ، ومنذورًا للخراب!!

(٢٢)
يُتقِنون إطفاءَ الشُّموع ويَلعنُون النّورَ ألفَ مرّة

بصفتي الوظيفيّة دعوتُ مجلسَ جمعيّات الهندسة إلى اجتِماع طارئ ، كان قرار ساعات التّدريب الصّيفيّ السّتّ قد ملأتْ رائحتُه الخانقة كلّ الأجواء ، وكان ضربةً أخرى مهّدتْ لمزيدٍ من الضّربات المُتلاحقة ، و . . . ويجب التّصرّف بأيّ شكلٍ . الجامعةُ لا تترك لنا مجالاً لالتقاط الأنفاس وتقويم الضّربة السّابقة ، حتّى توجّه إلينا ضربةً جديدةً أقسى من أختها!!

شكّلتُ لجنةً لمتابعة القرار ؛ أدركُ أنّني أُعطي هذا القرار اللاشرعيّ مزيدًا من الشّرعيّة بتشكيل هذه اللّجنة ، ولكنّني لا أملك خِيارًا ولو كان واحِدًا بديلاً عن ذلك ؛ أنا مُحاصَرٌ تمامًا ، وجميع زملائي مَشدودون من رقابهم إلى مفاصل القرارات . راجعتِ اللجنةُ عمادة الكلّيّة ، وتتبّعت منابع اجتماعات الأساتذة ، وخرجت بالتّصوّر الآتي عن كيفيّة اتّخاذه : «طلبت لجنة مجلس الجامعة من مجلس كلّيّة الهندسة تشكيل لجنة لدراسة التّدريب الصّيفيّ ، وذلك بِجَعْلِه مساقًا ذا ساعاتٍ مُعتمدَة ، وبعد الدّراسة رفع مجلس الكلّيّة توصياته بِجَعْل التّدريب الصّيفيّ مساقًا بواقع (صفر) ساعة ، ولكنّ اللّجنة رفضتْ هذه التّوصيات ، وطلبتْ منهم دراسة إمكانيّة جعله بواقع (٦) ساعات مُعتمَدة ، فردّ مجلس الكلّيّة أنّه من الأفضل جعله بواقع ساعتَين

مُعتمدَتَين ، ولكنّ لجنة مجلس الجامعة أصرّت على رأيها وعلى (٦) ساعات مُعتَمدَة ، مِمّا اضطرّ مجلس الكلّيّة إلى المُوافقة ، وتنسيب القرار من جديد إلى مجلس الجامعة ، لتنسيبه إلى الرّئيس لإقراره ، وتطبيق الإجراءات الماليّة اللازمة»!!

دعوتُ إلى اجتماع طارئ لكلّ المُنتَخبين في جمعيّات كلّيّات الهندسة كافّة ، كان العدد حوالي (٢٥) طالِبًا ؛ أردتُ أن أُشهِدَ المُنتَخبين منّا على الواقع ، وأن أضعهم أمام مسؤوليّاتهم بشكلٍ مُباشر . استمرّ النّقاش لأكثر من ثلاث ساعاتٍ ، طُرحتْ فيه من الأفكار والتّوصيات ما يملأ أدراج مكتب رئيس الجامعة الفاره ، وتمخّض الموقف عن تشكيل وفد من (٦) طلاّب لزيارة عميد الكلّيّة في ٢/ ٢/ ١٩٨٦ وبحث موضوع القرار معه ، وطرح النِّقاط الآتية :

- القرار يحمل انتِهاكًا صريحًا لقانون الخطّة الدّراسيّة ، وهذه الخُطّة هي بمثابة عَقْد تمّ إبرامه بين الطّلبة والجامعة .

- إنّ الطّلاّب لن يسكتوا عن هذا القرار ، وسيُقاتِلون في سبيل إسقاطه ؛ فهو مُجحِفٌ بحقّ الجميع .

- نتعاون معًا في حلّ المشكلة ، ونحنُ أحد مفاتيحها اليوم ، فإنْ أعرضتم فقد فتحتم الباب للفتنة ، وحينها سيكون الحلّ قد خرج من أيدي الجميع بمن فيهم نحن .

وضع مجلس العمادة الورقة ذات النّقاط الثّلاث في كُرة من شرائط رَثّة ، وقذفها برجله من الشّبّاك وهو يُولّي ظهره غير آبهٍ لها : (موضوع القرار قد خرج عن صلاحيّات كلّيّة الهندسة) ، وقعت هذه الكُرة في ملعب عمادة الهندسة ، انفتقتْ ، تحوّلتْ إلى كُراتٍ صغيرة تدور حول نفسها وهي تنفث غازًا سامًّا في جميع الاتّجاهات ، ثمّ

انفجرتْ في (٢٧) قسمًا منتشرًا على ربوع الجامعة العزيزة!!

دعوتُ المجلسَ المُصغّر من جديد ، كانوا حوالي عشرةً ؛ كلّ رئيس جمعيّة في كلّيّة الهندسة مع أمين السّرّ ، سألتُ بحرقة : ما العمل؟! أراحنا اقتراحٌ ظللنا ساعةً نبحثُ عنه وهو بين أيدينا ، قال (عبد المُطّلب) : نقدّم استفساراً لمُحامٍ من خارج الجامعة حول قانونيّة القرار ، ووجاهة اعتراضاتنا . جاء الرّدّ سريعًا : اللّوائح المعمول بها في الجامعة تُجيز لمجلس العُمداء اتّخاذ هذا القرار!! أُسقطَ في أيدينا من جديد . لا بُدّ من البحث مرّة أخرى ؛ ما زال الشّوط في أوّله ، ولئن خسرنا هدفًا في هذا السّباق إنّ أهدافًا أخرى مُنتظَرة ، قد يكون نصيبُنا فيها الرّبح . فلنبدأ من جديد . اليأس روح الموتى . ونحن أولياء الأمل لأنّه وُضِعَ في رقابِنا من زملائنا!!

سنضغطُ باتّجاه آخر ، لم يُفلِح الاتّجاه القانونيّ ، فلنجرّب الاتّجاه الشّعبي ؛ (٩٠) ديناراً وهي كُلفة التّدريب الصّيفيّ الّذي يفرضه هذا القرار ليستْ في مكنة أكثر زملائنا في الهندسة ، فلنأخذ تفويضًا شعبيًّا من جهتهم برَفْضه ، وستكون هناك خطوة تصعيديّة اسمُها : (العريضة الطّلاّبيّة) . تتلخّص الفكرة هُنا بتلخيص اعتراضٍ على القرار باسم الطّلاّب يتصدّر هذه العريضة ، ويحمل تحته توقيعات المُعترضين على القرار ، والعريضة طلاّبيّة بحتة وليست تحت لافتة الجمعيّات وذلك من أجل كسبٍ مزيدٍ من التّأييد حتّى من أولئك المُعترضين على عملنا نحن الإسلاميّين في الجمعيّات نفسها .

في صباح الثلاثاء ٤/ ٢/ ١٩٨٦ بدأ جَمْعُ التّواقيع من الزّملاء ، دُرْنا كالمُتلهّفين نجمع كُنوزَنا ، كلّما وَقّع زميلٌ على العريضة زادَ رصيدُ الحركة الطّلابيّة ، وامتلأ الجوّ بنسمةٍ جديدةٍ من نسَمات الحرّيّة ،

والانفلات من التّبعيّة ، والمُطأطأةِ لكلّ سهم طائش . جمعْنا (٧٣١) توقيعًا هي جُلّ تواقيع طلبة الهندسة في تلك الأيّام ، طلبْتُ من رفقائي في الجمعيّات تصويرها على أوراق كبيرة وتعليقها في ردهات الكليّة لتقع عليها عينُ كلّ مسؤول ، ثمّ انتدبْنا طالبَين لتوصيل الأوراق الأصليّة إلى رئاسة الجامعة ، وتقديمها هذه المرّة بين يدَي الرّئيس مُتجاوزين عميد الكلّيّة لأنّه قال : (الموضوع خرج عن صلاحيّاتي) .

لقيني (سالم) أدور مع بعض الزّملاء ، استوقفني وانتحى بي جانبًا وقال : لماذا لم نُنسّق معًا من أجل إصدار هذه العريضة؟! ألم يكن الأولى أن تخرج باسمنا جميعًا . ابتسمتُ في وجهه ، وعرضتُ أمامه إحدى أوراقها لكي يتأكّد بأنّها لا تحمل أيّ لافتة ولا جهة ؛ كان الهدف هو التّعبئة الشّعبيّة ، وليس المكسب الحزبيّ أو الفكريّ الّذي سيضرّ أكثر ممّا ينفع في مثل هذه الحالة . اقتنع . وطلب هو و(نعمان) من كوادرهما أن يعملوا على تدعيم الفكرة .

نزلت العريضة كالصّاعقة على رأس مجلس العمداء ، لا أحد يُعطيكَ الحَقّ في استرداد الحقّ ؛ أنتَ تنتزعه بإيقاد الجذوة في عَصَب الإرادة . العالي يرى أكثر . ومَنْ أراد صُعودَ الجبل احتاج إلى راحلة ، ومَنْ جعل الإيمان بحقّه راحلتَه امتلك الجبل ، ومن امتلك الجبل أدار المعركة ، ومَنْ أدار المعركة ضَمِن المصير .

طلبَت الرّئاسة منّا مهلة أسبوعين لتُناقش المُستجدّات ، وأصبح شائعًا في الجامعة ، أنّ المياه الرّاكدة بدأتْ تتحرّك ، وأنّ ممثّلي الجمعيات الهندسيّة أثاروا زوبعةً زكم غُبارُها أنوفَ المسؤولين . وفي حين شعر كثيرٌ من زملائي بالتّفاؤل في رجوع الجامعة عن قرارها ، كنتُ أقول : الزّوبعة الّتي نظنّ أنّها حجبتِ الرّؤية في الأجواء أنا

خائفٌ من أنّها ليستْ إلاّ مجرّد زوبعةٍ في فنجان .

وانهالتْ علينا الأسئلة من كلّ جهة : ما مصير العريضة؟! أينَ وصل الأمر؟! ما هي خُطوتكم القادمة؟! هل من جديد؟! وهل من سحابةٍ ستغيّر وجه السّماء اليوم؟! وكنتُ أوصي زملائي بعدم الإفراط في التّفاؤل ، وبأنْ يقولوا لإخوتنا وأخواتنا الّذين يرشقوننا بسهام الأسئلة بأنّنا ننتظرُ حتّى يأتي الحمام الزّاجل بالرّدّ من بريد الرّئاسة .

نسير في دهاليز مُعتِمة تأكلُ شبابَنا . تتفنّن السّلطة في تبديد طاقاتِنا ، نبدو لها كائنات فضائيّة قبيحة الهيئة يجب سحقُها أو إعادتها مرّة أخرى إلى الفضاء . لماذا في أوطاننا العربيّة وحدَها يُتقنون إطفاء الشّموع ، ويلعنون النّور ألف مرّة ، ويعتادون العيش في الظّلام ، ويتحوّلون في سُدُفاته الطّويلة إلى خفافيش تُصبح مهمّتها الأولى الحِفاظ عليه من الزوال؟! لأنّهم لا يحتملون الصّباح ، ولا أهله ، ولا ما يأتي به من الخير للنّاس والأوطان!!

استعاد الرّئيس عباراته المطّاطية ، ردّ بعد أسبوعَين من الاحتِراق على جمر الانتظار : «يدفعُ الطّلبة فقط التّكاليف» . وظلّتْ كلمة «التّكاليف» مُعلّقَة على مِشجب المعنى ، فصار كلٌّ ينظر إليها من زاويته الخاصّة ويُفسّرها على هواه الخاصّ . لم تتحدّد التّكاليف ، ولم يُفصِح الرّئيس فيما لو كانت للطّلبة الجُدُد أم القُدامَى ، وتركنا في لجّة الحيرة من جديد . وعُدنا إلى المُربّع الأوّل ، وزادتْ ضغوط الطّلبة علينا في أداء واجِبنا لإلغاء هذه الرّسوم الإضافيّة ، وظلّ مئاتٌ من الزّملاء مُشرَعةٌ رقابهم لِنَصْل التّرقّب والقلق والتّأويل والانتظار السّائم .

(٢٣)
فِي مُنتصَف الهُبوط الدَّرَجِيّ
أُعيدُ تشكيلَ شَخصِيّتي!!

تحوّل بيتُنا إلى خليّة نحل لا تهدأ ، شجّعتْنا (نعيمة) بسكوتها أو تغافُلها ؛ لا ندري . المهمّ أنّها دأبتْ منذ بداية الفصل الثّاني من هذا العام ١٩٨٦ على تحمّل اجتماعاتنا الحزبيّة في بيتها حتّى ساعات الفجر الأولى ، لم تعدْ تطرق طرقتَها المألوفة بِكُوزها على ماسورة الخزّان حينَ ينتصف اللّيل . فيما بعد من اجتماعاتنا المُتلاحِقة ذهبتْ أبعدَ من ذلك ؛ عَرَفتْ أنّ أمرًا ما تتراكضُ خيول فرسانه في السّاحة يشغل بال الطّلبة جميعًا فكانت هي الّتي تقوم بإعداد الشّاي والقهوة ، وأحيانًا بعض الفطائر ممّا توافر .

بدا أنّ حالةً من التمرّد على قرارات الجامعة هي الّتي ستسود في الفترة القريبة المُقبلة ، المُضطرّون يلتحقون بالمركب حتّى ولو كان على وشك الغَرق . نداء الحياة أثمن من التّفكير بالاحتماليّات المتعدّدة للموت . وحينَ تنسدّ في وجهك الجدران لا يعود البحث عن بابٍ للخروج أمرًا معقولاً ، سيكون عليك أن تفجّر الجُدران نفسها . ولقدْ قيل : الطّيور خُلِقتْ لتحلّق في الفضاء ، فإنْ حوصِرتْ صنعتْ فضاءها الخاصّ بها ؛ وهذا ما كنّا نُحاوله : كنّا نصنع فضاءَنا الخاصّ بنا!!

اجتمع في بيتي كلّ مَنْ كان إخوانيًا من طلبة الهندسة ، وانضمّ

لنا ثلاثةٌ آخرون كمستشارين أوفدهم المكتب من أجل تسهيل المهمّة عند الحاجة . خرجْنا بالآتي بعد تدارُسٍ مُعَمّق :

– في السّاعة الثّامنة والنّصف من صباح الأربعاء ١٩/ ٢/ ١٩٨٦ يقوم عددٌ منّا بإلصاق إعلانات في أماكن الإعلانات ، وعلى أبواب المُحاضَرات تدعو الطّلبة للمشاركة في الانضِمام إلى اجتماعٍ طلاّبيّ حول قرار الجامعة المتضمّن رفع رسوم التّدريب الصّيفيّ .

– يُحدّد موقع الاجتماع بالقاعة (مج ١٠٠) .

– يُحدّد زمان الاجتماع بالحادية عشرة صباحًا من يوم الأربعاء ١٩/ ٢/ ١٩٨٦

– في الحادية عشرة إلاّ ربعًا يقوم خمسةٌ وعشرون من شبابنا أو أكثر حسب التّنسيق مع المسؤولين في المكتب بدخول القاعة المذكورة ، وحجزها بدون إذن مُسبق من العمادة ، ويكون ذلك بالتّمركز في أوّل القاعة وآخرها للسيّطرة عليها ، ومنع أيّ واحدٍ من أفراد الأمن من التّدخّل لإخلاء القاعة أو حتّى لإغلاقها ، على أن نُحافِظَ على المظهر الحضاريّ في وقوفنا عند البوّابات والتّرحيب الوَدود بالزّملاء والزّميلات ، وإرشاد القادِمين إلى موقع الاجتِماع .

– تتوزّع مجموعة ثانية قِوامها عشرةٌ في ردهات الكلّيّة البعيدة وعلى أبواب المُحاضرات تحثّ الطّلبة على التوجّه إلى القاعة المذكورة .

– يبدأ الاجتماع في الحادية عشرة صباحًا ، ويتضمّن كلمةً موجَزة لا تزيد عن ربع ساعة يتولّى (وَرْد) إلقاءها توضّح موقف الجامعة من العريضة ، وأنّ الرّد عليها كان ردًّا مُبهَمًا ، ويقصد الالتفاف على القرار ، والمُماطلة في إلغائه ، بل وإعادة تطبيقه ولكنْ بلهجة أخفّ حِدّةً ووضوحًا ؛ وأنّ كلمة (تكاليف) لا يملك أحدٌ تفسيرها الحَقيقيّ إلاّ

رئيس الجامعة ، ورئيس الجامعة لا يُقدّم أيّ حلٍّ للأمر ، بل ونرى أنّه يستهين بمطالبنا .

– بعد تبيان موقفنا ، ندعو الطّلبة للمشاركة في مسيرة صامتة باتّجاه رئاسة الجامعة ، تعبر الطّريق الموصِلة من المبنى الجديد إلى الرّئاسة في صفوف مترابطة منظّمة ، يتولّى عددٌ من الشّباب تنظيمها بالمُباعدة بين الصّفوف ، وجعل عدد الصّفّ الأفقيّ الواحد لا يزيد عن عشرين حتّى يتّسع الشّارع المطروق لهم .

– عند الوصول إلى مبنى الرّئاسة يتمّ اختيار أربعة ممثّلين للطّلبة لمقابلة الرّئيس وشرح الموقف له . على أن يكون الوفد قد اختير ، والمُختارون هم : (وَرْد شاهر ، نائل أبو صبحة ، محمود عبد المطّلب ، عاشور عبد الكريم) ، وجميعهم رؤساء جمعيّات في كلّيّة الهندسة ، فلا يستطيع أحدٌ أن يُزايدَ على اختيارهم .

– يقوم الوفد المُكوّن من هؤلاء الأربعة بتسليم الرّئيس كِتابا مرفوعًا إلى وزير التّعليم العالي عن طريقه ، يتضمّن رؤيتنا للقرار الصّادر عن الرّئاسة .

تمّ ما خُطّط له كأنّ الله أنزل علينا عنايته ، وخرجتْ جموع الطّلبة من باب المبنى الجديد ، تمخر عُباب الشّارع الممتدّ جنوبًا باتّجاه الرّئاسة في صفوف مُتراصّة مُنتَظمة ، وتحوّل الطّلبة الّذين كان واجبهم التّمركز في أوّل القاعة وآخرها إلى منظّمين للمسيرة . كان مَنظرًا مهيبًا ، لفتَ نظر كلّ مَنْ في الجامعة من طلبةٍ وأساتذةٍ وعاملين وإداريّين إلى قضيّتنا بشكلٍ صارخ . وحينَ وصلْنا إلى باب الرّئاسة هالَ العاملين هُناك هذا الحشدُ وهذا التّنظيم ، مكثْنا ما يقرب نصف السّاعة هُناك ، كُنّا قد خطّطْنا لشَغْلِ الوقت بقراءة الرّدود الرّسميّة الّتي وصلتْ إلينا مؤخّرًا من

رئاسة الجامعة ليعرف الزّملاء الحقيقةَ كاملةً .

آخرون صدحتْ حناجرهم بالهُتاف ، ظلّتْ الهُتافات تؤجّج الموقف ، وتُلهِبُ النّفوس ، وقد صنع (صالح جرادات) الكركيّ العجينة ، الحِنطيّ الخَلطة صنيعه المُعتاد ؛ كان (هِتّيفًا) لا يُجاريه في القوّة والحماسةِ مُجار ، وقد واكبَ احتجاجاتنا من البداية ، وإنْ لم يكن من طلبة الهندسة ؛ لقد أدركَ كثيرون من زملائنا في الكلّيّات الأخرى أنّ قرارًا مثل هذا إذا مرّ ، فإنّ قراراتٍ أخرى سوف تُتّخَذ بشأن بقيّة الكليّات ، وسوف تكون نتائجها كارثيّةً .

بعد حوالي ساعةٍ من الاحتشاد المستمرّ برزتُ للجموع كي تراني ، وهتفتُ بالمهندسين جميعًا أخرجوا إليّ مُمثّليكم ليُقابِلوا الرّئيس ، وتقدّم الإخوة الثّلاثة الّذين تمّ الاتّفاق عليهم مُسبقًا إضافةً لي . وما كِدنا نهمّ بالصّعود عبر دَرَجِ الرّئاسة ، حتّى هتفَ واحدٌ من بين الحشود : يا وَرْد . . . يا وَرْد . . . فالتفتُّ إليه كمنْ أخطأ في إيقاعِ موسيقيّ مُنتَظَم . فقال : لم تُخرِجوا عن هندسة العمارة مُمثِّلاً . تلجلجتُ قليلاً ، فأنقذني (نائل) بالردّ عليه بسرعة : أنتَ مُمثّلهم ؛ فاصعدْ معنا .

صعدْنا الدّرج الحلزونيّ الّذي يُفضي إلى مطبخ القرارات ، أشار لنا بعض الحرس أن نجلس في ردهة الانتِظار ريثما يستطلع ما يُمكن فِعله ، عادَ إلينا بعد قليل ليقول لنا : إنّ الرّئيس غير موجودٍ ، وأنّه لا فائدة من الانتظار . فطلبْنا مقابلة نائب الرّئيس . لم يأتِ الرّدّ هذه المرّة ، إلاّ أنّنا شاهدْنا عميد كلّيّة الهندسة ، وعميد شؤون الطّلبة يُسارعان بالدّخول من باب الرّئاسة ، وكان يبدو أنّهما على عَجَلٍ ، وأنّ هاتِفًا يأمر باستدعائهما من مكتبَيهما على الفور قد تمّ . بانضمام هذين

العـمـيـدَين إلى الجـوقـة سُـمِح لنا بدخـول مكتب نائب الرّئيس نحن الطّلاّب الخمسة ، والمسؤولين الثّلاثة . فُوّضْتُ من زملائي بالحديث ، وطرح وجهة نظر زملائنا الطّلبة ، قلتُ لنائب الرّئيس :

– إنّ احتـجاج الطّلبة على رسـوم التّدريب الصّـيفيّ الّتي فُرِضت هي احـتـجـاجـاتٌ في مكانهـا ؛ إذ كـيفَ تطلب منهم أن يدخلَ هذا التّدريب كساعات معتمدة إجباريّة بواقع (٦) ساعات بعد أن كان يساوي (٠) ساعة ، ثمّ تُرغمهم على دفع رسوم مقابله تساوي (٦٠) دينارًا للطّلبة القُدامى ، و (٩٠) دينارًا للمُسجّلين اًلجدد .

– ولكنّ هذا القرار لم يُؤخذ إلاّ بعد تشاوُر طويل .

– أيّ تشاورٍ ، ومصلحة الطّلبة تُستَهدَف؟! أتعرفُ كم نسبة الطّلبة الّذين لا يستطيعون تحمّل هذه الضّرائب الإضافيّة الّتي افتعلتموها؟!

– نظام رسـوم التّـدريب الصّـيـفيّ معـمـولٌ به في كلّ الجـامـعـات العالَميّة المُتحضّرة يا شباب!!

– ليس صحيحًا .

– . . . !!!!

– ٩٠٪ من زملائنا لا يستطيعون تلبية نداءاتكم التّشليحيّة الّتي تستنزفُ دماءَهم قبل أموالهم .

– يا شـبـاب . . . كـان التّـدريب الصّـيـفيّ يتطلّب من الجـامعـة أن تدفع كافّة التكاليف المترتّبة عليه من قِبَل الطّالب المُتدرِّب إلى الجهة المُدرِّبة ، وهذا أصبحَ يُشكّل عبئًا ماليًا إضافيًا لا تستطيع ماليّة الجامعة أن تتحمّله .

– فتقومون بترحيل هذا العبء إلى الطّلبة الكادحين .

– وماذا يُمكن أن نفعل؟!

– أشياءَ كثيرة . . . لكنْ دع جيب الطّالب خارج المُعادَلة ، فستجد خياراتٍ متعدِّدة .

– مثلَ ماذا؟!

– استثماراتٍ بسيطة بمشاريع ذات أفكار خلاّقة داخل الجامعة أو خارجها ، مثلاً : أكشاك الكتب وتصوير الأوراق ، والمستلزمات الجامعية ، وبعض المطاعم الّتي يُسنَد عطاؤها إلى مستثمرٍ من القِطاع الخاصّ مقابل نسبة ، وزراعة دونمات الجامعة الخالية بأشجارٍ الزّيتون أو الأشجار المُثمرة الأخرى وبيع النّاتج وتسويقه ، وغيرها . . . كلّ هذه المُقتَرحات تدرّ أرباحًا يُمكن أن تُغطّي هذه الأرباحُ تكاليفَ التّدريب الصّيفيّ وزيادة .

– جميل . أعدكم أن أعرضَ هذه المشكلة مرّة أخرى على مجلس العُمداء . وإن شاء الله ستُحَلّ قبل نهاية هذا الفصل .

– نهاية هذا الفصل!! ولكنّ المئات من زملائنا خارج مبنى الرّئاسة ينتظرون مِنّا شيئًا جديدًا . ماذا نقول لهم؟! تَعِدوننا!! لقد ملّ الطّلاّب من كثرة الوعود . الوعود تأجيلُ المشكلة ورميها على قارعة الانتظار دون التّفكير بحلّها . ونحن نريدُ شيئًا عمليًا يُمكن أن يُقنعَ المتجمهرين في الخارج .

– والله يا شباب . . . ويا أخ (وَرْد) لا أستطيع أن ألغي قرارًا اتّخذه الرّئيس .

– خُطوةً حاسِمة يُمكن أن نقابِل بها وجه زملائنا بعد أن نخرج من مكتبك .

– أمهلونا أسبوعَين .

– لقد أمهلناكم أسبوعَين من قبل أيّام العَريضة ولم نخرج

بنتيجة ، هذه مُماطَلة لن تُقنع أحدًا . والسّكين ليستْ على رقبتكم أقرب منها على رقبتنا .

– يا أخ وَرْد . . . يا أخ وَرْد (قال ذلك بضيق شديد استدعاه أن يقف ، وينفض يديه دلالةً على انحصاره في الزّاوية) . . . الرّئيس الآن في باريس ، وسيعود السّبت ، وسيكون اجتماع مجلس العمداء الأحد . ويوم الاثنين سُنطلِعكم على النّتيجة إن شاء الله .

هززتُ رأسي بالامتِعاض ، أشرتُ إلى الزّملاء بيديّ وفَهِموا بأنّ اللّقاء عند هذا الحدّ قد انتهى . حينَ خرجْنا من باب الرّئاسة ، شعرتُ ونحن نهبطَ الدّرج أنّ كلّ درجةٍ من هذه الدّرجات تهوي بنا إلى القعر ، وأنّ كلّ واحدةٍ منها قد تُصبح جذْعًا من خشبٍ يابس تُلقى في النّار فتتحوّل إلى وَقودٍ مُستَعِر . وهتفتُ في نفسي : إذا هبّت النّار فأيّ ماءٍ يُمكن أن يُطفئها!! في منتصف الهبوط الدّرجيّ بدأتُ أُعيد في داخلي تشكيل شخصيّة جديدة غير الّتي قابلتُ بها نائب الرّئيس ؛ شخصيّة تكون ودودة قادِرة على إقناع الطّلبة بإنهاء الاعتِصام بأعذار من هنا ومن هناك ، وكان عليّ أن أبتكر هذه الأعذار وأنا أهبط ما تبقّى من الدّرجات الهاوِيات!!

تلقّتْنا الجموع التّائقة إلى سماع كلمةٍ تُبرّد القلوب ، وتُطفئ أُوام الانتظار . وأصغت الأسماع المتلهّفة إلى قرارٍ يُعيد إلى جيوبهم الأموال الّتي شرع القرار سرقتها ، وأعطى للجامعة الضّوء الأخضر بسلْبِها منهم . قَرؤوا الخواء في وجوهنا جميعًا ، حاولتُ أن أغيّر ملامح وجهي ، ولكنّ الحقيقة كانت أكبر من أنْ تُغطّى بستارٍ شفيفٍ من التّصنُّع . غطّيتُ عينيّ حتّى لا تفضحاني وذلك بإشاحتهما عن الهالةِ القادِمة من عيونِ المُترّقبين . ورأى (نائل) انكِساري ، فتولّى الدّفّة عنّي ،

وصاح بالجموع :

- لقاؤنا مع نائب الرّئيس كان مُثمِرًا ، ووعدَ . . .

- كَذِب . . . الوعود كاذبة دائمًا . . . لم يأتِ وعدُ صادِقٌ واحِدُ من صاحب سلطة . . (قاطَعه أحدُ الطّلبة من ذوي الأصوات الهادِرة) أينَ تذهب يا نائل من هذا الصّدق المتدفّق في ألسنة الزّملاء . . . الحمدُ لله أنّني لستُ في موقفك المُحرج (هتفتُ في نفسي بعد أن سمعتُ هذا الرّدّ) . عاجلهم (نائل) من جديد :

- نائب الرّئيس يشترط فضّ الاعتصام لبدء الحوار .

- لن نتحرّك من هنا .

- يا شباب . . . أيّها الزّملاء الأعزّاء ، ألسنا نحن الوفد الّذين اخترتمونا أنتم ، وطلبتم منّا مُجادلة الرّئاسة . . . أرجوكم اقبلوا بما يخرج به هذا الوفد .

- لن نقبل .

- والله لقد وضعنا مصلحتكم فوق أيّ اعتبار . ونحن الّذين جمعناكمُ اليوم قادرين على جمعكم إن شاء الله مرّة أخرى ، وفيها سوف نتناقش في كلّ الأمور . لِنُعطِ الرّئاسة هذه الفرصة الأخيرة ، وكما يُقال : (لاحِقِ العيّار لباب الدّار) .

انصرف الطّلبة ، وتركوا خلفهم ريحًا صفراء من التّذمّر والغضب . جرت الأمور بسلامة . وكان يومًا له ما بعده .

(٢٤)
الثّورةُ لا تُصنَع؛ الثّورة تُولَد

أصبح جمْعُ الطّلبة ينطوي على خطورة لم نكنْ نقدّرها إلاّ في ذلك اليوم . إنّ الكتلة البشريّة المُتحرّكة المُطالِبة بحقوقها هي عبارةٌ عن ألغام مَوقوتة ، وقنابل مُتفجّرة ، وحين تنطلق من عِقالها وتنفلت من زِمامها يتهشّم في طريقها كلّ شيء . صار التّفكير بالحشد مثل التّفكير بعمليّة انتحاريّة يجب حساب كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في الإعداد لها ، لأنّ المجاميع البشريّة إذا تشكّلتْ تحت نِداءٍ من مُكتَسباتها المُقدّسة تُصبح عصيّةً على الانكسار ، قابلةً للانشطار البشريّ المُدمِّر في أيّة لحظة .

ما الحلُّ إذًا؟! بسيطٌ جِدًّا ؛ ألغِ رسوم التّدريب الصّيفيّ وسيُصبح الأمر كما لو كان حُلُمًا في ليلةٍ خارج أسوار الجامعة ، أو ذكرى وُلِدَت في خيال شاعرٍ منفصلٍ عن الواقع يكتب قصيدةً عن أحداثٍ وقعتْ قبل أن يتمّ إنشاء الجامعة من الأساس . تَقبّلِ المطلب الأوّل إذا كان فيه رائحةٌ من عدالة ؛ لأنّ رفضه يعني أن تتوالد متوالية من المطالب الجديدة لا تقدر الجِبال الرّاسيات على حَمْلها أو الثّبات في وجهها . قلتُ لهم في حوارات سابقةٍ لا تنتهي : صاحب السّلطة يستطيع أن يهبَ سلطته مزيدًا من الأمانٍ لو أنّه نزلَ مرّة واحدةً من شرفته لينظر إلى هذه الشّرفة نفسها من موقع المُحتشدين تحتها . حينَ تمارس تبديل الأدوار تتبدّل تبعًا لها الأطوار وتصلح من أجلها فيما بعد الأحوال .

ويلٌ للّذين يُصرّون على النّظر إلى الأمور من شرفتهم العالية ومن تحتها أمواج البشر تكاد تبتلع كلّ شيءٍ في جوفها!!

تابعتُ أنا والوفدُ الخماسيّ ما تمخّض عنه اجتِماع مجلس الجامعة من قرارٍ بخصوص ما طرحناه . كان ذلك يوم الأحد ٢/ ٣/ ١٩٨٦ حينَ ذهبتُ مع زملائي لمقابلة رئيس الجامعة كما كُنّا نؤمّل ، ولكنّ الرّئيس رفض مُقابَلتنا دون أيّ سببٍ ، وسحبتُ نفسي وزملائي دون أن نقول كلمةً واحِدةً ؛ كان الغضبُ يتظاهر في أعماقي ، وشعرتُ أنّ استعلاء الرّئيس سيؤدّي إلى كارثة وشيكة الوقوع . . . في الطّريق ألحقَتْ بنا الجامعة مَنْ يقول لنا إنّ عميد الشّؤون يطلبنا إلى مكتبه ، حوّلنا المسار نحوه ، والتقيناه :

– ما النّتائج؟! (قلتُ)

– سيكون الجواب في العاشرة من صباح الغد . (ردّ)

– مماطلة جديدة ؛ تكسبون الوقت أم تخسرونه ؛ تخسرونه بلا شكّ (أردفتُ وأنا أصكّ على أسناني والكلمات تخرج من بين شفتيَّ مُمزّقة لشدّة ضغطي عليها)

– المجلس لم يتّخذ قرارًا نهائيًا ، وغدًا على الأكيد سيكون القرار قد تبلور بصيغته النّهائيّة .

– اسمع سيادة العميد ؛ أرجو أن توصِلَ هذه الرّسالة إلى الرّئيس نفسه : أنتم اليوم تتعاملون معنا الخمسة ، ونحن مفاتيح الحلّ معكم ، حينَ يخرج الأمر من بين أيدينا سيكون عليكم أن تتعاملوا مع المئات بل الألوف ، وحينَها نكون نحن قد رفعنا أيدينا من الموضوع ، وعليكم أن تواجهوا الغضب المُروِّع المتأجّج وحدكم .

– تهديد يعني!!

- أنا قلتُ رسالة ، وتصل إلى الرّئيس .

وخرجْنا ونحن في أيدي الغَلَيان واليأس والجزع . تكشّفَ الأمر إلى درجة الوضوح تحت شمس الضّحى : الجامعة لن تتراجع عن قرارها ولا بُدّ من التّفكير في مرحلة ما بعد ذلك .

اجتماع . . . يا حُكماء الثّورة : اجتماع . في بيت (صالح جرادات) هذه المرّة . في بيت هذا الكركيّ المُعتّق ، المَملوء بالرّضى ، القادم من قلعة الحريّة والحبّ ، يحمل في قلبه ترانيم العشق بصوتٍ يكاد يجعل الحنين موسيقى!! تنادَيْنا من كلّ أحياء إربد ، أكثر من عشرين ممثّلاً عن الجمعيّات والإخوان . بدا أنّنا نُخطّط دون العلمانيّين واليساريّين والقوميّين . ومع أنّ هذا الواقع فرضه أنّ الّذين يحملون الهمّ الطّلابيّ في تلك الأيّام هم أعضاء الجمعيّات ، وهؤلاء كانوا من الإخوان في غالبيّتهم فهم الّذين فازوا بعضويّتها ، إلاّ أنّه داهمني شعورٌ صارخٌ بوجوب إشراك كلّ الفئات الطّلابيّة والتوجّهات الفكريّة .

كان الاجتماع عشيّة اليوم الموعود الاثنين ٣/ ٣/ ١٩٨٦ الّذي فيه ستُعلِن الجامعة موقفها وقرارها المتعلّقَين بساعات التّدريب الصّيفيّ . نوقِشَ في هذا الاجتماع الخطوة التّالية لإعلان الجامعة ، وقد تلخّصت النّقاشات في الآتي :

ردّ الجامعة ينطوي على ثلاثة احتمالات هي :

- الرّدّ الإيجابيّ وهو إلغاء القرار بالكلّيّة .

- الرّدّ المعقول وهو أن يدفع الطّلبة (١٥) دينارًا عن التّدريب الصّيفيّ كاملاً .

- الرّدّ السّلبيّ وهو أن يدفع الطّلبة (٦٠ -٩٠) دينارًا كما في قرار الجامعة السّابق .

قلنا : في حالة الرّدّ الأوّل (الإيجابيّ) فإنّنا سنجمع الطّلبة ، ونقيم لهم احتفالاً كرنفاليًا ، فَرَحًا بانتصار الإرادة الطّلابيّة على سلطويّة الجامعة ، وسندعو له زملاءنا في كليّات الهندسة وغيرها ، لأنّ انتصار طلبة الهندسة هو انتصارٌ لجميع الطّلبة ، وللحركة الطّلاّبيّة الّتي تتشكّل بالرّغم من كلّ العثرات الّتي زُجّت بها الحركة عن طريق العمادة ومَنْ وراءها .

وإذا كان الرّدّ الثّاني (الرّد المعقول) فإنّنا سوف نمرّر القرار ، باعتبار أنّ (١٥) دينارًا ليستْ مبلغًا يستدعي التّصعيد من أجله . وبالمناسبة فإنّ رقم (١٥) وُلِدَ في تلك اللّيلة في اجتماعنا ذاك ، وطرحه أحد الشّباب كحدّ أعلى لمبلغ ماليّ يُمكن أن تتحمّله جيوب الطّلبة بوجه عامّ . غيرَ أنّ أصواتًا عديدة قالتْ : إنّه إذا رفض الطّلبة رسوم (١٥) دينارًا فيجب أن نتماشى مع موقفهم ، وحينها سيكون هذا الرّدّ مشمولاً بالرّدّ الثّالث في طريقة التّحرّك لمواجهته ، ولكنّنا كنّا نرى أنّه أخفّ الضّررين ، وأنّ مهمّة إقناع الطّلبة بقبوله لن تكون صعبةً للغاية .

وإذا كان الرّدّ الثالث (الرّدّ السلبيّ) فإنّنا مُضطرّون إلى القيام بإضراب شامل في كلّيّة الهندسة يشلّ جميع أقسامها . والإضراب يحتاج إلى ماكنة إعلاميّة وتقبُّل الفكرة من جهة الطّلاّب ، سيكون إضرابًا عن حضور المحاضرات وتقديم الامتحانات لفترةٍ مُحدّدة ، اتُّفِق على أن تكون لثلاثة أيّام كبداية تتلمّس الأسلوب الأمثل في طريق الاحتجاج السّلميّ . وقلنا : يجب أن نفرّغ القاعات من أيّ طالبٍ أو طالبة ، وليدخل الدّكتور على المحاضرة فلا يجد فيها أحدًا ، ولا تُقابله إلاّ الجدران والفراغ وانعدام الصّوت ، والسّكينة التّامة ، والهدوء القاتل . ثمّ ليأتِ دكتورٌ آخر بأوراق امتحاناته ، فيُبهت حين يُفكّر بالبدء بتوزيع

الأوراق فيجد المقاعد خالية ، والصّفوف خاوية ، والألواح لا تنتظر أحدًا ليكتبَ فوقها .

فكرةُ الإضراب فكرة جبّارة ، تحتاج إلى دعم فكريّ يكون وَقودَها المُؤجّج ، ودعم (لوجيستيّ) يؤمّن المكان بالفراغ ، ويؤمّن الزّمان بالانتظار!! وقد بدأتْ تحتلّ أدمغة كثيرين مِمّن رأوا أنّ سياسة الجامعة ماضية في التّصعيد ضدّ ما كنّا نراه من مصلحة الطّلبة ، وأنّ الرّئيس كان يستخفّ بإرادة الطّلاّب ، ويظنّ أنّ ما يفعله يصبّ في مصلحتهم في النّهاية ، وأنّهم مجموعة من الجَهَلة لم يرتقوا بعد إلى أفكاره المُبدِعة ولا إلى طريقته في إدارة الأمور الّتي تعلّمها من أرقى معاهد العِلم والفكر والإدارة في أوروبّا وأمريكا .

وقفتُ في الحشد العشرينيّ من الزّملاء ، وأعلنتُ أنّ الاجتِماع انتهى ، وأبقيتُ على اجتماع مُصغّر يقتصر على اثنين : أنا و(نائل) ، طلبتُ من (صالح) أن يُخليَ لنا الغرفة لبعض الوقت ، وأمرتُ الجميع بالمغادرة والاستعداد النّفسيّ لكافّة الاحتِمالات . والتّفكير بالحشد الجماهيريّ لاتّخاذ الخطوة التّالية في حالة الرّدّ الثّالث . وعلى أن يُوافِيني مجلس الجمعيّات المُصغّر في السّابعة من صباح الغد في مدخل كلّيّة الهندسة .

أدنيتُ (نائل) منّي ، وهمستُ في أذنه بصوتٍ مُرتجف :

- ما تظنّ؟!
- إنّها ثورةٌ يا صديقي .
- كيف؟!
- الجامعة ستعمد إلى الرّدّ الثّالث ، أراها تفعل ذلك كما أراك .
- رأيتَها تفعل ذلك؟! أم تريدُها أن تفعل ذلك؟!

– سيّان ؛ رأيتُها هي ، أم أردتُ أنا . في النّهاية النّتيجة واحِدة .

– واحدة؟!

– الثّورة . . . الثّورة . . . هذه هي النّتيجة .

– هل من مَخرج آمن من هذه الأزمة .

– بلى ، يوجد مَخْرجٌ آمن ، ولكنّه لا يكون إلاّ بالثّورة يا صديقي ، بالثّورة ، أعني ما أقول ؛ الأزمات الّتي تكون مع السّلطة لا حلول لها إلاّ بالثّورة . الثّورة لن تنتظر أحدًا ، نحن لا نصنعها ، هل فكّرنا بذلك في اجتماع اليوم؟! هل رغب أحدٌ منّا بهذا ، هل ثمّة طرحٌ ذَكَرها على هامش الحِوارات . الثّورة يا صديقي لا تُصنع ؛ الثّورة تُولَد ، وإذا ما توافرت الظّروف الكاملة لميلادها فإنّه لا أحدَ على وجه الأرض يُمكنه أن يقف في وجهها ، نحن مُقبِلون على ثورةٍ حقيقيّة ؛ ستقول : مَجنون ، مَعتوه ، شَطَّ به الخَيال ؛ الخيال المريضُ الّذي تُشعله العاطفة الهوجاء . أقول : معك حقّ ، أنا كذلك ، ولكنّ صفاتي الّتي أتمتّع بها لا تصنع ثورةً ، الثّورة تنبثق انبثاقًا من جوف القَهر والمُمارَسات القمعيّة . وهي بلا شكّ قادِمة لأنّها أتمّت شهورها التّسعة في رَحِم المعاناة!!

(٢٥)
إنّها سَنَواتُ العِشقِ والجَمالِ والثّورةِ والحُرّيّة

عـدتُ إلى البـيت في الطّرق العـابِثـة ، بعـد أن نامت البـيـوت ، وخلت الشّـوارع إلاّ من الأعـمـدة ، وأظلمت الدّروب إلاّ من الأضـواء الخافِتة القادمة من بعيد ، تلك الّتي تُثير في القلب الحزنَ والذّكريات ، وتفـجّـر في العـيـون منابع البكاء والعَـبَـرات . أعـتـرف أنّني هَشّ ، وضعيف ، وخاوٍ ، وفي طريقي إلى الانهيار . أشعر أنّني أسوق نفسي وزملائي إلى قَدَرٍ غامض غموض هذا اللّيل الّذي يعبث بي . كان يُمكن أن أكون طالِبًا في جامعةٍ أخرى غير اليرموك ، كان يُمكن أن أكون فيها كأيّ طالب لا أحمل مسؤوليّة الجمعيّات على كاهلي ؛ أنا القادم من هناك كنتُ في غِنى عن السّير في طريقٍ محفوفةٍ بالأشواك والألغام ، وتنتشر على مساحاتها المُستنقَعات والرّمالُ المُتحرّكة!!

كنتُ أشـعـر بحـزنٍ وبجـوعٍ شـديدَين ، وقـفْتُ أمـام مـحلّ بيع (ساندويتشات) يبقى حتّى ساعةً متأخّرة من اللّيل في شارع الجامعة ، دلّتْني عليه رائحة الفلافل المقليّة الّتي فاحت مع هبوب الهواء البارد من جهة الشّمال . رحّب بي (المطعمجي) بابتسامة نِصفيّة وعيناه ذابلتان من التّعب والنّعاس ، ركز يده على وسطه ، وهو يُمسكُ المصفاة باليد الأخرى ويستعدّ لانتِشال ضحايا الغريزة البشريّة إلى الطّعام . حدّقتُ في المَقلى الّذي امتلأ بالزّيت المغليّ ، وصار يُفرقِع لشدّة

الحرارة ، هوت الحبّات فيه وراحت تتقلّب ضاجّة بالفُقاعات من حولها وهي تُقلَى ، كلّما أُلقِيتْ فيه حبّةٌ انتفضتْ أحاسيسي ؛ شعرتُ أنّ أيّامًا قادِمة علينا ستفعل بنا ما يفعله هذا المقلى بحبّات الفلافل . نهوي ، يأتينا الموت من كلّ مكان ، نضجّ ، نصرخ ، ننضج ، نخرج موتى ، ونُؤكَل ، ونُصبح في أجواف غُرباء ، ولا عَزاء لنا نحن الّذين لا يدري الآكِلون ما كُنّا وما صِرنا إليه!!

أثارَ تحديقي الأبله صاحبَ المطعم ، نظر إليّ بعينين تنغمضان تدريجيًا ، وراح يُعدّ السّندويشة على عجلٍ ليخلّصني من شرودي ، دفعَ بها إليّ وسحبَ كرسيًا إلى الرّصيف لأَجلس ، مددتُ يدي شاكرًا وخرجتُ بعد أن نقدتُه الثّمن . بدا طعمُ كلّ شيءٍ مُرًا ، تغيّرت الطّعوم في فمي . ما الّذي يُجبِرني على أن آكل من غير إنائي ، وأشربَ من غير كأسي ، وأجلس إلى غير مائدتي!! قلتُ ذلك لنفسي وأنا أواصِلُ طريق العودة .

الجبال الّتي أطلعتْني من نارها ، ومسجد (البيك) الّذي خرّجني في أكنافه ، وصنعتْني أدعيتُه في جنباته حَضَرَا اللّيلة في خاطري حضورًا مُلِحًا . و(نابلس) الّتي كانت منفى تعود لتُصبِحَ منفىً جديدًا كلّما عدتُ إليها في نهاية كلّ عام . اليوم تتراجع بالحزنِ إلى الوراء ، وتتقدّم (إربد) بالحزن ذاته إلى الأمام . ألتفتُ عن يميني ؛ مساحات ممتدّة خالية من البشر والحجر ، سهولٌ تقدّم لك الأفق خاليًا إلاّ من العتمة وانكِسار الضّوء ، لا بُدّ أنّ قادة (اليرموك) ، وجيشها ، ومُقاتليها ، وسيوفها ، ورِماحها ، ودروعها ، وتُروسَها ، ونِبالها ، وفرسانها الأسطوريّين مرّوا من هنا . أكادُ أشعر بهم كما لو كانوا يستيقظون داخل روحي ، أشعر بِحَمْحَمات خيولهم في هذا اللّيل البارد ، بنداءاتهم

السّابحة في فضاء التّحرّر والتّحرير ، بصلواتهم في التّراب المُبلّل بندى الشّـهـداء . . . ها هم . . . أراهم وقـد أثقلهم المسـيـر وصلوا إلى هنا ، صـامـتين في هيئـاتهم وضـاجّين في جـوانحـهم الّتي تنثني على ثورةٍ عارِمة ، (يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ ، نُورٌ على نُورٍ) ، مُكلّلين بالهـيـبـة لا ينطق منهم إلاّ ذمـيلهم إلى الغـاية العُظمى ، حـيثُ لا ينشغلون إلاّ بما جاؤوا من أجل تحقيقه .

إنّها السّنة الأخيرة لي . . . هل سأعود إلى (نابلس) لأترك خلفي أكوامًا من ياسمين الذّكريات؟! أم تتناهشني تلك الذّكريات الّتي بلّلتْ فؤادي بندى العِشق فتَستَبْقيني هذه السّاحرة (إربد)؟! أم يقع الجفاء بينهما فتلفظانني معًا فلا أحظى بحبّ أيّ منهما ، فأغادر إلى منفىً ثالث؟!

سنواتٌ خمس يَكَدْن يمضين بوداع استثنائيّ ؛ ماذا تفعل سنواتٌ مثلها بعاشقٍ مثلي؟! ماذا قد تُغيّر فيّه؟! ماذا ستأخذ منه ، وماذا ستُبقي له؟! والماضي؟! ماذا يُمكن أن يولَد في وِجدانِنا لكي نكون قادرين على نسيانه ، والانفلات من أسْره؟! إنّها سنوات العشق والجَمال والثّورة والحرّيّة ؛ وأنا في (إربد) وُلدتُ من جديد .

وصلتُ إلى البيت ، كانت الأنوار مُطفأة ، درتُ كالعادة من أجل أن ألج الباب الجانبيّ الّذي تصعد درجاته إلى الرّوف . السّاحة صامتة صمتَ الرّهبان ، خطوتُ أولى خُطواتي وتوقّفْتُ ، خُيّل إليّ أنّني سمعتُ صوتًا يُشبهُ الأنين . أرهفتُ السّمع أكثر ؛ يبدو أنّه قادِمٌ من غرفة (نعيمة) المُلاصِقة لماسورة الخزّان حيثُ كانت تطرق بكوزها عليها حينَ نُغالي في سهرنا ونقاشاتنا . تقدّمتُ قليلاً باتّجاه الشُّبّاك لأتأكّد من هواجسي ، أرهفتُ السّمع ، هذه المرّة تأكّدتُ أنّها (نعيمة) ، كانت

تَبكي بكاءً مكبوتًا ، أشبه ببكاء طفلٍ ينهره ذووه عن البكاء ، أو ثكلى تضع يديها على فمها لتُدراي انفلاتَ الصّرخات منه . وكأنّ المرأة أحسّتْ بوجودي من خلال أنفاسي المثقوبة في الجوّ البارد ، فأضاءت الغرفة ، وأزاحت السّتار لتتأكّد مَن هذا الّذي اقتحم عليها خلوتها ، من خلف الضّوء الشّاحب الّذي زاد سوداويّة المشهد ، بدتْ (نعيمة) وقد هرمتْ عشرين عامًا عن آخر مرّةٍ رأيتُها فيها ؛ كانت التّجاعيد قد غزتْ وجهها وحوّلتْه إلى مشهدٍ جنائزيّ ، وعيناها مُنتفخَتين من شدّة البكاء ، وأنفاسها تتقطّع ، وصدرها يعلو ويهبط ، والدّموع الحارّة تُغطّي وجهها ، واصلتْ أنينها حينَ رأتني ثمّ راحتْ تشدّ بيديها على صورة (زوجها) وتحتضنه وتنتحب من جديد . صورةٌ أخرى غير الصّور الموجودة في المتحف ، لم أتكلّف جهدًا لأعرف أنّه (ناصر) لأنّ بِزّة الطّيارين كشفتْهُ على الفور . سحبتُ إلى داخلي نفَسًا عميقًا حارًا من اللّوعة ، وأحسستُ أنّ الحزن هو القاسم المشترك الأكبر لكلّ البشريّة . ماذا يُمكن أن أفعل لهذه المرأة المسكينة؟! ألقيتُ عليها التّحيّة ، خجلتُ من عجزي ، غطّيتُ وجهي بيدي حتّى لا ترى دمعةً راحتْ تتسللّ من عينيّ فتُهيّجُها على البكاء ؛ فإنّ الشّجا يبعث الشّجا . لملمتُ أفكاري وهواجسي المُبعثَرة ، وتركتُها خلفي مطعونةً بالحزن المُختّر ، وصعدتُ إلى غرفتي .

كان (سِراج) يغطّ في نوم عميق ، لم أشأ أن أوقِظه لأشكو له همومًا تعصف بالرّوح ، ولم أشأ أن أُشعل الضّوء ، كانت شرارةٌ من عشق (نعيمة) الّذي لا يُمكن وصفه ولا تفسيره قد اشتعلتْ آنئذٍ في روحي ، سحبتُ كرسيًّا إلى خارج الغرفة ، وعلى ضوء القمر الهادئ ، وفي البرد القارس ، قرّرتُ أن أكتب .

لِمَنْ سـأكـتـب؟! سـؤال سـاذج!! أنا أعـرف تمامًـا لِمَنْ . لكنّه العـشق الّذي يحوّلنا إلى مجانين وبُلهاء من نظرةٍ واحِدة . أمّا السؤال الّذي لا يبـدو سـاذِجًـا : لماذا نكتب في الحبّ؟! نكـتب لكي نتـخلّص من أوجاعنا بالكتابة؟! أم لنرمّم ما فعله الحبّ بنا ؛ حينَ وزّعَنا على طُرقات الحنين قتلى في غير ذنب . أم لنستعيد أنفسنا الّتي اغتالتْها النّظرات الذّابِحات ، والكلمات السّافِحات . أم لنخفّف غلواء الحزن الّذي يكاد يُشرِّح أجسادَنا بسكّين العاطفة . أم لنتفادى انتِحارًا متوقّعًا إذا نحن اسـتـسلمنا له دون أن نكتب . ومـاذا نكتب؟! أوجـاعنا أم أوجـاع عاشِقينا؟! وهل نحن اثنان أم واحِدٌ تجمعهما مُصيبة اليُتم في الحبّ . نكتبُ حزنَنا أم فرح الآخرين بعذابنا . والعذاب؟! نستعذبه في سبيل مَنْ نحبّ؟! أم أنّ الحبّ لا يجـد طريقَـهُ إلا عـبـر الآهات والدّمـوع والحَسَرات؟!

يا (نائل) نحن بالكتابة نُشفَى أم نزداد مرضًـا؟! نموتُ أم نحـيـا؟! نجد أنفسنا أم نُضيّعها؟! نحسّ بالرّضى أم نزداد سخطًا؟! نفعل ذلك لكي نتخلّص من الكائن الجميل الموجود في أعماقنا والّذي نسمّيه الشّوق ، أم لنُبقي عليه وقد ازداد جمالاً وسكينةً وحضورًا؟!

(٢٦)
إنّ ساعةً في الحُبِّ تَنتصِرُ على عُمْرٍ في الكُره

- تغيّرتُ؟!

- كثيرًا .

السّحاب في السّماء يتغيّر ، وكذلك الماء في الوِديان ، والرّيح في الصّحراء ، والرّمال في الكُثبان ، والأوراق في الأشجار . والنّار الّتي تُوقَد أعلى الجبل غير الّتي تُوقَد في أسفله ، تلك الّتي في الأعالي للهداية ، والّتي في الأسفل للاستِدفاء ، وأنا أفضّل أن أصبح منارةً هادِية يأكلني البرد ، على أن أصبح حجرًا جامِدًا أنعمُ بالدّفء والأمان .

قبل خمس سنوات لم أكُنْ مثلي اليوم ، خمس سنوات جمعتُ فيها أيّام عمري آلافًا من الأوراق والذّكريات ، كتبتُ على كلّ ورقةٍ ما انجرح من الفؤاد فسال في حبر الهُيام ؛ نحن ورقةٌ بيضاءُ يكتبُ عليها القدَر من دمائنا ما خُطّ على أرواحنا ؛ وما كُتِب تستعيده رائحة اللّقاء ؛ اللّقاء بالمرأة الأولى ، بالحبّ الأوّل ، بالوردة الأولى ، وبالكلمة الأولى ، بالدّهشة الأولى ، وبالجنون الأوّل .

ذكرياتي هنا في (إربد) دفاتر من العشق والهَذَيان والانتصارات والانهِزامات والحنين والأشواق . . . جئتُ حالًما ، وامتلكتُ القدرة في كلّ يومٍ على أن أحلم من جديدٍ ، أو أصنع ما لَا أجد . غير أنّي أعترف

اليوم بأنّي خائف ومذعور ومُضطرب ، وأفقد الحُلم في غَبَش الرّؤية ، وأجدني أنزلق إلى ما لا أريد ، وأعرف أنّ شتاءً قاسِيًا يمرّ عليّ ، وأنّ عواصفَ مُخبّأةً في الأفق البعيد توشِكُ أن تفتك بي وبأحلامي وبكلّ شيءٍ جميلٌ عشتُهُ في هذه المدينة الفاتنة .

أتخيّل اللّيلة أنّني سأجمع كلّ هذه الأوراق الّتي تسطّرتْ بارتجاف يد العاشق فوق بياض الورقة النّاصع ، أضمّها إلى شغاف قلبي طويلاً ، وأسكبُ فوقَها بعضَ العبرات ، ثمّ أعمدُ إليها جميعًا فأمزّقها ورقةً ورقةً إلى قِطَع صغيرة ، ثمّ إلى قطع أصغرَ منها ، ثمّ أدعو العاصفةَ المُنتَظَرة أن تهبّ منَ جهة الغرب ، فأُعرّض لها تلك القُصاصات ، فتشتدّ بها الرّيح فتحملها إلى كلّ مكان ، وتنثرها فوق كلّ أرضٍ ، وتوزّعها على كلّ بقعةٍ من سهول (إربد) الحبيبة ، لتقول هذه القصاصات لتلك السّهول ما لمَ أستطع أنا قَوْلَه في السّنين الغابرات ، ولتقصّ حكاية العاشق الّذي منعه الخجلُ والحياء من أن يهمس في رئتيها الباردتَين : سيّدتي الأولى وفاتِنتي الأحلى : أنا مذبوحٌ فيكِ من الوريد إلى الوريد .

من زمنٍ بعيدٍ وأنا أحلم بأن يسود العدل ، وأن يصطلح البشر ، وأن يكون الحبّ أسَّ العلاقة بينهم . لا أقوى من الحبّ تأثيرًا على النّفوس ؛ يُقوِّمُ ما كان منها مُعوجًا ، ويهدي مَنْ كان منها ضالاً ، ويُبرئ مَنْ كان منها سقيمًا ، ويُهدّئ الخواطر ، ويُزيل عن القلب الأثرة والحسد والغِلّ ، ويُبدلها ياسمينًا وزنبقًا وبنفسجًا . أيّها النّاس أعْلُوا راية الحبّ بينكم تَتنزّل عليكم السّكينة والطّمأنينة . إنّ ساعةً في الحبّ تنتصرُ على عُمرٍ في الكُره . ما أسهل أن يُنقّيك الحبّ من خَبَثِك ، ويُعيدك إلى فِطرتِك الأولى ، ويزرع فيكَ قِيَم الخير والحقّ والجمال ، ويُعلي إنسانيّتك في مُقابل المادّيّة الّتي تغرق فيها الوحوش!!

غدًا سيكون لقاؤنا الفاصِل ؛ أخاف من هذا الغد ؛ أخاف على قلبي أن يسلك مسالك البُغض فيموت ، ويأتي مَآتي الهوى فيهلك ، ويحيد عن الجادّة فيضيع في اختلاط الجهات وتعدّد الوجهات . أخاف أن يأتي غدٌ فيقضي على طهارة خمس سنين حاولتُ أن أكون فيها عاشِقًا لكلّ شيءٍ ، مُحِبًّا لكلّ الّذين ربطتْنا بهم علاقةٌ من أيّ نوعٍ كانت في ربوع هذه الأرض .

إنّنا على سَفَر ، مُرتحِلون منذُ وُلِدنا ، نتعب ولا راحة إلاّ إذا باغتنا الموت . نسير إلى الغايات ، كلّما ظننّا أنّنا صرنا على شفا حُلُم منها ابتعدتْ عنّا ، وأمعنتْ في الغياب السّرمديّ . نسير ولكنْ في أيّ دربٍ وإلى أيّ مُنتهَى!! نسير ونكتشف بعد أجيال أنّنا نلجُ ظلمات الحياة دون قناديل الحقّ . وكلّما خُيّل إلينا أنّنا وصلْنا إلى الغاية وآن لنا أن نُريح الرّاحلة صحونا على فجائع لم يستطع إنكارنا التّامّ إخفاء وَهَج حقيقتها ، فبدا أنّ الطّريق ليست هي الطّريق ، وأنّنا سلكنا الدّروب الخاطئة!!

غدًا ، سينقسم النّاس إلى مَشرقَين ومَغربَين ، وستنمو الفِتن على ماء إعجابِ كلّ ذي رأيٍ برأيه ، وتتبرعمُ الشّحناء في مستنقع العداوات الدّفينة المُستترة في الأنفس . أيّ طريقةٍ يُمكن أن ينجو بها المرء من كلاب الباطل ورائحة الحقّ عالقةٌ بثيابه منذ يَفاعَته!!

سنغنّي للأمل ولو كان بعيد المَنال . وسنعمل من أجل أمّتنا وحقوقنا ولو اتُّهِمنا بالعَمالة . ولنا وطنٌ كبيرٌ يمتدّ من القلب إلى القلب ، وتُشرِق عليه شمسُ الحبّ ، وتغيب في ثناياه أنهار العَطاء . ولا نعترف بحدود ، ولا بدُوَيلات مُشرذَمة ، ولا بكيانات دخيلة ، ولا بأسماءَ مُزيّفة . عَمِلنا من أجل أن يرضى الله عنّا ، ثمّ ضمائرنا ، ثمّ

التّاريخ . وبعدها فليغضبْ مَنْ شاء أن يغضب ، فإنّما غضبٌ مثل هذا يذوب في رضىً مثل ذاك .

أعـرف أنّني بعـد كلّ هذه السّنين ، وأنا أهمّ بأن أترك هذه المدينة الّتي عاشتْ فيّ قبل أن أعـيش فـيـهـا ، لن أقوى على الرّحـيل ، وأنّ (إربد) أخـذتْ منّي أشـيـاء كـثـيرة ، وأوثقـتْني بمعانٍ شـفـيـفـة لا يُمكن تفسيرها ، ولئن رحلتُ فسيبقى فيها لها مِنّي شيء ، وسيبقى فِيّ لي منها أشياء وأشياء ؛ فهنا تعلّمتُ أبجديّات الحبّ والثّورة ، وهنا تعلّمتُ كـيف تكون الفكرة أقـوى من الرّصـاصـة ، وأنّ الموتَ إذا كـان من أجل المبدأ حياةً ، فإنّ الحياة بلا مبدأ موت .

هنا انفتحتُ على عوالَم الرّؤى ، وهنا اخضرّت أمانيَّ على معارج الهُدى ، وهنا أيقنتُ أنّ مَنْ أحبّ الخيرَ لم يكره إلاّ الشّرّ ، والشّرّ ليس إنسانًا ؛ الشّرّ سُلوك . فيُكرَه السّلوك ويُحبّ الإنسان . وأنّ الحُجّة تُقرَع بالحجّة لا بالطّلقة الطّائشة ، وأنّ الاعوجاج في البُنيان ، يُقوّم باللّسان ، لا بالسّيف والسّنان . وأنّني لا يُمكن أن أُصادِر حرّيّة الآخرين فيما يقولون ، حتّى لو بقوا دهرًا كامِلاً وهم يطعنونني بخناجر شتائمهم .

(نائل) الّذي كان أقربَ إلى القلب في هذا المدّ البشريّ من النّاس الّذين عبروا حياتي ، وعبرتُ حياتهم ، سيتولّى المهمّة مِن بَعدي ، سيعهد له الإخوة بأن يستلم الدّور القِياديّ الّذي كنتُ أشغله ، وأنا مُطمئنّ إلى أنّه سيؤدّي واجبه بشكلٍ أمين ، لكنّني أتخوّف من فجاءَته ؛ فهو رجلٌ شديدٌ صلبُ المِراس . غير أنّه أحيانًا تَسبِقُ يدُه فِكرتَه ، وتغلبُ عاطفتُه المتوقّدة عقلَه . والأمل؟ يتعاظَم بأنّ الحركة الطّلاّبيّة لن تتوقّف على شخصٍ واحدٍ ، وأنّ حوله من الشّباب مَنْ سيُرشّد المسيرة ، إنْ مال بها الضّبابُ إلى غيرِ ما تقصد .

وحينَ يبزغُ الفجر في انتِظار القادِمات الخَفيّات سيكون علينا أن نتحقّق من مواطئ أقدامنا ، فلا يبزغ الفجر إلاّ على ورودٍ تنبتُ في كلّ مكان ، وشذىً يفوح في كلّ فضاء . حينَها انظر إلى موطئ قدمك أيّها العابِر حتّى لا تدوسَ الورود الّتي أنبتَها طلوع الفجر ، وأذاع عِطرَها انتشارُ النّسمات السّابِحات ، ورطّبَ خَدّها مسيلُ النّدى من القَطَرات .

إنّه الفجر ، وفيه تتجدّد الآمال ، ومن شَفَقه تتوردُ الأحلام . وإنّا لنحلمُ بالغدِ قبل أن يكون ، فكيف وهو كائنٌ لا محالة!! وإنّا لنشتاق إلى شذى الحرّيّة قبل أنْ نُناضِل من أجلها ، فكيفَ ونحن نهمّ بأن نقطفَ جنى نِضالنا!! إنّه الفجر ، فلا ليلَ يُفنيه ، ولا ظلامَ يُديله ، ولا ظلمَ يمنعه ، ولا قوّةَ تُوقفه ، ولا جبروتَ يُعطّله ، ولا طُغيانَ يمحوه ، إنّه الفجر وكفى به على النّور شاهدًا ومُبشّرًا وبصيرًا!!

يا (نائل) اتبَعْني ، فأنا قَبَسُك المُلهِم في أعلى الجَبل ، ستجدُ عندي النّار والنّور ، اتْبَعني فإنّ الضّباع في أسفل الجبل تهمّ بأن تُفقدنا السّبيل بِجُعارِها الآثِم . اتْبَعْني فقُدسيّة الرّسالة تُحتّم عليّ أنْ أكشفَ الدُّجُنّات للقادمين من كلّ الجهات . مَنْ يستطيع أن يتعامَى عن نورٍ في الأعالي أشرقتْ له كلُّ الظّلمات!!

(٢٧)
مَنْ يُوقِفُ الحَريق؟! ومَنْ يُطفِئ النّار؟!

التقيتُ في السّابعة والرّبع تقريبًا مع العشرة الّذين طلبتُ منهم في اللّيلة الفائتة أن يُوافوني على باب الكلّيّة ، كانت الجامعة تضجّ بطلبة المُحاضَرة الأولى ، صباحُ آذاريٌّ باردٌ لكنّه مُنعش ؛ إنّه أحد الصّباحات الّتي يحسّ فيه الإنسان بقيمة الحَياة ؛ هواءٌ نقيّ ، وشتلاتٌ من الورد الجوريّ في الأحواض على امتداد شوارع الجامعة ، وشبابٌ بلا ألوان ، وصبايا بكلّ الألوان ، وحَرَكةٌ دائِبة إلى كلّ غايةٍ تُوحِي بأنّ الحياة ما هي إلاّ حركةٌ بلا اتّجاه .

كان (كريم العَجلوني) قد تولّى مهمّة طبع الإعلانات الّتي ستوزّع على كلّ المنافذ الرّئيسية في الجامعة ، والقاعات والممرّات في الكلّيّة ، تولّينا نحن العشرة توزيعها في أقلّ من نصف ساعة ، لم تكد السّاعة تقترب من الثّامنة حتّى كان كلّ شيءٍ مِمّا اتُّفِق عليه في ليلة الاجتِماع قد تمّ . مُلِئت القاعات بالإعلانات ، وعمدنا إلى إلصاق بعضها بالصّمغ من تجربةٍ سابقة ؛ حتّى يصعب إزالتُها كما كان يحدثُ مرّاتٍ عديدة مع الإعلانات المُدبّسة ، عندما يقوم مُوظّفو العمادة والحَرَس الجامعيّ بشَلْعها من أماكنها وتمزيقها .

كان القَرار الإخوانيّ الّذي أُبلِغنا به عن طريق أحد قيادات الإخوان في الجامعة أنّ التّجمّع في انتظار الرّدّ من الجامعة يكون ليومٍ

واحدٍ فقط ، على أن يُفضّ لاحقًا مهما كانت الظّروف . بالطّبع ليس أوّل تدخُّلٍ يُزعجني في عملنا الطّلاّبيّ الجامعيّ دون مُشاورةٍ ، ولا أوّل تثبيطٍ يُمارَس علينا من قِبَل القِيادة ، لكنّني قد تعوّدتُ منذ فترةٍ على التّعامل مع هذه الحالات .

إنّه يوم الاثنين ١٠/ ٣/ ١٩٨٦ وهو اليوم الموعود ، وفي العاشرة سوف يهلّ علينا عميد الكلّيّة أو رئيس الجامعة بقراره النّهائيّ . في التّاسعة من ذلك اليوم ، وبعد انتِهاء المُحاضَرة الأولى . بدأ التّجمّع بحوالي (٣٠) طالِبًا أكثرهم من قسم الهندسة الميكانيكيّة ، وكُنّا نملك كلمة السّرّ الّتي تجعل الطّلبة يُسارِعون إلى الانضمام إلينا . جلسْنا على الدّرجات القليلات أمام المبنى الجديد ، ووقفتُ أنا و(نائل) أمامهم ، وبدأتُ أهتفُ بهم :

يا طُلاّب الْتَمّوا الْتَمُّوا ولاجْتِماعْنا يلاّ انظمّوا

يا يَرْمُوكي هِيجِي هِيجِي حَقّ الطّالِبْ لازِمْ يِيجي

لم نكدْ نكرّر الهتاف مرّتين أو ثلاثًا حتّى تجمّع مئات من الطّلبة أمام المبنى ، وبدؤوا يهتِفون معنا ، وكان هذا الهُتاف هو الجاذِب الأكبر لهم ، كان له تأثير السّحر عليهم ، وكم كانوا يهيجون وهم يردّدون المقطع الثّاني منه . وبدأتِ الكتلة البشريّة المتجمّعة هناك تكبُر وتكبُر ، وفي التّاسِعة والنّصف كان العدد قد تجاوز بانتِشاره الفسحةَ الموجودة أمام المبنى ووصل إلى الشّارع . في هذه اللّحظة كان عليّ أن أغادِر أنا ومجموعةٌ من ممثّلي الطّلبة في كلّيّة الهندسة لمقابلة العميد . وهذا ما حدث . غادرتُ أنا وأربعة من زملائي ، وأبقيتُ على (نائل) من أجل أن يُبقي على جذوة الهُتافات مُتّقِدة ؛ وأدركُ تمامًا : أنّه رجل المرحلة

الآن ، وأنّنا مُحتاجون إلى التّصعيد ، والتّلويح بورقاتٍ قويّة في وجه الرّئاسة والعمادة .

الموقف يتبلور من جديد ، إنْ أُلغِي القرار فسنحتفل مع هذه المئات الّتي تتجمّع هنا ، وإنْ أُبقِيَ عليه مع تخفيض الرّسوم إلى ما لا يزيد عن (١٥) دينارًا ، فسنكتفي بالسّاعات الّتي اعتصمْناها حتّى الآن ، وإنْ أصرّتْ الجامعة على موقفها السّابق ، وبقي قرار رفع الرّسوم كما هو . فسنصعّد ، ونرفع الصّوت عالِيًا . وسيكون احتجاجنا سحابةَ هذا اليوم مُقدّمة لاحتجاجات أخرى سوف تتبع ، بعد أن يكون التّشاور حولها قد تمّ مع جميع الأطراف .

التقيتُ العميد مع مجموعتي المُوقّرة ، بدا عليه الارتِياب والارتِباك معًا ، تكشّف لي وجهه المقبوض كما لو كان سِلكًا شائكًا تسري فيه الكهرباء فيزداد تقبّضًا ، قدّرتُ الحِكمة القائلة : إنّ أفضلَ وسيلة للدّفاع هي الهجوم ، فصمّمتُ على أنَ أنتهز هذه الفرصة ، لأوجّه ضربةً قاضِية إلى هذا الّذي بدا أمامي مُهتزًا ومُضطرِبًا ، واعتقدتُ على الفور أنّ الضّربة القاضية ستكون قاضِية بالفعل ، فتراجعتُ إلى ضربةً طائشة تُصيبه بالدَّوَران ، وتزيد الموقفَ خطوةً إلى الأمام لصالحِنا ، قلتُ له على الفور : نحن عازمون على مقابلة الرّئيس مع احترامنا الكامل لك ، نعرف أنّ الأمر بيدِ ذلك الرّجل ، ولذلك جهِّزْ نفسَكَ لتُرافِقنا إلى هناك . ازدادتْ ملامح وجهه نفورًا وشحوبًا وتقلُّصًا ، وأحسّ بإهانةٍ تخترق حجابَه الحاجِز ، فصرخ ليُسنِدَ كرامته المُتهاوِية من أثر الضّربةً الآنفة قائلاً :

– هُوّا الرّئيس مِشْ لاقي شَغْلة ولا عَمْلة إلاّ إنتم . . . يا أخي هَيْ أنا موجود . . .

- والقرار؟!
- تفضّلْ اقعد أنتَ والشّباب .
- نريد النّتيجة .
- الرّئيس يقول : القرار تمّ بإجماع العُمداء ولا رَجْعَةَ عنه .

عندما خرجتُ من عند العميد كانت وساوس اللّيلة الفائتة قد بدأتْ بالتّحقّق . لقيني أوّل خروجي الجمعُ المُحتشِد على الباب والمُرتقِب للردّ ، وقد رآني بغير الوجه الّذي دخلتُ به ، وقفتُ وكأنّ عُمرًا من الخيبة ينخر عظامي ، كِدتُ أسقط لفرطِ الحُزن واللّوعة ، والخوف والرّهبة ، كان حزنًا على ما سيأتي لا على ما انقضى ، وخوفًا من القادم لا من الماضي ، فإنّ القادم في تلك اللحظة أخطر حتّى مِمّا شطح به خيالي في اللّيلة الفائتة الباردة . تهيّأتُ للحديث ، ولكنّ اللّسان خانني ، كان مُتيبِّسًا ، مهزومًا ، غير قادرٍ على إنبات كلمة خضراء واحدة ولو على حوافّه . لم أمتلك الشّجاعة في أنْ تكونَ كلمتي أوّل الطّوفان ، فملتُ إلى (نائل) ، وأخبرته عمّا دار بجملةٍ واحدة ، ورجوته أن يتولّى مهمّة الإخبار عنّي . شدّ جذعه كأنّ الفرصةَ قد واتته ، وزفر زفرةً طويلة ، وأحاطَ لحِيته بكفّه المتوثّبة ، ثمّ أنزلها إلى أن فركَ الشّعرات القليلات في نهايتها بأطراف أصابعه :

- العمادة تقول إنّ الرّئيس لم يُغيّر في القرار حرفًا .
- ماذا يعني هذا الكلام؟! (قال أحد الجمهور)
- أنّ الرّئاسة أعلنت الحرب علينا ، وأنّ المقصلة ستبدأ عملها عن قريب . نحن باقون هنا . . . سنهتفُ ضِدّ الظّلم ما بقيَ في حناجرنا صوتٌ يصدح . والصّفعة الّتي ظنّت الرّئاسةُ أنّها وجّهتْها لنا ، سوف

نردّها أضعافًا مُضاعَفة . جيوب آبائنا ليست البقر الحَلوب لرفاهيّة الرّئيس .

جلس الطّلاّب على الأرض ، كما طلب منهم (نائل) ، وبدأتِ الهُتافات تجتاح المكان . اجتمع عددٌ كبيرٌ من طلاّب الكلّيّات الأخرى ، سانَدونا في وَقْفتنا ، وبدا أنّ جسد الجامعة يرتجّ لتلك الهُتافات . وشعر الطّلبة بروح نافِذة تسري في أجسادهم ، واكْتشفْنا أنّ قضيّتنا بدأتْ تأخذ أبعادًا ًتتجاوز كلّيّة الهندسة إلى باقي الكلّيّات . وشعرتُ أنّ قرار الرّئيس هذا سيكون الشّرارة الّتي هبّتْ في طُرُقات الجامعة فبدأتِ الحريق . وصرختُ في أعماقي صُراخًا فجائعيًّا : الجامعة تحترق . . . الجامعة تحترق . . . ولم يسمعني أحدٌ . كان صُراخًا تتمزّق به أحشائي غير أنّه لا يُجاوزني .

هبّت النّار في جنباتي ، قبل أن أراها قادمةً لتهبّ في الجامعة بأكملها ؛ مَنْ يوقف الحريق؟! مَنْ يُطفِئ النّار؟! مَنْ ينزعُ الخنجر المغروسةَ في قلوبنا جميعًا . لم يكترث الرّئيس لحالِ أيٍّ من طلبته ، ولا من النّداءات المتكرّرة ، وأصمّ أذنيه عن كلّ شيء . أشعل غليونه ، وسحب منه نُفاثه المشؤوم ، ورمى بوَقْدة النّار خلفه ، ومضى حاثًّا خُطُواته إلى رئاسته ، تارِكًا خلفه التّاريخ والجامعة والطّلاّب يغيبون في منازل النّيران!!

كنتُ ما أزال أحاول التّعافي مِمّا بدا لي أنّه قادِمٌ غامِضٌ وقاتِلٌ ، حينَ رجعتُ إلى الكتلة البشريّة المتفجّرة ، والتقطتُ صوتَ (كريم العجلوني) وهو يهتف ملءَ فمه :

والقرارْ . . . قرارو فردِي رغـمَ كلّ التّواقيعْ
والرّئيس اتّخذو ضِدّي تيخرّبْ كلّ المواضيعْ

وتوالتِ الموجة الهادرة في تتابُعها الّذي بشّرَ بأنّ البحر عميق ، والماء طاغ ، وأنّ اليابِسة مُرشَّحّةٌ للغرق في أمواج أصبحتْ تعرف المَدّ ، ولا تعترفً بالجَزر . وتداعَى العدد الضّخم من هنًا ومن هناك . الجامعة كلّها تنتفض ، وكلّها تقف مع طلبة الهندسة ، وأصبحتِ القضيّة عامّة ، يُنادِي بها الطّلبة لكونهم طلبة بوجه عامّ ، لا طلبة هذه الكلّيّة أو تلك . وكان ذلك تحوُّلاً لافِتًا في العمل الطّلاّبيّ ، سنحصدُ ثماره الحلوة أو المرّة – لا ندري – بعد حين .

(٢٨)
«لا أحدَ يَسْتطيعُ امْتطاءَ ظَهرِكَ إلاّ إذا كُنتَ مُنحَنِياً»

الأفكار كالطّرق المتعدّدة لا تُفضي إلى نهايةٍ واحدةٍ . وإيمان النّاس بالفكرة مثل إيمان البحر بقطعة الخشب ؛ إما أن يبتلعها ، أو يطفو بها ، أو يقذفها إلى الشّاطئ . وأنْ تجمع النّاس على رأي مثل أن تجمع الرّماد المُتناثر في اليوم العاصِف . والحسد حين يستوطِنُ القلب يُخفي ولا يَخفى ، فتُبديه طَرفةٌ من عينٍ أو فلتةٌ من لِسان . ونارهُ المتّقدة في القلب لا سبيل إلى إطفائها إلاّ بنفثِها في وجوه الآخرين ، أولئك الّذين يقتسمون الدّرب ذاتها ، والفِكرة إيّاها!!

هكذا كان حالُنا مع عدد من زملائنا ، أرادوا أن نصدر عن رأينا الخاصّ دون رجوع إلى جماعةٍ أو فِكرٍ أو تنظيم . وقد كان ذلك سهلاً بالقول ، غير أنّنا لوَ تركْنا الأمور لِما أرادواً أو كما أرادوا ، لكان الفشل هو النّتيجة الحتميّة لما سنقوم به ؛ قد ننجح لساعاتٍ أو ليومٍ أو يومين ، ثمّ ننتهي بعد ذلك على قارعة الفراغ . أقول ذلك من تجاربَ سابِقة . وقد كنتُ أحاول أن أوصل لهم قاعدة في العمل الطّلاّبي استخلصْتُها من تجربتي الطّويلة لأربع سنوات خَلَوْن ، مفادها : إذا أردْتَ لعملٍ أن يدوم فاجعل وضوحَ الغاية وَقوده ، ونُصوع الفكرة ضمانة استمراره ، ويد الجماعة دليله ومُرشِده ؛ فإنّ عملاً بلا غاية نقشٌ في الماء ، وبلا فِكرةٍ

رسمٌ في الهواء ، وبلا جماعة متاهةٌ في الهَباء .

كان قرار الإبقاء على رسوم التّدريب الهندسيّ قد أثار حفيظة الكثيرين ، وانتهز بعض أحبّائنا من اليساريّين هذه الفرصة ، فبدؤوا يكيلون التُّهَم جزافًا ، وتوجّهتْ إلينا سِهام النّقد من كلّ جهة ، ورُمِينا عن قوسٍ واحدة ، وقيل : إنّكم تُضيعون حقوقنا ، وتسمحون لإدارة الجامعة بالتّغوّل علينا ، وتتركوننا في العراء دون حامٍ ، وتُبعثرون جهودنا دون طائل . ولا بُدّ من عَمَلٍ حقيقيّ ؛ فكلّ ما قمتم به لا يعدو رقصًا في العتمة ، أو نفخًا في قربةٍ مخزوقة ، أو صُراخًا في أرضٍ خالية . وقد صدقوا فيما قالوا إلاّ قليلاً .

أصبح العمل في الجمعيّات يُشبه بابًا وحيدًا واقِفًا كأبله في الصّحراء ؛ ليس لإغلاقه أو فَتْحه أيّ قيمة ؛ مَنْ يعبأ بقطرةٍ يتيمةٍ تنزل من سحابةٍ عابرة على أرضٍ يلفّها الطّوفان من كلّ مكان؟! مَنْ يكترث لعصفورٍ صغيرٍ مَهيض الجناح لا يُمكّنه ضعفه حتّى من الطّيران في فضاء يضجّ بالطّيور الجارحة من كلّ زاوية؟! مَنْ يهتمّ لسمكة صغيرة ضلّتْ طريقها في بحرٍ يمتلئ بالحيتان عن آخره؟! هكذا ألجأتْنا العمادة إلى زاويةٍ مُغلقةٍ على جدار الصّمتِ والعجز!!

في ظلّ هذه الاضطِرابات في العلاقات الطّلاّبيّة ، كانت تحدث بين الفينة والأخرى نشاطات منفردة ، تقوم بها جهة دون أخرى ، وتُطبَع بطابع سياسيّ حزبيّ لتُحسَب على هذا دون ذلك ؛ حدثَ ذلك في توزيع المنشورات في ٢٩/ ٣/ ١٩٨٦ في ذكرى يوم الأرض ؛ وكانتْ تلك هي الذّكرى العاشرة للاحتِفال بتلك الهبّة الشّعبيّة الّتي انطلقتْ بشكلٍ عفويّ من الشّعب الفلسطينيّ للدّفاع عن أرضه ، تلك الأرض الّتي نصّتْ وثيقة (كيننغ) السّريّة عام ١٩٧٦ فيها على إفراغ الجليل

من أهلها ، واحتلال أراضيها ومصادرة أملاكها وتهويدها ، فهبّ الشّعب ليُدافع عن تُرابه ، ودخلت الدّبّابات والجرّافات الإسرائيليّة ، وتلقّاها النّاس بصدورهم العارية ، وارتقى عددٌ من الشّهداء نجومًا سابِحة في فضاء المُقاومة ، وهدّد الشّعب بالعصيان المدنيّ بعدها ، وكانت ثورةً عارمة ظلّتْ محفورة في وِجدان الشّعب الفلسطينيّ المُناضِل إلى اليوم .

في ٣٠/ ٣/ ١٩٨٦ تنادَى الطّلبة للاحتِفال بهذا اليوم التّاريخيّ ، واستمرّ فيه توزيع المنشورات الّتي كانت تحمل توقيع : «حركة الشّعب العربيّ الفلسطينيّ» . وكان واضِحًا أنّ (فتح) هي مَنْ نظّمتْ هذه التّظاهرة ، وأنّ كوادِرها قامتْ على إنجاحها ؛ ففي السّاعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم تظاهر ما يقرب من ٤٠٠ طالب أمام مبنى كلّيّة العلوم ، وهدرتْ الحناجر هاتِفةً للوطن ، وأُلقِيتْ خطابات من قيادات فتح في الجامعة ، وكان مضمونها السّياسيّ قد صبّ في صالح تأييد منظّمة التّحرير الفلسطينيّة .

إنّها سوقٌ قائمة ؛ عَرَض كلّ فصيلٍ فيها بِضاعته ؛ كان واضِحًا أنّ ذلك قد أزعج إدارة الجامعة والأمن الدّاخليّ ، وهذا ما فسّر ابتِدار العمادة سوء النّيّة في كلّ نشاط يُقدّم لها ، وشعرت الجهات الأمنيّة أنّ ساحة الجامعة أصبحتْ مفتوحةً لكلّ حزبٍ أو جماعةٍ أو فِكرة ، وأنّ تسييس العمل الطّلاّبي له آثار سلبيّة على أمن الجامعة ، فعمدت إلى الوقوف في وجه كلّ نشاط ؛ وبسبب فساد النّيّة الّتي كانت تتمّع به العمادة فقد اختارتْ لنفسها أن تكون عدوّة للجميع ، ولهذا كانت قوسُها ترمي السّهام على كلّ الجهات ، إلى درجة أنّها لم تعد تُفرّق بين تمثيلٍ طلاّبي جاءت به الجمعيّات عبر انتخابات حرّة ، وبين فصيلٍ أقحمتْه الأحزاب السّياسيّة في ساحة الجامعة ليكون رديفًا لها هناك .

في ظلّ ذلك توجّهتُ مرّة أخرى إلى خالي ، لعلّ في فلسفاته ما يُعينني أنا وزملائي على الخروج من عنق الزّجاجة الّذي أحاط بأعناقنا . كانت الرّابعة من عصر إحدى الجُمَع في نهاية آذار . حيثُ الشمس الدافئة تطبع قبلاتها المسائية على هضاب إربد . صعدتُ الدّرجات المُتهاويات إيّاها ، ووقفتُ بكامل حزني أمام الباب المُوصَد ، وطرقتُ ثلاث طَرَقاتٍ خفيفة عليه ، وانتظرتُ لَحَظاتٍ لأسمع الرّدّ ، لكنّه تأخّر ، ففعلتُ ذلك مرّتين أخرَيين ، وفي كلّ مرّة كان الرّد صامتًا ومُوحِشًا ومُطبِقًا . ظننتُ أنّ خالي خارج البيت ، أو أنّه نزل إلى نابلس ، وفكّرتُ إلى ما هو أبعد من ذلك ؛ أن يكون تركَ الجامعة وغادر الأردنّ إلى لندن أو باريس في لحظةٍ فارقة ؛ فهو يتّخذ قراراتٍ من هذا النّوع دون أيّ تردّد ؛ ولأنّني لم أره منذ أسبوعَين ، فقد تضخّمتْ لديّ القناعة بأنّ غيابه الطويل هو من هذا الباب .

هممتُ بالرّجوع ، غير أنّي توقّفتُ لبرهة وأنا أدير ظهري للباب ، خُيّل إليّ أنّني سمعتُ صوت استِغاثةٍ قادِمًا من الدّاخل ، تسمّرتُ مكاني ، كان الصّوت أشبه بارتِطام حجرٍ صغير في قعر بئرٍ عميقةٍ ما زالتْ تحتفظ ببعض الماء في ذلك القاع ، ارتدّ الصّدى من هناك ، وسبح في عُنُق البئر حتّى عانقَ أذنيّ ، كتمتُ أنفاسي وأرهفْتُ سمعي أكثر ، غير أنّ الصّمتَ المُوحِش عاد كي يلفّ المكان . قلتُ في نفسي : لعلّي أتخيّل . سيطرة حالة خالي على روحي أوقعتْني في مصيدة الهواجس والتّهيّؤات . صوته؟! نعم . داكِنًا وخافِتًا؟! بلى . من الماضي السّحيق الّذي يجتاز أمكنة التّاريخ ليحلّ في أمكنة الرّوح؟! بلى . لعلّ نِداءً ما في داخلي هو الّذي أوقفني على حدّه!!

انتزعتُ أقدامي الّتي تسمّرتْ مكانها في تلك اللّحظات ، وقررتُ

أن أغادر بكامل خيبتي . لكنّ الصّوت عاد لكي يُلغي حضور الغِياب ، هذه المرّة لا يُمكن أن يكون الصّوت يصعد من أعماقي ، إنّه من هناك حيثُ الوحشة لا تُغادِر المكان إلاّ إذا استمعتَ إليها ، جررتُ رجليّ لأعود ، طاوَعتاني بصعوبة ، وقفتُ وجهًا لوجه أمام الحقيقة الغائبة ، طرقتُ الباب بِيدَين من رجاء ، واصلتُ الطّرق وأنا أنادي ، ثمّ توقّفتُ لحظات ووضعتُ أذنيّ على الباب ، فلم أسمع غير دقّات قلبي ، ألصقتُ خدّي به كعاشق ، وأنزلتُ يَدَيَّ على امتدادهما إلى جانبي ، وارتكزتُ بصفحة وجهي اليُمنى على الباب ، ورحتُ أستمتع بالدّفء المخبوء فيه بفعل الشّمس الّتي تأذن بالغِياب . ومثل عاشق يرتاح على صدر حبيبته بقيتُ مُستسلِمًا لهذا الدّفء لبضع دقائق مرّتْ على جوارحي كقطيع ظِباء مرّ على أَجَمةٍ مُلتفّة . ومن بعيدٍ كانت طيور صامتة تخفق أجنحتُها ببطء تملأ الفضاء وهي تحلّق باتّجاهٍ أعشاشها ، آلافٌ منها حطّتْ في بُيوتاتها الآمنة ، وأنا أرقبُ المشهدَ في حُلُم الصّحو ، عندها بدأتْ أنفاسي تستقرّ ، ودقّات قلبي تنتظم ، وغرقتُ في غفوةٍ سرمديّة رأيتُ فيها ما لا ترى الملائكة .

كان جدّي يقف في ساحة بيته القديم وهو يصيح في وجه جدّتي ، وينفغر فوه بكلماتٍ متلاحِقة لم أتبيّنْ منها شيئًا ، وجدّتي تُطرِق بنظرها إلى الأرض ولا تتكلّم . كانتْ يده اليُمنى تُشير بعصبيّة واضِحة من خلال ارتجاجها بسرعة إلى جهة الشّارع التّرابيّ الّذي انبسط أمام عتبة البيت مثل حصيرةٍ بالية . فجأةً ظهر خالي وهو يتقدّم من آخر الطّريق ، بدا في الثّامنة من عمره ، يلبس كنزة قطنيّة متّسخة انفتح طرفُها الأعلى فبان عن صدرٍ محروق ، وتشقّقتْ أكمامها فبانتْ عن سواعد نحيلة ، وكان يرتدي بِنطالاً كُحليًّا لطّختْهُ الأتربة في كلّ

بقعة ، كان مهترئًا تنسلّ من أطرافه خيوطٌ بيضاء . حالَما رأى جدّي هُرِعَ باتّجاه الباب وهو يرجُفُ من الخوف ، تلقّاه جدّي بعصا كان يحملها في يده اليُسرى وهوى بها على رأسه فانشخب منه الدّم وسال على وجهه في خطوط متعرّجة غيّرتْ لون الحياة منه . ركعتْ جدّتي على قدمَي جدّي فعرفتُ أنّها تسترحمه بابنها ، غير أنّه ركلها بعيدًا ، وتفرّغ لخالي الّذي ترنّح من شدّة الضّرب ، وسقط على الأرض بين الموت والحياة . وبحركةٍ استجدائيّة ألقت جدّتي بجسمها على خالي وراحت تغطّيه وتحوطه بذراعيها فيما استمرّ جدّي يهوي بالعصا عليها حتّى شعرتُ بأنّها فارقت الحياة . حينَ أزاحها جدّي جانبًا سقطتْ على ظهرها ، كانت عيناها جامِدتَين ، جفّ منهما نور الحياة . تركها جدّي ودخل من الباب الكبير ، وصفقه خلفه بشدّة ، فارتجّ رأسي لارتجاجة الباب . استيقظتُ مذعورًا من هذا الكابوس ، ورحتُ أطرق الباب بشدّة ، كانت لديّ قناعةٌ أنّ خالي موجودٌ في الدّاخل ؛ توقفتُ عن الطّرق ألصقتُ أذني مرّة أخرى بالباب فتناهى إلى سمعي صوتُ انكِسار زُجاج على الأرض آتِيًا من الغرفة ، لم أحتمل هذه المرّة ، عدتُ إلى الوراء ثلاثَ خُطُوات ، واندفعتُ باتّجاه الباب ، وألقيتُ بكامل وزني عليه ، ودفعتُهُ إلى الدّاخل ، ترنّح الباب أمام الاندِفاع لكنّه ظلّ عنيدًا ، في الثّانية تخلّى عن عِناده قليلاً ، وفي الثّالثة استجاب لكُتلتي ، وانخلع من مكانه لينفتح على الحقيقة السّوداء .

كان خالي مُمدّدًا في غرفته على الأرض ، وقد انطوتْ إحدى رجليه تحته ، فيما استوت الأخرى . وكان يقبِض بيده على زُجاجةٍ فارغة ، وعند قدمه تتناثر بعض الزّجاجات الأخرى ، صعقني المنظر وجمّد الدّم في عروقي ، وأوقفني على حيرةٍ تامّة وذهولٍ حزين .

ركضتُ مثل المجنون نحوه ، كانت عيناه نصف مُغمَضتين ، وشفتاه يابستين ، ووجهه شاحِبًا ، هززتُه ليتحرّك فظلّ جثّة هامِدة . أرخيتُ أذني جهة قلبه فسمعتُ دقّات بطيئة . أمسكتُ برجله المثنيّة ، وحاولتُ تعديلها ، كانت مُتيبّسةً لم تُطاوِعني وظلّتْ على حالها . ندّتْ منه آهةٌ جارِحة أثناء ثَنْيِها ، تركتُها ، وقفزتُ من مكاني أبحثُ عن ماءٍ . رشقتُ وجهه ببعضه ، ورحتُ أمسحه ، ثمّ سكبتُ قطَراتٍ منه في فمه ، وببطء راح يستيقظ . حينَ شهق مُستعيدًا هواء الحياة فَرِحتُ كأنّني أنا الّذي استعدتُه . جهدتُ في حمله لأضعه على الفِراش ، وعدُت إلى رجله المثنيّة وشيئًا فشيئًا أعدتُها إلى وضعها الطَّبيعيّ ، رفعتُ أسفل قدمَيه ووضعتُ تحتهما وسادةً ليرتفِعا قليلاً . ونظرتُ في عينيه ؛ كانتا تستجلِبان طائر الحياة الغائب ، وتستلهِمان نور الحياة المخطوف . هُرِعتُ إلى الخارج ، واشتريتُ من أقرب دُكّان بعض الماء البارد والحليب والخبز . بقيتُ في حضرته يومَين دون أن أُخبِرَ أحدًا ؛ كنتُ أسقيه الحليبَ ساخِنًا . وأغمس الخبز بالماء ليصبح سهلاً على الابتِلاع ، وألقّمه الواحدة تلو الأخرى .

حينَ استعاد عافِيتَه في اليوم الثّالث ، لم يشكرني ، وحينَ استعاد قُدرته الطّبيعيّة على الكلام ، لم ينطق إلاّ بكلمتين : شو جابَك؟!! قلتُ له : الأقدار ساقتْني إليكَ!! قال لي : أنا طلبتُ من هذه الأقدار أن ترحل بي من هذه الحياة!!

عدتُ إليه في مساء اليوم الرّابع من الدّوام ، قلت له :

- أريد أن أستشيرك مرّة أخرى يا خالي؟

- . . . .

- وضعنا في الجامعة أصبح مُزرِيًا!!

- أنتم الّذين صنعتُم هذا بأنفسكم .
- كيف يا خالي؟!
- أنتم حنيتُم ظهوركم فامتطاكم السَّفَلة . أنتم لا تقرؤون ولذلك تُهانون . القراءة تحميكم من العبث . لا تقل لي إخوان . الإخوان بالذّات لم يحرّروا أنفسهم بالقراءة . ألم تقرأ مارتن لوثر أنتَ وشلّتك الإخونجيّة : «لا أحد يستطيع امتطاء ظهرك إلاّ إذا كنتَ مُنحنِيًا» أنتم لم تنحنوا لقرارات الجامعة فحسب ، أنتم انبطحتم حتّى سهل سحقُكم .
- وما العمل؟! بِمَ تُشير؟!
- ثورة يا أخي . عصيان مدني يا أخي . امتناع عن كلّ شيء يا أخي . أي شيء مُفيد ، بدل الكتب والرّسائل الّتي تبعثونها مرّة لوزير التعليم ، ومرّة لرئيس الجامعة .
- وماذا نملك؟!
- كلّ شيء ؛ الإرادة فوق الزّعامة . حرّيّة الشّعوب فوق عبوديّة السّلطة . يا ابن أختي . لولا أختي الغالية ما قلتُ لك ما أقول ؛ أنتم تُدبِّجون الرّسائل!! تبًّا لكم ولكلماتكم الجوفاء ولرسائلكم الخرقاء ؛ ماذا تفعل الرّسائل إذا لم يكنْ هناك مَنْ يستقبِلها . الرّسائل الّتي تُجبِر الطّرف الآخر على استقبالها مصنوعةٌ من الحديد وليس من الورق . ومكتوبة بالدّم وليس بالحبر . متى تُدرِكون ذلك يا شلّة الأُنس؟!!
- والخُلاصَة؟!
- املأ شوارع الجامعة بالطّوفان . الحقّ يُنتَزع ولا يُعطَى .

تركتُه يصفعني بكلماته الحارّة ، وخرجتُ مُسرِعًا أبحثُ عن مطعمٍ

في الحارة أداري به جوعي إلى الحرّيّة . قلتُ : أداري ضعفي من وهج كلماته ريثما أستوعب الدّرس ، وآتي بعشاء لنأكل سويّةً . كانت التّاسعة في آخر أيّام آذار ، حيثُ يلفظ أنفاسه الباردة ، ليبعثَ محلّها الورد والدّفْء .

نظرتُ في وجه العامل في المطعم ، كان مُبتسِمًا ؛ اندهشتُ لراحة الضّمير الّتي بدتْ على صفحة وجهه من خلال ابتِسامته ، وتمنّيتُ لو أنّني أحظى بها للحظة . الحزنُ واليأس اللّذان استوطنا خلايا روحي جعلاني أظنّ أنّ العالَم كلّه يسير إلى الهاوية ، وأنّ قَدَرًا يربطُ رِجلَي الكُرة الأرضية بحبلٍ من مَسَدٍ ويجرّها إلى حافّة الانهيار ، ثمّ يُلقي بها في سديم اللاجدوى . ظلّ العامِلُ يقلي الفلافل وهو يُتابِع بسمته الصّافية ، ويغنّي خاليًا من الهموم أو هارِبًا منها . طَشطشةُ القَلي أعادتْ لي شيئًا من الواقعيّة ، والرّائحة الشّهيّة بانسيابها داخل أنفي أزاحتْ ضبابات الوَهم . هتفتُ في سرّي : الوهم ليس إلاّ اختِلاقًا لكذبةٍ يوحي بها عقلٌ مريضٌ ويصدّقها قلبٌ سقيم . والحالِمون هم أكثر النّاس اختلاقًا للأوهام .

عدتُ ، وفي الدّرجات الصّاعِدات تدرّبْتُ على ما يُمكن أن أقوله له حين أخلو إليه مع العشاء : يا خالي اترك الزّجاجات فإنّها أورثتْكَ اسوِدادًا في القلب لا تُنيره كلّ فلسفاتك ، وانطِفاءً في العين لا تُضيئه أكبرُ شموسك ، ووجعًا في الرّوح لا تُصلحه أجلُّ كُتُبِك ، وسَقَمًا في الجوارح لا تُبرئه أجملُ ابتِهالاتِك . يا خالي : إنّما الزّجاجة صورةُ الشّيطان تتخايل على بَلّورها ، وتتكامل في سائِلها . إنّها إنْ سالتْ في جوفك سال فيه حميمُ جهنّم وأنتَ تظنّه كوثر الجنّة ؛ فهل يستويانِ مثلاً؟! إنّ شربةً واحِدةً منها تتوهّم فيه رِيًّا هنيئًا ، وهي تُورِثكَ عطشًا

طويلاً . تبيع الآجل بالعاجِل ، وتستبدل الذّاهبَ بالباقي . وتظنّ أنّك في الخير ، وما هو إلاّ الشّرّ المُقيم ، والأمل العقيم . يا خالي : إنّما هو ماء ولكنّه حرامٌ لأنه حلّ في هذه الزّجاجة ، أرأيتَ حالاً يُحرَّم لخصوصية المَحلول فيه؟! بلى ؛ فإنّ الصّلاة وهي أشرف العِبادات ، تحرم بعد العصر لحلول زمانٍ في مكان .

قبل أن أُتِمّ صعودَ الدّرجاتِ الهاويات ، خُيّل إليّ ردُّه آتِيًا من خوخة الدّار : يا ابن أختي ؛ لو قُدِّر لك أن تقرأ ما قرأتُ لعرفتَ ما لم تعرف ؛ إنّما أنتَ في جهالةٍ عمياء ، وضلالةٍ مُضلّة . وإنّ تحيُّنَك النّصيحة أوهمكَ أنّني أجهل ما تعلم ، ولكنّني أعلم ما تعلم ، وتجهلُ أنتَ ما أعلم ؛ ولو كان لي رادعٌ ما كان منك ، إنّما هي نفسي ؛ أقلّبها في الأمر كيفما أشاء ؛ وأدري أنّني أوردتُها المهالك ، غير أنّ شيطانها الّذي سوّل لها وأملى لها عافَها ، فهي اليوم تغوّلتْ عليّ حتّى أحاطتْ بي من كلّ جانب ، وصارت هي الجهاتِ كلَّها ؛ فمن أيٍّ أفرّ؟! أَمِنّي ، فإنّي ضعتُ فِيّ فلم أعد أعرفني؟! أَمِنْها؟! فإنّها الضّياع ذاته والفرار إيّاه ، أمِنَ الفِرار يكون الفرار؟! يا ابن أختي : إنّما أقضي عمري الضّائع في عناء لأنّه لم يكنْ لي يومًا ، وأجد في العناء راحتي إلى حين ؛ حينَ تأذن الرّوح المُثخنة بمغادرة الجسد الذّبيح . إنّما الزّجاجة آلامي أسكُبها فِيّ لأداوي آلامي ، وقد قالها العارف قبلي : «وداوِني بالّتي كانت هي الدّاء» . وما الشّوقُ إلى مائها إلاّ شوقٌ إلى ماءٍ في الجنّة لم نذقه ، لكنّا أُخبرنا عنه ، وقد ذاقتْه أرواحنا حين كانت في عِلّيين ، فلمّا هبطت إلى سجّين ، ظلّ شوق الرّوح قائِمًا ، وإنْ تمثّل في جسدٍ فانٍ . يا ابن أختي : إنّما هي أيّامي أُحصيها ليوم الفزع الأكبر ، وما شَرَقي بالماء إلاّ خوفًا من حِرماني ذلك الماءَ في ذلك اليوم ، ولكنّ ربّك «يخلق ما

يشـاء ويختـار» وفي الآخرة سيخـيّب ظنّ الظّانين فِيّ ، لأنّ رحمـتَه «وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» فسيكتُبها للمحرومين أمثالي!!!

تناوَلْنا العشاء معًا ، أكل بصمت ، وظلّتْ وصاياه معلّقة بعده على جدار روحي . كان العشاء الأخير ؛ كنتُ أعرف ذلك من عينيه ، كانتا تُحلّقان بعيدًا . ووجهه ظلّ يُخفي تحته ألمًا مَكينًا ، تُنبِئ عنه تنهّداته الّتي لا تنقطع .

قرّر أن يترك البلاد العربيّة كلّها ، وطنه العربيّ الّذي آمن به ثمّ كفر ، ثمّ آمن به ثمّ كفر ، ثم ازداد كفرًا . هاجر إلى أمريكا لأنّه يرى أنّ الشّرف العربيّ أصبح كلمة ميّتة في قاموس مهترئ ، وأنّه عدّ نفسه اسمًا عربيًّا مُبتذلاً ، وهناك سيغيب في الأجناس المتعدّدة الّتي لا تعترف حتّى بالله ، ولكنّها تعترف بكذبة كبيرة ؛ تُسمّى : الحرّيّة .

(٢٩)
ما الّذي تَذُرُّه السّلطةُ في عيون أتباعِها لِيَعمَوا عَنِ الحقيقة!!

حلّ نيسان في عمرنا المنذور للرّيح ، وحلّ معه الحبّ والشّجن . كان نيسان ربيع الثّورة القادمة ، الثّورة الّتي سكبتْ تاريخًا جديدًا في قلوبنا ، وصنعتْ حالةً فريدةً من التّلاحم الطّلاّبي لخّصَتْها جملة شوقي : (إنّ المَصائِبَ يَجْمَعْنَ المُصابِينا)!!

لم تكن الأحداث لترحمَ أحدًا ، ولأنّنا نُنشد في صَحْونا ومنامنا ، وفي واقعنا وأحلامنا : (بلادُ العُرْبِ أوطاني) فقد ابتُلينا بهذا الحبّ الّذي دفعنا ثمنه جثثًا وأشلاءً كشعوب ، في حين استفاد منه الزّعماء كراسيّ وشعبيّة زائفة على حِسابنا . هذا ما حدث في ١٥ /٤ / ١٩٨٦ حينَ قامت أكثر من ١٠٠ طائرة أمريكية انطلق بعضها من قواعد أمريكيّة متمركزة في البحر الأبيض المتوسّط بشن غارةٍ جويّة قصفتْ من خلالها أهدافًا في العاصمة الليبية طرابلس ، ومنطقة بنغازي . وألقتْ ما يزيد عن ستّين طنًّا من المتفجّرات . وحينَ كانت أمريكا تتبجّح بأنّها تستهدفُ مواقع ليبيّة عسكريّة كانت طائراتها تدكّ منطقة (بن عاشور) المكتظّة بالسّكّان ، مِمّا أوقع عشرات القتلى ، ومئات الجرحى ، وبدل أن يُفيق اللّيبيّون الطّيّبون على شمس أوطانهم الّتي تحتلّ منهم الفؤاد والرّوح ، كانوا يُفيقون على أصوات الصّواريخ

والانفجارات ، ويتلقّون بصدورهم العارية القنابل والقذائف . ويومها زعمَ الرئيس الأمريكي(رونالد ريغان) كعادة رؤساء أمريكا أنّ هذه الغارة على ليبيا جاءت لمواجهة إرهاب الدّولة ولحماية الشعب الأمريكي من التّهديدات الإرهابيّة . وتوعّد أنّها البداية ، وأنّ طائرات أمريكا جاهزة لتُعيد الكرّة كلّما دعت الحاجة إلى ذلك .

وهمستُ في أذن الرّفاق أنّه لا بُدّ من اتّخاذ موقفٍ سريع تُجاه هذا العُدوان الّذي عددناه عُدوانًا على الأمّة العربيّة وعلى كرامتها . وحينَ اجتمعْنا بمسؤولينا من الإخوان كان الرّأي أن نكتفي بإصدار بيان دون تنظيم مظاهرة أو مسيرة . أثار هذا القرار استياء عدد منّا ، ولكنّا التزمْنا السّمع والطّاعة ؛ فقد تربَّيْنا على الشّورى مُقابل احترام رأي الأكثريّة وإنْ خالفَ رأينا ، وجاء على غير ما نهوى!!

غير أنّ رفاقنا في التّنظيمات الأخرى لم يسكتوا كما سكتْنا ، واتّفق أنّ (نعمان حسين) كان أكثرنا تحمّسًا لإقامة مظاهرة يحشد لها ما استطاع ، وقد قرّر حزبه ذلك ، وفي ١٩/ ٤/ ١٩٨٦ احتشد ما يقرب من ٥٠ طالبًا أمام كلّيّة العلوم ، كلّهم كانوا من اليساريّين ولم يكنْ بينهم أحدٌ من الإسلاميّين . وقد استغلّت المخابرات هذه الفرصة الذّهبيّة لمُحاصرة اليساريّين . فصوّرتْ تقريبًا المظاهرة كاملة وحصلتْ على أسماء جميع المُتظاهرين ، ولم تنكشف الجبهة الشّعبيّة بأسوأ ممّا انكشفتْ فيه في ذلك اليوم . وتلقّينا نحن الإسلاميّين لومًا جارفًا بعدم الوقوف إلى جانبهم ، واتّهمنا اتّهامات جارحة ، وكاد يحصل بيننا شقاقٌ كبير ، لولا أنّ حدثًا آخر أعاد إلى الكتلة الطّلابيّة شيئًا من التّلاحم المنشود .

بدأت المُظاهرة في الحادية عشرة صباحًا ، تولّى (نعمان حسين)

الهُتافات ضِدّ الغارة الأمريكيّة ، في حينَ استلم (سالم حمدان) الخطابة فدان العُدوان الأمريكيّ ، وحيّا الموقف الاشتِراكيّ ، وندّد بالمسؤولين في الجامعة ، وبمحاربتهم لقضايا الطّلبة . بحدود السّاعة الثّانية عشرة والنّصف من ذلك اليوم بعد أنْ قوَّم المسؤولون الأمنيّون العدد ؛ ووجدوا أنّه ليس كبيرًا ، انهال عددٌ من الحرَس بالهراوات على المُتظاهرين ، وسرعان ما تمّ تفريقهم ، وتسجيل أسمائهم ، وطورِدوا في ساحات الجامعة ، واعتُقِل عددٌ منهم .

غابَ (نعمان) و(سالم) عن البيت ، وتيقّنتُ أنّهما اعتُقِلا فيمن اعتقلوا في تلك المُظاهرة ، استمرّ غيابهم المؤلِم يومين ، في ليل اليوم الثّالث لمحتُهما من شبّاك غرفتي قريبًا من دوّار الإسكان يُطلاّن برأسيهما وهما يدبّان بهدوء ويتلفّتان حولهما خشية إلقاء القبضِ عليهما ، حينما صارا في مواجهتي بعد أن تَعدَّيا الدّرج المؤدّي إلى الرّوف أشاحا بوجهيهما عنّي أنا وسِراج ؛ كانا حزينَينْ ومُغضَبين ، قالا لي : يبدو أنّه لا تهمّكم إلاّ قضاياكم الحِزبيّة ، أمّا قضايا الأمّة العربيّة فأنتم أبعد ما يكون عنها ، أم أنّ ليبيا دولة كافرة في نظر قياداتكم!! حاولتُ أن أشرح لهما الموقف ، فلم يُمهلاني ، غاب كلٌّ منهما في غرفته ، واتفقتُ أنا وسِراج أن نصنع لهم طعام العشاء ونُطيّب خواطرهما .

على العشاء ، بدا الإنهاك واضِحًا على وجهيهما ، قالا : إنّهما استطاعا الإفلات من المطاردة الأمنيّة الّتي ركّزتْ عليهما بشكلٍ خاصّ ، وخرجا من الجامعة عبر البوّابة الشّرقيّة ، ومن هناك استطاعا أن يستقلاّ (تاكسي) إلى حوّارة ، حيث اختبئا هناك في بيت أحد الزّملاء من الجبهة الشّعبيّة . قدّمْنا لهما بأيدينا الطّعام ، ورجوناهما

التّـفـهّم . وبدأتُ منذ ذلك اليوم أفكّر في اتّخاذ بعض القـرارات دون الرّجوع إلى قيادات الإخوان تحت ذريعة أنّ هذه القرارات تخصّ العمل الطّلابيّ ، ولكوني رئيس جمعيّات الأقسام الهندسيّة كلّها فهذه القرارات تعنيني أنا وزملائي بالدّرجة الأولى ، ولا تعني قياداتي إلاّ بالمشورة إذا رأيتُ لها ضرورة . وفي حالتنا لدينا (٢٧) رئيسًا للجمعيّات كافّة ومشاورتهم كافية!!

بعد أقلّ من أسبوع من تلك المظاهرة ، اشتعلتْ قضايا الهمّ الطّلابيّ من جديد في أذهاننا جميعًا . وظلّ العَرَج يصيب أرجل الجمعيات الـ (٢٧) كاملةً . وازداد صممُ الجامعة عن سماع استغاثاتنا . حينها تداعَى الطّلبة كلّهم من أجل اتّخاذ موقفٍ واحدٍ يكونُ فاصلاً ؛ فكلّ الجهود السّابقة لم تُسفِر عن شيء ، وظلّ عمل الجمعيّات أقرب إلى الجثّة الهامدة من أن يكون أعمى أو أعرج . وبدتْ سياسة العمادة في أعلى تجلّياتها وقد آتتْ أُكُلَها ، ووقفتْ على تلّة الخراب تشعر بالزّهو والانتصار . وكان شعورها حقيقيًا ؛ إذ إنّ العمل قد حُطِّمَ تحطيمًا ، ولكنّ حقيقيّته لم تمنع من كارثيّته .

استأذنتُ (نعيمة) في أن نعقد اجتماعًا مُوسّعًا للقيادات الطّلابيّة على الرّوف في المساحة الخالية أمام شقّتنا على السّطوح ، وافقتْ بسرعة ، وأصرّت هي أن تقوم على خِدمتنا . تنادَينا جميعًا : الإخوان ، والجبهة الشعبيّة ، والشيوعيّون ، وبعض الفتحاوييّن ، والليبراليّون ، والمستقلّون ، وآخرون ؛ حضر بالطّبع : (وصفي طلب) ، و(كريم العجلوني) و(سالم حمدان) و(نائل أبو صبحة) و(سراج سلهب) و(صالح جرادات) و(نعمان حسين) و(سميح عبابنة) وكثيرٌ من زملائنا من أجل التّشاور .

حينما اكتمل عِقدُنا ، وقفتُ ولخّصْتُ لهم الموقف ، قلت : وضْعُنا كالآتي : نحن (٢٧) جمعيّة لا نستطيع أن نعمل شيئًا ، كلّ نشاط تضع العمادة أمامه مئة من العراقيل ، واحتجاجاتنا الّتي شهدتْها الجامعة قبل أسبوعَين من أجل حَمْلها على التّراجع عن رسوم التّدريب الهندسي لم تأتِ بنتيجة ، القرار اتُّخِذ وكأنّ شيئًا لم يكن . الموقف باختصارٍ أشدّ : العمل الطّلابيّ ميّت ، والجامعة متجبّرة ، واحتجاجاتنا تبدو ضحك عيال بالنّسبة لها . وقد اجتمعنا اليوم – ولستم كلّكم أعضاء في الجمعيّات ، ولكنّكم جميعًا قِيادات طلاّبيّة – وذلك من أجل أن نتّخذ قرارًا يكون حاسِمًا ونتحمّل جميعًا مسؤوليّته .

وكأنّني ألقيتُ قنبلةً كلاميّة انتظرها الجميع ، فدار مِغزل الاقتراحات بشكلٍ دؤوب ، وكان مُجمل ما قيل وما اقتُرِح :

– نعتصم أمام العمادة ونُطالب بدمج الجمعيّات .

– ليس هذا وقت الدّمج ، نحن بحاجةٍ إلى موقفٍ أشدّ .

– نعمل مسيرات تطوف شوارع الجامعة وترفعُ شعارات ضدّ الرّئيس .

– نحن لسنا ضِدّ الرّئيس بقدْر ما نحن ضِدّ خَنْق العمل الطّلابيّ ، وحَرْق جيوب الزّملاء خاصّة في كلّيّة الهندسة .

– نقوم بمسيرة شموع صامتة تتوقّف أمام الرّئاسة .

– الموقف لا يحتاج إلى حَمامات سلام ، ولّى عهد السّلام . نحتاج إلى قوّة ضاربة بشكل أكبر كي تنتزع حقوقنا ، وتُوقِف مقصلة القرارات الّتي تعمل على أعناقنا .

– نُضرِب عن العمل الطّلاّبي ونُغلِق الجمعيّات ولو لمدّة أسبوعين احتِجاجًا .

– هذا اقتراح في غير محلّه ؛ الجامعة تتمنّى أن نقوم بهذا ؛ بالأساس كلّ قراراتها لتعطيل عمل الجمعيّات ، نحن بهذا الاقتراح نقدّم لها هديّة ثمينةً على طبقٍ من ذهب!!

– نقوم بنشاط تعبويّ جماهيريّ يُشارِك فيه الجميع ، كي تُدرِك الجامعة والطّلاّب أنّ العمل الطّلابيّ ما زال بخير .

– بخير أو بشرّ ؛ ليس هذا المقصود ، نحن نريد من الجامعة أن تتراجع عن قراراتها الظّالمة . ثمّ إنّ الفصل أوشك على النّهاية ، وعملٌ مثل هذا يُشبِه خبطة غريقٍ بيده في الهواء .

– عمل مؤتمر طلاّبي .

– ولكنْ ما فائدته ، وماذا يُمكن أن نقدّم فيه .

لم تهدأ الاقتراحات حتّى السّاعة الثانية فجرًا ، وفي النّهاية قرّرْنا التّصويت على أكثر الاقتِراحات قَبولاً ، وتمّ الخروج بصيغةٍ توافقيّة أقرب إلى الإجماع ، وإنْ لم تسلم بعضُ نِقاطِها من الاعتِراض ، لكنّها ظلّتْ الأفضل ممّا تشاورْنا فيه . والصّيغة كانت على النّحو الآتي : (عمل مؤتمر طلاّبي يُدعَى إليه كلّ طلبة الجامعة بلا استثناء ، يوضّح كلّ المُلابَسات الأخيرة في تعامل إدارة الجامعة مع ممثّلي الطّلبة ، وتُبحَث في هذا المؤتمر ثلاث قضايا : الأولى : التّمثيل الطّلابيّ . الثانية : الجمعيّات وتعليماتها . الثالثة : التّطبيق التّعسّفيّ من عمادة شؤون الطّلبة لتعليمات الجمعيّات) . وكان الاتّفاق على إبلاغ إدارة الجامعة بهذا المؤتمر الطّلابيّ عن طريق تقديم طلب رسميّ ، وكذلك دعوة رئيس الجامعة وعُمداء الكلّيّات لحضور هذا المؤتمر . وذلك يوم الاثنين ٢٨/ ٤/ ١٩٨٦ السّاعة ١١ صباحًا .

وقّع على هذه الصّيغة رؤساء (٢٦) جمعيّة كلّهم تقريبًا كانوا من

الإخوان . ولم يُحدَّد المكان للسّبب التّعجيزيّ القديم نفسه ؛ إذ الحجّة عند العمادة : أنّ جميع القاعات مشغولة ، واتّفق أن كان في ذلك الأسبوع نشاط للعمادة اسمه : (أسبوع اليرموك) وكان يضمّ فِرق (الهوبْ هُوبْ) ، و(الهِشِّكْ بِشِّكْ) من فِرَق المُغنّين والموسيقى والدّبّيكَة .

تكفّلتُ أنا بتوصيل الدّعوة إلى عميد شؤون الطّلبة ، كان ذلك يوم السّبت ٢٦/ ٤/ ١٩٨٦ ، حينما وقعتْ عيناه على مضمون الدّعوة ، انتابتْه دهشةٌ وخوفٌ أخفاهما تحت قِناعه الّذي ظلّ يقدّم نفسه من خلاله على أنّه نصيرٌ للعمل الطّلابيّ وللجمعيّات ، وإنْ كان من المحاربين لها في السّرّ . قلتُ له :

– بقي أن نحدّد المكان وأن تشرّفونا بحضوركم .

– مستحيل أوافق على هذا المؤتمر .

– ولِمَ . . . أليس من حقّ الجمعيّات أن تدعوَ الّذين انتخبوها لتُشاورهم في الأمر!!

– ولكنّ «الحديدة حامية» .

– نحن كطلبة مُتّفقون على كلّ شيء . والمؤتمر بات أمرًا واقِعًا .

– مستحيل الرّئيس يوافق عليه .

– لا يوجد مستحيل . نحن دعونا الرّئيس ، إن شاء حضر ، وإن شاء ظلّ في مكتبه ؛ المؤتمر قائمٌ قائم .

– ولكنّ هذا العمل فيه توريطٌ لكم .

– التوريط لكم وليس لنا ، لأنّكم أنتم الّذين وقفتم في طريقنا وسددْتُم علينا كلّ المنافذ .

– يا أخ وَرْد ، سأقترح عليك اقتراحًا : بدل إقامة المؤتمر الطّلاّبيّ ،

استضيفوا مُحاضِرًا أكاديميًّا مُختصًّا حول الرّعاية الطّلابيّة ، لينظر في مشكلاتكم إنْ كان هناك مشكلات من نوعٍ ما .

– يا دكـتـور أنتَ في وادٍ ونحن في وادٍ . أنا أبلغتُ حـضـرتك وكتاب الدّعوة كما ترى مُوقَّعٌ عليه من قِبَل (٢٦) رئيس جمعيّة . ولا مـجـال للتّـراجع . المشكلة في المكان فـقط . إنْ لـم توفّـروا لنا مكانًا ، فسوف نجد نحن لنا مكانًا مُناسبًا .

– طيّبْ . . . أعطوني فرصةً أبلّغ الرّئيس .

– معك فرصة إلى مساء اليوم لأمرين ، تبليغ الرّئيس والعُمداء ودعوتهم جميعًا ، والثّاني إيجاد قاعة أو مدرّج لعَقْد المُؤتمر .

– والله بهاي الطّريقة لَينْدَعِسْ على رَقَبة الجمعيّات .

– التّهديد يا دكتور لم يعد مُفيدًا ، وموافقتكم على المؤتمر من عدمها سواء . ودعوتنا لكم لحضور المؤتمر هي لهدفٍ واحد : أن تُدافِعوا عن أنفسكم أمام الطّلاّب جميعًا إذا شعرتم بالظّلم .

خرجتُ من عنده ، وأنا أشعر أنّ الأمور تتطوّر باتّجاه صعبٍ ، وأنّها بدأتْ تُفلت من بين الأيدي ، لأنّها في طريقها إلى أن تُصبح بيد الجماهير الطّلابيّة ، وقيادة الجماهير ليست سهلة أبدًا ، والسّيطرة عليها لا يستطيعه إلاّ نبيٌّ بِوَحْي من الله ، أو قائدٌ بوحيٍ من السّلطة ، ولم نكن نملك أيًّا من الاثنتين .

في اليوم نفسه انشغل العميد بتدارك الكارثة الّتي أحسّ أنّها ستقع ، فتوجّه إلى دكاترة الجامعة من الإخوان ، وقيادات الإخوان خارج الجامعة ليستنجد بهم من أجل أن يضغطوا على طلبة الإخوان داخل الجامعة كي يُلغوا هذا المؤتمر ، أو على الأقلّ يؤجّلوه ريثما يُناقِش

الأمر مع رئيس الجامعة . ومع أنّ العميد لم يجد أيّ استجابةٍ أو تعاطُف من دكاترة الإخوان ، وأرجعوه إلى الطّلاّب لأنّهم هم أصحاب القضيّة ، إلاّ أنّه نجح في اختِراق أحدهم ، وجاء هذا الدّكتور إليّ في ليل السّبت ، وطلب منّي أن ألغي المؤتَمر ، وخوّفني من العواقب الكارثيّة له ، وأبلغني أنّه يجب أن تكون هناك موافقة من قِيادة الجماعة على عملٍ كبيرٍ مثل هذا . تقبّلتُ رأيه ، واحترمتُ مكانته التّنظيميّة ، ودفنتُ مخاوفهً في صدري ، وبقيتُ مُخطِّطًا مع بقيّة الزّملاء لإنفاذ الأمر دون إبطاء .

غير أنّ مُحاولة العميد إجهاض المؤتمر لم تتوقّف عند الاتّصالات بقيادات الإخوان خارج الجامعة ، بل تعدّتْها إلى الاتّصالات ببعض الطّلبة من النّشطاء في العمل الطّلاّبيّ ، وبعض رؤساء الجمعيّات وتهديدهم بإجراءات عِقابيّة شديدة ، وبتفعيل قوانين تأديب الطّلبة ، ولقد توعّد العميدُ كثيرًا من الطّلاّب بالفصل والمُلاحَقة ، وبأنّ هذا المؤتمر مُخالِف لقوانين الجامعة ، وليس هناك مِن بندٍ في تعليمات الجمعيّات يُقرّه . واتّخذت التّهديدات من العمادة أشكالاً لا حَصرَ لها .

مرّ يوم السّبت ثقيلاً ، مكتوم الأنفاس ، بطيء الخُطا ، ولم يصل إلينا من العميد – بالطّبع – أيّة إشارة إيجابيّة بحجز أيّ مكان لانعِقاد المؤتمر ، فقمتُ باتّصالات سريعة مع أنشط القيادات وذلك بزيارتها في بيوتها للاتفاق على المكان ، وخرجنا بأن أفضل مكانٍ لذلك هو المُسطّح الأخضر ، وبدأتِ الإعلانات تُطبَع بالمئات إنْ لم تكنْ بالألوف ، وتمّ الاتّفاق أن تنزل كلّ ساعة مئة من هذه الإعلانات ابتداءً من صباح الأحد ٢٧/ ٤/ ١٩٨٦ لأنّنا – من تجاربنا السّابقة – نعلم أنّ العمادة

ستقوم بتمزيقها فور إعلانِها . وبالفعل شنّت العمادة حملة شَعواء من الصّباح ، وجيّشتْ لذلك عددًا كبيرًا من الطّلبة المُخبرين وحرَس الجامعة وبعض الموظّفين لتتبّع أوراق الإعلان وتمزيقها ، وقمنا نحن بحملة مُضادّة مُعَدّ لها سَلَفًا ؛ إذ عمل طلاّبنا كماكنة تطبع كلّ ساعة مئة وتقوم بإلصاقها مكان الممزّقة ، أو تثبيتها بصمغ يصعب التّخلّص منه . وهكذا لم يمرّ مساء الأحد حتّى كان طلاّب الجامعة الّذين يقربون من (١١) ألف طالب قد عَلِموا بأمر المؤتمر الطّلاّبي رغم كلّ الحروب المُضادّة ، والحملات التّشويهيّة!!

لكنّ هذا المساء الأحَديّ ، حمل مُفاجأةً من العِيار الثّقيل . الرّئيس الّذي ظلّ مُتعاليًا على لقائنا طَوال هذه السّنة ، بعث إلينا بكتاب خطّيّ ؛ نعم بخطّ يده ، يطلب منّا اجتماعًا برؤساء الجمعيّات مساء الاثنين . وهُرِع عميد الشّؤون يطوف به علينا ، مُستبشرًا فَرِحًا أنّ الرّئيس بعَظَمته يرغب بلقائنا للتّباحث في الأمر ، وكان النّصّ يُفيد بعَقد اجتماع مُوسَّع لممثّلي الطّلبة على أن نقوم بإلغاء المؤتمر وصرف النّظر عن إقامته . وصلتْ هذه الدّعوة إلى (٩) من رؤساء الجمعيّات ولكنّها جاءتْ متأخّرة جدًّا ، فهي لم تصلْ إلى ما تبقّى من رؤساء الجمعيّات الـ (٢٧) ، وكان واضِحًا الاضطِرار فيها ؛ وأنّها وقعتْ تحت ضغطٍ خارجيّ تعرّض له الرّئيس كما علِمْنا فيما بعد . فقد قال له مسؤول رسميّ كبير ، قيل لنا فيما بعد إنّه رئيس الوزراء أو مُدير المُخابرات : «رَتِّبْ بيتَك . . . ما الّذي يحدث عندك في الجامعة»؟!

لم يُدرك الرّئيس أهمّيّة الزّمن في اتّخاذ القرارات ، ظلّ على قناعته أنّه هو الأدرى بمصلحة الطّلاّب والأعرف بمنفعتهم ، وهو الأخبر بالأسلوب الأمثل لإدارة جامعته ، وأنّنا نحن الطّلبةَ لسنا إلاّ زَبَدًا على

وجه بحره المعرفيّ ، يستطيع أن يُذيبنا في مَلَكوت عِلمه بموجة مَدٍّ أو جَزْرٍ واحِدة!!

ولكنْ لماذا؟! ما الّذي تذرُّه السّلطة في عيون أتباعها ليعمَوا عن الحقيقة!! ما الّذي يصنعه الكرسيّ بهم ليتعالَوا على النّاس؟! لماذا لا تُعطي السّلطة أبناءها حقّهم إلاّ بضغطٍ خارجيّ أو بثورةٍ عارِمة؟!! أليس في السّلطة رجلٌ رشيد ، يقود مملكته إلى برّ الأمان؟! ألَم يَعِ مَنْ بيدهم مقاليد الأمر أنّ الثّمرة النّاضجة تُقطَف من على الشّجرة ثَمّ تُقدّم إلى مُستحقّيها فتؤكل شفاءً وهناءً ، ولكنّها إذا تُركت حتّى تسقط على الأرض فتختلط بخَشاشها فإنّه لا أحدَ ينحني لالتقاطِها . وما بين العلوّ والسّقوط لحظةُ حِكمة خاطِفة ، مَنِ اشتغل بها عَزّ ، ومَنْ تركها ذلّ!!

(٣٠)
الشّيْءُ الّذي نَحيا منْ أجله
هُو ذاتُه الشّيْءُ الّذي سَنَموتُ مِنْ أجلِه

«الإنسان إذا تخطّى الخوف فقد تخطّى الخطر» قال ذلك محمّد أسد في «الطّريق إلى مكّة» وقلنا ذلك لأنفسنا ونحن نستعدّ صباح الاثنين ٢٨/ ٤/ ١٩٨٦ لتفجير مفاجأتنا الكُبرَى في استِقطاب طلبة اليرموك إلى مؤتمرنا الشّهير . من الثّامنة أخذنا احتِياطاتنا . الإعلانات أُلصِق منها المزيدُ داخل القاعات حتّى تكون أقرب إلى المشاهدة . تولّى العشرات مِنّا ومن مُناصِرينا شرح أهداف المؤتمر قبل محاضرات الثّامنة والتّاسعة والعاشِرة بأسلوبٍ هادئٍ وهادفٍ إلى بسط الحقيقة لا وجودَ فيه للمُناكَفات أو المُشاحَنات .

تلقّينا مفاجأة جديدة من نوع ثقيل ؛ في الحادية عشرة إلاّ ستّ دقائق حضر فخامة الرّئيس إلى موقع المؤتمر هو ونائبه ، وكان الغليون يحتلّ زاوية فمه اليُسرى على عادته ، غير أنّ نظرةً فاحِصةً واحِدة كانت كفيلةً بأن تكشفَ مدى الاضطراب الّذي لم ينجح في إخفائه ، فبدا واضِحًا من خلال تغضُّنات وجهه ، وحركة يديه السّريعتَين ، وطريقة تدخينه المُتواصل ؛ فلقد كان يسحبُ نَفَسًا عميقًا ويُخرج دُخانه الكثيف مرّة تلو الأخرى . وقف على طرف المُسطّح الأخضر تتحرّك قدماه في مكانهما ، وتتناوب عيناه النّظر إلى ساعته تارةً وإلى

توافد الطّلبة تارةً أخرى . ثمّ تقدّم نحونا ولم يكنْ قد تجمّع من الطلبة حتّى تلك اللحظة أكثر من ٥٠ أو ٦٠ طالِبًا ، تقدّم مُصطنعًا الثقّة والهدوء قائلاً : «يا طلاّب انصرفوا ، ولا يجوز هذا العمل لأنّه مُخالِف لقوانين الجامعة» . حينَها تقدّم إليه أحد الزّملاء ، وقال له : يا رئيس بقي ستّ دقائق عن المُؤتمر ، فإذا شئت أحضرتُ لك كرسيًّا لتجلس وتستمع إلى طلبتك . فاستشاط الرئيس غضبًا ، وصرخ بأحد الطلبة المُخبِرين : سجّلْ لي اسمه . . . سجّلْ لي اسمه . . . وبالفعل سجّل اسمه ، وكلّفت هذه الكلمة هذا الطّالب سنتين من عمره مفصولاً من الجامعة!!

وانبرى شاعر المظاهرات الأبرز (كريم العجلوني) بعد أن اجتمع ما يقرب من (٢٠٠) طالب ، وبدأ يهتف على سمع الرّئيس :

اجلسْ اجلسْ يا رئيسْ   اجلسْ اجلِسْ يا بدرانْ

وكأنّ هذه الكلمات كانت سببًا في تفجّر غضب الرّئيس ، وزاد من غضبه أنّ الطّلبة بدؤوا يردّدونها خلف (كريم) . وارتجل شاعرنا هُتافًا جديدًا :

والرّئيسْ قام يْصيحْ   والمُؤْتَمَرْ بَدُّو يْزيحْ
والرّئيسْ زِعْلَ وْقامْ   لمّا شَافِ الالْتِئامْ

وردّد وراءه الطّلبة بصوتٍ رجَّ له الفضاء ، فازداد حنق الرّئيس وانسحب مُغضَبًا وهو يزفر بكلماتٍ غير مفهومة . بخروج الرّئيس استمر الهُتاف والتّصفيق ، واستمر (كريم) يهتف :

والرّئيس كانْ لازمْ يُقعدْ   عَ المُسطّحْ مَعْ طُلاّبُهْ
وِبّسْمةْ حُلْوَةْ يَعْطِيهُمْ   لِكُلّْ سُؤال جوابُهْ
والرّئيسْ مِشْ مِهْتمْ   وَضْعِ الطّالِبْ كُلُّهْ هَمْ

وفي حوالي السّاعة الحادية عشرة والرّبع كان قد اجتمع في المُسطّح الأخضر ما يزيد عن (٢٠٠٠) طالبٍ . جمعهم بَدْءُ الهُتاف العالي الّذي وصل مسامع الطّلبة عبر مُكبِّرات الصّوت ، والحماسة الشّديدة الّتي أبداها المُجتمِعون .

كان الطّلبة المُحتشِدون يمثّلون كافّة التّيّارات الطلابيّة الحِزبيّة ، واجتمع في ذلك اليوم من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، وكان من الأيّام المشهودة الّتي أسّستْ لما بعدَها . ولأوّل مرّة يتمّ اتّحاد نوعيّ بين الإخوان المُسلمين مع اليساريّين في هذا الاجتماع ، وهو ما أثار حفيظة الجامعة والمُخابَرات ، وتركّزتْ حوله أسئلة المُحقّقين فيما بعد ، حينَ زُجّ بالكثيرين في المُعتَقلات .

حفل المؤتمر بعددٍ من الكلمات تمثّل التّيّارات ، بدأها (نعمان) حين قال : «إنّ الشّيء الّذي نحيا من أجله هو ذاته الشّيء الّذي سنموت من أجله (كلامٌ كبيرٌ قلتُ لنفسي وأنا أتابع حنجرته الهادرة ، وتابعَ هو) لا فرقَ بين أنْ تحيا لكي تُحقّق معنى الكرامة في حياتك أو أن تموتَ في سبيلها ؛ إنّها الحدّ الواصل بين الحياة والموت»!! وحينَ هبطَ من عليائه تلقّتْه كوادر الجبهة الشّعبيّة بالتصفيق الحادّ وحفّتْه ثلّة مهتاجةٌ منهم . صعد بعده (سالم) الّذي ظلّ جسده النّحيل يرتجّ من فوق قدميه المتأرجحتَين على إيقاع كلماته المائجة ؛ قال : «نحن ندفع من أجل أن يركبونا ، وفي النّهاية نزداد فقرًا وذُلاًّ ؛ فهل هناك استعبادٌ أقذر من ذلك . . . استيقِظي أيّتها الجميلة وانتفضي لكي نتخلّص من عبوديّة البقرة الحَلوب . . . استيقِظي يا جامعتنا . . . استيقظي يا يرموك . . .» وهاجتْ من بعده الجموع ، وتُوّج من جديدٍ زعيمًا طُلاّبيًّا مرموقًا .

اعتمدْنا تكتيكات جديدةً في تنظيم المؤتمر ، وقد تعاون الجميع في إنجاح هذه التّكتيكات الجديدة ، وزاد من تقاربنا اتّفاقُنا في مطالبنا الّتي التـفـفْنا حـولهـا ونادَينا بهـا . وزّعْنا نحن المنظّمين أنفـسنا إلى فِـرق ومـجـمـوعـات : كـانـت هناك مـجـمـوعـة لتنظيم الكلمـات ، وأخـرى للهتافات ، وثالثة للحراسة إذ تولّتْ حراسة حدود المُسطّح الأخضر من دخول عناصر المخابرات والحَرَس لحماية المؤتمر من التّخريب أو الإفشال أو حتّى اعتقال بعض القياديّين منه ، ورابعة لمكافحة المُصوّرين حاملي الكامـيـرات أولئك الّذين هم من أتبـاع العـمـادة ودوائر أخـرى تقـوم بتصوير الفاعِلين في المؤتمر من أجل اعتقالهم فيما بعد أو إنزال عقوبات من قِبَل الجامعة بهم . وقد قامت هذه المجموعة بالاستيلاء على كاميرا من أحد المُصوّرين ، وإخراج الفلم الّذي فيها ، وإحراقه أمام أعيُن الطّلبة الّذين قابَلوا المشهد بالهُتاف والتّصفيق . ولكنّا اكتشفْنا فيما بعد أنّه كانت هناك كاميرات أخرى ، وأفلام كثيرة واجَهونا بها بالعَشَرات فيما بعد . واستخدمتْها لجنة التّحقيق السُّداسيّة لإدانتنا والقِيام بمجزرة الفصل من الجامعة الّتي طُبِّقتْ على مئات الطّلبة لاحقًا!!

في المؤتمر المشهود ، ناقشْنا المحاور الثّلاثة الّتي اتّفَقْنا مُسبقًا على طَرْحها أمام الطّلبة : التّطبيق التّعسّفيّ من عمادة الشّؤون لتعليمات الجمعيّات الطّلاّبيّة ، والتّمثيل الطّلاّبيّ شبه المعدوم على كـافّة الأصعدة . وتعليمات الجمعيّات . ثمّ ألقى (وصفي طلب) كلمةً ناريّة عن الحزب الشّيوعيّ استثارتْ غضب الجماهير ، وأردف (نعمان حسين) من الجبهة الشّعبيّة بكلمة أخرى صبّت الزّيتَ على النّار ، وأدّتْ هدفَها بشكلٍ تامّ في استثارةٍ غضب الطّلاّب الّذين انتُزِعت منهم حقوقهم .

وصدح (صالح جرادات) ذو الصّوت الشّجيّ بأنشودةٍ نزلتْ بردًا وسلامًا على القلوب ، وزادت الجموع التفافًا حول قضاياها :

دَعْوَةُ الحقِّ نادتْ بَنيها فَاسْتجيبوا لِصَوتِ النّـداءْ
طَهِّروا أرضَكُمْ طَهِّرُوها خَضِّـــبُوا رَمْلَها بالدّماءْ

وسار المُؤتمر كما خُطّط له ، وكانت الكلمات تُعرَض على لجنة المؤتمر الّتي كنتُ رئيسَها حتّى لا يكون فيها خروج على مُطالَباتنا بحقوقنا إلى أمور حِزبيّة أو سياسيّة ، فحينَ نحصرها في الجانب الأكاديميّ يكون التفاف الطّلبة كلّهم حولها أقوى ، وتأثيرها كمطالب عادلة عند أصحاب القرار أكبر . غير أنّ طالِبًا من حزب التّحرير لم تكن كلمته مُدرَجةً على البرنامج طلب أن يلقي كلمةً فرفضتُ ، ولكنّه أصرّ قائلاً : أنا أريد فقط أن أشكركم على موقفكم الرّائع . فسمحتُ له . وحينَ صارت السّمّاعة بين يديه ، بدأ يصرخ : «يا شباب المشكلة ليستْ مشكلة جمعيّات طلاّبيّة أو غيره . المشكلة الكُبرى هي مشكلة نظام بكامله لا بُدّ أن يُزال . . .» وعندها قفزتُ كالملسوع ، وأخذتُ السّمّاعة منه ، ولم أتركه ليُكمِل حديثه ، وتولّى بعض الشّبّاب إسكاته وإخراجه من المؤتمر .

وفي نهاية المؤتَمر قدّم رؤساء الجمعيّات استقالةً جماعيّة ؛ أحدثتْ دويًا هائلاً لحظَتها ، وكان لا بُدّ من اتّخاذ خُطوةٍ جرئية كهذه ، يومها قلتُ : نحن لن نضحك على أنفسنا ولا عليكم ، ولن نكونَ أداةً نُمثّل دورنا كرؤساء جمعيّات في حين أنّ سياسات الجامعة حوّلتْنا إلى عاجزين ، وحوّلتْ الجمعيّات إلى كراتين فارِغة . وبعد اليوم سنمثّلكم أنتم أيّها الطّلبة الأعزّاء دون لافتةٍ إلاّ لافتتكم ، إنّنا نرمي بالجمعيّات في وجه الّذين أوجدوها مُشوّهة ، وفرّغوها من مُحتواها الحقيقيّ ودورها

الفاعل . أنتم كجماهير طلاّبيّة حِصنُنا ، وسنعمل معًا لانتزاع حقوقنا .

كان للمؤتمر دويّ القنبلة النوويّة في دوائر صُنع القرار ، وتلمّس الرّئيس ومجلس العُمداء جنوبهم خوف أن تشبّ النّار في أطرافهم . أكثرَ ما كان مُزعِجًا بالنّسبة لهم هو هذا الاندماج غير المسبوق لكافّة التوجّهات الفكريّة في بوتقةٍ واحدة وبمثل هذا الاحتِشاد . وعليه كان لا بُدّ من التّصرّف السّريع . ومن جانِبنا فقد نجح المؤتمر في تثبيت الأفكار الّتي انعقد لأجلها ، ومن أهمّها : إفهام الطّلبة بأنّ التّمثيل الطّلاّبي مسفوكٌ دمه في قانون العمادة ، ومُلغَى من كلّ حساباتها . وأنّ التّقصير الّذي لمسوه خلال هذا العام في قضايا الطّلبة لم يكنْ سببه رؤساء الجمعيّات ولا الإخوان المسلمون ، ولكنّها العمادة الّتي سحقتْ كلّ شيء . وتمّ كذلك توضيح مستوى الإرهاب الفِكريّ الّذي مارسَتْه إدارة الجامعة ضدّ أعضاء الجمعيّات المُطالِبين بحقوق الطّلبة ، وأنّ العمادة تريد الجمعيّات صورةً شكليّة بلافتة دون عملٍ أبدًا .

لقد وقر في ذهن عموم الطّلبة بعد هذا المؤتمر أنّهم قادِرون على الفِعل ، وعلى التّغيير . وصار لديهم دافعٌ قويّ في مناقشة تعليمات الجمعيّات إذْ إنّها ليستْ قرآنًا يُتلى ، وأنّهم مُصمّمون على تغييرها جذريًا . وممّا لا شكّ فيه أنّ هذا المؤتمر استطاع إعادة الثّقة بالاتّجاه الإسلاميّ الّذي اتُّهِم خلال العام الدّراسيّ بأنّه متقاعِس عن العمل . واستطاع كذلك إشراك جميع التّيّارات دون استثناء في العمل الطّلابيّ ، وقضاياه . وتشكّل - من ثِمار هذا المؤتمر - تيّارٌ زاخِرٌ أخذ على عاتقه تحذير الجامعة من مغبّة استمرارها في نهج الضّغط الّذي سيولّد انفجاراتٍ متتاليةً ، وليس انفجارًا واحِدًا .

لم تُصِب موجةُ المؤتمر رئيسَ الجامعة بالهلع ؛ بل امتدّ ذلك إلى

الدّوائر الأمنيّة خارج الجامعة ، وبدأتْ تُعقَد اجتماعات هنا وهناك ؛ إذ اعتبرت العمادة أنّ الدّعوة الّتي وجهتْها إلى رؤساء الجمعيّات ما زالت قائمة ، في السّاعة الرّابعة من عصر ذلك اليوم ٢٨/ ٤ اجتمع حوالي ٢٥ طالبًا من ٩ جمعيّات مع عميد شؤون الطّلبة ، ونائب الرّئيس . وكان هذا استهتارًا جديدًا يُضاف إلى القائمة الطّويلة ؛ إذ إنّ عدم حضور الرّئيس لهذا الاجتِماع يُعبّر عن هذا الاستِخفاف الّذي ما زال يعمل بمقضتاه في تعامله مع قضايا طلاّبيّة تزداد تفجُّرًا واتّساعًا يومًا بعد يوم . لم يخرج الطّلبة من ذلك الاجتِماع راضين ، فكلّ ما حصدوه منه هو مزيد من الوعود الّتي ظلّتْ حبرًا على ورق ، ولم ترَ النّور ، ولم تُنفَّذ .

بالطّبع لم أحضر ذلك الاجتِماع ، ولكنْ على مستوى المُطالبة بتوسيع دائرة الحِوار ، فإنّ الحِوار نفسه وُئد مرّتين : الأولى بعدم حضور الرّئيس للمؤتمر الطّلاّبي كي يستمع إلى مطالب أبنائه ، وبعدم حضوره لهذا الاجتِماع المسائيّ الّذي دعا إليه بنفسه . أمّا على مستوى إعطاء الجمعيّات صلاحيّات أكبر ، وإعادة النّظر في التّعليمات لتتغيّر حسب مطالب الزّملاء ، فإنّ هذا الطّلب ظلّ كلامًا شفويًا لا يُقدّم ولا يؤخّر ، وخرج الطّلبة في ذلك المساء وفي آذانهم تُلاك العبارات نفسها الّتي لم تتحوّل إلى واقع ألبتّة!!

وتوالت الاجتِماعات عند أصحاب القرار ، فوّت الرّئيس اجتماعه بممثّلي الطّلبة ، ولكنّه عقد اجتِماعًا استثنائيًا في اليوم نفسه وفي السّاعة الرّابعة إيّاها مع مجلس الجامعة لبحث استمرار الطّلبة بالاعتِصام إذا نوى بعضُهم ذلك . وكان اجتِماع الخائفين والمهتزّين . وفي مساء اليوم نفسه عَقَد مُحافِظ إربد اجتِماعًا طارئًا في مكتبه ،

واقتصر الاجتِماع على المجلس الأمنيّ للمُحافَظة لتدارك الأمر بعد أن طارتْ إليه معلوماتٌ تُفيد بأنّ بعضَ الطّلبة ينوون تحويل مؤتمرهم إلى اعتِصام مفتوح . وتضاربت الأنباء حول ذلك . واستمع الأمنيّون إلى كلّ شائعة ، وتلقّفوها وسَعوا بها إلى ذلك الاجتِماع السّريّ : هل هو اعتِصام مفتوح؟! هل ستتعطّل الامتِحانات؟! هل سيلحق الضّرر بمباني الجامعة ومرافقها؟!

لم تكن التّقارير المُخابراتيّة الواردة إلى المجلس الأمنيّ المنعقد بمكتب المُحافِظ كافيةً للاطّلاع على حقيقة الأمر ، فاستدعى المُحافظُ في السّاعة السّادِسة رئيسَ الجامعة إلى مكتبه ؛ وبالفِعل امتثل الرّئيس للطّلب ، وغادر اجتِماع مجلس الجامعة الّذي كان ما يزال مُنعقِدًا حتى تلك اللحظة ، وهُرِع إلى المُحافَظة . هناك كان الوجوم والجِدّيّة ورَشّةٌ من الارتِجاج النّفسيّ الدّاخليّ تتفاعل في نفوس المُجتمِعين . بدا الأمر خطيرًا ، وأنّ الأمور في طريقها للخروج عن السّيطرة ، ما لم يتمّ تداركها على وجه السّرعة .

كانت العقليّة الأمنيّة والعشائريّة تقضي بالعمل على خُطّة : (مِنْ بِيْمُونْ عليهم) ، قبل تنفيذ هذه الاستراتيجيّة الّتي غالِبًا ما تنجح ، طلب المحافِظ من مدير مخابرات إربد أن يُقدّم له معلومتين : الأولى تتعلّق بحجم الطّلاّب الّذين حضروا المؤتمر ، والثّانية : تتعلّق بحجم تمثيل كلّ حزب أو جماعة داخل هؤلاء الطّلاّب . وحينَ أفاد التّقرير بأنّ حجم الإخوان هو الحجم الغالب في المجموع الكلّيّ . قرر المجلس الأمنيّ الاتّصال بقيادات الإخوان خارج الجامعة المسؤولة عن الطّلبة الإخوان داخِلها ، والدّعوة إلى حِوار تدور فِكرته الأولى حول : مصلحة البلد ، وعدم جرّها إلى المجهول .

كثيرًا ما يُتّهم قادة الإخوان بأنّهم مُتواطِئون مع الدّولة ، وخاصّة من التّنظيمات اليساريّة ، الفلسطينيّة منها على وجه الخصوص . كانوا يقولون : إنّ جلسة قياديّ واحد من الإخوان مع مدير مخابرات سوف تأتي بالمصائب ، وتضيّع حقوقنا . يأتي الأب الإخواني ليقول لأبنائه : يكفي ما فعلتم حتّى الآن ، عودوا إلى بيوتكم راشِدين ، لقد أبدعتم ، وآن لكم أن تنتظروا الرأي مِنّا في الخُطوة القادِمة . وحينها يردّ الأبناء : سمعًا وطاعةً يا أبي!! أمّا بالنّسبة لليساريّين فيُتّهمون بأنّهم أفرادٌ لا ينظمهم سِلكٌ واحِدٌ ولا يصدرون عن رأي واحد ؛ الشّيوعيّون أكثر من خمسة أحزاب ، وكذلك اللّيبراليّون والعلمانيّون ، أمّا القوميّون والبعثيّون فلا ناقة لهم ولا جَمل في الحَراكات الطّلابيّة . يُقال دائمًا عنهم : أنتم تُشبِهون الفَضلة في الكأس ، والبقيّة في الطّعام ، تأكلكم الدّولة بلقمة واحِدة . وتستطيع أن تغيّر اتّجاه بوصلتكم حينَ تُلوّح بمنصب واحدٍ على هامش طاولات اجتماعات اقتِسام الكعكة ، وكراسيِّ الحُكم!!

إنّها فرصة كيل الاتّهامات ، إنّها اللّحظة الّتي ينغرز فيها ناب الاتّهام بـ : التّواطؤ ، والعمالة ، والخيانة ، والفرديّة ، والإقصاء ، و . . . . فيما هو النّظام الخصم الوحيد الّذي يضحك على دموع النّدم الّتي تنساب على خدودنا . يجلس على تلّة الخراب يُنشِد لحن الانتِصار ويلوك كلمات التّشفّي .

كنتُ في مثل هذا الجوّ معنيًّا بأمرين من أجل الخروج من حفرة الاتّهامات هذه : الأوّل : ألاّ أُنفِذ كلّ قرارات الإخوان بشكلٍ حرفيّ ، ولا يعني ذلك التّمرّد عليها بقدْر ما يعني الالتفاف الذّكيّ حولها . والثّاني : أن أمدّ جسور التّواصل والتّعاون بينهم وبين اليساريّين من

أجل توحيد الجهود للخروج بأفضل النّتائج . أدركتُ من خلال تجربتي ومعايشتي وصداقتي لغير الإخوان أنّ جهودنا سوف تتبعثر في فضاء العبث بِمذراة الخلاف ؛ إنْ لم نُسارع إلى الاتّفاق على هدفٍ واحدٍ مشترك يجمعنا كلّنا . وحينَ وجدتُ ذلك الهدف نجحتُ إلى حدٍّ بعيدٍ بجمْع النّاس حوله .

(٣١)
مَعَ الحَرَكَة الدّائبة
تَستطيعُ قَطرةٌ واحِدَةٌ أنْ تَفلِقَ الصَّخْر

النّاس أجناس . مُتكاملة وليستْ مُتشابِهة . وليس هناك تفاضلٌ بين النّاس لأنّهم عاشوا هذا الزّمن ولم يعيشوا ذاك . الخير في أوّلها مثل الخير في آخرها ؛ لا أحد يخلو من هذه الفطرة إلاّ شيطان . نُقدّم أنفسنا إلى أنفسِنا بعد أن نترك قِناع الشّرّ الطّارئ خلف ظهورنا . تتبدّى إنسانيّتنا على مرآة النّور لتقودَنا حين تنزع النّفوس إلى غياهب الظّلام . نحن نُحاوِل أن نعيش حياتنا كما قرأناها في كتاب الغيب المحفوظ . كِتابُ الغيب ما خَططناه بأفعالنا لا ما نسجْناه بأحلامنا . الإنسان مراحل ، وخير مراحله تلك الّتي يؤثر فيها سلامةَ الطّويّة على خُبث السريرة ، وحسنَ الظّنّ على سوء الفِطنة .

كان يوم الاثنين ٢٨/ ٤/ ١٩٨٦ يومًا فاصِلاً في تاريخ الحركة الطّلابيّة في الأردنّ بوجهٍ عامّ ، وفي اليرموك بوجهٍ خاصٍّ . فيما بعد سيكون الحديث سهلاً وموفورًا عن اتّحاد عامّ لطلبة الأردنّ ، وعن تمثيل يجمع كلّ طلاّب الجامعات في إطارٍ حركيّ واحدٍ . لكنّ ذلك لم يكنْ ليكون سهلاً لولا أنّ تضحياتٍ وجهودًا سابِقةً قد بُذِلت . في آخر ساعات اللّيل تُكافِح الشّمس القادمة من آخر بِقاع الأرض وهي تُحاول التّغلّب على الظّلام المُحيط بكلّ شيء ، لولا حركتها الدّؤوب ، وثقتها

التّـامـة بما لـديهـا من النّور مـا كـان هذا النّور لِيَـعُمّ الأرضَ يومًـا . أمـام الإصـرار يُمكن أن تـندكّ الجِـبـال ، ومع الحـركـة الدّائبـة تسـتطيع قطرةٌ واحِدة أن تفلق الصّخر ؛ هي قطرة واحِدة ولكنّ آلافًا من هذه القَطَرات تعبَتْ في جِهاد الحركة من قبلُ حتّى مهّدتْ لها الطّريق إلى لحظة الانتِصار!!

فتحَ المؤتمرُ كلَّ العيون على القِيادات الطّلاّبيّة ، وأصبحتْ هذه القِيادات في مرمى رصاصات الدّولة ؛ صرنا مُستهدَفين بشكلٍ لم يسبق له مثيل . ولعلّ إدارة الأزمة في الدّولة ظلّت تفكّر بالعقليّة القمعيّة الّتي صبغتْ تفكيرها على مدى فتراتٍ متباعدة . كانت المشكلة في أنّ هذه العقليّة البائسة تجعل خيارات الدّولة ضيّقة بشكلٍ صارخ ، ومحدودة بشكلٍ مؤسف ؛ كلّ الخيارات تؤدّي إلى ذات المستنقع : اعتِقال ، قمع ، مصادرة حرّيّات ، فَصْل ، مُحاربة في الرّزق ، . . . وفي كلّ مرّة تؤدّي هذه الممارسات إلى نتائج عكسيّة على غير هوى الدّولة ، والغريب أنّها في كلّ حادثة تكرّر الخطأ نفسه ؛ أهو غباء سياسيّ؟! أم استِغباء؟! كانوا يقولون : الشّعوب تنسى ؛ لها ذاكرة السّمك . تُعتَقل في المرّة الأولى فيحدث ما يحدث . . . لم لا نجرّب الاعتِقال مرّة أخرى . . .!!! لم يَدُر في خَلَدهم أنّ من السّمك حيتانًا يُمكن أن تبتلع كلّ ما يقف في طريقها!! وفي كلّ مرّة تهوي على رؤوسهم الحقيقة التّاريخيّة بلا مُقدّمات ؛ الحقيقة الّتي كانوا أبعدَ من أن يفهموها أو يتآلفوا معها : الممارَسات القمعيّة تزيد الأفكار ثباتًا وانتِشارًا .

استمرّ اجتِماع المجلس الأمنيّ في مكتب المُحافِظ حتّى ساعة متأخّرة من مساء ذلك اليوم المشهود ، وبعد التّفكير والتّمحيص ،

والتّدبير والتّقدير ، قرّر قراراتٍ مصيريّة أبدتْ ظلّ الدّولة المرعوبة أكثر من سطوة الدّولة القويّة . وكشفتْ عوار العقليّة الأمنيّة الّتي تكتفي بإشعال النّار دون أن تفكّر بأنّ هذه النّار تمتدّ ألسنتها المُحرقة لتأكل الجميع!!

توقّعنا أن يكون هناك حُكماء يتدارَكون الأمر فيمتصّون غضب الطّلبة ويتفهّمون مطالبهم في جوّ من الحِوار العقليّ المسؤول النّابع من حِكمةِ التّقدير لا من مساءة التّبرير ، لكنّهم اشتغلوا بذهنيّة عسكريّة بحتة ؛ وتساءلتُ :

– ما الفرق بين العسكر والحكماء؟

– العسكر يفعلون ثمّ يُفكّرون ، والحُكماء يُفكّرون ثمّ يفعلون . الأوّل غالِبًا ما يُخطئ والثّاني غالِبًا ما يُصيب .

وأنا أقول بملء فمي ، بعد أن حدثت الطّوامّ ، واجتمعت الدّواهي : لقد كانوا مُخطئين تمامًا .

أعجب العَجَب أن يتّخذ المجلس الأمنيّ قراراته فيما يخصّ الجامعة دون إشراك رئيس الجامعة في صِناعتها ، ولربّما لم يحظَ بأكثر من إعلامه بها ، وهذا – مرّة أخرى – يكشف عوار العقليّة الأمنيّة الّتي تُنصّب نفسها حَكَمًا في كلّ شيء ، وتحشر أنفها في أيّ أمر ، وتنظر باستِعلاء حتّى على المعنيّ الأوّل بالأمر ، وهو الرّئيس!!

قرّر المجلس الأمنيّ أنّ الّذين احتشدوا في المؤتمر هم مجموعة من المخرّبين ومثيري الشّغب ، وقليلٌ من المُغَرّر بهم ، وكثيرٌ من المُحرّضين ، وأنّه لا بُدّ من السّرعة في مُحاسبتهم ، ولذا : نظرًا لتباين أسماء المُحرّضين الواردة إلى المجلس من المخابرات الرّسميّة والطّلاّبيّة ، فإنّ المجلس يطلب تنسيقًا أمنيًا تامًّا بينه وبين إدراة الجامعة من أجل فرز

الأسماء إلى قوائم بحسب خطورتها وأهمّيّتها . وبعد أن يتمايز الجمع وتتّضح رؤوس الفِتنة تجب المُسارعة إلى :

– توجيه إنذارات خطّيّة من الرّئيس إلى جميع المُحرّضين على الفوضى والتّجمهر وتعطيل الدّراسة ، على أن تُرسل نُسخةٌ من الإنذار إلى وليّ أمر الطّالب .

– وبعد ذلك يتمّ استدعاء أولياء أمور الطّلبة المُشاغِبين ، والمعروفين بنشاطهم المُعادي والتّخريبيّ ، وإطلاعهم على سلوكيّات أبنائهم المَشينة داخل الجامعة ، وأخذ تعهّدات من الآباء لإلزام الأبناء بالانصراف الكامل إلى الدّراسة .

– أمّا الطّلبة الّذين يدرسون على حِساب المكرمة الملكيّة فيتمّ اتّخاذ إجراءات الفَصْل الفوريّ بحقّهم حال ثبوت اشتراكهم في المؤتمر أو المظاهرات السّابقة أو أعمال الشّغب .

– وأمّا قِيادات العمل التّخريبيّ من رؤوس الفِتنة الضّالّين المُضلّين فيجب فَصْلهم فَصْلاً نهائيًا بعد انتهاء السّنة الدّراسيّة ، وبعد أن يقوموا بتأدية امتحاناتهم النّهائيّة جرّاء اشتراكهم المتكرّر بأعمال الشّغب والتّظاهر وتعطيل سَيْر الدّراسة .

وهكذا مدّت الأجهزة الأمنيّة يدها إلى خاصرة الجامعة على مرأى ومسمع من الرّئيس دون أن يكون له حقّ الاعتِراض أو المشاركة في الرّأي . ولم يكنْ له من أمره شيء إلاّ أن يُنفّذ ما قرّره المجلس الأمنيّ في ذلك اليوم من اجتماعه في مكتب المُحافِظ . وهزّ الرّئيس رأسه بأسفِ العاجِز ، وتنهّد تنهيدة المسلوب ، وشعر أنّ البِساط لم يُسحَب من تحته فحسب ، بل وجعله ينقلب على ظهره لتنهار الطّاولة بكلّ الأوراق الّتي فوقها على رأسه .

وعـد الرّئيس بأن يفـتح تحـقـيـقـًا ، ولكنّ صـوتًا مـا من خـارج الأسـوار ؛ أسوار الجامعـة صرخ في أذنه : نفِّذْ دون استِبطاء . وهكذا وُقِّعتْ عشرات الأوراق الّتي تضمّ عقوباتٍ مُتعدّدة دون الرّجوع إلى أيّ طالبٍ من المُعاقَبين ؛ فالأمر لا ينتظر ، وقَذْفُ الطّالب في السّجن أو في الشّارعِ هو تحصيل حاصِل ، فلم الانتِظار؟!

أمّا الأدلّة الّتي استخدمها الرّئيس في إنفاذ العقوبات فكانت مَدعاة للضّحك والسّخرية في كثيرٍ منها . قالوا له : بدل أن تسمع من الطّالب شاهِد الصّور الفوتوغرافيّة الّتي التقطها رجالُنا الأمنيّون والمُتعاوِنون معهم لهم ؛ إنّهم هنا في هذا المؤتمر أو تلك التّظاهرة بما لا يُمكن أن يُشَكّ فيه . ثمّ اسألنا نحن أجهزة الأمن فشهادتُنا أحقّ من شهادتهم ؛ نعم رأيناهم بأمّ أعيننا يتظاهرون ويهتفون . ثمّ إنّنا سمعنا أصواتهم المبحوحة ؛ أليست بحّة الصّوت أكبر دليلٍ على اشتراكهم في هذه الأعمال التّخريبيّة!!

وهكذا تحوّلت المطالبة بالحقّ جريمة ، ورفع الصّوت بالظّلم مُنكَرًا ، والوقوف في وجه القرارات القاتِلة جِنايةً!! وطلب الرّئيس من عددٍ من العُمداء أن يُوقِّعوا بعض العقوبات قبل أن تمتلئ خانة الاسم بالطّالب الّذي ستُوقَع بحقّه العقوبة ؛ مِمّا يعني أنّ عددًا من العُمداء شارك في هذه المجزرة بالتّوقيع على بياضٍ دون أن يعرف مَنْ هو الطّالب الّذي تصدر بحقّه هذه العقوبة أو تلك!!

ومع أنّني أقول بعد عاصِفة من الاجتِماعات السّرّيّة ، وسَيْل من القرارات الجائرة : إنّ الأمر ضُخّم في عقليّة أصحاب السّلطة إلى الحدّ الّذي ألجأهم إلى اتّخاذ قراراتٍ لم تكنْ في صالح أحدٍ أبدًا ، وقد كشفتِ الأيّام فيما بعدُ فداحة الخسارة الّتي لحقت بالجميع ؛ فما الّذي

فعلْناه حتّى نستحقّ ما حدث؟! لقد تمّ المؤتمر في جوّ من المسؤوليّة ، وحُوفِظَ فيه على مُمتَلَكات الجامعة ، ولم يُؤذَ أيّ مُوظّف ، ولم يُقتَلَع حجرٌ أو شجرٌ أو ورقٌ من مكانه ، وكان تعبير الطّلبة عن همومهم حضاريًّا وراقِيًا . غير أنّ أصحاب القرار أُعيروا أُذُنًا غير الأُذن الّتي يجب أن يُعاروها .

(٣٢)
أَبْحَثُ عَنْ فِكرةٍ ضَيَّعْتُها فِي الطّريق

إذا جاءك الطّوفان فكيفَ تواجهه؟! بالصّعود إلى أعلى الجبل . وإذا لم يكنْ هناك من جبلٍ لتصعده؟! مَنْ قال ذلك ؛ بل إنّه في كلّ الأحوال موجود . أعني جبل النّدم . وماذا يُفيد الإنسان إذا اعتلى جبل النّدم؟! أن يقبل بالمأساة القادِمة .

البراكين ليست صنيعة البشر ، وليس لديها فرضيّة المؤامرة ، ولا تخضع للحسابات الإنسانيّة ، وهي ليستْ رومانسيّة إلى الحدّ الّذي تُرضيها كلمةُ حبّ واحدة فتُخمدُ ثورتها ، وليستْ جبانة إلى الحدّ الّذي يُوقِفها عن الامتداد تلويحُ بالعصا في وجهها . وحِممُها قارّة في باطن الأرض عميقًا إلى مئات الكيلومترات ؛ فما الّذي يجعلها تثور إذًا؟! وما الّذي أغضبَها إلى هذا الحدّ حتّى تقذف بشُواظها في كلّ اتّجاه ، ويسيل لهيبها في كلّ طريق؟! إنّه الضّغط الّذي ظلّ يكتم أنفاسَها حتّى ولّد الانفِجار . وفي حالة الطّلبة : إنّه الانفِجار الحقيقيّ الكبير!!

طلبتْ منّا قيادات الإخوان اجتِماعًا طارِئًا مُوسَّعًا في ٢٩/ ٤/ ١٩٨٦م لكلّ الطَّلبة الّذين يُمثّلون الجمعيّات ، هُرِعنا مدفوعِين بالخوف من جهتين . كان واضحًا أنّ ما فعلناه حرّك المياه الرّاكدة في البحيرة ، ولكنّه أيضًا أحدثَ دويًا هائِلاً بالإضافة إلى تلك الحركة الرّجراجة .

كانوا حوالي ثلاثين إخوانيًا مِمّن وُجّه إليهم النّداء ينتظرون في القاعة الصّامتة الجدران الضّاجّة بالهواجس .

لم ينجح قياديّ جلس إلى طاولةٍ مُتهالِكة في أوّل القاعة من أن يُهدّئ الأجواء المُضطربة ، وإلى ذلك زادها اشتعالاً حين بدأ يكيل الاتّهامات لنا بالخروج عن خطّ سير الجماعة في مُعارَضتها للتّخطيط للمُظاهرات وإقامة المؤتمرات في مثل هذه الأيّام . لأوّل مرّة يظهر الحديث عن العلاقة المتوتّرة بين الحكومة الأردنيّة ومنظّمة التّحرير الفلسطينيّة وأنّنا في مثل هذه الأجواء قد نتعرّض للأذى والمُلاحَقة ، وقد نُؤخَذ بذنبِ غيرِنا ، وأنّ جماعة الإخوان ترى أنّنا في غِنىً عن كلّ هذا . وبما أنّ الفصل الثّاني قد قاربَ على الانتِهاء ، فإنّه لا جدوى من إقامة أيّ نشاطٍ ألبتّة .

كان عميد الشّؤون قد التقى في مساء يوم المؤتمر بعد انتِهاء اجتِماعه مع الرّئيس بأحد قيادات الإخوان العامِلين في الجامعة ، وأبلغه أنّه يحرص على شباب الإخوان ، وأنّ ما قاموا به سيضرّ بالجماعة ، وسيعرّضها لاتّهاماتٍ ومُلاحَقاتٍ هي في غِنى عنها . وكما تفعل الحِرباء ، استطاع التّلوّن في المواقف ، والتّمثيل في المشاعر أنّ يهزّ بعضَ القناعات في نفس صاحِبنا . وحينَ كانت الفرصة مواتِيةً بعد ملعقة العسل لِدَسّ السّمّ ، انطلق العميد يقول : أيرضيك يا دكتور أنّ شبابَكَ عطّلوا الدّراسة اليوم ، واعتدَوا على المُدرّسين في القاعات ، وقاموا بإهانة الموظّفين والطّلبة . وحينَ حضر الرّئيس مؤتمرهم في بدايته بادَروه بالشّتائم ، واعتدَوا عليه بتمزيق جاكيتته وهتَفوا ضِدّه؟!! ثمّ إنّ الجامعة تعمل بالقانون وتتحرّك وَفقه ، وشبابك عقدوا المؤتمر مع أنّه مُخالِفٌ للقانون ، وليس من قبيل المُصادفة أنّ القائمين على هذا المؤتمر

والمظاهرات السّابقة هم من الطّلاّب الفاشلين أكاديميًا ، ومن الّذين وُجّهتْ إليهم جميعًا إنذارات لأنّ معدّلاتهم أدنى من ٦٥٪ ، وهم بهذه التّحرّكات يُحاولون إخفاء فشلهم بذريعة المُطالَبة بحقوقٍ لزملائهم!!

كلّ هذه الاتّهامات وُوجِهنا بها في اليوم التّالي بهذا الاجتماع الإخوانيّ الطّلابيّ المُوسَّع ، فازداد شعورُنا بالظّلم أكثر مِمّا كنّا نشعر به ، ويحزّ في جوارحنا . وكنّا حينها نحتاج إلى وقفةٍ جماعيّة جادّة منّا لإفهام قياداتِنا مدى الكذب والزّور والتّدليس الّذي تعرَّضْنا له .

وانتهى الاجتِماع بتفهُّم موقفنا من قيادات الإخوان على أنْ يُعمل بالاكتِفاء بِما مضى من مظاهر احتِجاجيّة ، والاستمرار في العمليّة الدّراسيّة بشكلٍ طبيعيّ . غير أنّ مُعظَمنا كطلبةٍ خرج غير راضٍ عن فكرة التّوقّف بعد أن انداح السّيل . ورأينا أنّه إنْ لم نركب الموجة الهادرة فسنغرق . وهمستُ في أذن (نائل) : الغد لن ينبني على ما قيل اليوم!!

أيّها اليساريّون الشُّرفاء ، أيّها المُناضلون الأُمناء : وجودُنا على كفّ عفريتٍ ؛ إمّا أن نُلقي بأقدارنا من الشّرفات الآمنة ، وإمّا أن نطلق رصاصة الرّحمة على أحوالنا البائسة . لم يعد من مجال للتّراجع ، ولا للتّخوين ، ولا للجِدال . الفكرة واضِحة : إنْ مضينا معًا كَتفًا إلى كتف لتحقيقها نَجَحْنا ، وإنْ بقينا نضخّ بذاءة اللّوم على أنفسنا غاصتْ أقدامنا في رِمال التّيه .

شكّلْنا خلايا صغيرة بألوان متعدّدة ، وانطلقْنا إلى عُمداء الكلّيّات ، نوضّح لهم أنّ مَنْ قام بالمؤتمر هم مجموعة من الطّلبة الواعين ، الّذين اختارهم زملاء لهم ليُمثّلوهم في قضاياهم ، لكنّهم وجدوا أنفسهم خارج اللّعبة بالكامل ، وأنّ من يملك السّاحة كلّها

سواهم . إلى أكثر من اثني عشر عميدًا تحرّكْنا نُبيّن وُجهة نَظرِنا ، ونُجلّي الموقف حتّى لا نظهر في أعينهم مجرمين ، وخارجين على القوانين ، وأنّنا مجموعة من الفوضويّين كما تريدُ رئاسة الجامعة والمرجعيّات الأمنيّة أن تُظْهرنا .

كان ذلك صباح الأربعاء ٣٠/ ٤/ ١٩٨٦ حينَ توزّعنا على العُمَداء لأنّنا شعرْنا أنّ هناك تُهَمًا جاهزة تُلفَّق لنا ، وأنّ مجزرةً سوداء في طريقها إلينا إنْ لم نُحاوِل بالحُجّة والدّليل أن نُوقِفها . وقد كان بعضُ العُمداء يُدهَش لحجم التّضليل الّذي مُورِسَ لتشويه صورتِنا في ذهنه ، وبعضُهم يظلّ صامتًا حائرًا أمام ما يجد من قوّة المنطق الّذي نتحدّث به ، ونُسوّغ له من خلاله السّبب الحقيقيّ الّذي كان وراء انعِقاد المؤتمر . وبعضُهم كان يقول لنا : بأن هناك مجموعات استغلاليّة تُحاوِل استغلال تحرّكاتكم لمصالحها الخاصّة . وبالطّبع ظلّت المجموعات المُستغِلّة مجهولة بالنّسبة لنا وكذلك المصالح الخاصّة ولم ندر ماذا كان يقصدُ . وبعضُ العُمداء وضّح أنّ وضع الجامعة مُنهار ماليًا ، وأنّ فَرْض الرّسوم على طلبة الهندسة كان اضطراريًا من الرّئيس لكي يتفادَى الانهِيار الماليّ الّذي تُواجهه الجامعة ، وأردف : إنّ الرّئيس عنده مشكلات كثيرة ولا يحتمل هذه الاعتِصامات . وبعضُهم سَرّبَ لنا – ولم نكنْ ندري بعدُ – أنّ هُناك عُقوباتٍ ستُتَّخذ ضِدّ بعض رؤوس الطّلبة ، لكنّه استدرك : إنْ تمّ التّصويت عليها فسأقف ضِدّها لصالحكم . وبعضهم تجرّأ أكثر فقال : وصلتْ إليّ معلومات أنّ الرّئاسة تنوي فصل خمسة طلاّب ، وعَلِقَ بذهني : وَرْد ، نائل ، وصفي ، . . .

اتّضح إذًا أنّ الفَصْل التّعسّفيّ قادِمٌ لا محالة ، وأنّ بعض القِيادات قد حُكِم عليها بذلك فِعلاً ، وأنّ آخرين ما زالوا ينتظرون دون أن يعرفوا

أنّ أسماءهم مُدرَجة في هذه القرارات أم لا . وتبيّن أنّ بعض العُمداء لم يُناقَشوا في إنزال العقوبات بحقّ الطّلبة ، وأنّ التّسريبات تدلّ على أنّ هناك إجراءات حازِمة وأنّ عليهم أن يُوقّعوا عليها دون أن يعرفوا حجمها ، وأنّ الرّئيس وحده فقط يملك حقّ الإعلان عنها في اللّحظة الّتي يراها مُناسبةً .

السّلطة والحقّ لا يجتمعان غالِبًا ، فُطِرت السّلطة على الاستِقواء بالباطل ، والتّرعرع تحت شجرة الكذب والبُهتان ، وحينَ يُباغِتها نور الحقّ تحشد له جيوش الظّلام ، ولكنّ جيوش الظّلام كلّها لا تستطيع أن توقِفَ تدفّق نورٍ ولو كان خافِتًا قادِمًا من شقٍّ في بابٍ أُغلِق على كلّ حقيقة . وحينَ يفيض النّور يُجلى كلّ غامض ، ويُبهَت كلّ كاذب ، ويسود العدل ، ويبيدُ الجور .

همتُ على وجهي في اللّيل العميق ، أبحثُ عن فكرةٍ ضيّعتُها في الطّريق ، عن مخرجٍ من التّيه . بدتْ لي الطّرُقات المنشعبةً في كلّ اتّجاه تُفضي إلى شيءٍ واحد : المجهول . الوقوف على مفترق الطّرق يُشبه المحصّلة الصّفريّة من القُوى المُتعاكِسة (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) .

تنقّلتُ بين البيوتات المنتشرة على جانبي الشّارع ؛ ذلك الشّارع الّذي نشأتْ حوله المساكن بفِعل الحركة الاقتِصاديّة والاجتِماعيّة حول الجامعة ، وسُمّي باسمها بعد ذلك ، كان يحمل اسمًا آخر : شارع إيدون ؛ لأنّه يُفضي إلى بلدة (إيدون) . وتحوّل الاسم إلى شارع الجامعة ؛ لأنّ اتّجاهات النّاس إلى مَنْ يملك الاقتصاد لا الجغرافيا ، ويقف على رأس المال لا ناصية الطّريق . صعدتُ جنوبًا مُحاذِيًا سور الجامعة الغربيّ ، ماضِيًا إلى غير غاية .

كانت الثّانية بعد منتصف اللّيل . هدوءٌ قاتلٌ يلفّ المكان ، أهيم في ظُلُمات نفسي بين مُنعرجات الذّكرى ، وأركنُ إلى الصّمت الّذي يخيّم على كلّ شيء حتّى على روحي المُثخنة بجراح الأمس ، والخوف من طَعَنات الغد . صرتُ أسمع وَقْعَ أنفاسي مع استمراري في اللّهاث وراء المجهول في هذه الطّريق الصّاعدة . من بعيد في الجهة الغربيّة تبدو التّلال خالية إلاّ من أشباح ترقص على جدار مُخيّلتي ، أرى فيها صورة الحياة الّتي نعيشها ، وأرواحًا بلا أجساد أرى فيها الخير مرّة والشّرّ مرّات ، وكلّ خيرٍ يتقمّص روح إنسانٍ فينا ، وكذلك يفعل الشّر . وأتساءَل : أين تقع روحي من كلّ هذا؟ وهل من الممكن أن يحلّ الخير في الرّوح ثمّ يأتي الشّرّ فيطرده!!

بقيتُ أسلك الطّريق الخالية إلاّ من همومي ، السّكون يقطعه نُباح كلبٍ في خيمةٍ بدويّةٍ قابعةٍ على بعد آلاف الأمتار في مكانٍ ما من هذا العالَم المُراوغ . أو يُشتّته انزلاق عجَلاتِ سيّارةٍ عابرةٍ من شارع وصفي التّلّ باتّجاه الجنوب القصيّ ، أسمع ضحكاتٍ مجنونة ، وكلماتٍ بذيئة تخرج من أفواه راكبيها ، ويعلو صوتُ الكوابح مع ارتفاع القهقهات فأكتشف أنّها تحمل مَخمورين ومُتسكّعين يصرفون الوقت في الرّغبة قبل أن يُداهمهم الموت في انقطاعها ؛ لا أدري لماذا رأيتُ في السّيارة شكل الحياة ، وفي رُكّابها صورة البشر ؛ وهتفتُ في سِرّي : هل الحياة مركبةٌ طائشة تقود مجموعةً من السُّكارى إلى حتفهم!!!

تجاوزت آخر زاويةٍ في سور الجامعة ، وواصلتُ سيري الأبله دون أن أدري متى سينتهي هذا الجنون . ظَلِلتُ أصعد بعد أن صارت إربد بكامل هدوئها الذّابح ، وحُسنِها الجارح خلفي . بدأت البيوت تختفي ، صار عددها قليلاً ، بعض شبابيكها لفّها الظّلام والرّعب ، وبعضُها

الآخر كشف عن ساقِها ضوءٌ أصفر باهتٌ كَسول ، كان يوحي بأنّ عالمًا غير هذا الّذي يعيشه الإنسان يتستّر خلف تلك النّوافذ .

حينَ بدأت الزّاوية الأخيرة من سور الجامعة تختفي ، وتبدو ولا تبدو ، كنتُ قد شعرتُ بحميميّة من نوع ما . تحرّك قلبي في صدري بطريقة غير مألوفة ، قفز قفزةً خفيفة وارتطم بالقفص ، وحين وضعتُ يدي اليُمنى عليه عاد بهدوء إلى مكانه الطّبيعيّ . تلفتُّ حولي لأعرف السّرّ ، وتذكّرتُ ؛ كنتُ أقف على رأس الشّارع الفرعيّ المؤدّي إلى بيت خالي . اجتاحتْني رغبةٌ قويّة في زيارته ولقائه ، ثمّ تذكّرتُ أنّه غادر الأردنّ من فترةٍ وأقسم أن يموت غريبًا .

خالي إنسانٌ ضائعٌ ؛ أوحشُ ما فيه أنّه يعرف أنّه ضائع ويوقن بذلك ، كم مرّة رأيتُه يبحث فيها عن نفسه غير أنّه لم يجدها . جرّب كلّ شيء ، وسافر إلى كلّ بلدٍ ، وعاش كما لم يعش أحد ؛ وانتظر معجزةً سماويةّ تُعيده إليه ، فيعرف نفسَه بعد طول إنكار لكنّه لم ينجح ، وهذه المعجزة لم تتحقّق . وفي سعيه الدّؤوب إلى لقائه بنفسه ظلّ ضياعه يزداد ، وغربته تستفحل ، وبكاؤه المرير على وَحدته يرتفع .

عبرتُ الشّارع الفرعيّ كما كنتُ أعبره لأكثر من ثلاث سنوات مَضين ؛ ثلاث سنوات قضاها خالي في التّشرّد والتّسكّع والحِكمة ، كنتُ أعبر كي ألتقيه في كهفه الغائب عن الوعي والواقع . صعدتُ الدّرجات إيّاها ، وتوقّفْتُ في منتصفها : إلى أينَ؟! الرّوح الّتي كنتَ تأوي إليها لم تعدْ هنا!! غير أنّني أشحتُ بأذني عن هذا النّداء الخفيّ ، وأكملتُ صعودي إلى المُستقرّ الجَليّ . وقفتُ أمام الباب مثل شبح ؛ أطلتُ الوقوف دون أن أحرّك ساكِنًا حتّى ساورني الشّكّ في أنّني لستُني ، كان كلّ شيءٍ حولي يوحي بالموت والرّهبة ، أدرتُ ظهري

للباب ، ورجعتُ خطوةً إلى الوراء ، وألصقتُه به ، شعرتُ بدفءِ المودّة مع برودة الجوّ ، كانت كلمات خالي تدخل عبر مسامات جسدي لتستقرّ في حجرات قلبي . شيءٌ ما في كلماته جعلني أعشقه ؛ كان ثوريًا صادِقًا ، وعفويًا حكيمًا ، وقارئًا حصيفًا . كان يجمع كلمات الخالدين من آثارهم الباقية ويُقدّمها لِي حِكمةً بالغةً . استعدتُ الخطوة الّتي سرقها الباب منّي ، تقدّمتُها ثمّ أدرتُ وجهي للباب من جديد ، ورفعتُ يدي وأملْتُ وجهي ، ثمّ طرقتُ طَرَقاتٍ خفيفة ، وانتظرت ؛ صمتٌ مُوحِش لم تُرهبني وحشته بمثل هذا من قبل . شبحٌ أنا بلا شكّ ؛ أحلم ؛ أهذي ، أهلوِس ، أنفرد ، أذوب ، أكادُ أجنّ . . . لكنّني قلتُ : المادّة يقين . إذا طرقتُ الباب واحتّكت مادّة اليد بمادّة الباب فمعنى ذلك أنّني لا أحلم . فعلتُ فشعرتُ ؛ لكنّ الشّعور قد يكون خادِعًا . فعلتُ للثّالثة ، وأغمضتُ عينيّ وأرهفتُ أذنيّ ، فخُيّل إليّ أنّني سمعتُ صوته قادمًا من جوف الغرفة الباردة : (لماذا كلّ هذا الطَّرْق على الباب فأنا لم أَعد موجودًا)!!!

(٣٣)
كُلُّهُم يَقولُ: أَنا وَطَنِي

عدتُ إلى بيتنا . الطّريق الّتي سلكتُها ماضيًا إلى بيت خالي لم تكن هي الطّريق الّتي مشيتُها عائدًا . تتغيّر الطّرق على حسب غاية الخُطوات الّتي نمشيها . ما من طريقٍ واحدةٍ تعبرها في اليوم الواحد مرّتين وتظلّ هِيَ هِي ؛ العابرون يغيّرونَ بخطواتهم وجهَ الطّرق . كم من طرقٍ تتغيّر في الحياة بسببِ من أولئك السّالكين في مداراجها!!

على الباب الّذي يتنصّف سور البيت الشّجريّ وقفتُ قليلاً قبل أن أدخل ، عبرتْ صور الماضي في ذهني سريعًا ، رَجُل هذا البيت كان فيما مضى طيّارًا يجوب الفضاءات مثل نسرٍ لا يعترف حتّى بالقمم مُستقراً ، ثمّ قضى بتفجير طيّارته المُقاتلة ، هذا الطّيّار الأردنيّ الّذي لم يُنجِب بعده بطلاً مثله ظلّ شاهدًا على أنّ قضيّة الوطن لا تتجزّأ ، وأنّ الدّفاع عنه ضدّ الغاصِبين هو الشّعلة الأولى الّتي كانت بسببها صواريخ طيّارته تقصف المواقع العسكريّة للعدوّ ، وزوجته هي نموذج آخر لا تصنعه إلاّ الأقدار التّاريخيّة ؛ تلك الّتي أحبّتْه أكثر من أيّ شخصٍ آخر في حياتها وظلّت وفيّة له بعد وفاته حتّى كادت تهلك بسبب هذا الوفاء ، وحتّى كادت تلحق به جرّاء أحزانها الّتي تتوالد من رَحِم أحزان أخرى . لقد فتحت لنا (نعيمة) أبواب هذا البيت الّذي شهد كثيرًا من اجتِماعاتنا الصّاخِبة ، وعامَلتْنا كأبناءٍ مُدلّلين ، وظلّتْ تحدبُ علينا

طَوال سنين من عمرنا وعُمر صَخَبنا في جامعة اليرموك ؛ الأحبّ إلى قلوبنا ذكرى وتاريخًا . واليوم بعد أنِ اتّسعت الرّقعة ، وصار وتر القوس أشدّ وأطول ، آنَ لنا أن نُريحها من دُوار كلماتنا الرّاكضة نحو الغايات ، ونبحث عن مكانٍ يؤوي أفكارنا ، ويتّسع لها ولنا جميعًا .

أيقظني من خيالاتي مُواء قِطّة كانت تهبط من أعلى شجرةِ سَرو من الشّجرات النّابتات على حدود السّور ، كانت السّاعة تُشير إلى الثّانية والنّصف فجرًا ، دلفتُ إلى الدّاخل ؛ إلى الحديقة الصّغيرة الّتي نضطرّ لعبورها ونلتفّ حولها حتى نصل إلى باب الدّرج الصّاعد إلى (روفِنا) . وفي المساحة القصيرة المَعبورة عليك أن تمرّ بشبّاك الغرفة الّتي تأوي إليها (نعيمة) . لا يُمكن أن ترى ضوء هذه الغرفة مُضيئًا بعد العاشرة ، كانت المرأة تنام مُبكّرًا وتستيقظ مُبكّرًا ، لديها في الصّباح طقوسٌ لم تتخلَّ عنها لأكثر من ثلاثين عامًا كما كانت تقول ؛ طقوسُها تحتاج إلى تفكير أكثر مِمّا تحتاج إلى تفسير ، وإلى عينين دامعتَين أكثر من شفتَين باسِمتَين ، وستقف أمامها حزينًا أكثر مِمّا تقف أمامها مُندهشًا ، وضوح يكتنفه غموض ، وغموض لا يُفسّره وضوح ، وهي في الحالَين غامضةٌ واضحة!!

من طقوسها المُبكِّرة ، أنّها تصلّي الفجر لها وله ، وتَقسِم الدّعاء أكثره له وقد تجعل نصيبًا ضئيلاً لسواه ، وحينَ تُنهي شعائرها تقف – كعادتها – أمام بِزّته العسكريّة الزّرقاء الأنيقة تُلقي عليه تحيّة الصّباح كأنّه ما زال قائمًا فيها إلى اليوم ، وتبقى تُحادثه حوالي السّاعة تسأله عن أخباره وأخبار رفاقه في السّلاح ، وأخبار طَلَعاتهم الجويّة ، وماذا يأكلون في القاعدة العسكريّة ، وكيف هي مَناماتهم ، وتسأله إنْ كان مُحتاجًا إلى وِسادةٍ جديدة يستبدلها بالأخرى القارّة فوق سريره

الحديديّ في المُعسكَر . ثمّ تنتقل إلى الحمّام ، فتُعِدّ له صابون الحِلاقة ، والشّفرة ذات الخطوط الزّرقاء ، والفرشاة ذات المقبض الأزرق ، والكوب الّذي يحوي ماء ساخنًا من أجل أن يغمس فيه الفرشاة المُرغّاة ، وحينَ تنظر في المرآة تجده هو ، ربّما روحه ترتسم على صفحة المرآة الخالية إلاّ منه ، على الخيال الّذي يكون ولا يكون ، لكنّها تراه ؛ أقسمتْ لي غير مرّة أنّها تراه في المرآة وأكّدتْ لي أنّ هذا ليس جنونًا كما ظنّتْ ذات مرّة ، وفي الصّورة الزّاهية الّتي تراها تحتلّ ذلك الانعكاس البهيّ ، تُمسك ذقنه يمينًا وشمالاً لتتأكّد أنّها حُلقت بشكلٍ جيّد ، وغالبًا ما تطلب منه أن يُعيد تمرير الشّفرة على هذا الجزء أو ذاكٍ . ثمّ تضع المَنشفة على كتفيه العاريتَين ، ويخرجان معًا ، يجلس إلى سريره قليلاً ، ثمّ يستعدّ لارتداء ملابسه العسكريّة . تدخل هي إلى المطبخ ، تُعِدّ فَطورًا تعرف أنّه حَرَص على تناوله طوال حياته ، وتُدرِك مكوّناته الّتي يُحبّها ، الزّبدة المقشودة مع طبقة عسلٍ على نصف رغيفٍ طريّ ، والحليب الطّازج الّذي تأتي به (أمّ سعد) صباح كلّ سبتٍ وأربعاء!! ظلّتْ أمّ سعد تأتي إلى البيت في اليومين المذكورَين ، لقد رأيتُها بأمّ عيني عَجوزًا في الماضين ، احدودب ظهرُها ، ونزلتْ ضفائرها البيضاء على كتفيها من تحت غِطاءٍ برتقاليّ اتّشح بالسّواد لقلّة نظافته يلفّ طاسةَ رأسها ، وهي تسوق حمارًا رماديًا تدلّى الخُرج عن جهتيه فوق ظهره ، وحملتْ كلّ جهةٍ (دُبّيّةً) من الألمنيوم تفيض بالحليب عن جوانبها . وكانت (نعيمة) تخرج لها في الوقت المُناسِب وبيدها شَرْبَتين من البلاستيك تملؤهما ، ومن ثَمَّ تنقُدُ (أمّ سعد) نصف دينار وَرَقيًا ثمنًا لهما ، وسمعتُها ذات مرّة تسأل (نعيمة) : أما زال الكبير في البيت؟! فتضع (نعيمة) إصبعها على فمها خافِضةً رأسها قليلاً وهي تقول :

إشْشْ . . . إشْشْشْ . . . إنّه نائم لا ترفعي صوتك حتّى لا يستيقظ!!
وتكتمل مائدة الفَطور برائحة الحليب المغليّ ، وتُضيف إليه الخُبز المشروح ذا الطّبقة السّمكية الّتي كانت (نعمية) تحرص على شرائه من (مخبز الهامي) القريب من بيتها ساخنًا شهيًّا لا تزال أبخرته تتصاعد فوقه . وأحيانًا كانت تصفّ شرائح من البندورة والخِيار وتنضّدها في طبقٍ واسع بشكلٍ هندسيّ رفيع وتُضيفه إلى المائدة ، وقبل أن تجلس إليها تناديً زوجها الّذي تركتْهُ في غرفة النّوم يُبدّل ملابسه : لا تتأخّر يا حبيبي . . . أنا أنتظرك . . . سأنتظرك حتى تأتي . . . وتجلس (نعيمة) إلى المائدة وتستمرّ في نِداء زوجها الّذي لا يأتي ، تظلّ تكرّر نداءاتها الفاجِعة أكثر من ساعة ، وحين يُبحّ صوتها تتوقّف ، وتنتظر لكنْ بصمتٍ دونَ أن تمدّ يدها إلى أيّ طبق ، ودون أن تأكل لقمةً واحدة ، وبعد ساعتَين ترفع مائدة الفَطور الّتي لم يُؤكل منها شيءٌ ، ولم يتغيّر في أدواتها شيءٌ ، إلاّ أنّ الحليبَ الّذي حلّ على المائدة ساخِنًا غادَرها بارِدًا!!

كانت نَسَمات الفجر قد لسعني لُطفها ، وأنا أزيح هذه الصّور من مُخيّلتي ، وأبعثر هذه الذّكريات على القارعة ، عابرًا تلك الحديقة الصّغيرة ، استوقفني شُبّاك (نعيمة) الأصفر ؛ الغرفة مُضاءة على غير العادة ، هل (نعيمة) ما زالتْ مُستيقظة؟! هذه هي المرّة الأولى منذ أربع سنوات أرى فيها الغرفة مُضاءةً في هذا الوقت؟! لا بُدّ أنّ شيئًا ما قد تغيّر!! أشحتُ بوجهي إلى الجهة الأخرى لأتجاهل الموقف وأمضي صاعِدًا إلى البيت ، قبل أن أُشيح بذاك الوجه خُيّل إليّ أنّ شبح (نعيمة) من خلف السّتارة يتهادَى في الغرفة قادمًا باتّجاه الشّبّاك ، انزاحت السّتارة أوّلاً ، ثمّ انفتح الشّبّاك على إحدى دَفّتَيه ، وبدتْ هي

بكامل حُزنها ، كان حُزنًا قادمًا من مواجع العاشقين ، من تلك النّوتات الموسيقيّة الّتي تنوحُ بها معزوفة (نينوى) . وقفتَ قُبالَتي فتجمّدْتُ في مكاني ؛ مـــا الّذي أيقظ المرأة في هذا الوقت من اللّيل؟! (قلتُ في داخلي) هل عاد إليها طيفُ زوجها من جديد فهي تحتفل برجوعه؟! لا بُدّ أن يكون أمرًا جَلَلاً هذا الّذي ألجأها أن تُغيّر عادةً دأبتْ عليها أكثر من ثلاثين عامًا؟! لم تُمهلني حتّى أُكمِل تساؤلاتي الدّاخليّة ، وهتفتْ بي :

- وَرْد؟!

- نعم يا خالتي؟!

- هل اللّيل طويل إلى هذا الحدّ حتّى تعود في هذه السّاعة منه؟!

- لا . . . لا يا خـــالتي . . . ولكنّي كنتُ عندَ . . . (لم تدعْني أُكمِل)

- انتظر . . . سآتيك!!

غادرتْ غرفتها مُضاءةً وتركت الشّبّاك مفتوحًا ، لتدور من باب البيت . على الباب كان هناك (البَرَنْدة) الصّغيرة الّتي تنبسط أمام المدخل ، نادتْ عليّ منها : تعال . استـدرتُ لأمشي هذه الخطوات العائدات ، أشارتْ إليّ بالكرسيّ : اجلسْ أريد أن أحادِثك . لن أغيب طويلاً . انتظر ريثما أعود بالشّاي .

ودخلت المرأة الخمسينيّة في غَيابة البيت ، وتركتْني على الكرسيّ أصارع مزيدًا من الأفكار والخيالات والهَواجِس . صوتُ حركتها وهي تُعِدّ الشّاي في المطبخ أتاني نازعًا لُطفًا مُضاعفًا حفل به اللّيل آنئذ ، أطرقتُ في الأرض ، وأنا أضع يُمناي على رُكبتي ، وأسدل الأخرى على جانبي ، وغُصتُ مرّة أخرى في المُدُن البعيدة . . . خرجتْ أمّي

مثل سوسنة عُلّقتْ سهوًا على صدر البيت في (نابلس) ، كان الوقتُ في غبَشِ الهزيع الأخير من اللّيل ، والفجر لم يكشف عن وجهه الأبيض بعدُ ، فجأةً أطلّتْ أمّي من الشّباك الخشبيّ الّذي يفتح على الياسمينة ، وهالَها أنّها عطشى ووحيدة وحزينة إلى هذا الحدّ ، وفي اللّحظة الّتي خرجتْ من الباب نادى مؤذّن الفجر من مسجد (البيك) بصوتٍ شجيّ مدّ فيه كلّ المدود بطريقة فاجعة ، ظهرتْ أمي وفي يدها إبريق ماء لتسقي الياسمينة ، لم تكدْ تنحني لتفعل ذلك حتّى ظهر أخي المُقاوِم من بعيد وهو يركز كتِفه على جذع صفصافة وينظر إلى أمّي مُبتسِمًا . سقتْ أمّي الياسمينة ولم تكنْ قد شعرت بعدُ بقدوم أخي ، غير أنّ الماء الّذي انسكب من الإبريق كان أحمر صافِيًا تفوح منه رائحةٌ عَطِرة ، لم تنتبه أمّي إلى لونه أو هكذا خُيّل إليّ ، إلاّ أنّ الياسمينة تشرّبت الماء كلّه من الإبريق ، وترعرعتْ بسرعة ، ونمتْ أغصانُها اللّيّنة ، تابعتُ المشهد دون أن أستغرب ؛ شيءٌ واحِدٌ فقط جعلني أشهق ؛ لقد تحوّلت الزّهرات البيض في تلك الياسمينة إلى زهراتٍ حمر ، في لحظة التّحول تلك كان أخي يُنادي بصوتٍ ملائكيّ على أمّي ، كانت الياسمينة تقطُر ، أمّا أمّي فلم تنتبه إلى صوتِ أخي ، تقدّم نحوها أكثر ، وازدادت ابتِسامته بياضًا ، وحينَ صار قُبالتها انحنى على إحدى رُكبتيه فقبّل يديها ، ثمّ انحنى على رُكبتيه معًا وقبّل قدميها ، لم تفعل أمّي شيئًا سوى أنّها تلفّتتْ مرّتين أو ثلاثًا حولها كأنّها تُحسّ بشيء ، غير أنّه بدا واضِحًا أنّ أخي يراها وهي لا تراه . وقف أخي من جديد على قدميه وضمّ أمّي بيدَين حانِيتين وغاص فيها . . .

– أأنتَ تعبُ إلى هذا الحدّ؟!! (أيقظني صوتُ نعيمة من

خيالاتي ، وصفعني بقوّة ليُعيدني إلى الواقع)
- لقد استُشهد أخي . . . لا بُدّ أنّه استُشهِد . . .
- ماذا تقول؟!!
- لا . . . لا شيء . . . كنتُ أحلم .

سحبتْ (نعيمة) طاولةً صغيرة لتضعها أمامي ، وعليها كاسات الشّاي . كان الجوّ قد انتشرت البرودةُ في أنفاسه ، جاء الشّاي ساخِنًا ليُدفِئ أعماقي الّتي جمّدتْها الذّكريات . ظللنا أنا و(نعيمة) صامِتين تمامًا ، ننظر في وجوه بعضنا للحظات ثمّ أُحوّل نظراتي إلى جهةٍ أخرى كأنّني أهرب من مُواجهةٍ مُحتَملة . لم يكن يقطع الصّمت المُطبقَ غير أصوات رَشَفاتنا من كؤوس الشّاي المسكينة . تجرّأت (نعيمة) في النّهاية لتفتتح معي حِوارًا كانت تودّ افتِتاحه من زمن :

- لِمَ كلّ هذا الهمّ؟!
- أيّ همّ!!
- محاولتك الجاهدة في إخفائه لم تنجح ، عيناك تكشِفانِ سِرَّك .
- إنّها هموم .
- كلّي آذان صاغية .
- أخاف من الغد .
- خيرٌ من أن تطمئنّ إليه ، أنا الّتي اطمأنّت إلى الغد ففاجأها هذا الغد باستِلاب حبيبها منها ، نحن نأمن في المستقبل ما نخافه اليوم . دَعْ خوفك جانبًا ؛ أخبرني ما الّذي يجري؟!
- لا أريد أن أَشغَلك بقضايانا البسيطة .
- نحن نحاول معًا أن نجعلها أبسط . أسِرَّ إليّ بما يشغلك . أنا أمّك هنا في الأردنّ ، وإنْ كنتُ لا أغني عن أمّك هناك في فلسطين .

– أنتِ أمّنا جـمـيـعًـا ؛ نحن المُشـرّدين الّذين نسكـن فـوق . . . الجامعة . . .

– مممم . . .!!

– أشعر أنّنا مُقبِلون على جحيم في الجامعة . الرّئيس صفعنا بإهماله لنا ، وداس على حقوقنا ، والزّملاء يُصعِّدون كلّ يوم . . . وأنا رُبّان سفينتهم في هذا الموج المُتلاطم ، إذا قرّرتُ أن أقف بالسّفينة دون أن أبحر ابتلعتْنا الأمـواج ، وإنْ أبْحـرنا ضِعْنا في الطّريق الضّـبـابيّ واصطدمْنا بصخرةٍ هوجاء وتحطّم كلّ شيءٍ فيها وفينا . . . أكاد أشعر أنّ السّفينة تغرق ، وأنّنا هالِكون لا محالة .

– تبحثُ عن وسيلةٍ للنّجاة؟!

– ليتني أستطيع!!

– لا بُدّ أنّ هناك مـخـرجًـا . أعـتـقـد أنّ المخـرج يكون في القـرار الحكيم .

– أعـرف ، ولكنْ تلك هي المشكلة ؛ من أين أعـرف أنّ قـراري حكيم .

– هناك وسـيلة . . . اسـمع : اجـعل قـرارك مُـسـتنِدًا إلى حـبّك للوطن . إنْ جـعلتَ قـراركَ البـوصلة الّتي تشيـر إلى وطنك فـأنتَ في الاتّجاه الصّحيح .

– آه . . . إنّمـا الحبّ دعـوى سـهلة ، ولكنّ الدّليل عليـه صـعب ؛ أفيكون الدّم دليلَ الحبّ هنا!!

– لا . . . لا . . . الدّم يثـيـر الشّـهـيّـة للدّم . . . لا تُفكّر إلاّ بالحياة . . . لقد جعلتُ (ناصر) حيًّا إلى اليوم حينَ أبعدتُ الدّم والموت عنه بتفكيري به حيًّا ، وبإسكانه في مشاعري التّوّاقة إلى الحياة .

– أرشديني يا خالة . . . فإنّ أصعب مرحلة أُواجِهها اليوم ؛ مرحلة اتّخاذ القرار الصّائب .

– حينَ تجعل الوطن يرتسم في القلب ، وتتشكّل تضاريسه في العقل ، وتنسكب مياهه في الشّرايين ، فاعلم أنّ أيّ قرار تتّخذه في هذه الحال سيكون صائبًا .

– يا خالة . . . إنّما السّهام كثيرة ، والمُدَّعون كُثر ؛ وكلّهم يقول : أنا وطني .

– ما أكثر الكَذَبة المكشوفين ، وما أقلّ الصّادقين المُستترين . كُنْ مع الصّادقين تكنْ مع وطنك .

– ولكن . . . كيف؟!

– الوطن ليس جُغرافيا ؛ إنّه قيمة ؛ الحبّ والكرامة والفِداء والإباء والعدل . . . الوطن إيمانُ المُخلِص ، وتضحية العاشق . الوطن ثباتٌ على المبدأ في ضجّة البائعين ، وتشبّثٌ بالحرّيّة في سوق النّخّاسين . الوطن أنتَ وأنا وأولئك الّذين يجمعهم الضّمير النّقيّ والغاية الشّريفة . . . هذا ما تعلّمتُه من (ناصر)!!

(٣٤)
(مَنْ لانَ للخَطْبِ الشّديدِ توقّعَ الخَطبَ الأشَدّا)

ماذا ستُغني عنّي فكرةٌ ضيّعتُها في الطّريق ، وبوصلةٌ احترقت في المُفتَرقات ، وسفينةٌ دُكّتْ صواريها في الظّلمات ، وقافلةٌ مات حاديها في وسط الصّحراء ، وسحابةٌ اضمحلّتْ في الهَجير ، وينبوعٌ جفّ في الصّيف ، وشجرةٌ قُطّعتْ أغصانها عند انفتاق الرّبيع ، ويدان كُسِرتا بهُويّ كرة الثّلج فوقهما عند آخر الهاوية ، وقلبٌ احترق بنار العشق وانفطر بداء الحُزن ، وأنا فوقَ هذا في كلّ هذا بلا عيون!!!!

أينَ الفِرار ولا جِهة ، وأينَ المُستقرّ ولا مكان ، وأين الرّحيل ولا موت ، وأين النّسيان ولا حبيب ، وأينَ الذّكرى ولا مُستمِع ، وأينَ القول ولا فم ، وأين النّور ولا عين ، وأين الكلمة ولا حرف ، وأين الحِكمة ولا قلب ، وأينَ العشق ولا صِدق ، وأين الدّليل ولا حقيقة ، وأين أنا ولا وجود!!!!

في الجهة الشّماليّة من البوّابة الرّئيسيّة للجامعة ، على مَبعدة قليلة ، وبسورٍ إسمنتيّ واطئ ، تعلوه من جهة الدّاخل بعضُ الشّجيرات الّتي تُبدي شَيئًا من السّاحة الدّاخليّة له ، السّاحة المُعشِبة ، والّتي تتناثر على مساحات منها طاولاتٌ خشبيّة لفحتْها الشّمس ، وتقوم على بعضها مِظلاّتٌ تُغطّي ما انكشف للجالس تحتها . . . في تلك البُقعة الخافية على المُتلصّصين يقع (مطعم البستان) .

يملك المطعم المسيحيّ (يوسف سعادة) ، ودأبَ العُشّاق على لقاء بعضهم بعضًا فيه ؛ لبُعده عن البوّابة الرّئيسيّة ، وعن الأعين العاذِلة والقلوب الحاسِدة . وكان من المُمكِن لكلّ ذي لحية أن يُتّهم بالفِسق والفُجور إذا دخله ، ولكلّ إخوانيّ أن تركبه الشّبهة من رأسه حتّى أخمص قدميه ليس إذا دخله وجلس في فنائه الرّذيل ، بل حتّى إذا وقف على أعتابه ومَدّ عينيه إلى أركانه ؛ ولأجل هذا قرّرتُ أن أحوّل اجتماعاتنا الأخيرة إليه!!

كان المكان واسعًا ؛ نستطيع أن نجمع فيه كلّ الأطياف ، وكان الاجتِماع فيه يحقّق غاية سامية ، وهي بُعده عن أعين الدّولة وعن مُخبريها ، فلم يكنْ من المنطق عندها أن يعقد الإخوان فيه اجتماعاتهم . بلا شكّ كان سهلاً عليّ أن أطبّق قراري على نفسي ، غير أنّ (وائل) و(صالح) اعترَضا على الاجتِماع فيه ، وواجهتُ صعوبةً في إقناعهما بذلك ، وأنّ الأمر طارئٌ ومؤقّت ، ولن يستمرّ طويلاً .

اجتِماعنا الأوّل فيه يوم ٤/ ٥/ ١٩٨٦ كان حاشدًا ومتعدّد الألوان والأطياف ، واقتصر مع ذلك على قيادات العمل الطّلاّبيّ . جمع لنا (الجَرْسون) ستّ طاولات إلى بعضها ، والتفّ حولها ما يقرب من (٢٥) زميلاً وزميلة . طلبتُ لهم – كون بعض الدّعم الماليّ الإخوانيّ كان لا يزال يُدفّئ جيبي – شرابًا باردًا ، وتلوتُ عليهم وهم يتلقّون هذه الكؤوس قوله تعالى : (وَسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَرابًا طَهُورًا) ، فردّ عليّ بعضُهم مُبتسِمًا : (إنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا) . وطرحنا معًا محورَين للنّقاش قابلَين للزّيادة : الأوّل قضيّة قرارات الفصل بحقّ الزّملاء والّتي تسرّبتْ أخبارٌ عنها إلى بعضنا ، والثّاني : الخُطوة القادِمة في التّعامل مع إدارة الجامعة ومجابهة هذه القرارات .

قال بعضُنا :

– لسنا هيكلاً خشبيًّا تعمل فيه آلة المنشار . (وقال آخر)

– لسنا عُملةً بجيوبهم .

– قرار الفصل يجب أن يُجابه بقوّة وبالقوّة .

– هل تتخيّلون أنّ أربع سنوات أو خمسًا بكلّ ما فيها من معاناةٍ وتعبٍ وتكاليف مادّيّة باهظة تُشطَب بجرّة قلم من رئيسٍ فاشيّ بتوقيعه على قرار الفَصل .

– القضيّة ليست رئيس الجامعة ، القضيّة أمنيّة بامتِياز . أكاد أحسّ أنّ الرّئيس طَرطور .

– يا سيّدي ولْنفترض ؛ أليس له كلمة ، أليس له موقف ، ألسنا طلاّبه وأبناءه كما كان دائمًا يدّعي؟!!

– وماذا تقترحون؟!

– لقد ولّى عهد الاقتِراحات . يجب أن نشعلها في الجَنَبات كلّها .

– اهدؤوا . . . لا بُدّ من حلّ . . .

– لا يوجد حلّ إلاّ بالإضراب الشّامل ، والاعتِصام الدّائم حتّى يتراجع الرّئيس ومَن خلفه عن قراراتهم .

– إيّاكم أيّها الإخوان من اتّباع سياسة الحِوار . . الحِوار هنا لا يُجدي فتيلاً . . .

– ادفعوا بكامل قوّتكم في يوم تاريخيّ تتحدّث عنه الأردنّ كلّها . . . قِفوا صفًّا واحِدًا هادِرًا بموجةٍ واحدة : حقوقنا أعلى من رؤوسكم .

– اصرخوا بقول القائل : (مَنْ لان للخَطْبِ الشّديدِ توقّعَ الخَطبَ الأشَدّا) .

وكأنّ المكان البعيد عن الأعين جذبَ الأعينَ كلّها إليه ، فلم يكدْ يمرّ يومٌ على اجتِماعنا الصّاخب ذاك حتّى تواترت الأنباء أنّ هناك منّا مَنْ نقل تفاصيل اللّقاء إلى الأجهزة الأمنيّة ، وأنّها طلبتْ من الرّئيس استدعاء رؤساء الجمعيّات للتّشاور والحِوار واستيضاح الأمر ؛ وهذا فِعلاً هو ما كان!!

في صبيحة اليوم الّذي تلا الاجتِماع أرسل الرّئيس إلى قيادات الإخوان من أساتذة الجامعة يطلب منهم أن يختاروا من قيادات الطّلبة مَنْ هو قادرٌ على إنشاءِ مساحةٍ من الحِوار قادرةٍ بدورها على الخروج باتّفاق يُجنّب الجامعة محذورًا ومحظورًا . وَصَلَنا الأمر كاحتراق شهابٍ في ليلةٍ داجية ، وانتشر الخبر بيننا ماءً سائحًا في مُنحدرٍ شديد ، ذرَّ رَذاذه على جانِبَيه . سارعتُ بدوري إلى نقل الخبر إلى شركائنا من اليساريّين والعَلمانيّين ؛ قانونيًّا لم يكن لهم الحقّ في الالتحاق بلقاء الرّئيس ؛ لأنّهم ليسوا أعضاء في مجالس الجمعيّات ، ولكنْ أخلاقيًّا كنتُ أجد نفسي مدفوعًا إلى إخبارهم بحقيقة ما يجري ؛ الرّئيس الآن سيلتقينا بشحمه ولحمه ، لم يفعل ذلك منذ أن تفاقمت الأزمة المُرّة . وأنتم أيّها الشّركاء ستتحمّلون معنا المسؤوليّة وستشاركوننا الرّأي . طلبتُ منهم أن يقترحوا اقتراحات صاروخيّة ذات أهداف قاتِلة من أجل أن أحملها معي إلى الرّئيس .

على مستوى قياداتنا الإخوانيّة قال مسؤولنا في إربد اختاروا عشرين طالِبًا مُمثِّلاً لمجالس الجمعيّات على ألاّ يكون (نائل) منهم!! وحينَ سألتُه : ولماذا تُخرجونه من لقاءٍ مهمٍّ كهذا؟! قال لي : إنّه غير مضمون ، وهو عصبيٌّ جِدًّا ، وأخاف أن ينفلت لِسانه على الرّئيس فيتلفّظ بكلماتٍ تستجلب النّقمة وتستعدي الرّئاسة علينا . قلت له :

من أجل السّبب الأخير فأنا أُصرّ على حضوره ، ولن يتمّ الاجتِماع بدونه ، وبصفتي الرّئيس الدّاخليّ (الإخوانيّ) للجمعيّات فسيكون على رأس القائمة . ولعلّ تلك الكلمات أغضبت المسؤول ، لكنّني أصررتُ عليها . وحينَ دخلنا مكتب الرّئيس فيما بعدُ حرصتُ على أن يكون بجانبي ، ونكون معًا أوّل الدّاخلين من المجموعة كلّها .

تبيّن في الاجتماع أنّ هدف الرّئيس الأوّل لم يكن التّوصّل إلى حلّ للمُعضلة القائمة والّتي تستعصي على الخروج من عُقدتِها بمرور الأيّام واقتراب امتحانات الفصل النّهائيّة ، بل كان هدفه من مناداتنا أن يُظهر نفسه بمظهر الدّيمقراطيّ الّذي يُحاور طلبته ويستمع إليهم ولو كان ذلك ظاهِريًا وشكليًا . وكان يدفع باتّجاه إشهار ذلك في وسائل الإعلام الجامعيّة المُتاحة .

مضينا إلى الاجتِماع بعد أن وصّاني غير مرّة مسؤولنا الإخوانيّ أن أظلّ بجانب (نائل) وأضبط معه مفاتيح الكلام . رتّبْنا بيننا الكلمات ووزّعنا الأدوار ، وتولّيتُ أنا – من تلقاء نفسي – مهمّة تقريب وجهات النّظر مع الرّئيس وتهدئة الخواطر وانتقاء الكلمات اللّطيفة لتلطيف الأجواء ولكن دون تذلّل أو نكوص عن مطالبنا الّتي تمحورتْ حول أمور كثيرة ، أهمّها اثنان : التّراجع عن قرار رسوم التّدريب الصّيفيّ ، والتّراجع عن قرار فصل قِيادات الطّلبة بعد التّأكّد من أنّه تمّ بالفعل ووُقِّعَ عليه .

ارتقينا الدّرج الحلزونيّ الّذي يُفضي صعودًا إلى مكتب الرّئيس . كان ينتظرنا بغليونه القارّ في زاوية فمه ، واضِعًا إحدى يديه تحت ذقنه ، ومُمسكًا غليونه بالأخرى فيما نُفاث دُخانه يملأ أجواء المكتب ، كان جليًا أنّه في نصف السّاعة الأخيرة قبل لقائنا قد عبّأه بحشيشه

المُفضّل وأشعله مرّات عديدة . بدا مُتوتِّرًا ومُنفعِلاً وإنْ تصنّع الهدوء أحيانًا بإرجاع ظهره وإراحته على مسند كرسيّه الوثير .

جلس مُساعداه عن يمينه وشِماله صامِتَين كتمثالَين ، لا يتحرّك منهما إلاّ عيونهما الّتي راحتْ تدور على مركز القرار حيثُ الرّئيس الّذي كان ما يزال صامِتًا حتّى تلك اللّحظة . حين انتظمْنا جلوسًا في حلقة الكراسيّ المصفوفة قُبالته ، طاف علينا أحد غِلمانه بالشّاي ، ظلّ يُراقِبنا من طرف خفيّ مُتابِعًا نفْث دُخان غليونه حتّى استقرّت كاسات الشّاي على الطّاولات الصّغيرة أمامنا ، ثمّ بدأ حديثه مرتجّ الصّوت بغضب ، ومهتزّ النّبرة بانفعال ، وتصنّع الودّ في أكثر من موقف من مواقف حديثه الّذي استمرّ ما يقرب من ساعة : أنتم أبنائي ، والجامعة بيتُكم ، فهل يُرضيكم أن تُخربوها بأيديكم!! وأنا لا أريد لكم إلاّ المصلحة ، ولا أبحث إلاّ عن رقيّ الجامعة وتبوّئِها المنصب الأعلى بين الجامعات لا على مستوى الوطن ، بل على مستوى العرب والغَرب ، ولن أدّخر جهدًا إلاّ وأبذله في سبيل هذا الهدف ، ولا بُدّ أنّ تحقيق هذا الهدف يحتاج إلى شراكةٍ بيننا وبينكم ، فإنْ لم تَقفوا إلى جانب جامعتكم فمنْ يقف؟! ورسوم التّدريب الصّيفيّ لن تُطبّق إلا بعد مرور هذه السّنة ، وهي تخصّ الجُدُد ، أمّا الطّلبة القُدامى فلا يدفعون إلاّ مبلغًا زهيدًا لا يستحقّ الضّجّة الكُبرى الّتي حدثت وأراها تحدث من أجله .

ظلّ الرّئيس يُلقي بمواعظه المطّاطة ، يَبعجُها طولاً أو عرضًا ، ويعلكها بأسنانه الصّفراء ولم يتطرّق للعقوبات أو قرارات الفصل وهو الأمر الأهمّ الّذي كان يشغل بالنا في تلك اللّحظة الرّاهِنة . قدّم لنا خلال ساعةٍ كاملة وجبةً مُحترِقة من الحديث المكرور عن القيم والمُثُل ،

وجهوده الجبّارة ، ولم يمرّ ولو مرورًا في حديثه على المقصلة الّتي تدور قراراتها بشأن قِيادات العمل الطّلاّبي . وحينَ جاء دورُنا في الحديث قلتُ له : أستاذنا الرّئيس نحن ممثّلي طلبة الجامعة في الكلّيات كلّها نجتمع بك لتكونَ أبًا حقيقيًا لنا ، فتحدب على أبنائك الّذين أصابهم الضّيم ، الأمر لا يحتاج أكثر من قرار سِيادي يعبّر عن مواقفكم الحازِمة في أن تتراجعوا عن قرار رفع رسوم التّدرب الصّيفيّ ، هذا من جهة . ومن جهة ثانية أن تُلغى قرارات الفصل التّعسّفيّة الّتي سمِعْنا أنّها طالت عدداً منّا وإن كُنّا غيرَ متأكّدين حتّى اللحظة ، لكنّنا نعرف ، وأنتَ أوّل العارِفين أنّ النّار لا تُطفأ بالنّار ، والبركان لا يُخمد بإضافة الحمم إليه ، ونحن وأنتَ جدارٌ واحدٌ بُغيتنا أن تعود الأمور إلى نِصابها ، وأظنّ أنّنا لن نُظلَم وأنتَ إلى جِوارِنا!!

هزّ الرّئيس رأسه وزمّ شفتيه ، وبعثَ آهةً عميقةً كأنّ الكلام جرَحه ، وشبكَ بين يديه ، واستعدّ لقول موعظةٍ جديدة ، حينَ أمطره عددٌ غيرُ قليلٍ منّا بوابلٍ من الأسئلة والاعتراضات :

– أنتَ يا دكتور غير واضح ، نحن لم نسمع منكَ ما نريد ، ظللتَ تدور حول الحِمى ولا تقع فيه .

– يا دكتور نحن نرى أنّ قنوات الاتّصال بين الطّلبة والرّئاسة أو العمادة مُغلَقة بِصَبّات إسمنتيّة .

– إنّ نشاطاتنا محكومٌ عليها بالإعدام منذ بداية الفصل الأوّل ، وإنّ هذا التّعمّد في إفشالنا وإفشال أنشطتنا سيقود إلى إفشال الجامعة نفسِها .

– إهمال وجهات نظرنا في إدارة العمل الطّلاّبي ستجرّ الكارثة على الجميع .

كانت السّاعة تُشير إلى الواحدة من ظهر ذلك اليوم الّذي اجتمعنا فيه ، وخلال اللّقاء الّذي استمرّ أكثر من ساعتين أتقنَ الرّئيس في كلّ الإجابات التّهرّب من الإجابة الصّريحة ، وظلّ الباب مفتوحًا على كلّ الاحتمالات الإيجابيّة والسّلبيّة ، وأنهى الاجتِماع بطريقةٍ مُفاجئة ؛ نهضَ عن كرسيّه كمن قفزتْ من تحته ضِفدعة ، ووقف على قدميه مُهندِمًا جاكيتته ، وخرج هو يقول :

– أظنّ أنّ كلّ الأمور باتت واضِحة ، ولا داعي للمُكابرة ، وأعتقد أنّ العودة إلى الرُّشد خيرٌ من التّمادي في الخطأ .

نثر رجليه الاثنتين وهما تقودانه إلى سيّارته المرسيدس الّتي تنتظره خارج الرّئاسة ؛ بدا أنّه مُنطلِقٌ إلى موعدٍ مهمّ ، ومضى غير عابئٍ بذهولنا من طريقته في إنهاء اللّقاء . ثار البركان المكبوت في صدر (نائل) ، لحِقَ بالرّئيس ، وصاح فيه من خلفه :

– هيه . . . هيه . . . (ظلّ الرّئيس ماضِيًا ولم يَدُرْ في ذهنه للحظةٍ أن يكون هو المقصود ، فكرّر نائل) :

– هيه . . . هيه . . . يا اسمك يا ريّس . . . يا باشا . . . يا رشيقَ القَدّ . . . (كان يقول ذلك بغضبٍ واستِهزاء) .

ولحقتُ به كي أهدّئه ، لكنّه لم يكنْ يرى أحدًا منّا ، كانت عيناه الغاضِبتان مُصوّبتَين جهةَ الرّئيس تَرمِيان بِشَرر ، تابَعَه حتّى سبقه قبل أن يدخل إلى سيّارته ، ووقف بكامل جسده الضّخم شديد الأَسْرِ في وجهه ، توقّف الرّئيس حينَ رأى سداً بشريًا يُغطّي عليه كلّ شيء ، صعّدَ النّظر إلى أعلى ليرى وجه هذه العِملاق البشريّ ، ثمّ نكص برأسه إلى الوراء والتفتَ إلينا نحن الّذين وقفْنا عند ذلك الحدّ نُتابع المشهد ، رأيتُ ثغر الرّئيس يفترّ عنِ ابتسامةٍ صفراء اختلطَ بها الغضبُ

بالخوف ، وداری بها حَرَجه من هذا الموقف الشّاده ، ثمّ أراد أن يتجاوز (نائل) ويلجَ إلى السّيارة ، فانزاح (نائل) إلى اليمين مُنقِّلاً خُطوتين جانبِيَّتَين وغطّى الطّريق فلم يعد أمام الرّئيس مجالٌ للحركة ، هتفَ (نائل) بصوتٍ خَشِنٍ يحمل نبرةَ تهديد واضحةً تمامًا في وجه الرّئيس :

– اسمع يا رئيس . . . اسمع يا باشا . . . وصلتْ إليّ أخبار عن نِيّة سيادتك اتّخاذ قرارات بالفصل ضِدّنا ، فهل هذا صحيح؟!

– . . . .!!!

– كلمة واحدة : أقسم بالله لو أنّ هذا الأمر صحيحٌ فسوفَ نقلبُ الجامعةَ على رأسِكَ أنتَ وأجهزتك ، وليكنْ بعدها ما يكون .

ارتجّ جسد الرّئيس ، وهَمْهَمَ بصوتٍ عالٍ ، وكاد يصرخ لولا أنّه كتم صُراخه قبل انفجاره ، مدّ يده اليُمنى لِيُبعدَ (نائل) عن طريقه فظلّ الجدار الواقف أمامه جامِدًا لم يتحرّك قَيْدَ أنْمُلة ، ارتجّ هذه المرّة جسد الرّئيس أكثر ، فندّتْ من (نائل) ضحكةٌ مُجلجِلة ، هجم الحَرَس على (نائل) ففتح لهم الطّريق بكلّ هدوء وثقة ، أمّا الرّئيس فخرجت من فمه كلماتٌ غير مفهومة ، رشح منها صُراخه :

– خذوا اسمه . . . هاتوا اسمه . . . (تقدّم نحوه أحد حَرَسه ودفعه داخل السّيّارة ، وأغلق الباب ، وغادرت السّيارة إلى وِجهةٍ مجهولة) .

(٣٥)
الجَماهيرُ الثّائرةُ كالخيولِ النّافرة
إنْ لَمْ تَملكْ أعنّتَها فَسوفَ تَدوسُكَ

ظلّ العِناد يُزحزِح الصّخرة حتّى وصلتْ حافّة الجُرف ، وقف ثلثُها باتّجاه الهاوية ، وثُلثاها ما زالا مُستقرّين على اليابسة . ليس من قُوّة تُعيد الثّلث الهاوي إلى الثُّلثَين القارّين إلاّ حكمةٌ بالغةٌ تكونُ غايتُها الأولى تدارُك الطّامّة ، إنْ لم يُسرع مَنْ بيده القرار فإنّ الصّخرة ستتحوّل إلى صاعقة تجرف كلّ شيءٍ في طريقها ، وسيؤول حال الجامعة بكلّ مَنْ فيها إلى يوم الفزع الأكبر!!

في الحديقة الخلفيّة ، بدت الأشجار المصفوفة على حوافّها كما لو كانت هياكل بلا أرواح ، أخذت الرّيح تُرقّصها في عتمة الخريف كأنّها أشباحُ جِنٍّ مُخيفة . عزفت تلك الرّيح لحنًا جنائزيًا مُرعبًا ، ثمّ تحوّلتْ إلى زوبعةٍ هادِرة ، ظلّ هديرُها يتباطأ إلى أنْ تكثّفتْ في فناء الحديقة ، كانت الدّوّامة هناك قد حوّلت الأوراق اليابسة والصّفراء إلى حَضرةٍ صوفيّة تدور حول نفسها وهي تنشُد السموّ إلى المَلَكوت الأعلى ، شُجيرات الورد سقطتْ عنها كلّ البَتَلات النّاضرة والألوان الزّاهية ، ولم تصمد أمام الرّيح إلاّ الأشواك . القناة الّتي تحمل الماء ؛ سرّ الحياة لكلّ مفتونٍ بالحياة ، لم تعد تحمل إلاّ اليُبوسة ؛ تشقّقت أرضُها الطّينيّة ، وظهرتْ بعضُ الطّحالب الّتي تحاول أن تتشبّث بآخر رمق فتفجَعها الرّيح باستلاله منها .

عُواء الرّيح جذب إليّ ذئابًا من الصّحارى البعيدة والجِبال العالية وجعلها تتهارَشُ فِيّ ، تمزّقتْ أوصال روحي ، رفعتُها إلى العالي لتسجد بين يديه فترتاح من هذا التّهارُش المُريع ، لكنّها هبطت بعد قليلٍ وهي تتلوّى في جسدي ؛ قال لي بعضُها في سِرّ مَكنون : «العالي لا يقبل إلاّ طيّبًا . أمّا الخبيثون فموطنهم الطّين» . استكنْتُ للنّداء وتركتُ يديّ تنسدلان على جانبيّ ، وركعتُ على رُكَبي ، وخفضتُ رأسي فوق صدري ، وهتفتُ بالعالي : طَهِّرْني!!

فتحتْ (نعيمة) باب بيتها في الثّالثة فجرًا ، وأطلّتْ من خلف الدّفّة وتلفّتتْ يمينًا وشمالاً لكنّها لم ترَ شيئًا ، أغلقت الباب من جديد واختفتْ خلفه . ناديتُها لكنّها لم تسمع . مرّ عليّ اللّيل بطوله والذّئاب تتهارَشُ في روحي ، والبرد يُزجّجُ أطرافي ، وأنا لا حياةَ ولا موت . في الصّباح حينَ أشرقتِ الشّمس تسرّب بعضُ الدّفء إليّ ، استطعتُ أن أُراني وأستعيدَ بعض ما انفقد منّي في اللّيل . خرجتْ (نعيمة) لتتلقّاها (أمّ سعد) على الباب . نهقَ الحمار خارج السّور الشّجريّ ، وصاحت (أمّ سعد) هِيشْ . . . هِيييِيشْ . . . كانت (نعيمة) تحمل الشّربتَين إيّاهما ، بدا أنّ (أمّ سعد) قد أصبحتْ عجوزًا على شفا الهلاك ، كان ظهرها قد ازداد انحناءً ، وما ظَهَرَ من رأسها لم تبق منه شعرةٌ سوداء واحدة ، وانتشرتْ التّجاعيد في وجهها حتّى رسمتْ خطوطًا دلّتْ على أثر يد الدّهر في لوحة العُمر . أمّا (نعيمة) فقد بدتْ هي الأخرى هَرِمةً أكثر ممّا كانت عليه في آخر مرّة رأيتُها . إنّها تأخذ اليوم مكان (أمّ سعد) بالأمس ، و(أمّ سعد) سيأخذ الموت مكانها غدًا . ونحن سنأخذ مكان (نعيمة) ولو بعد حين . دخلتْ (نعيمة) بالشّربتين ، حانت منها التِفاتةٌ إلى اليسار فرأتني مُتلفّعًا بثيابي ،

أجلسُ كراهبٍ في وسط الحديقة ، شهقتْ أوّل الأمر ، ثمّ غذّتْ خُطاها الواثِقة نحوي ، مدّتْ إليّ إحدى الشّربتين ، وقالت لي : اشرب . أدنيتُ الشّربةَ من فمي بيدين مُرتجفتَين ، وشربتُ رويدًا رويدًا حتّى أتيتُ على كلّ ما فيها و(نعيمة) تبتسم . قالت : يبدو أنّك جائع!! هززتُ رأسي دون أن أقول شيئًا ، مسحتُ آثار الحليب عن فمي وأنا أُعيد لها الشّربة . وقفتُ على قَدَميّ من جديد وشعرتُ بأنّني عدتُ إنسانًا .

بعدَ يومين من الحادِثة ، قال لي (نائل) : لقد بحثْنا عنكَ كثيرًا يا رجل أينَ أنت؟! التحقتُ بالاجتِماع المُقرَّر للتّداول في نتائج اللّقاء بالرّئيس ، كانوا كلّهم من الإخوان ، أكثر من ثلاثين طالِبًا إخوانيًا وأكثر من عشرة من المسؤولين الإخوانيّين ، بعضهم من إربد استطعتُ أن أميّز ثلاثة منهم ، والبقيّة يبدو أنّهم جاؤوا من عمّان أو أماكن أخرى . أجلسني (نائل) إلى يمينه في المكان الّذي من المفتَرَض أن أتبوّأه كمسؤول طلاّبي عن بقيّة أعضاء الجمعيّات .

لم يعد من فائدة للاجتِماع إنْ لم تؤخذ فيه قرارات مصيريّة . تبيّن بالدّليل من خلال تسريبات مكتوبة أنّني من ضمن المفصولين وكذلك مجموعة أخرى من الإخوان مثل (نائل) و (كريم العجلوني) و(سراج سلهب) وغيرهم . . . أمّا من اليسار فرشح اسم : (وصفي طلب) . كنّا نحن الخمسة قد قيل إنّ فصلنا هو فصلٌ نهائيّ ، في حينَ أنّ هناك العشرات مِمّن صدر بحقّهم قرار الفصل لسنتين أو سنة أو فصل ، وهناك المئات مِمّن أصابتهم إنذرات نهائيّة ، كلّ هذه القرارات قد وُقع عليها بعد لقائنا بالرّئيس المُبجّل من ثلاثة أيّام .

لم يدم اجتماعنا كثيرًا مع أنّه كان الأضخم والأوسع في تاريخ

اجتماعاتنا المتلاحقة ، والسّبب أنّنا ناقشنا أمرًا واحِدًا وهو اقتراحُ قدّمه (نائل) للضّغط على إدارة الجامعة ألا وهو المظاهرات الحاشِدة . أخذ النّقاش حوله كثيرًا من اللّغط والاتّهام والصّياح :

- يجب أن نقلب الجامعة على رؤوس العمادة والرّئاسة ؛ وقاحتهم وصلتْ حدًّا لا يُمكن التّعامل معه بالحِوار والنّقاش . أمرٌ كهذا يواجه بالمظاهرات والعِصيان . (قال ذلك نائل)

- المظاهرات مرفوضة . (ردّ أحد القياديّين من خارج إربد)

- سوف يدوسوننا ، وهم يفعلون ذلك . اليوم خمسة فصل نهائيّ ، وغدًا عشرة وبعده مئة .

- المظاهرات ليست هي الحلّ .

- بل هي الحلّ الوحيد .

- أنا قلتُ مرفوضة يعني مرفوضة . أنا سَلطي وتعرفون أنّني لن أغيّر رأيي .

- رأيُك رأي فرد واحدٍ وهو على وجاهته لا يستطيع الوقوف في وجه الآراء الّتي تؤيّد المُظاهرات .

- يا شباب . . . المفصولون الآن منكم خمسة ، أتريدون أن يُصبِحوا خمسين مفصولاً ، وخمسينَ مسجونًا . المظاهرات ليستْ رأيًا حكيمًا .

- عدم الدّفع باتّجاه المُظاهرات هو جُبنٌ وخَوَر!! (قال نائل بتحدٍّ)

- ولكنّ هذه ليست شجاعة ، هذا تهوّر . . . وكلّ إنسانٍ يتكلّم عن نفسه . (ردّ القياديّ بغضب) .

- فلنطرح الأمر للتّصويت (قال نائل بهدوء) .

- يجب إعلام المكتب التّنفيذي ، وهو شريك في القرار .

– دَعنا نطرح الأمر للتّصويت مبدئيًا ، وليكنْ من حقّ المكتب التّنفيذي أن يُعيد التّصويت مرّة أخرى . (أجاب نائل بشيءٍ من الهدوء)

وقفتُ رافعًا يدي : أنا موافق . وارتفعت الأيدي المُوافِقة بعدي ، تبيّن بعد العدّ أنّ أكثر من الثّلثين يؤيّد المُظاهرات . خرج القادة الكِبار حائرين ، وبقينا نحن بعدهم ، التفتُّ نحو (نائل) ، كان يبتسم ابتسامة عميقة ، وعيناه تبرُقان بنشوة الانتصار .

بدت الهوّة واسعةً بين رأيِ الشّباب والشّيوخ ، وبدا الانقِسام واضِحًا بين الرّأيَين ، وبدت بعض الوصاية تطلّ برأسها كأفعى تنهشنا بنابِها من حينٍ لآخر ، كُنّا محتاجين إلى قيادة شبابيّة بديلة قادرة على اتّخاذ القرار بسرعة دون التّيه في مسارب الوصايات والتّوصِيات . وشعرتُ بأنّ الأمر يقع على عاتقي ابتِداءً ، فأنا رئيس الجمعيّات غير المُتوّج ، وأدركتُ أنّه لا بُد أن أتولّى هذا الموقع ، وأن أتحرّك ومعي ظهيرٌ قويّ مثل (نائل) ، وأن أوحّد الصّفوف ، وأتقدّم باتّجاه المواجهة ؛ وهتفتُ في سِري : «حينَ يصنع منكَ الحَدَث قائِدًا دون أن تريد عليكَ أن تصبح حينَها قائدًا كما تريد» .

كان يُمكن أنَ يكون رأي الجماعة له قَبولٌ عندَ الشّباب لو أنّهم طرحوا بديلاً عن المُظاهرات يُمكن أن يكون مُقنعًا . ولكنّهم رفضوا المُظاهرات خوفَ النّتائج ولم يُقدّموا حلاً للأزمة الّتي شبّتْ نيرانها في أطراف الطّلاّب ، وأتتْ على كامل إرادتنا نحن ممثّليهم من أعضاء الجمعيّات . صحيحٌ أنّ الحلول تحتاج إلى تفكير ، لكنّها تحتاجُ إلى إرادةٍ لكي تحوّلها من قولٍ مَمجوج إلى فعلٍ مَمدوح .

أبقيتُ على الزّملاء في القاعةٍ ؛ كنتُ أريدهم بدون قياديّين من

الخارج ، استلمتُ دفّة الحديث ، وقلت : علينا أن نُخرج الجامعة عن صمتِها ؛ إمّا أن تُعلِن عن أسماء المفصولين بشكلٍ جليّ ، وإمّا أن تتعهّد تعهُّدًا خطّيًا بعدم فصل أيّ طالب . وبالمُناسبةِ : الأمر يخرج عن السّيطرة ؛ فاليسار مُصمّم على المُظاهرات ، وأعتقد أنّ الصّواب أن نستلم زِمام الأمور قبل أن نفقدها ، نحن الأكثريّة ، وقيادة عمل جماهيريّ كبير نحنُ أحرى به وأجدر ، ويجب التّنسيق مع اليَسار على إنجاح المُظاهرات . وثِقوا بما أقول : الإخوان سوف يستنفِدون صبرنا قبل أن نأخذ الموافقة . الجماهير مثل الخيول العادِية إنْ لم تملك أعِنّتها بيديك كي توجّهها إلى نهاية الغاية ، فسوف تدوسكَ وتدوس سِواك دون أن تعبأ بالواقِفين في طريقها .

لم يكن الكلام ليتوقّف عند أكثرنا من أجل النّقاش حوله . كانت هناك رغبة دفينة في التّحرّك السّريع لإيصال صوتٍ قادرٍ على الفعل والتّغيير في الجامعة :

– توكّلنا على الله (قال نائل) ولكن فكرة التّنسيق مع اليسار لستُ مطمئنًا لها تمامًا ، سوف يظهرون بأنّهم هم صانِعو الاحتجاجات وهم لا يُشكّلون إلاّ جزءًا بسيطًا جِداً من مجموعنا .

– ولكنّ حماستهم للقيام بهذه الاحتِجاجات مثل حماستِنا أو تفوقُها . (أجبتُه)

– إنّهم انتِهازيّون ، يريدون تسجيل المواقف فحسب .

– قد يُريحك أن تقول ما قلت ، ولكن هل تعلم أنّهم يوجّهون لنا الاتّهام نفسه!!

– هُراء . (شو الصّوص وشو مَرْقَتُهْ)!!

– لا تستهِنْ بقدراتهم أرجوك . إذا أردتَ أن ننجح فعلينا أن نعمل

كفريقٍ واحد . الثورات لا تقوم على أشخاص ، بل على أفكار يكون من خلفها أشخاصٌ قادِرون على إبقاء جذوتها مُشتعلة ، وأظنّ أنّ اليسار يُتقن ذلك .

- لا بأس . لم تُقنعني تمامًا . أقنعتني حِكمتك في التّصرّف في الأمور أكثر . لكنّ الأهمّ : أن تبدأ هذه المظاهرات الاحتجاجيّة ، أعتقد أنّ جزءاً من التّاريخ ستكون هي القادرة على كتابته إن انداحت!!

(٣٦)
الحُقوقُ لا تَضِيعُ إلاّ إذا ضَيَّعَها أَصْحابُها

هبط رمضان في هذا العام المشهود يوم الجمعة ١٩٨٦/٥/٩ ، وهو العام الّذي ظلّ في ذاكرة الكثيرين من أبناء هذا الوطن بتداعياته . كان جرحًا نازفًا من قلوبنا ، وأنّةً شجيّة من أعماق أوطاننا ؛ أوطاننا تلك الّتي بكتْ علينا قبل أن نبكي نحنُ عليها ، وحينَ أسرفْنا في حقّها سامحتْنا ، وحين تركناها للغرباء من بعدنا دون أن نودّعها قامت على قدمَين من محبّة وساقَين من حنانٍ وودّعتْنا . إنّها أمّنا الّتي من رَحِمها أتينا ، ومن حليبها غُذينا ، وعلى حِساب راحتها كبُرنا ، ثمّ لّما شببْنا عن الطّوق عَققْناها بالبُعد ، وتنكّرنا لها بالهُجران!!

انطلق ثمانيةٌ منّا إلى (صويلح) في (عمّان) من أجل الاجتِماع بالمسؤول عن تنظيم الإخوان الطّلاّبيّ ، ومندوب المكتب التّنفيذيّ ، كنّا قد لخّصنا وجهة نظرنا في وجوب تنظيم المُظاهرات على أعلى المستويات وبكافّة الطّاقات في الجامعة غضبةً للحقّ الضّائع وطلبًا لعودته ، وهيّأنا أنفُسنا لإقناعه بها بأيّة وسيلة كانت . استقبلنا (أبو عبد الله) في شقّة خاليةٍ من كلّ شيءٍ إلاّ بعضَ الفرشات على الأرض . كان البيت مكوّنًا من غرفتين ، ومدخل يؤدّي إليهما ، ومطبخ تفوح منه روائح الصّدأ والعفونة لطول عهد السّاكنين بدخوله . كانتْ السّرّية عنوان الاجتِماع ، ركبْنا سيّارتَين إلى المنطقة المقصودة ، نزلْنا منهما في حوالي

الخامسة . انتشر صِبيةٌ بملابس قَذِرة يلعبون في الطّرقات ، سمعتُ بعض الشّتائم تحلّ محلّ الأسماء يُنادون بها بعضهم بعضًا ، تثاءَبْتُ وتمطّيتُ بجسدي طردًا للكسل والنُّعاس اللّذَين هبطا عليّ أثناء التّرحال ، وملأتُ رئتيّ من هواءٍ مُنعِش يملأ الأجواء المسائيّة في ذلك الحيّ المُهمَل . كانتْ كلّ سيّارةٍ من السّيارتَين اللّتين ركبناهما قد توقّفتْ بعيدةً عن الأخرى مسافة كافية لبعثرتنا . امتدّتْ أمامنا زاروبة ضيّقة تؤدّي إلى الشّقّة في بيت قديم من الإسمنت مكوّن من طابقَين ، دخلنا هذه الزّاروبة فُرادَى ، وفصلَتْ دقيقة واحدة تقريبًا بين دخول كلّ واحد منّا إليها ، وفي الدّاخل كان عضو المكتب التّنفيذيّ موجودًا قبلنا جميعًا ، تبعنا في الخلف قياديّو (إربد) من الإخوان وكانوا ثلاثة . حينَ انتظم عقدُنا في إحدى الغرفتين على فرشاتٍ إسفنجيّة وبدون مُتّكآت سمعتُ صوتَ أحدهم في المطبخ يبدو أنّه كان يُعِدّ لنا طعام الإفطار في اليوم الرّمضانيّ الأوّل ، كان الشّخص الثّالث عشر في هذه المجموعة ، إنّه الآذِن المُكلّف بفتح هذه الشّقّة وإعدادها لمثل هذه الاجتماعات السّرّيّة ، ومحاضر هذه الاجتماعات تؤول في النّهاية إليه ، ليُوصِلها بدوره إلى المركز العامّ للإخوان حيثُ تُحفَظ في أرشيف أمانة السّرّ . الشّقّة بسيطة إلى أبعد الحدود ، الجُدران بيضاء علاها بعضُ العفن ناتجٌ عن رطوبةٍ تركتْها يدُ الشّتاء خلفها . وعلى الأرض حصيرة من البلاستيك ، وفي الزّوايا يتناثر عددٌ من سجّادات الصّلاة بشكلٍ غير مُنتَظم . وفي إحدى الزّوايا كانت هناك خزانة صغيرة في ثلاثةِ أرفف تحمل عددًا من المصاحف ، وكُتيّبات من (المأثورات) الّتي جمَعَها الإمام حسن البنا . الجالِس هُنا يشعر بلا مِراء أنّ روحًا من البساطة والطّهر تُحلّق في جوّ المكان ، وشيءٌ من السّكينة تلفّ جَنَبات الغرفة .

لأوّل مرّة أرى (أبو عبد الله) بعدَ أن سمعتُ عنه كثيرًا . كان مجرّد ذكر اسمه لإدارة الجامعة لنستضيفه في ندوةٍ أو مُحاضرة يسبّب إشكاليّة كُبرَى ، لم يكنْ من الممكن السّماح له بالقدوم مع أنّنا حاولنا أكثر من عشر مرّات في الأعوام السّابقة لكنّنا لم ننجح . كان مربوعًا في أواخر الأربعينيّات من عمره ، اختلط البياض بسواد لحيته ، وجهه - الّذي يبدو هادئًا ويُخفي ثورةً خلف هذا الهدوء تبدو حينَ يبدأ الخَطابة - كان قَمْحيًّا . دأبَ على أن يلبس كوفيّة بيضاء على رأسه وثوبًا أبيضَ ، وصوتُه كان عميقًا وهادئًا وفيه لثغة في الرّاء تجعلها تتبعثر دون أن تنفجر ، وإذا ضَحِكَ جلجلتْ ضحكته . وكان يُكثِر من قول : (شايِفْ كِيف) فيما يبدو أنّها لازمتْ شخصيّته المُتميِّزة ، وهو قياديّ من طِرازٍ رفيع ، وبعضُ قراراته تبدو بسْطًا لحقيقةٍ مُسلَّم بها ، وللأمانة لم يكنْ يقطع أمرًا دون شورى ، ولكنّه حازِمٌ في تنفيذ ما اتُّفِقَ عليه ، ويتحمّل نتائج ما اتّخذه ولو كان صعبًا أو قاسيًا .

حينَ سُمِح لنا بالحديث ، كنتُ قد هيأتُ أكثر من عشرة أسباب تدعو إلى القيام بالمُظاهرات ، فردتُها شموسًا في رابعة النّهار لا يعمى عنها ذو عينين ولو كانتا رمداوَين . قلت : إنّ عددًا من زملائنا يجري حاليًّا تنفيذ قرارات فصلٍ نهائيّ بحقّهم ، وآخرين وقعتْ عليهم عقوبات مختلفة . ثمّ إنّ المؤتمر الطّلاّبي الّذي حشدْنا له ما استطعنا وكان ناجحًا شكّل مستوىً من الضّغط علينا ألاّ نتراجع عنه ، وألا ننحدر عن ذلك المستوى الّذي هَزّ إدارة الجامعة وربّما جعلها تتوقّف مليًّا قبل أن تُصدر مزيدًا من القرارات المُجحِفة ، والمطلوب الارتِقاء بهذا المستوى من الضّغط لا النّزول عنه ، والنّكوص عن أثره ؛ بل يجب البناء عليه ، ولو أنّ هِمَمنا فترتْ وتراجعتْ عن مستوى مطالب المؤتمر

فسنُتّهم بالموسميّة وبالمِزاجيّة ، بل وأبعد من ذلك سوفَ نُرمَى بالجُبن والخوف ، والمطلوب المحافظة على مستوى الجرأة والقوّة اللّتين ظهرتا في ذلك المؤتمر . ثمّ إنّ اليساريّين والعلمانيّين منذ مطلع الأسبوع الفائت وهم يتفلّتون يريدون القِيام بمظاهرات ومسيرات من أجل الوقوف إلى جانب زملائهم من المفصولين ، ومَنْ هؤلاء الزّملاء المفصولون؟! إنّهم نحنُ ؛ نحن الإخوان ، فإذا كان اليساريّون ينوون التّظاهر من أجلنا فمن المُدهش والمُخجِل ألاّ نتظاهر من أجل أنفسنا بحجّة أنّ الجماعة لم تبتّ في الأمر حتّى الآن!! ثمّ أليس نَفَسُ الرّجال يُحيي الرّجال ؛ إنّنا إذا قرّرنا الدّخول في هذه المُظاهرات فإنّنا سنُعيد إلى إخوتنا الّذين أصابهم الملل والخَور والكَسَلُ الهِمّةَ والعزيمة والإرادة واستعادة الذّات . وهناك أمرُ مهمّ على القِيادة أن تعيه وتتصرّف معه بحِكمة : إنّ أكثر من ٩٠٪ من شباب الإخوان في الجامعة يؤيّد النّزول إلى المظاهرات ، بل إنّ بعضهم أقسم أنّه سيُشارك فيها مع اليساريّين رَضِيَ الإخوان أم لم يرضوا ، وأعتقد أنّ تلكُّؤ الجماعة في اتّخاذ القرار بالموافقة على هذه المُظاهرات سيُحدث فِتنة عند هؤلاء الشّباب المتحمّسين من جهة ، وسيُعطي زَخَمًا لليساريّين في السَّبق والتّنظيم والحشد من جهةٍ أخرى ، وعلى القِيادة أن تتدارك هذا الأمر وتُسرع في احتِوائه قبل أنْ يحدث ما لا يُحمَد عُقباه . وأكاد أجزم أنّ المسيرة الطّلابيّة منذ بداية الفصل الأوّل أي منذ شهر ٩ من العام الفائت قد تشكّلتْ لديها قناعة أنّه لا حلّ مع إدارة الجامعة لإيقاف مجازر قراراتها الظّالمة إلاّ بالضّغط عليها ، ولا ضغط يُمكن أن يؤدّي إلى نتيجة رادِعة إلاّ بالمُظاهرات .

كان (أبو عبد الله) يستمع بإصغاءٍ شديد ، ومن عادته أنّه كان يُضيّق عينيه كلّما أراد التّركيز في كلماتِ مُحدّثه ، وحينَ أنهيتُ رفع

ذقنه ، وقال : لا بأس أريد أن أعرف إذا ما كان أحدٌ من الإخوة يودّ الحديث كذلك ؛ تحدّث (نائل) فقال : إنّ تجربتنا في الجامعة تالِية على تجربة أخينا (وَرْد) ، وله من السّبق في التّنظيم والعمل في هذا المجال ما يُرشّحه لأن يكون قائِدًا حقيقيًا للمُظاهرات في حال الموافقة عليها ، وأنا أطرحه ليتصدّر المشهد الميدانيّ فيها ، ومن باب تكريمه وتكريم تاريخه في كلّيةّ الهندسة بوجهٍ عامّ ، فأنا أريد أن يختم حياته في هذه الجامعة بما يليق بهذا التّاريخ الحافل ، لا أعني هنا موقفًا بطوليًّا ادّعائيًّا كما يُمكن أن يتبادر إلى الذّهن ، بل موقفًا أخلاقيًّا يؤكّد على معدن الإخوان من الثّبات على المبدأ والسّير في الطّريق إلى نهايته مهما كانت هذه الطّريق محفوفةً بالمخاطر والمنزلقات ، وإذا كان لم يبقَ على تخرّجه في الجامعة إلاّ هذه الأيّام المُقبلة علينا ، فأرجو أن تُتوّج مسيرته النّضاليّة بنضالٍ يختم به على قلبِ كلّ متكبّر في الجامعة لا يؤمن بحقوقنا ويعتدي عليها ، وأرى أنّ عطاءه الّذي وصل قمّته يليق بأن يزرعه قمرًا في هذه القمّة ، ولا يكون ذلك إلاّ بالعمل المنظّم الدّقيق لتفجير هذه المُظاهرات ، عملٍ يوقِظ الغافِلين في إدارة الجامعة من غفلتهم ويُصحّيهم على الحقيقةٍ الأزليّة الّتي لا مراء فيها ولا مَحيص عنها : الحقوق لا تضيع إلاّ إذا ضيّعها أصحابُها ، والجرائم لا تسقط بالتّقادم إلاّ إذا سكتتْ عنها الضّحيّة ، ونحن مظلومون ومُطارَدون ومهضومةٌ حقوقنا ؛ فهل من الرّجولة أن نمسح دمنا عن خنجرٍ غُرِسَ في صدرنا ثمّ نُعيدَه إلى قاتِلنا!!

لم أكن أدرك أنّ (نائل) يملك هذا القَدْر من القاموس الشّعوريّ ، وأحسستُ أنّه أوّل مرّة يميل إلى استخدام هذا الأسلوب ، وقد اقتنعتُ أنّه فعلَ هذا ليؤثّر بشكلٍ أكبر في صُنع القرار ، وإن كنتُ أظنّ أنّه بالغَ

في أوصافه ، وضربَ على وتر العاطفة مع أنّه دأبَ على إتقان المواجهة المادّيّة أكثر من إتقانه المناورة العاطفيّة .

ظلّ (أبو عبد الله) يُضيّق عينيه ، ويستمع لنا ، حتّى تحدّثنا جميعًا في الشّأن ذاته . وقفَ بيننا سدٌّ من المعلومات المُسرّبة الخاطِئة . الشّائعات طلقةٌ في صدر القرارات الصّائبة . وما لم تسمع من الشّخص نفسه فعليكَ أن تتوقّف عن إبراز عبقريّتك في إطلاق الأحكام عليه . وإذا أردتَ الصّواب فيجب أن تفتح أذنيك في الاتّجاهات الثّمانية ، وقلبك في الاتّجاهات كلّها ، ثمّ تحكم بعقلٍ مستنير ، وبصيرةٍ نافذة وعزيمة ماضِية .

ظنّت قِيادةُ الإخوان أنّنا ننوي القيام بهذه المُظاهَرات هربًا من الالتزامات الدّراسيّة ، وأنّنا نصرّ عليها خوفًا من حَمْل الموادّ المُسجّلة ، وقيل أيضًا : إنّ الرّؤوس المُشارِكة من الإخوان واليساريّين هم الفاشلِون دراسيًا ، وهذه القناعة نفسها كانت قد تشكّلتْ في عقليّة إدارة الجامعة مِمّا جرّأها في المُضيّ في سياساتها المُجحِفة ، ظانّة أنّ النّسبة الغالِبة من الطّلاّب لا تؤيّد هذه المُظاهرات وتريد الانصِراف إلى دراستها والاهتِمام بشؤونها .

لم يكن ذلك صحيحًا ألبتّة ؛ عددٌ كبيرٌ منّا كان من الخرّيجين الّذين يتوقون إلى لبس (روب) التّخرّج والانطلاق إلى حياةٍ أرحب . وبداية الاحتِجاجات انطلقتْ من كلّيّة الهندسة وطُلاّب الهندسة معروفون بتفوّقهم العلميّ وبانشِغالهم الحثيث بدراستهم . وقد يكون بعضُنا مُقصِّرًا في بعض الواجِبات لكنّ هذا التّقصير ليس له علاقة بنيّة القيام بالمُظاهَرات من عدمها ؛ إذ قد يوجد ذلك في كلّ مجتمع طلاّبي جامعيّ ، وفي كلّ مجتمع بوجهٍ عامّ ، فدائِمًا هناك المُقصّر

والمُبرّز ، ولعلّ بعض التّقصير الدّراسيّ جاء من الانشغال بالهمّ الطّلاّبيّ العامّ ، وهذا يُحسَب للطّالب لا عليه . وبالمُجمل فإنّ الدّافع الرّئيسيّ للاحتجاجات والمطالبة بالمُظاهرات هو رفع الظّلم ، والدّليل أنّها احتِجاجات أكاديميّة صِرفة ، لا تحمل أيّ توجّه سياسيّ ، وإن كان مَنْ قام بها مُؤدلَجون وما ذلك إلاّ لأنّهم طليعيّون!!

كان الآذِن قد انتهى من إعداد طَعام الفَطور . دخل إلى غرفتنا يحمل بين يديه التّمر والماء . وضعه أمامنا وعاد إلى المطبخ ، فيما رفع (أبو عبد الله) يديه وبدأ دعاءً صافيًا رفعْنا من بعده أيدينا ، ونحن نردّد بعد كلّ جملة : آمين . تعالَى نِداءٌ شفيفٌ من المَآذن المزروعة في الحيّ : الله أكبر . مَدَدْنا أيدينا إلى حبّات التّمر سِرّ الطّعام الأوّل الّذي دخل جوف النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وقبل أن نُلقي بها إلى أجوافنا كان الدّعاء المأثور يسبق اللّقمة بالكلمة الّتي هِيَ تَمْرُ الرّوح وغِذاؤه الأوّل كذلك : «ذهبَ الظّمأ وابتلّت العُروق ، . . . .» .

في مسجد (البيك) نشأنا على يد شيخ عوّدَنا أن نكون في المسجد قبل أذان المغرب بنصف ساعة ، نتلو القرآن معًا ، نصفَ جزءٍ بصوتٍ عالٍ ، نشيد جماعيّ كونيّ يحوّلنا إلى طيور ترفرف في عوالم مسحورةٍ غامِضة ، كلمات خالِدات تشكّلتْ على إيقاعها أجسادُنا الغَضّة ، وموسيقى زرعتْ في أرواحِنا نهر الرّضا والحبّ ، ومودّة تتشكّل في الحلقة المُنتَظمة لا نعرف لسرّها كشفًا ، وجَمالاً يلمسه القلب ممّا يُحَسّ ولا يُفسّر . وحينَ نقوم للصّلاة معًا تقوم إلى جانِبنا الحياةُ الآخرة لتقول لنا : اعبروا هذا الطّريق بالصّوم والصّلاة لتصلوا إليّ سالِمين . لم أكن أحسّ معنى السّلامة إلاّ في ذلك المشهد الطّفوليّ الجماعيّ السّاحر . اليوم بعد أنْ كبرنا وكبرتْ معنا آثامُنا ، وتشعبّتْ ذنوبُنا : هل

ما زلنا نسير في الطّريق ذاتها لكي نصل سالِمين!!

صلّينا في الشّقة وراء (أبو عبد الله) ، انتظمْنا في صفّين خلفه ، أطال السّجود ؛ كان تذلُّلنا فيه رِفعة ، وخضوعنا فيه عِزة ، وانكسارنا فيه أنَفَة . وحينَ استوينا في الجلوس أحسسنا أنّ جبلاً من الّذنوب قد انزاح ، وأنّ الأكتاف كانت أخفّ ما يُمكن ، وأنّ الأثقال تركْناها في الطّين ، وأنّ الأرواح زرعناها في السّماء .

قامَ عددٌ مِنّا لكي يُساعِد في إعداد المائدة . رائحة العَدَس كانت قد ملأتِ الأجواء ، طنجرة كبيرة استقرّتْ فوق الغاز ذي العيون الثّلاث المُمدّد فوق صفّ يرتفع مترًا من الطّوب ، ملأنا الصّحون البلاستيكيّة ذات الألوان المتعدّدة بالطّعام وعُدنا بها إلى الغرفة . جلسنا في حلقةٍ واسعة بعد أن بسطْنا عددًا من الجرائد القديمة تحت الصّحون ، وبملاعق غلبَ سوادُها بياضَها رُحنا نتناول طعامنا بشهيّة واضِحة .

(٣٧)
سَتَطْلُعُ الأزهارُ
في ضَوْءِ الشُّموسِ القادِمَةْ

لا يُوجَد مثل هذا الجمال إلاّ فيها . يُباغِتك مثل ليلٍ داج سطعتْ في عينيه شمسٌ رابعة . لها عِطرُ الأوّلين والآخِرين . وبدءُ القول ومُختتم الفنّ ، وفي جسدها تتثنّى المُنعطَفات لتزيد من شهوة اللّقاء وحرارة القُبل المحمومة ؛ القُبل الّتي تطوف جسدًا لا ينتهي فيه انثناء إلاّ ليبدأ فيه من جديد . هي شجرة الغِواية ، وجنّة المأوى ، وظِلّ السّدرة ؛ تمدّ غُصنًا من أغصانها يدًا حانِية ، تأخذك إلى ظلّ ظليل .

الخيول المَشكومة لا تعرف النّصر ولا تصنعه . النّصر يحتاج إلى جموح ، إلى حرّيّة تسبق اللّحظة ، إلى لُجُم مُقطّعة وسُرُج سابِحة ، لا إلى قوائم مَعقورة وعيون مُطفأة . كانتْ خيولي تضبَح في المدى الأزليّ وتسبح في الأفق الأبديّ ، جائعةً إلى المُنتَهى ، مادّةً أعرافها إلى الأعراف حيثُ منازل التّائقين ، ومدارج السّالكين ، ومأوى الحالمِين!!

مُصابٌ أنا بها ؛ داءٌ لا يُرجَى له بُرء ، ولا يُؤمّل منه شِفاء . أن تُصاب بحبيبةٍ أفدحُ من أن تُصاب بموتٍ أو انقِطاع وترٍ في لحن القلب ، وأنْ تُشفَى منها أبعدُ من أن يُشفى الآثِمون من (هَيْتَ لَك) أمام الشّهوة الطّاغية . تَعلَقُ بكَ عُلوق الطّيب بسابلة الثوب ، والشّذى ببياض

الياسمين . لها حرارةُ العشق ومرارة التّوق مثل فَتق يُخبر عن حياة في بلد ميّت ، وجودُها فِيّ قنبلة قابلةٌ للانشطار في كلّ لحظة ، وحريقٌ لا يُدركُ معنى الاشتِعال ولا يدري كُنه الانطِفاء!!

مُبارَكة هي في السّماوات وفي الأرض . لها جَمالٌ ما رآه أحدٌ إلاّ سلبَه العقل والوقار والوجود ، أخذ هذا الجمال الإلهيّ من قلوب الرّائين جزءاً أثيرًا واحتازه لنفسه ، ففيها مجمع القلوب ، والتِقاء العاشِقين ، وهي مهوى الدّائخين بحبّها ، المأخوذين بسِحرها ، الواقعين في حِبالها . كلّ قلوب البشر في هواها : (قَطاةٌ عزّها شَرَكٌ فباتتْ تُغالِبهُ وقد عَلِقَ الجَناحُ) .

كلّ شيءٍ يقودني إليها ؛ الذّكريات الّتي أحاول أن أغلّفها بورق النّسيان ، الأمكنة الّتي أهرب منها لأجد أنّها فِيّ وليستْ خارج ذاتي المُنكسرة ، وكلّما حاولتُ الهروب من جهةٍ وَجدْتُني أمامها في الجهة الأخرى ؛ فهي كلّ الجهات المُحيطات بالوجود الحُلو والمُرّ في آنٍ معًا . اللّيالي الّتي قضيتُ أوجاعها وأنا أحلم بالخلاص ، وهيهات هيهات . الكتاب الّذي تعلّمتُ تبجيله في مرحلة النّضج العاطفيّ يرسُمك في كلّ صفحةٍ ، ويوقِفك تمثالاً من الوَلَه في كلّ جُملة . الشّارع الّذي رميتُ منازلهُ خلفي لكي أُشفى من الحنين فزادني إليكِ حنينًا وبكِ وجعًا وفيكِ انفطارًا .

بلادُنا الّتي تسير نحو الموت بخُطًا واثقة ؛ تعرف ذلك؟! أولئك الّذين يجرّونها بحبالٍ من مسدٍ إلى الحافّة ومن هناك يُلقونها إلى الوادي السّحيق ؛ نعرفُ ذلك؟! أيّ ألم يا بلادي أشدّ من أن نعبدَ قاتِليكِ ، ونسبّح بحمد ذابِحيك ، ونطوف حول جلاّديك . . .؟! أيّ طاقةٍ تلك الّتي نستطيع أن نحملها في أرواحنا ونحن نراك تُساقين إلى

البيع في سوق النّخاسة لحمًا معروضًا في الطّرقات هيّنًا على البائعين والشّارين ثمّ لا نفعل شيئًا . نرى ونفقد القدرة على الحركة . تُذبحين أمامنا ولا نجيد غير أن نراقب أقدامنا من أن يمسّها دمك الّذي سال حتّى ملأ الشِّعابَ والأودية!!

يا أيّها المَوتُ الّذي مَلأ الدّروبَ القاتمَةْ ؛ خَنقَ البلابلَ . . . أيقظَ كُلَّ حِقد . . . هيَّأ السّكّين . . . غاصَتْ في العُيونِ الحالمةْ . سَرَقَ الأمانيْ . . . أشعلَ النّيرانَ . . . داسَ الوَرْدَ . . . عَسكرَ بالحُشودِ الظّالمَةْ : مَهلاً ففيكَ حَبيبتي سيقتْ لليلكَ راغمَةْ . هي رَحْمتي وعليكَ لعنتُها غدًا . . . ودمُ الّذين قَضَوا لها وَوفَّوا نَذْرَهُمْ ألاّ تَمسّ نقاءَها تلكَ الأيادي الآثمَةْ . مَهما استبدَّ الظّلمُ واشْتدَّ الظّلامُ سَيُولَدُ الفَجْرُ الجَميلُ ، وَتَطْلُعُ الأزهارُ في ضَوْءِ الشُّموسِ القادمَةْ .

نحنُ نصنع التّاريخ ، أم التّاريخ يصنعنا ؛ وهل هو الّذي يوجّه أفعالَنا لتصبح جزءاً منه دون أن نكون قد خطّطْنا لها ، أم نحن نُعدّ كلّ شيءٍ ونقول له : افتح صفحة صدرك ومُدّ يدك إلى دواةِ قلبك واكتبْ ما نفعل ؛ فإنّنا نفعل التّاريخ!! كان اجتماعُنا الأخير قد أعقبه انتظارٌ لصدور القرار يُشبه انتظار سجينٍ لحُكم يقضي بالبراءة التّامّة أو بالإعدام الزّؤام . لم يكنْ هناك من حلٍّ وسطٍ ؛ فالحلّ الوسط يكون مُمكنًا حينَ يتعلّق بالأفراد لا الجماعات ، وبالمجموعة لا بالجماهير ؛ وحينَ تضع الجماهير بين يديك أمانة أن تُدافَع عن وُجودها المُهدّد بالعدم ، وحقوقها المُهدّدة بالسّحق ؛ حينئذٍ تخرج رغبتك عنك لتُصبح رغبةً عامّة ، وتقف متجرّدًا من نفسك لتُذعِن لإرادة النّفوس التّوّاقة إلى أن تعيش عزيزةً غير مُضطرّة لأن تدفن رؤوسها في الرّمال!!

هل كُنّا مُقتنعين بما نحن مُقدِمون عليه؟! هل فعلنا ما فعلنا

اضطِرارًا أم اختِيارًا؟! مَنْ يدفع باتّجاه الآخر : اضطِرار الفرد أم اختيار المجموع؟! كيفَ يُصبح المشهد الواحد حياةً وموتًا معًا ، وحُبًّا وبُغضًا في آنٍ واحد ، ودِفاعًا وهجومًا في اللّحظة ذاتِها ؛ أكنّا ونحن مُندفعون إلى اليوم الّذي نرى فيه الخَلاص ويرى فيه غيرُنا الفناء : أكنّا نموتُ أم نحيا ، ونحبّ بلادَنا أم نبغضُها ، وندافعُ عنها أم نرميها في مقتلٍ ، ونُصيبها في نَحر؟! مَنْ يُقرّر الحقيقة : الواقف على ضفّة النّهر الّذي يجري فيه الحقّ هنا أم الواقف هناك على الضّفّة الأخرى ؛ كلاهما يقول : أنا . على امتداد هذا النّهر العظيم لم أجد مَنْ يقول : أنتَ ، ولا حتّى الأولِياء ؛ كلّهم قالوا : أنا أو نحن . وبين الأنا والنّحن تضيع الحقيقة المنشودة ، ولكنّ نهر الحقّ يظلّ سائرًا إلى مُنتهاه لا يعبأ بادّعاءات الواقفين على ضِفّتَيه!!

اتّصلتُ بأمّي من إحدى المكتبات في شارع الجامعة ، جاءني صوتُها على الطّرف الآخر واهِنًا ؛ أعرف أنّ غِياب أخي فعل كلّ ذلك ، كان غِيابُه قد نثر ظِلالاً من الحُزن والهُدوء على البيت . ظلّ غِيابُه يمدّ شجرة المودّة في قلب أمّي ويجذّرها ويُثمّرها ، ويجعل بَوْحها فَوْحًا عاطِرًا ، لم يكُنْ يظهر إلاّ مثل نجوم غائرةٍ في مهوى السّماء السّابِعة كشف الله عنها الحِجاب في سماواتٍ ستٍّ ، أو مدّ من نورِها إلى الأرضين ليكون هذا النّور دليلاً على بهائها وسُموّها . قالت لي : لم أرَ أخاك من عشرة شهور ، هل عندكَ أخبارٌ عنه؟! أجبتُها بغصّةٍ دفينة : لا ، ولكن ألم تريه أنتِ حينَ كنتِ تسقين شجرة الياسمين ذاتَ فجر . شهقتْ بالبكاء ، مدّ شهيقُها خنجرًا إلى صدري فانغرس فيه . قالت : لقد كان حُلمًا ، فأجبتُها : لقد رأيتُه كذلك!!

حينَ عُدتُ إلى نفسي بعد المكالمة ازدادت بئر الأحزان عندي

ماءً ، كنتُ أهاتفها من أجل أن أقول لها : إنّنا ذاهبون إلى هناك ؛ حيثُ يأكُلنا (هناك) ، ولا ندري أنعود منه أم لا نعود؟! كنتُ أريد أن أقول إنّ دعواتِها ستلفُّنا بالأمان أنا وزُملائي ، وتُبعِد عنّا الخوف والرّهبة ، وتُوقفنا على درب اليقين بعد أن نهشتْنا أنياب التّردّد . لكِ الله يا أمّي : غيابان ؛ أخي في الجِبال يحمل البندقيّة ، وأنا في السّهوب أحمل الكِتاب ؛ فَـ (هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً)؟!

شتّانَ بَينَ القابِضينَ على الزّناد الذّاهبينَ إلى الجِبالْ . . والنّائمينَ عَلى الأرائك يَقْـرَؤُونَ الورْد فِي فَيْءِ الظِّلالْ . . . بينَ الّذينَ تعفّرتْ جَبَهاتُهمْ يَحنُونَ أصلابًا على الأَهْوالِ مِنْ هَوْلِ القتالْ . . . وَأُولئكَ الماضينَ بِالكُتُبِ الثِّقالْ . . . السَّيفُ يَحْمِي أُمَّةً ، والعِلْمُ يَبْني مَجْدَها ، والأُمَّةُ الغَرّاءُ تُبْنَى ثمّ تُحمَى ، لا بِناءَ يقومُ مِنْ غَيرْ اكْتمالْ . فَمَنِ الرّجالُ إذا تَلاقَى الجَمْعُ فِي رَهَجِ النِّضالِ مَنِ الرّجالْ؟!!

تفرّقْنا إلى البيوت . عدتُ إلى البيت الأكثر جدلاً وبهجةً . حيثُ الأفكار تتمدّد على جانبيه في وِفاق يبدو حقيقيًا . كان عليّ أنا (وسِراج) أن ندخل خِفيةً لنهرب من الأسئلة المتلاحِقة الّتي يرمي إلينا بها (وصفي) و(نعمان) و(سالم) عمّا تمخّض عنه اجتماعُنا التّاريخيّ في (صويلح) . هل هناك من حركة قادمة قادرة على أن تُغيّر شيئًا أم أنّكم ستكتفون بالتّقليديّات الّتي ذَبحتْنا وأجهزتْ على إرادتِنا ، كان هذا ما يدور في خَلَد هؤلاء الرّفاق وإن لم يقولوه ؛ أعرف ذلك لطول عِشرة ، وهم على حقّ ؛ اليوم : إرادة الطّلاّب تكون نافذة إذا كانت مجتمعةً متّحدة ، وإنْ أصابها بعضُ الاختِراق فسيسهل القضاء عليها أو التّسلّل لتخريبها .

في الطّريق من (مجمّع الشّيخ خليل) إلى البيت ، قطعنا الطّريق

أنا و(سِراج) مشيًا على الأقدام ، كان الوقت ليلاً لا يسمح بركوب السّرفيس ، إضافةً إلى أنّ خمسة قروش تدفعُها إلى سائق السّرفيس كان يُمكننا أن نشتري بها سندويتشة فلافل لكلّ واحد منّا يجعل منها سَحوره ، وهذا ما فعلْنا . خمسَ عشرةَ دقيقةً تقريبًا فَصلتْنا عن الوصول إلى البيت ، كنّا نأكل ونتحدّث ؛ قلت لسراج : هل كلّ الشّباب مُقتنعون بالقِيام بالمُظاهرات ؛ أخشى ما أخشاه أن يحدث الإكراه فيجلب بعده النّدم!! قال لي : أنا شخصيًا لستُ مقتنعًا مئةً بالمئة ، ولكنّنا تربَّيْنا على السّمع والطّاعة إذا كان إجماع الإخوة على ذلك . قلت له : قضيّة السّمع والطّاعة هذه بالذّات أقف أمامها مُحتارًا ؛ لماذا نتعامل بها كأنّها نصٌّ مُقدّسٌ يُعدّ الخروج عليه جريمة ، وعدم الامتثال له خِيانة!! يا أخي ألا يُمكن أن يكون هناك حرّيّة في المُخالَفة حتّى ولو كان رأي الأكثريّة على غير ذلك؟! قال لي : ولكنّ ذلك سيشقّ الصّفّ كما تعلم؟! فأجبتُه : الصّفّ سيُشقّ أكثر إذا أقدمَ الأخ على عملٍ وهو غير مقتنع به ولا راضٍ عنه ؛ هنا ستكون النّتائج كارثيّة . أجاب : حينئذٍ نوزّع الخسارة على المجموع فيقلّ أثرها . أنا مع فكرة السّمع والطّاعة ، وخاصّة بعد أن يكون الأمر قد أخذ كلّ أبعاده من نِقاشٍ واستفاضتْ فيه الآراء .

مرّ ليلٌ آخر ، بطيء الكواكب ، حيران النّجوم ، بُدّل به ليلٌ سِواه ، ينوء بكلكل ، ويتمطّى بصُلبٍ . كنتُ قد هجعتُ هجعةَ الموت حينَ يكون حُلُمًا ؛ موتُ المنام العميق ، سمعتُ طرقًا شديدًا على الباب فقمتُ فَزِعًا ، لم أبلع ريقي بعدُ من هول الصّوت واكتِشاف أنّه قادمٌ من الباب الخارجيّ حتّى عادَ الطّرق بأشدّ من سابقه لدرجة أنّه خُيّل إليّ أنّ الباب سوف ينخلع بين يدَي طارِقه ، هُرعتُ إلى هُناك ، فتحتُ

النّافذة الصّغيرة الّتي تعلوه ، ونظرتُ من طَرَفها ، فبدا لي (نائل) بكامل شبَحه الضّخم ، قال بسرعة : افتح يا وَرْد . . . افتح يا رجل . فتحتُ الباب هَلِعًا ، واستقبلني بالأحضان ، وهو يصرخ من الفرح : لقد وافقت الجماعة على المظاهرات . . . لقد وافقتْ . . .!!!!!!

(٣٨)
مِفتاحُ الثّورة كلمةٌ

إنّه صباح الثّورة ؛ الثّورة الّتي وُلِدت فكرةً في الرؤوس ، ثمّ أثمرتْ في القلوب ، ثمّ أشعلت النّار في الدّروب ، ثمّ زجّتْ بالأجساد في الصّراطَين : الجنّة والجحيم!! الآن في هذا الصّباح الثّوريّ الاستثنائيّ : مَنْ يصنعها؟! مَنْ يقودُها؟! مَنْ يضبطُ مسارها؟! ومَنْ يأمَنُ انفجارها؟!

تغيّر وجه الجامعة ، لم يعد الشّال المُنسدِل على كتفيها الوادِعَين أبيض ، ولم تبتسم لنا ونحن ندخلها مع الطّيور في البكور ، ولم تفتح لنا ذراعَيها مُرحّبة ونحن نهمّ بالوفود إليها من قُرانا وأحيائنا إلى جهاتها الأربع ؛ شيءٌ ما لوّثَ طُهرها ؛ كان هناك رمادٌ حارٌّ في الأجواء يذرّ الضّيق في النّفوس ، وعُبوسٌ قاتمٌ يجثم على الصّدور . . . ما الّذي يحدث؟! ما الّذي سيحدث؟! من أينَ لنا أن نعيد ابتسامةً سُرقتْ وبِشارةً خُطِفت؟! وهل يعود الماء إلى القِرَب بعد أن يكون قد انداح في ثنايا الثّرى؟!!

اجتمعتُ في الثّامنة صباحًا في الكافتيريا مع القِيادة المُصغّرة للتّنظيم : أنا ونائل أبو صبحة وكريم العجلوني وسراج سلهب وصالح جرادات . ومن ورائنا مجلس قيادة أكبر وأوسع يضمّ حوالي أربعينَ من الإخوان ، الأربعون إخوانيًا كُنتُ قد وزّعتُهم إلى مجموعتَين كذلك : عشرين لمجلس الإسناد ، والعشرين الباقين لمجلس المواجهة . كان على

مجموعة الإسناد أن تُراقب المُظاهرات ، وتُشرف على إدرتها وتوجيهها من بُعد ؛ وهي مجموعة سرّيّة حرصتُ على ألاّ يكون أيٌّ من أفرادها ظاهرًا للعلن مهما كلّف الثّمن إلاّ ما خرج عن السّيطرة ؛ وشدّدتُ على هذا الأمر ، وقلتُ لهم : أنا أقدّر مستوى الانكِشاف ، إذا ما تمّ لواحدٍ منكم – لا سمح الله – فعليّ أن أستبدل به سِواه ؛ من انكشف عليه أن يتحوّل إلى جمهور المُحتجّين ، أنتم الحديقة الخلفيّة الّتي تُغذّينا في المقدّمة . أمّا مجموعة المواجهة فكان عليها أن تقوم بالإدارة الميدانيّة فضلاً عن قِيادة الجماهير . وزّعتُ الأدوار على مجموعة المواجهة : أنا لإعطاء الأوامر وإلقاء البيانات والبتّ في الإشكاليّات بعد التّشاور ، (كريم) لإلقاء القصائد ، (نائل) و(صالح) للهتافات ، (سِراج) للمنصّة : وهو ضابط المكان ومسيرة المظاهرات والسّمّاعة والوقت . والآخرون لمراقبة التّحرّكات الجماهيريّة وتنظيم الحشود . لا أريد أيّة أخطاء (هتفتُ في اللّيلة السّابقة في الأربعين) الأخطاء قاتلة ، ولا تغتفر ، وقد توجّه إلينا الطّعنة النّافذة . وشعاراتنا أكاديميّة بحتة : لسنا في مواجهةٍ مع الدّولة ولا مع النِّظام . نحن في مواجهةٍ مع إدارة الجامعة ؛ مع الظّلمِ ؛ نقف في وجهه إلى أن يزول . ولا مكانَ بيننا لمُرجِف ؛ ولا لمُسوِّف ، ولا لمُخلِف . إنْ مضينا في الطّريق فلا التِفات إلى الوراء ، وأمرنا إلى الله ؛ لم تكنْ أهدافنا يومًا خلفنا ولن تكون!!

تماثلتُ للموقف المشهود : إنّها الدّرب النّازفة ولا خيار ، وإنّها الأمانة الثّقيلة ولا فِرار ، وإنّها الوقفة الثّابتة ولا انكِسار ؛ وكان قدرُنا أن نمضي معًا ونصنع التّاريخ معًا ونذوق الويلاتِ معًا!!

مدّت الأجهزة الأمنيّة يدها إلى كلّ شيء ، وضعتْ إحدى هذه الأيادي الطّويلة والكثيرة على فم الرّئيس ، قالت له : لا تنبس ببنتِ

شفة حتّى نأذن لك ، وكانت علامة الإذن بالحديث هو أن ترفع تلك اليد عن الفم وتمدّ له باليد الأخرى ورقةً ليقرأ منها ما تقوله هي على أنّه يقوله هو ؛ وربطتْ رجليه إلى كُرسيّه الوثير وراحتْ تدور به حول نفسه حتّى أفقدتُه التّوازن . . . وهكذا تغوّلت الأجهزة على قرار الجامعة ، وظهر الرّئيس ضعيفًا في الأيّام الحاسِمة ، وموقفه لا يسرّ عدوًا ، ومرتبكًا ومُتذبذبًا وبائسًا!!

التّاسعة صباحًا من يوم الأحد ١١/ ٥/ ١٩٨٦ الثّالث من رمضان بتوقيت الثّورات القادرات على انتزاع الاعتراف من التّاريخ بالكينونة ؛ وليس ذلك لثورةٍ إلاّ لتلك الّتي تُشبهنا في ذلك اليوم الاستثنائيّ المُذهِل ؛ نحن المُنتمين إلى أنفسنا وحقوقنا ، المزروعين في أوطاننا ، القادمين من كرامتنا ، والذّاهبين إلى حرّيّتنا دون أن نسأل عن ثمن ذلك مهما كان مُكلِّفًا!!

البلاغات التّنظيميّة كان قد وصلتْ إلى كوادر الإخوان كافّة : (لقد قرّرنا المشاركة في المظاهرات الاحتجاجيّة في جامعة اليرموك ، على الإخوة جميعًا المشاركة فيها ، ولا يتخلّفنّ أحدٌ)!! هذا ما حدث ؛ في العاشرة إلاّ ربعًا كُنّا خمسينَ إخوانيًا نتجمّع أمام المبنى الجديد (مج) ، مجلس المواجهة كاملاً إضافةً إلى أفراد آخرين من الإخوان ، وعددٍ من قيادات الشّيوعيّين الّذين صنعوا معنا ذلك المجد ذات تاريخ .

مفتاح الثّورة كلمةٌ ؛ وتصنع النّصرَ كلمةٌ : (العدوُّ مِن أمامكم والبحرُ مِن ورائكم) ، وأوّل الرّسالة كلمةٌ : (اقرأ) ، وأوّل الرّحمة كلمةٌ : (كُونِي بَرْدًا وسلامًا) ، وأعظم العذاب كلمةٌ : (اخْسَؤُوا فِيها ولا تُكَلِّمُونِ) ، وأشدّ الحسرة كلمةٌ : (سلامٌ عليكَ . . . سلامٌ لا لِقاءَ بعده) ، وتهوي بالعالين الرّاتعين في نعيمهم كلمةٌ : (اهبِطُوا مِنها جَميعًا) ، وتُطيحُ بالأصنام

كلمة : (وَقُلْ جاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الباطِلُ إِنَّ الباطِلَ كانَ زَهُوقًا) ، وتُوطِّدُ أركانَ الدّولة كلمةٌ : (إنّي لأرى رؤوسًا قد أينعتْ) ، وتفكّ أسْرَ العاني كلمةٌ : (اذهبوا فأنتم الطّلقاء) ، وتنفذُ كالسّهم إلى الرّوح كلمةٌ : (أشدّ عليهم من وَقْع النّبل) ، وتصنع الوجودَ من العدم كلمةٌ : (كُنْ فَيَكُونُ) . إنّها الكلمة ؛ وإنّها الثّورة ، وإنّها نحن نُشكّل حروفها على وهج الحقّ فيُولّي الباطل ، وعلى فَيْء العدل فينحسر الظّلم!!

بدأها (كريم) ، هتفَ بصوته القويّ :

وَحِّدْ صَفَّكْ . . . وَحِّدْ صَفَّكْ بِالعالي سَمِّعْني كَفَّكْ

وَحِّدْ صَفَّكْ . . . وَحِّدْ صَفَّكْ بِالعالي سَمِّعْني كَفَّكْ

وكأنّ القطا شاقَها الوردُ إلى الماء ، ما إنْ سمعتْ بهذا النّداء البسيط العميق حتّى تجمّعتْ أسرابًا أسرابًا ، والتفّتْ حول ساقية المكان جماعاتٍ جماعاتٍ . كُنّا خمسين فصرنا خمسمئة في أقلّ من ربع ساعة ، التفّوا حولنا ، كانت الأجواء مشحونة ، وصدور الطّلاّب تغلي ، وشعورٌ في الدّاخل بالذّات يتعاظم ، وشعورٌ آخرُ بقدرة هذه الذّات على تحقيق ما تصبو إليه يتنامَى ، عبّرْنا عنه في ذلك اليوم بالكلمات الّتي تملأ الفم ، وتنطلق كالأعاصير في الأجواء .

أخذتُ السّمّاعة ، وألقيتُ كلمةً أعلنتُ فيها أنّ احتجاجاتنا ستتواصل حتّى يتمّ تحقيق مطالبنا ، كانت حتّى تلك اللحظة تتلخّص في أمرين : إعادة المفصولين من الطّلاّب بعد أن صار لدينا شبه يقين بأنّ أعدادهم بالعَشَرات ، وإلغاء رسوم التّدريب الصّيفيّ كاملةً سواءً أكانت على الجدد أم القدامى . وبيّنتُ أنّ وقوف الطّلبة إلى جانب زملائهم المتضرّرين سوف يشدّ من أَزْر الكتلة الطّلابيّة كلّها ، وسيحقّق ما عجزنا عن تحقيقه بالحِوارات العقيمة .

كان موظّفو عمادة الشّؤون والمُخابرات يُحيطون بالمكان ، انزرعوا كالأشجار العقيمة في كلّ زاويةٍ ، وبدا كأنّنا ذاهِبون إلى مواجهةٍ لا يُمكن الإمساك بزمام السّيطرة عليها ، وضعوا أياديهم على أوساطهم ، وراحوا يرمقون الحشود بنظرات كُره عميقة ، وكأنّ هذه الحشود قامت من أجل فنائهم مع أنّها لم تقم إلاّ من أجل فناء الظُّلم ؛ أفكانوا هم الظّلم ذاته!! وحين كانت الأعداد تتزايد بشكل لوغاريتميّ لم نكنْ نُفكّر للحظةٍ أنّنا بذلك نواجه أشخاصًا أو قلوبًا ؛ كُنّا فِكرة ؛ الفكرةُ تُواجِه الفِكرةً ؛ فكرةٌ صالحةٌ تقف إلى جانب الحقّ تُحارِب فكرةً فاسدةً تقف إلى جانب الباطل . أليس فصْلُنا – ونحن على أبواب التخرّج – من جامعتنا باطِلاً!! أليس رفْعُ الرسوم على جيبةٍ مهترئة لطالبٍ قادمٍ من تحت زيتونةٍ لم تُثمر هذا العام ، أو من بين رُكام الفقرِ باطِلاً!! بلى ، وألف بلى . ألا يُوجد وسائل أخرى لإشباع نَهَم السّلطة غير جيوبنا؟!! ألا يُوجَد مَركوبًا آخر لتمتطيه السّلطة العَفِنة غير ظهورنا؟!!

هتف (كريم) من جديد :

مِينْ بعدكْ . . مين بعـدكْ إذا تَمِّ اليُومْ فَصْـلَكْ
حَصِّلْ حقّكْ حصِّلْ حقَّكْ اليرموكيّ صاروا عِـزَّكْ

وكانت القلوب تهتزّ في الأعماق ، فَمَنْ على الحقيقة بعد زميلك المفصول من الجامعة إلاّ أنت ، فإنْ لم تقم اليوم لتوقِف الحبل الّذي التفّ على أعناق رفقائك في الدّرب فإنّه سيلتفّ على عنقك أنتَ ولو بعدَ حين . وأيّ تحصيلٍ للحقوق يتمّ إن كنتَ تجلس في مراتب المتفرّجين؟! لا يتقدّم الحقّ إلى صاحبه إلاّ إذا تقدّم إليه صاحبُه بالسّيف والرّمح والقرطاس!!

هاجت الجماهير ، ومادت الجموع ، وبدا أنّ طوفانًا بشريًّا أخذَ

بالتّمدّد على غفلةٍ من حسابات السّلطة . السّلطة الّتي تعتقد أنّها تحتكر الحقيقة ، الحقيقة الّتي غالبًا ما تكرهها . وما بين السّلطة والحقيقة تنفتق إرادة الشّعوب في المنتصف ، وعلى جانبيها نصرٌ في الميمنة ، وهزيمةٌ في الميسرة ، ولا تُطوَى الأرض إلى أحد الجانبَين إلاّ بالتّضحيات ؛ والتّضحيات منذ أن وُجِدَت عَقدتْ حِلفًا أبديًّا مع النّصر!!

تضخّم العدد إلى ما يُقارب ثلاثة آلاف طالب ، مِمّا يعني أنّ طالبًا من كل أربعة طلاّب في الجامعة قد انساح في هذا الخِضمّ الهادر . لم يُمهلنا (كريم) كثيرًا لنلتقط أنفاسنا ، كان ضابط الإيقاع الأبرز في اللعب بالقلوب ، وتهييج النّفوس ، رفع صوته عالِيًا هذه المرّة :

وَحِّدْ صَفَّكْ . . . وَحِّدْ صَفَّكْ بِالعالي سَمِّعْني كَفَّكْ

وَحِّدْ صَفَّكْ . . . وَحِّدْ صَفَّكْ يا (بَدرانْ) وَحِّدْ رَبَّكْ

ومع المقطع الأخير كانت الحناجر تلتهب ، وكأنّ زيتًا من غضب صُبّ على كومة من حطب ، ثمّ رمت الكلماتُ إليها بالوَقدة فاشتعلت النّيران في كلّ الجهات . من عجائب السّلطة أنّها تُشعل النّار بسياساتها الحمقاء ثمّ ترفع الهراوات في وجهها لإطفائها ، وما علمت أنّ النّار تُسارع إلى هذه الهراوات فتلتقمها ، فتزداد ضراوةً ، وأنّى لها حينئذ من وسيلةٍ لإطفائها ، ولو صُبّت فوقها كلّ مياه الكون!!

سِرْنا كما سارَ بحرٌ إلى صحراء ؛ نبتلع كلّ شيءٍ في طريقنا ولكنّنا مع ذلك نُحييه ، بسطْنا أجنحتنا في الطرّيق الممتدّة من المبنى الجديد إلى الرّئاسة جنوبًا ، وفي الدّرب الّتي كانت مُوحشة عادت لتمتلئ أُنسًا . . . انضمّ إلينا الكثيرون ، بدأنا نشعر بثقة لا حدّ لها ، وازدادت قناعةٌ غامضةٌ فينا أنّ الدّروب العصيّة لا تلبث أنْ تنفتح أبوابها المُغلقة

على الفضاء الرّحب . وتكثّفتْ فِيّ - على الأقلّ - مشاعر مُبهَمة فيها خليطٌ من المسؤوليّة عن نتائج ما نقوم به من جهةٍ ، وتبعات قيادة الجماهير الغاضِبة من جهةٍ أخرى ؛ لا شكّ أنّ قيادة الجماهير تُضخّم الشّعور بالذّات إلى حدّ الانفِجار ؛ كنتُ في تلك اللّحظات القائد الأبرز ، والزّعيم الطّلاّبيّ الّذي يستطيع أن يوقف هدير المُحرّكات الجماهيريّة بكبسةٍ واحدة . صعدتُ على أحد الأصص الممتدّة على جانبي الشّارع لأرى الجموع فهالَني المنظر ، الآلاف يمشون خلفي ؛ خلفي؟!!! أعني خلفَنا ؛ لعنة الله على الشّيطان . لا . بل خلفي ؛ نعم ؛ خلفي ؛ أنا الزّعيم الأبرز ، والرّاية الأعلى ، والفِكرة الأجلى . أنا الّذي قدّمني الإخوان والشيوعيّون واليساريّون والعَلمانيّون وارتضوني قائدًا جَمْعيًّا لهذه الاحتجاجات النّادرة في تاريخ الحركات الطّلاّبيّة ؛ أيّ مسؤوليّة إذًا هذه الّتي تُحيط بعنقي ، وأيّ قلبِ ذلك الّذي يُمكن أن يحتمل فشلها فيما لو فَشلتْ لا سمح الله!!

بدت البوّابة الشّماليّة بأقواسها العالية البيضاء تبتسم في وجهي ، رأيتُ مِن بعيد مَن تقاطر مِن الطّلاّب هناك ومَن احتشدَ تحتها ؛ أإلى هذا الحدّ يعشق النّهر الامتداد؟!! حانت منّي التِفاتةٌ إلى الجانبَين ؛ فظهرتْ الأشجار أكثر شموخًا ، وسيقانها أشدّ ثباتًا ، وفروعها تمتدّ إلى سماءٍ لا تُطاوَل . وظهرتْ ورودٌ بألوان شتّى في الأصص القريبة والبعيدة ، وجميعها فاحت بأطيب العَبَق . لم أعدْ أضع حدًّا فاصِلاً بين الشّجر والبشر ؛ انزرع كلاهما في كليهما ، وامتزج في الاثنين ثباتٌ وشموخٌ وعَطاءٌ . كان طوفانًا بشريًّا حقيقيًّا ، وكانت طرقات الجامعة قاعًا صَفصفًا ، وكان عليّ - كما كان على نوحٍ - أن أحمل النّاجين معي على ذات ألواحٍ ودُسُر!!

(٣٩)
لا أبأسَ مِمّنْ يَزعمُ أنّهُ يَحتكِرُ الحقيقةَ

يا (نائل) : أَنِلْني أُذُنَك وقلبَك فـإنّي واعِظك ؛ لقـد عـركـتْني التّجاريب ، ومحَّصَتْني الفِتن ؛ فتنةُ الرأي وفِتنة القول وفِتنة الذّات : فأُعجِب كلٌّ ذي رأيٍ برأيه ، ورأى كلٌّ ذي قولٍ أنّ قولَه الحقّ ، وافتَتن كلٌّ بذاته كأنّ ربّكَ لم يَخلُق لخشيته سواها ، فدارَ حولها وظلّ يدور حتّى فنيتْ . كلّ مَنْ حام حول نفسه اضمحلّ ، فلا تجعل عينك تقع عليك فإنّها كاذِبة ، ولا تجعل يدك تمتدّ إليك لتصافحك فإنّها آثمة ؛ انظر إلى الآخرين ترَ كلّ جَمالٍ ، ومُدّ يدك إليهم يُصافِحْكَ كلُّ وُدّ . ما من يد تُصافح نفسها ، وما من يدٍ تحمل الشّعلة وتوقِدها معًا ، لا بُدّ من يدٍ تُوقِد ، وأخرى تشدّ ، وثالثة تحمل ، ورابعة تبني ، وخامسة تركزُ الرّاية في ذروة النّصر . النّصر الّذي يصنعه المجموع ويقطفه الفرد نصرٌ غيرُ عادل ؛ أَسْنِد الفضل لأهله ؛ فإنّ قطرةً واحدةً لا تصنع بحرًا ، وإنّ وردةً واحدةً لا تُجمِّل روضًا ، ولكنّ مجموع القطرات يأتي بالبحر الواسع الهادر ، ومجموع الزّهَرات يأتي بالرّوض النّاضر العاطِر .

يا (نائل) : لقد صار لِزامًا علينا أن نقول ما يُرضي ضمائرَنا : لسنا الوحيدين في الطّرق المَهولة الصّاعِدة إلى القمم ، تفرّقْنا في المذاهب المُرتقِية إلى هناك ، نعم . ولكنّ القمّة كانت هدفَنا وهدفَهم ، أفلا يُرضيك أن نصل إلى غايةٍ واحدةٍ وإن تعدّدت السُّبُل؟! ألا ترى أنّ

السّهام الّتي أُطلِقت على الصّاعدين إلى هناك أصابتْنا وأصابتْهم ؛ فَلِمَ نرى دمنا واضِحًا ولا نرى دمهم كذلك ، ولِمَ نَعُدّ قتلانا في الجنّة وقتلاهم في النّار؟! أفكُنّا خُزّان النّعيم والجحيم؟! يا (نائل) : لا أبأسَ مِمّن يزعم أنّه يحتكر الحقيقة . ولا أيأسَ مِمّن يظنّ أنّ الغايات تُقطَع بالأمنيات!!

انعطفْنا إلى اليمين حيثُ مبنى الاقتِصاد ، سبقتُ الثّائرين يُحيطُ بي أربعة من مجلس المواجهة إلى الشّارع الممتدّ أمامها ، وصعدتُ الدّرجات المُشرِفات على الطّريق من ثلاث جهات ، وانتظرتُ الجموع لتصل ، كان (كريم) و(ناجح) و(نائل) قد وصلوا كذلك ، استلم (ناجح) هذه المرّة الهتافات :

جِينا جينا يَا اقْتِصادْ   بَدْنا ايّاكُو بْكلّ عِنادْ
اَملِينْ يَا اقْتِصادْ   مِنكُو العُونْ والسّدادْ

فأجبناه مُردّدين خلفه ما قال ، فجرحنا بذلك زُجاج الصّمت في هذه الكلّيّة البرجوازيّة ، وخرج الطّلاّب من محاضراتهم داخل المبنى ليستطلعوا هذا الهياج الّذي تناهى إلى مسامعهم وهم مُستغرِبون ، وحين عرفوا الأمر انضمّ كثيرٌ منهم إلينا ، وبدا أنّ الكلتة الطّلاّبيّة تزداد تضخّمًا . وعلى اختلاف النّكهة السّائدة هُنا في الاقتِصاد ؛ حيثُ يدرس فيها أكثر المُرفّهين والمُنعّمين ، وأبناء الذّوات ، وأصحاب رؤوس الأموال إلاّ أنّ هذه النّكهة المُختلفة ذابت في النّكهة الأكبر ؛ نكهة الشّعور بالجسم الطّلابيّ الواحد ذي المطالب العادلة . كنتَ ترى صبايا يتأوّه لهنّ الفؤاد يهتفْنَ بلهجاتهنّ ولكناتهنّ خلفنا كما لو كانوا قد عقدوا النّيّة على الانضِمام إلى هذا المجموع الثّوريّ الكادح من أمدٍ بعيدٍ .

وصل صوته إلى الحشود وهو يقبض على السّمّاعة من جديد :

يا إدارة ويا اقتصــــادْ   المصـــــايب رح تنعادْ

يا ماليّة وْيــا مُحاسَبَــةْ   حقِّ الطّالبْ ما هُوْ لِعبةْ

ولعلّ استدرار العاطِفة في الكلمات حرّك الأجواء السّاكنة هناك ، فانقلب إلينا عددٌ كبيرٌ من القاطنين في تلك الكلّيّة وساروا معنا في الدّرب المُلتهبة ونحن نهمّ بأن نهوي باتّجاه كلّيّة الآداب مارّين بسكن الطّالبات . حينَ صرنا بمحاذاة سكن الطّالبات خرج عددٌ غيرُ قليلٍ منهنّ إلى النّوافذ ، ورُحنَ يُردِّدْنَ الهتافات معنا ، ويرفعنَ أيديهنّ مُحيّيات ، وشادّاتٍ قلوبهنّ نحونا ؛ هل كُنّ (بناتِ طارق) حتّى ازدادت الحُشود استعارًا!! بلى . بقينا نقذف بالحمم حتى وجلنا إلى ساحة الآداب الفسيحة ، ظلّتْ الأعداد تتوافد حتّى غطّت السّاحة بأكملها ، صعدتُ الدرجات النّافرات إلى مدخل الكلّيّة ، وارتقيتُ الجدار الحجريّ لكي تراني الحشود ذات اليمين وذات الشّمال ، ثمّ أشرتُ إليهم بالجلوس ، فجلسوا وهم يُهمهِمون كأنّ جيشًا يُلقي عن كاهله بسلاح كان قد أثقله ، فزيّن له الحال أن يرتاح من تَبِعات القتال قليلاً ، ويركن إلى استراحة المُحارب الّتي يستعدّ من ورائها إلى المعركة القادمة .

نظرتُ من عليائي إلى السّاحة الّتي غصّتْ بالثّائرين فألقى المنظر في رُوعي الرَّوع ، أدمْتُ النّظر فغصّت روحي بفرحٍ غامضٍ ؛ إنّ إرادةً حُرّة خَلْفها هذه الجموع النّافرة لن تُهزَم ، وإنّ صوتًا صارخًا خلفه هذه الحناجر الهادرة لن يُسكَت أبدًا ، وإنّ حقيقةً واضحة خلفها هذه العزائم المتوثّبة لن تُطمسَ أبدًا . كان الحشد يصطبغ بالألوان السّبعة كلّها . من بعيد تمازجت الألوان فيما بينها لترسم لوحةَ الإرادة الغالِبة .

قائدُ الأوركسترا لولا العازفون لَبَدا مثل الأبله يلوّح بيديه في الفراغ ، وأنا لولا القيادات الطّلاّبيّة الّتي قدّمتْني كما لم يُقدّمْني أحدٌ في حياتي من قبل ولم يفعلْ من بعد ؛ لكنتُ ورقةً في مسيلِ نهرٍ يلعب بها المجرى كما يشاء . يا وصفي طلب ، ويا نعمان حسين ، ويا سالم حمدان ؛ أيّتها النّفوس المُشرئبّة إلى الحرّيّة : أنا مُمتنٌّ لكم ، صنعتُ التّاريخَ بكم ، وصنعناه معًا على أمل أن تأتي الأجيال من بعدنا فلا تنسى أثر القلم في الرّقيم ، ولا أثر الخُطا في الليل البهيم ، ولا أثر الوردة وهي تمدّ عنق الرّائحة في الروض العميم بعد أن أقفرَ من أهله!!

قام الجيشُ من المَجثم ، صلصلتْ وهو يتململ في مكانه أصواتٌ وهَمهماتٌ ، وانطلقَ إلى مبنى الرّئاسة ، تقدّمْتُهُ أنا والقيادات اليساريّة وقيادات الصّفّ الثّاني ، ومجموعة التنظيم والمواجهة ، وتأخرتْ مجموعة الدّعم والإسناد لكي تُحافِظ على جسم الثّورة من أن تتناثر أجزاؤه في الدّروب . وصلْنا إلى مبنى الرّئاسة ، صعدتُ الدّرجات ، ووقفتُ عند منتصفها صار عددها الّذي خلفي يُساوي الّذي بين يديّ ، وألقيتُ خِطابًا تاريخيًّا أصغى إليه الثّائرون بكلّ خليّةٍ من خلايا أجسادهم وأرواحهم ، ولربّما لم يحظَ زعيمٌ عربيٌّ واحدٌ بإصغاءٍ حقيقيّ إليه مثلما حظيتُ أنا في ذلك اليوم الاستثنائيّ على كثرة الزّعماء وخِطاباتهم!! تلخّصَ الخِطاب يومها بكلمتين : مطالبنا ولو بالدّم!!!

استنفرت القُوى الأمنيّة بكلّ ما تملك من خِبرة وشراسةٍ في بلدٍ وادع آمنٍ مطمئنٍّ مثل الأردنّ ، بدأ الهياج الأمنيّ في الدّائرة الأضيق ؛ إربدً ؛ في دائرةٍ أضيق منها ؛ مبنى المُخابَرات ، ثمّ بدأ يتّسع ليشمل كلّ من أُلقِي في رُوعه أنّ الأردنّ مُهدّد بخطرٍ كبيرٍ سيُودي به إلى حفرةٍ

بركـانيّـة إذا لم يتمّ تدارُك الأمـر على وجـه السّـرعـة . انداحت دوائر الاستِنفار واتّسعتْ لتغطّي جغرافيّة الأردنّ ، ووقفَ الأمن بأشكاله كافّة على قدمَين من تأهُّب استعدادًا لمرحلة اضطراباتٍ قد تطول إذا لم يعمل مِبضع الجرّاح في الوَرَم كما كانوا يعتقدون!!

(٤٠)
يا عُمّال العالَم صَلُّوا ع النّبيّ!!

أخرج السُّعالُ أحشاءَها ، ظلّ اللّيل يطول وهي تُداريه لكي ينتهي فتنتهي معه آلامُها ، غير أنّ اللّيل أمعن في التوغّل داخل غابات الوحشة ، والألم ظلّ يتربّص بها في طُرُقات اللّهفة . وصلَ صوتُها إليّ قادِمًا من غرفتها القابعة أسفل غُرَفنا ، لم أحتمل أنينَها الّذي قطّع سكون الظّلام ، فأزحتُ الغِطاء عنّي ، ونهضتُ . هبطتُ الدّرج إلى السّاحة ، وانفتلتُ يسارًا ليُصبح شُبّاك غرفتها في مواجهتي ، تناهتْ إليّ كلماتُها الباكِيات وهي تقطعها بالسّعال من حينٍ لآخر ، اقتربْتُ أكثر من الشُّبّاك وأصختُ السّمع ، لم تكنْ تلك الحروف لبشرٍ من قبلُ ؛ إنّها الحروف الّتي تصوغُها ملائكة الرّحمة وملائكة الشّوق ثمّ تُعلّمها لبشريّ يُدعَى على كوكب الأرض (نعيمة) ، ثمّ تُخرجها من بين شِفاهها تقطرُ عَذابًا وجَمالاً .

كانتْ تحتضنُ صورة (ناصر) ، لم أتبيّن ملامح الصّورة في الظّلام ، غيرَ أنّ السّتارة الّتي انحازت إلى أحد الأطراف مكّنتْني من أن أراها بين يديها ، وأيّ حبيبٍ يقع بين أحضانها غيرُه ، هذا الّذي مات فِداءً للوطن ربّما سيأخذها معه عن قريبٍ ؛ فتموت هي فيه ، وتفدي بذلك الحبيبَ والوطنَ معًا . هزّتْني نسمةُ هواءٍ باردة قادمة من جهة الجنوب ، فلَفَفْتُ أذرعي على جِذعي أُداري بردًا لَذيذًا يوقظ فِيّ الأشواق

النّائمة . أخذتُ نَفَسًا عميقًا ، واقترَبْتُ كما فعلتُ من قبلُ من شُبّاكها لأسمع ما تقول :

«كلّ شيءٍ بعدكَ مُرّ ، حتّى الماء مالح ، لا شيء يُبقيني على قيد الحياة غير مُناجاتك ، أيّها الرّاحل في عتمة الدّرب : لم ذهبْتَ وتركْتني وحيدة!! ألم يكن من الوفاء أن نبقى معًا أو أن نرحل معًا ، كيف تقضي الحياة هناك وأنا أقضيها هنا!! أما مِنْ وسيلةٍ لتُعيدَك إليّ أو لتذهب بي إليك!! ما الحاجز الّذي يفصل بيننا؟! أهو الحياة أم الموت؟! إذا كانت الحياة فأنا مستعدّة للتخلّي عنها من أجلك ، وإذا كان الموت فأنا مستعدّة لاستقباله على أمل اللّحاق بِك . ألم تكن ثلاثون عامًا كافِيةً للتّصدّي للطّعنات النّافذات إلى الرّوح؟! مَن يحتمل ما احتملت!! مَنْ يقوى على أن يزرع الحديقة ذاتها ببذور الأمل لتُزهر في ربيع العُمر ثمّ لا يجني غير الشّوك كلّ هذه السّنين!! ثلاثون عامًا وأنا أجلس إليك على مائدة الإفطار لعلّك تعود من طلعاتك الجوّيّة فتجلس معي ولو على مائدة العَشاء . أيّها الرّاحل القاتل القتيل : إذا كنتَ تُحبّني بالفِعل فلِمَ تتركني في الدّروب الموحِلة المملوءة بالحفر وحيدةً عمياء ، حافيةً يتيمةً . . .!! إذا كنتَ تُحبّني فلا تنزع يدك من يدي فإنّي أسقط في الهاوية إيّاها كلّ يوم ألفَ مرّة . . . إذا كنتَ تُحبّني فخُذني إليكَ فقد مللتُ من انتظارك في المساءات الباردة ، وأنتَ تُواصِل التّحليق في السّماء العالية»!!

نقر السُّعال ما تبقّى من أحشائها وشهقاتها ، أمّا أنا فارتجفَ قلبي على وقع نزيف الكلمات ، مسحتُ دموعًا ظلّتْ تفيض على الخدّين حارّة ، ثمّ صعدتُ بسرعةٍ إلى البيت ، هززْتُ (سِراج) من كتفه ، انتبه مذعورًا ، لا بدّ أنّ المُظاهرات الّتي جابتْ شوارع الجامعة ظهر اليوم ،

وحركة الاعتقالات المستمرّة قد جعلتْه يصحو على هذا النّحو :

- ما بك يا وَرْد؟! (قال ذلك بانزِعاج)

- نعيمة يا سراج . . . نعيمة . .

- ما بالُها . . . دعني أرتح قليلاً . . . لقد كان يومًا شاقًّا .

- نعيمة تكاد تموت ، يجب أن نأخذها إلى المستشفى . قُم فالبس ، وانزل إليها ، وسأحاول أن أبحثَ عن تكسي .

في المستشفى بعد الفحوصات ، أخذني الطّبيب جانبًا ، وسألني :

- هل تعرفها؟!

تردّدتُ قليلاً قبل أن أُجيبه :

- إنّها أمّي .

- لا أُخفي عليك ؛ عندها التِهاب حادّ في الكبِد . وأظنّ بأنّ هناك بعض الأورام . تستطيع أن تأخذها اليوم ؛ كتبتُ لها بعض العلاجات . على أن تعود إلى المستشفى في غضون أسبوع لاستِكمال الفُحوصات .

***

في الثّالثة من مساء اليوم الثّوريّ الأوّل ، كُنّا قد اقتربْنا من نهاية مسيرتنا الحاشِدة ، وكان على مجموعة المواجهة أن تؤمّن الحشود وهي خارجة من البوّابة الرّئيسيّة ، وعلى مجموعة الإسناد أن تُحافِظ على ما تبقّى من الثّائرين داخل الجامعة حتّى يتمّ تأمين خروجهم دون الاعتِقال كذلك . كانت ساعة الصّفر الّتي أعلنّاها للمشاركين في المظاهرة الحاشدة هي لحظة فتح البوّابات لخروج السّيّارات ، كان المدخل الرّئيسيّ للجامعة وهي البوّابة الشّماليّة يضمّ بابًا للخروج وآخر للدّخول ، وبينهما بوّابةٌ كبيرةٌ تُغلِق شارعًا باتّجاهين تسير فيه

السّيّارات ، كنّا ننتظر هذا الباب الكبير ليُفتح من أجل أن يتدافع المُتجمهرون مرّة واحدة للخروج منه فلا يتمكّن أحدٌ من الحرس أو المُخابرات من اعتقاله . بعد الثّالثة عصرًا تبدأ سيّارات الموظّفين بالخروج من هذه البوّابة ، وتُفتَح الأبواب على مصاريعها ، بالإضافة للبابين الآخرَين . . . حافظْنا على تكتّلنا في جسمٍ واحدٍ حتّى حانت اللّحظة المناسبة ، من بعيدٍ كانت عيونُ المخابرات والمُخبرين تُحاول أن تسجّل الأسماء ، وتلتقط الصّور ، وتستطلع القيادات من أجل تسهيل مهمّة إلقاء القبض عليها ، وكانت أوامري البقاء في حشدٍ متينٍ مُستمرٍّ في الهُتاف حتّى يُذهل المتربّصين ، ثمّ الانطلاق بالمئات إلى البوّابات لحظة انفتاحها ، في الثّالثة والثلث كان الطّوفان البشريّ يُغطّي المساحة العَرْضيّة الكاملة للبوّابات الثّلاث ، وهجم بعضُ الحَرَس بمسدّساتهم لاعتقال بعض القيادات ، ولكنّ الالتفاف الشديد حول هذه القِيادات حال دون اعتقالهم ، وخرجوا كاندِفاقة الماء من فم الصّخر . وانتهى اليوم الأوّل على خير ، أو بدا أنّه انتهى على ذلك!!

بعد الخروج الأوّل عقدْنا اجتماعنا الطّارئ في مطعم البستان ، لم تعد الأماكن آمنةً ، حتّى مطعم البُستان هذا يُمكن أن تنقل جدرانه ما دار داخله ، لكنّه الخيار الأكثر قبولاً لدى جميع الأطراف في تلك الفترة .

كُنّا نتلفّت حولنا ونحن ندخل بَهْوه الواسع كأنّ طائر المراقبة يحلّق فوق رؤوسنا أو يحطّ على أكتافنا . بالنّسبة لي أطلقتُ طلقةً واحدة على ذلك الّذي يُحلّق فوق رأسي فَكفّ عن الطّنين داخله ، ومددتُ سكّينا إلى ذلك الّذي يحط على كتفي فذبحتُهُ ، وتابعتُ مسيري كأنّي سيّد المواقف كلّها ؛ لا خوفَ ولا حذَر ولا شكَّ ولا اشتِباه! أغلبُ القيادات

اليسـاريّة كانت تتفـجّر بالحماسـة والتّمجيـد لنفسـها ، رأت في اليوم الأوّل نجاحًا قـادرًا على أن يصنع ثورةً حقـيقـيّـة . وعلى خـلافنا نحن الإسـلاميّين كانت قيـاداتهم قد بتّتْ في أمر المشاركة في المُظاهرات مُبكّرًا ، ممّا جعلهم يتباهَون بأنّ قرارهم التّاريخيّ بالمُشاركة جاء أكثر صوابًا وأقدر على استشراف المُستقبل من أولئك الّذين ظلّوا يتأرجحون مثل بندول بين (لا) للمُشاركة و(نعم) لها .

بعـد أن جلسْنا في دائرة مُغلقـة وشكرتُهم كـزعيم توافـقيّ ، كـان (وصفي) عن يساري ، (ونائل) عن يميني ، طرحْنا المحاورَ المهمّة للنّقاش على قاعدتَين : تقويم أداء اليوم ، والتّخطيط لأداء الغد . تولّى (وصفي) أمـانة السّـرّ وكـتب مِن خلفنا كلّ مـا دار . واتّفـقْنا أن نوسّع مـشاركـة الطّالِبات من خلال استنهاض كلّ حزبٍ أو توجّه أو جماعة كوادره من العاملات فيه .

شـهدَ الجَـمْع أذان المغرب في الثّـالث من رمضان في ذلك المطعم الّذي يملكه مـسـيـحيّ ، ويجلس إلى طاولاته الإخـوانيّ والشّـيـوعيّ والجبهاويّ واللامنتمي إلاّ إلى حقوقه المسلوبة . جاءنا التّمر والماء في البداية وبعض اللّبن ، وسارعَ (نائل) من بعدُ بإزاحة الطّاولات ليـهيّئ مكانًا للصّلاة ؛ إخالني يومَها رأيتُ مَن لم أره في حياتي يُصلّي يأتسي بنا ، ويصطفّ كَتِفهُ إلى كَتِفنا حين أقيمت الصّلاة ، وأمّنا فيها صالح جرادات بصوته الحنون ، فأشجى وألهم ، وجعل أقدامنا تزداد رسوخًا في الأرض ، وثبـاتًا في الصّفّ . لا زلـتُ أذكـر كم طربتُ على إيقـاع صـوته وهو يقـرأ : «فَـاسْـتَـمْـسِكْ بِالّذي أُوْحِيَ إِليكَ إِنَّكَ عَلى صِـرَاطٍ مُـسْـتـقـيم» ولا أدري أكنّا ونحن نؤوّل الآيات على مـا نهـوى نهـذي ونشتطّ ، أم أنّه اليقين بالفِعل والإيمان بما نريد . أم أنّ أجواء رمضان هي

الّتي أوحتْ بذلك ، أم أنّ التفافنا معًا حول قضيّتنا زخرفَ لنا الأمر برمّته؟!! وحينَ فرغنا من الصّلاة وعُدنا إلى مقاعدنا ، طلبْتُ فَطورًا للجميع ، وكانت الموائد قد امتلأتْ بالدّجاج والأرزّ والشّوربات . وشعرنا أنّنا نزداد التِصاقًا بِنا وبمطالِبنا . وحينَ رُفِعت الأطباق كُنّا نُتابع سيرنا إلى الغاية العُظمى .

من الأمور الصّعبة الّتي اتفقنا على أن نتوحّد حولها هي الهُتافات ، إذ إنّ الهُتافات كانت تحمل بصمةَ الهاتِفين بها . وإذا كان كاتِبوها من الإسلاميّين فستصطبغ بصبغةٍ واحِدة ، ممّا يعني تقليص دور الآخرين مع فاعليّته . كان أكبر المُحتجّين على ذلك (وصفي) ، وشايعه (سالم) و (نعمان) . لم يكن الأمر يحتاج إلى موافقةٍ منّي فأنا من أشدّ المؤيّدين لذلك ، تصدّر (وصفي) بسخريته المشهد حينَ قال : يا وَرْد أنتَ إخوانيّ حرفيّ ، وأنا شيوعيّ صوفيّ ، بالمناسبة لا تظنّ أنّك تحفظ من القرآن أكثر منّي . ستقول : آمن المُلحِد . دعكَ من هذا الهُراء ؛ ما رأيُكَ أن نؤلّف هُتافًا يجمع بين البحرين ، ونجعل البرزخ بينهما يلتقيان ، تدخّل (نائل) : «بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَان» ولن يلتقيا حتّى لو أردْنا ، تستهزئ بآيات الله!! طلبتُ منه السّكوت ، وأشرتُ إلى (وصفي) بأن يُتابع تقليعته الجديدة . تابع (وصفي) : يا وَرْد ؛ النّاس تتحدّث عن أنّني صرتُ إخوانيًا ، وعن أنّك صِرتَ شيوعيًّا لشدّة العلاقة الّتي تربِطُنا ، ما يقوله النّاس لا ما نقوله نحن ، فلِمَ لا نقول نحن ما نريد قوله!!

- قُلْ ؛ فإنّي مُصغٍ .
- شعارُنا (يا عُمّالَ العالَم اتّحدوا) .
- نعم . . .!!

– نقسمه قِسمَين ؛ الأوّل لنا والثّاني لكم .
– نعم ؛ فماذا يُصبِح؟!
– يا عُمّال العالم صَلّوا عَ النّبيّ .
ضجّت القاعة بالضّحك إلاّ (نائل) الّذي راح يُهمهِم وينظر إلى الجموع بغضبٍ . أمّا أنا فكادت قائمة الكرسيّ تترجرج تحتي من طرافة الموقف ، وفي غمرة الضّحك والصّخب ، سألتهُ :
– ماذا لو أردْنا أن نصنع علَمًا لدولةٍ ديمقراطيّة تضمّنا جميعًا ، وتُوحّد فيما بيننا؟!
– بسيطة . . . (ردّ وصفي وعيناه تلمعان بإجابةٍ كأنّما أُعدّتْ سلفًا)
– ماذا لديكَ هذه المرّة . . .؟!
– سيكون علمًا بلونَين ؛ نصفه أحمر والنّصف الآخر أخضر . وفي وسطه هلال وشاكوش .
– ولكنْ هكذا ستميل الكفّة إلى جانبكم ، فالهلال يُشبه المنجل ، وسيظنّه النّاس منجلاً ما لم يُدقّقوا!!
– ألا يكفي وجود اللّون الأخضر فيه!!
– غير كاف تمامًا .
– إذًا نبدأ باللّون الأخضر ، ثمّ باللّون الأحمر ، سيشكّل اللّون الأخضر النّصف الأيمن ، والأحمر النّصف الأيسر . هكذا عدلٌ؟!
– سيتمّ الأمر إذا فعلنا ذلك وأضفْنا الهتاف الأخير الّذي اخترعته تحته : (يا عُمّال العالَم صلّوا عَ النّبيّ) .
– مُوافِقون نحن أصحاب الرّايات الحمراء . . . (رفع وصفي يده وهو يلتفت إلى بعض الزّملاء ويبتسم) .

- ونحن كذلك مُوافِقون أصحاب الرّايات الخضراء (رفعتُ يدي وأنا أدير وجهي في الوجوه الضّاحكة إلاّ عند مَنْ يجلس إلى يميني) .

تابعْنا الاجتِماع ، وأوكلْنا صِياغة الهُتافات إلى (صالح جرادات) و(نعمان حسين) . الأمر الأهمّ كان الاتّفاق على عدم مبيت أيّ قياديّ في بيته حتّى لا يتعرّض للاعتِقال .

فيما بعد التزم الجميع بالقرار ، سوايَ أنا و(سراج) ؛ كان هناك أمرٌ آخر يُقلقني أهمّ عندي من مسألة اعتِقالي ؛ إنّها (نعيمة) ، كانت صحّتها تتراجع في الأيّام الأخيرة ، وكان عليّ أن أبقى بجانِبها لأساعدها إذا احتاجتْ لذلك ؛ وكنتُ قد تدبّرتُ أنا (وسراج) كيفيّة مواجهة الاعتِقال فيما لو جاء أحدٌ لاعتقالنا في تلك اللّيلة الّتي تلتْ اليوم الأوّل للمظاهرات .

أعددتُ خُطّة للهرب والإفلات من الاعتقال أنا و (سِراج) فيما لو هوجِمنا ، كانت بسيطة ؛ نمنا تلك اللّيلة في غير أَسِرّتنا ، كانت هناك غرفةٌ على الرّوف تضع فيها (نعيمة) بعض الخردوات ، نظّفنا فيها مكانًا يتّسع لفرشتَين ، وأخلَدنا فيها إلى النّوم بعدأن أغلقنا على أنفسنا الباب كما لو كنّا من مجموع الخردوات المُلقاة بإهمال على أرضيّة تلك الغرفة!! على جانب آخر طبّقتُ ما تعلّمتُه من الكشّافة أيّام مسجد (البيك) ، وضعتُ خيطًا من (المصّيص) على عتبة باب الدّرج الصّاعد إلى الرّوف ، وسحبتُ الخيط إلى شُبّاك غرفة الخردوات الحديديّ ، وعلّقتُ على طرفه من الدّاخل جرسًا صغيرًا ، في اللحظة الّتي يخطو فيها أوّل القادمين من زُوّار اللّيل العتبةَ الأرضيّة سينشدّ الحبل ، وسيُصدر الجرس صوتًا كافِيًا لإيقاظي . سأوقظ بدوري

(سِراج) ، وسننسلّ بهدوء من الباب إلى الجهة المُعاكِسة من السّطح . مُسبقًا كنتُ قد مددتُ إحدى سقّالات خشب الطّوبار بين جدار سقف بيت (نعيمة) وجِدار بيت الجيران . كان خشب السّقالة قد جاء به (نُعمان) من إحدى ورشات البناء الّتي تُبنى بجانب مطاعم (أبو محمود) مقابل البوّابة الشّماليّة . على هذه الخشبة سيكون من السّهل المشي حتى نصل سطوح بيت الجيران ومن هناك يُمكننا النّزول إلى الشّارع الموازي لشارع بيتنا والهرب . . . ولكنْ إلى أين؟! إلى (حُوّارة) . كيفَ؟! سنركض بالاتّجاه المعاكس حتّى نبتعد مسافةً كافية ، إذا وجدْنا بعد ذلك (تكسي) سوف نستقلّه ، وإذا كان الوقت مُمعنًا في اللّيل بحيث لا توجد سيّارة تقطع صمته فسنواصل السّير مشيًا على الأقدام حتّى نصل (حُوّارة) ، ونختبئ هُناك عند أحد القيادات الإخوانيّة غير المعروفة للدّولة حتّى تلك اللّحظة .

بقيّة الزّملاء اتخذوا لهم مخابئ مُختلفة ، لا أعرف ما الّذي فعلوه ، لكنّي أعرف مخبأ (نعمان) على الأقلّ لأنّه أخبرني بذلك حينَ جاءني بالسقّالة ؛ مخبؤه لا يستدلّ عليه حتّى الجِنّ . إنّه في بيت درج لعمارة تُبنى حديثًا قريبةً من البوّابة الشّماليّة ، اختار ذلك المكان لعدمٍ وجود أحدٍ في الورشة ، ولأنّه أكثر دِفئًا من بقيّة الأماكن ، وكان يأتي ببعض (شوالات) الإسمنت من ساحة الورشة ويذهب بها إلى بيت الدّرج فيصفّ أربعةً منها أو خمسةً على شكل فرشة ، ويستلقي فوقها ناعِمًا بنومٍ لذيذ كما كان يصفه . ومكّنه المكان من أفضليّة لم نكن نتمتّع نحنً بها ؛ إنّه لا يبعد عن مسرح الأحداث إلا بضع خطواتٍ .

لم يستطع (سالم) ولا (وصفي) ولا غيرهم من القيادات اليساريّة أن يناموا في بيت زملائهم من أصحاب توجّههم ؛ لأنّ كثيرًا منهم في

تلك الفترة كان يقبع في المُعتَقلات . أمّا (نائل) و(كريم) و(صالح) وغيرهم من شباب الإخوان فقد استطاعوا أن يبيتوا في غير بيوتهم ، كانت بيوت الإخوان تنتشر في مرابض إربد كلّها وخارجها ، وكانت الأحداث قد صنعتْ لحُمةً بين كلّ الشّباب حتّى كان إيواء القياديّ الثّائر من الإخوان أو من غيرهم شرفًا يتسابق إليه النّاس العاديّون!!

في اللّيل عاودتْني الذّكريات ، وهاجمني الخوف كما لم يُهاجِمني من قبلُ ، حاولتُ النّوم ولكنّي لم أستطعْ ، نظرتُ إلى (سراج) فرأيتُه قد ذهب في النّوم أشواطًا بعيدةً فحسدتُه على ذلك ، وبقيَ مخرز الخوف ينشتل بجانبي ، كان الخوف من الفشل هو الهاجِس الّذي سيطر عليّ في تلك اللّحَظات ؛ استحضرتُ (نائل) بلحيته الكثّة ، تخيّلتُه يقف أمامي بكامل عنفوانه ويبدو على وجهه الغضب مِمّا حدث في اجتماع مطعم (البستان) ، اعتدلتُ في الفرشة وجلستُ متربّعًا ، أشرتُ إليه فهبط من عليائه وواجهتْني عيناه العميقتان ، أعرف أنّه ليس موجودًا ، لكنّ (سراج) الغاطّ في النّوم اضطرّني إلى أن أستحضره ؛ كنتُ محتاجًا إلى إنسانٍ أُلقي إليه بكتلة الرّعب الجاثمة على صدري لأرتاح ، افترّتْ عيناه بصفاء وهما تُحدّقان فِيّ كأنّما تستحثّانني على الكلام : «يا نائل إذا كنتُ اليومَ القائد الجماهيريّ الأبرز فأنا أتحمّل مسؤوليّة كبيرةً تُصيبني بالرّعب في كلّ حينٍ ، إنّ كلّ لحظة تمرّ هي لَبِنةٌ في صَرح الثّورة ؛ فإذا لم أستطع أن أحافِظَ على وحدة هذه اللّبنات ، وأسهر على تناميها حتّى تتمّ فإنّ مصير الانهيار الكارثيّ ينتظرنا . . . أيُّ قسوة للأقدار تلك الّتي ألجأتْنا إلى أن نكون قادةً في زمنٍ يصعب التكهّنُ بتقلّباته» .

قطعَ السُّعال القادم من الأسفل عليّ تهيُّؤاتي ، فتحتُ الباب

بحذر ، ونزلتُ . . . فيما بعد حرصتُ أنا وسِراج على أن نتجاوز الخيط المُثبّت على العتبة دون أن نقطعه . . . بعد أن عُدنا من المُستشفى اكتشفنا أنّ الجرس كان قد أَعلَن في غيابنا حالة الاقتِحام من خلال الخيط المقطوع على العتبة . . . تلفّتْنا حولنا بحذرٍ وخوف ، وطلبتُ من (سراج) أن يبقى في السّاحة دون أن يصعد معيٍ إلى الأعلى ، تابعتُ صعودي على أطراف أصابعي . . . كان البيتُ كلّه مقلوبًا رأسًا على عقب ، حتّى غرفة الخردوات كانت قد أُلقِيَ بكلّ محتوياتها على السّطوح!!

(٤١)
التّاريخُ العَظِيمُ لا يَصْنَعُهُ إلاّ المَجانين

«أنا بأحسن حال لا تقلقوا عليّ، فقط تدبّروا شؤونكم بشكلٍ جيّد، أعرف ما يحدث وقلبي معكم».

قالت (نعيمة) لنا ذلك أنا وسراج، عندما عُدنا من المستشفى في اللّيلة الأولى، كانت قد رتّبتْ لنا مبيتًا تحت عريشةٍ في الحديقة الخلفيّة بعد أن افتُضِح أمر الرّوف بأكمله مع غرفة الخردوات، تحت هذه العريشة قضى الزّوجان قبل أكثر من ثلاثة عقودٍ ليالي صيفيّة رائعة وهم يتهامسان همس العُشّاق المذبوحين. قالت لنا:

- لولا أنّكم مثلُ أبنائي لما وَطِئ تراب هذه العريشة أحدٌ بعد (ناصر). لو كان يحيا بيننا اليوم لما تردّد لحظةً في أن يحميكم، لكنّني امرأة؛ وماذا تفعل امرأةٌ في مواجهةٍ جنودٍ حمقى، ومرتزقة تتحرّك ببوصلة المال والتّخويف بالرّزق!!

- أنتِ تفهمين في السّياسة أكثر من رئيس وزراء يا خالة. (أجبتُها)

- رئيس طراطير تقصد، ليس لدينا وزراء ولا رئيس وزراء؛ هؤلاء مجموعة من اللّصوص آخر ما يهمّهم الوطن والشّعب.

- ما رأيُكِ يا خالة أن تصبحي ثوريّة مثلنا وتقودي مظاهراتنا في الجامعة؟ (سألْتُها مُمازِحًا)

– أنا ثَوريّة بالطّبع وأنتَ ثَوريٌّ بالتّطبّع! أنا ولدتُ ثوريّةً وأنتَ ألجأتْكَ الظّروف إلى أن تُصبح ثائرًا . (ردّتْ بحزم ، وهي تشدّ يدها على بطنها ، وتنظر إليّ بعينين صارمتَين بدا أنّ ضيفًا جديدًا سيحلّ مكان صفائهما) .

ليتَ الحُزن يعرفُ موطنًا آخر غيرَ عينيها!! (همستُ في أعماقي) .

دَلَفْنا معها إلى غرفتها ، وهيّأتُ لها فِراشها ، وقرّبتُ بعض الحاجيّات الضّروريّة من سريرها ، كوب لبن مع مِلعقة من الفِضّة (الملعقة إحدى موروثات الرّاحل أُهديَت إليه مع طقم كامل من الملاعق والشُّوك في إحدى سفراته إلى لندن) ؛ هي ذاتها الملعقة الّتي دأب (ناصر) أن يتناول طعامه بها ، وَضَعتْها بشكلٍ مُرتّبٍ فوق طاولةٍ صغيرةٍ استقرّتْ بجانب السّرير ، وقارورة ماء من البئرِ الّتي حفرها ناصرٌ بيديه أوّل زواجهما . قالت وهي تتلمّس القارورة :

– هكذا نتعلّم حبّ الأوطان ، نحفر ترابه الطّاهر بأيدينا ، ونخزن ماءه العذب في تجاويفه ، وحينَ نُسقَى من هذا الماء يسير الحبُّ في الشّرايين مع الدّم ، ويتعتّق في الجوانح مع الرّوح ، فيكون دونه الدّم والرّوح . ولم يكتفِ بأن يقول لي ذلك (مسحتْ دمعةً طفرت من جانب عينها سالت على خدّها ببطءٍ في البداية ثمّ بسرعةٍ منزلقة على كامل وجهها) بل طبّق ذلك عمليًّا ؛ حينَ تناثر جسدهُ بالكامل فُتاتًا فوق ثرى الأردنّ الطّاهر ؛ لا أوطان يا (وَرْد) تُحتلّ إذا كان فيها مثلُ هؤلاء يبذلون في سبيلها أغلى ما يملكون ، ولا أفكار يُمكن أن تموت إذا ناضلتَ من أجلها . . . مَنْ هي الأفكار إلاّ نحن ، بمقدار ما نُقاتل من أجلها تحيا ، فإنْ تخاذلْنا عن القِتال من أجلها واهتزّ إيماننا بها ماتت!!

قالتْ آخر هذه الكلمة وهي تغفو ، كان التّعب قد أخذ منها كلّ مأخذٍ . سحبتُ شرشفًا لأغطّيها ، حرّكتْ رأسها تعبيرًا عن الامتِنان ،

ثمّ غاصتْ في نوم عميق . قُمنا أنا وسِراج من عندها ، انسحبْنا إلى الحديقة الخلفيّة حيثُ العريشة ، كانت الأوراق المُتساقطة من دالية العنب قد افترشت الأرض بكاملها ، جهدنا لتنظيفها ، غطّينا الجهة العارية جهةَ الشّمال بشادرٍ بلاستيكيّ امتدّ من أعلى الدّالية مربوطًا بأسلاك معدنيّة رفيعة إلى أسفلها ، صار مع السّور يُشبه غرفةً شبه مُغلقة ، كان سقفها المُكوّن من عناقيد العنب المُختبِئة والواعِدة بالحياة عمّا قريب قد راح يُرسِل بعض الضّوء النّافذ من السّماء من خلال الفجوات ومن أعمدة الشّارع القريبة ، مهّدْنا تحتنا التّراب ومددْنا فرشتين وغطاءَين وصار مبيتنا الجديد جاهِزًا .

– ما الّذي يُجبرنا على المبيت هُنا ، وقد صارت مسألة اعتقالنا في هذا المكان أمرًا واقِعًا؟! قال لي سراج .

– لا أستطيع أن أترك (نعيمة) وحدها ، أشعر أنّها مثل أمّي ؛ إذا تركتُها وحدها كأنّما تركتُ أمّي ، مَنْ يقف إلى جانِبها وهي مريضةٌ اليومَ سِوانا؟!

– أليس لها أقارب يتولّون شأنها ؛ بقاؤنا هنا ينطوي على قدرٍ كبير من المقامرة والمُغامرة .

– قالتْ لي ذات مرّة إنّ لها أخًا هو آخر ما تبقّى لها من رَحِمها .

– ولماذا لا يكون بجانبها في مرضها؟!!

– إنّه في أمريكا .

– وليكنْ . . . ما الفائدة في أن نعرّض أنفسنا للخطر من أجل امرأةٍ كان يُمكن لسوانا أن يرعاها!!

قفزتُ من فِراشي كأنّ كهرباء صعقتْني ، وقلتُ بصوتٍ غاضبٍ حادٍّ :

– امرأة . .!! امرأة . . .!! هذه أمّي يا . . . سأسامحك على تُرّهاتك إذا توقّفت عن هذا السُّمّ الّذي تقذفه الآن في وجهي . . . ثمّ . . . هذا أمر . . . عليكَ أن تلتزمَ به . . . سوفَ نبقى معًا إلى جانبها ولو تعرّضنا لإطلاق الرّصاص في صدورنا أو رؤوسنا . . . أفهمتَ . . . هذا أمرٌ تنظيميّ . . . وأنا قائد المرحلة الآن .

صمت سراج مثل حجر ، وكأنه ابتلع الكلام كلّه . قلتُ له وأنا أربّتُ على كتفه محاولاً أن أخفّف وطأة الكلمات الأخيرة عليه :

– دَعْنا نتمشَّ قليلاً . ما رأيُكَ أن نسير إلى الجامعة فنرى ساحة المواجهة عن قرب .

– الآن في هذه السّاعة!!

– الآن في هذه السّاعة . أنا قلق على ماذا سيحدُثُ في اليوم الثّاني ؛ عليّ أن أكشف الموقع بنفسي .

– أنتَ مجنون!!

– التّاريخ العظيم لا يصنعه إلاّ المجانين .

خرجْنا بعد أن اطمأننّا أنّ (نعيمة) تنعم بنوم هادئٍ على الأقلّ حتّى تلك اللّحظة ، تركنا بوّابة البيت ذي السّور الشّجريّ خلفنا ، خطوات واستشرفَنا دوّار الإسكان ، فاتّجهنا جنوبًا في الشّارع الواصل بين الدّوّارَين . . . كان الشّارع خاليًا تمامًا ، والسّاعة هي الثّالثة فجرًا ، لم يُسمَع في تلك اللّحظة إلاّ وقعُ أقدامنا الهاربة إلى مصيرها ، وأنفاسنا اللاهِثة إلى عاقِبتها . اتّجهنا شرقًا تاركين دوّار الجامعة خلفنا ، الشّارع الواصل بين هذا الدّوّار والبوّابة الشّماليّة اتّخذ السِّمَة نفسها من الهدوء القاتل . وحدها الأشجار همستْ ببعض الكلام الرّقيق وهي تتمايل على إيقاع بعض النّسمات القادمات من الشّمال والغرب ؛ حيثُ

السّهول المفتوحة . في وسط الشّارع الذّاهب في اتّجاهَين قامتْ أشجارُ سروٍ عالية . كانت شامخةً بالقدر الّذي بثّ الهيبةَ والشّموخ كذلك في نفسي . ظلّ (سراج) يمشي إلى جانبي وهو – ربّما – يلعن الأوامر التّنظيميّة الّتي أجبرتْه على أن يُطيعني ويُرافقني في هذه الرّحلة القصيرة المجنونة . قطعَ صمتَه المَريب ، حين التفتَ إليّ ليقول وهو يضع يديه في جيبَي بنطاله ، ويرفع كتِفيه إلى أعلى :

– ألا يُحتَمل وجود بعض عناصر الشّرطة والمُخابَرات عند البوّابة الشّماليّة فنكون فريسةً سهلةً للاعتِقال .

– لا أظنّ ذلك .

– لماذا؟!!

– لأنّهم لن يستدعوا عناصر فرديّة أمام ما حدث ، ستتولّى قُوى أكبر مواجهة المرحلة القادمة .

– ماذا تقصد؟! هل تقصد . . .

– نعم . أعتقد أنّ الجيش بذاته سيتدخّل في المسألة .

– وتقول ذلك ببساطة .

– الأمور الخطيرة لا تحتاج – أحيانًا – أن تواجهها بقلبٍ يشعر بالخطر . عليكَ أن تواجهها بقلبٍ باعَ كلّ شيءٍ في سبيل أن يظلّ سائرًا في الطّريق الّتي اختارَها .

– وإذا كان اختياره خاطِئًا . هل يظلُّ ماشيًا؟!

– بلى . أليس هو الّذي اختار تلك الطّريق ؛ فعليه أن يتحمّل تَبِعات اختياره ويظلّ ماضيًا فيها إلى نهايتها .

– وهل الأمر يستحقّ كلّ ذلك؟!

– بل يستحقّ ما هو أبعد من ذلك . في الأيّام القليلة القادمة

سـيتكشّف لكَ مـا أعني . دَعْنا الآن نواصلْ سـيرنا . الأمر يسـتـحقّ المُحاولة . سنصل إلى مَقرُبةٍ من البوّابة .

تابعْنا السّير بهدوءٍ مثلَ قِطَطٍ خائفة تخشى هجوم الكلاب عليها ، أشرتُ لسراج أن يتبعني . تركنا الطّريق المُشجَّرة ، وصِرنا في إحدى المساحات الصّغيرة الفارغة ، تجاوزناها بسرعة ، والتجأنا إلى السّور الغربيّ لمطاعم (أبو محمود) . كان مكانًا مُناسِبًا للاختِباء ومراقبة الأمور عن كثب . من بعيد كانت أضواء الجامعة الصّفراء ترسل خيوطها الواهنة الهادئة على الطّريق الذّاهِبة من البوّابة الرّئيسيّة إلى عُمق الجامعة . بدا المنظر ساحِرًا ، عنّ ببالي أن أنام على شارعها الّذي كان يضجّ بأقدام المُتظاهرين ظهيرة اليوم السّابق ، وأشمّ هواءها الّذي كان يرتجّ لهتافات الغاضبين من الثّائرين . حانتْ منّي التِفاتة إلى يسار الدّاخل من البّوابة بدا هناك كُشك الحارس اللّيليّ ينبعث منه ضوءٌ من مصباح عتيق مُتهالك مثبّت في سقفه الخشبيّ . لم تظهرْ هيئة الحارس لنا من بعيد ، يبدو أنّه كان نائمًا . تعجّبْتُ أنّ المكان هادِئٌ إلى هذا الحدّ وكأنّ أحدًا من هذه الآلاف لم تعبره ذات ساعة من يوم فائت . أجلتُ نظري في المكان وما حوله فلم يتكشّفْ لي أيّ شيءٍ غير طبيعيّ ، وعلى عكس ما شعر به سِراج من الطّمأنينة لِما رأى ، كان قلبي يقفز داخل صدري مثلَ ديكٍ مذبوح ، وصعدتْ إلى ذهني عبارةٌ لا أدري أينَ قرأتُها ؛ قلتُها على مسمع منَ (سراج) كأنّني أحفظها : «وفيما كان سطح البحر هادِئًا ، ساكنةً أمواجه ؛ كانت الحيتان في أعماقه تصطرع معًا وهي تتنافسُ على التِهام مزيدٍ من السّمكِ الصّغير» .

نظر إليّ (سراج) مُستغربًا ، ولم يطلب لما قلتُ تفسيرًا . نهضنا .

هَمـمْتُ بأن أزور (نعمـان) في مخبئه الّذي لا يبعـدُ إلاّ خطوات ؛ في الجـهـة الأخرى من المطاعم ، غـيـر أنّي آثرتُ الصّمت لكي لا أجـبـر (سراج) على فِعل ما لا يريد أكثر من ذلك . قفلْنا راجعين . في الطّريق لم نقلْ كلمةً واحـدة ، وحينَ انسللْنا إلى مخـادعنا تحت داليـة العنب ، كانت نظراتنا البلهاء في وجوه بعضنا هي آخر ما فعلنا قبل أن ننام ما تبـقّى لنا من الدّقـائق القـلائل قبل أن نبـدأ مشـوار النّضـال في اليـوم الثّاني من هذه الثورة المجيدة!

(٤٢)
الحُرِّيّةُ لا تَتحقّقُ وأنتَ عَبْدٌ لمَخاوفِك

صَدَقتِ النّبوءة ؛ فبعد قفولنا أنا و(سِراج) من زيارتنا اللّيلة للبوّابة الشّماليّة ، كان مُحيط الجامعة بأكمله قد حُوصِر بالجنود والمُدرّعات ؛ الحيتان بدأتْ بالاستعداد للنّهش في بحرٍ تعوم فوقه الأقدار الغامضة . وبدأتْ رِحلة اكتشاف الذّات وتضخّمها منذ هذا الحِصار المُباغِت .

استيقظتُ كأنّ يدًا خفيّةً مُدّتْ نحوي لتوقظني بعد نوم شفيف . نهضتُ كأنّني نمتُ ساعاتٍ طويلة . كانت السّاعة الخامسةً والنّصف وأذان الفجر يشقّ الأجواء الهادئة . توجّهنا أنا و(سِراج) إلى الصّلاة ، كان المُتّفق عليه مع قيادات الإخوان أن تُصلّي مجموعة المواجهة بأكملها في مسجد الجامعة الّذي يقع على السّور الغربيّ للجامعة جنوب الدّوار على مبعدة قليلة منه ، في حين أنّ كلّ القرارات الّتي ستُتّخذ في اجتماع ما بعد الصّلاة الّذي لا يزيد عن نصف ساعةٍ سيتكفّل (كريم العجلوَني) بتبليغه إلى مجموعة الإسناد في التّاسعة صباحًا من هذا اليوم الاثنين . وأنا بدوري سأجتمع قبل التّاسعة في القرية الإنجليزيّة مع قيادات اليسار ؛ ليكون التّوافق بين قرارات الجميع . غير أنّ كلّ هذه الخُطّة نُسفتْ بعد أن مشينا أنا و (سراج) عشرات الخُطوات خارجين من بيتنا . لم نكدْ نقترب من دوّار الجامعة حتّى بدتْ لنا على الأضواء الخافتة المنبعثة من الأعمدة أو من تلك المُثبّتة

على أحد أسوار الجامعة ، تشكيلات أمنيّة متعدّدة . استطعنا أن نشاهد في الجانب الظّاهر لنا فقط مئات الجنود والعساكر والشّرطة الّذين يُحيطون بالمكان على حوافّ الأسوار صعوداً إلى الجهة الجنوبيّة بامتداد الشّارع . وكانت هناك آليّات عسكريّة بالعشرات تجثم إمّا على ذلك الشّارع الّذي رأينا ، أو على الأرصفة المتناثرة حوله . هالني المنظر من بعيد . وتوقّفتُ فجأةً وأنا أُمسِكَ بكتف (سراج) وأُرجِعها إلى الوراء في حركةٍ لا إراديّة كأنّني أمنعه من الاستمرار في المُضيّ . وانتبه هو إلى المشهد فجمُدَ مكانه ، والتقتْ عينانا بعد ذلك ناطِقة بمئات الأسئلة :

- ماذا سنفعل؟! (سألني) .

- إذا كانت مجموعة المواجهة قد رأت ما رأينا ولم تُعتَقل ، فأعتقد أنّ الوِجهة السّليمة هي مسجدٌ آخر .

- وهل حدّدتَ لهم هذا المسجد؟!

- بالطّبع .

- وما هو؟!

- مسجد (عبد الله التّلّ) .

انطلقنا نحوه مُسرِعين . اخترقنا الدّوار القريب من بيتنا وظللنا نمشي في شارع إيدون هبوطًا حتّى وصلنا الملعب الرّابض أمام مدرسة (الحَلحُولي) ، كان المسجد يقع في جانبه الشّرقي الشماليّ ، قطعنا مِحوره ودلفنا أوّلاً إلى ساحته الصّغيرة ، ثمّ صعدنا الدّرجات بطريقة أقرب إلى الهرولة وصوت أنفاسنا المتلاحقة يسمعه كلانا . صلّينا خلف الإمام ، وبعد الصّلاة اكتشفْنا أنّ خمسةَ عشر منّا كانوا موجودين هناك بمن فيهم أحد قياداتنا من العاملين في الجامعة والّتي كانت عينَنا

على ما يدور في مطابخ القرار . اجتمعنا في حلقة جانبيّة في طرف المسجد ، أخبرنا القياديّ (أبو أسيد) أنّ الجامعة بعد الثالثة من مساء أمس قد استدعتْ كلّ السكرتيرات العاملات في الجامعة إلى عمادة الشّؤون وانشغلنَ بطبع العقوبات المُوقَعة بحقّ الطّلبة المُعاقَبين والّذين زادوا على المئتين بين مفصولٍ ومُنذَرٍ ومطرود . وقد برزتْ أسماء جديدةٌ بعد أن رصدتْها أعيُن المخابرات في اليوم الأوّل . ثمّ أخبرنا أنّ الرّئيس عقد اجتماعًا استثنائيًا لمجلس العمداء مساء أمس ، وطلب منهم أن يوقّعوا على قرارات الفصل النّهائيّ والمؤقّت بحقّ الطّلاب القُدامى المفصولين من قبل والّذين اتّخذ هو قرارًا منفردًا بفصلهم بناءً على توصيات أمنيّة ، وبعثَ قائمة هؤلاء المفصولين إلى الأجهزة الأمنيّة (المُخابَرات والمُحافِظ) ، وطلب من السُّلطات الأمنيّة منع الواردة أسماؤهم في القائمة من دخول الجامعة . كما أخبرنا أنّ هناكَ عددًا من قيادات الإخوان الطّلاّبيّة قد اعتُقل . سارعتُ بسؤاله عن (نائل) إنْ كان ضمن المُعتَقلين فأجابني أنّه لا يعرف ، وإنْ كان يُرجّح أنّه ما زال طليقًا . أخبرتُه أنّ هناك طوقًا عسكريًا حول أسوار الجامعة . فقال لي : هذا الطّوق لا يلفّها من جهاتها الأربع فحسب ، بل هو منزرعٌ في داخلها ، فهناك طوقٌ آخر يضمّ العشرات إن لم تكن المئات من العناصر الأمنيّة منتشرون على الأسوار من الدّاخل بمظهرٍ مدنيّ . ارتعشتْ جوارحي للحظات قبل أن أستعيد هدوئي لمواجهة الموقف القادم الّذي بدا أنّه يتطوّر إلى إحكام القبضة الأمنيّة بشكلٍ مُتسارعٍ . تابع وهو ينظر في عينيّ كأنّه يريدني أن أتلقّى المعلومة لأستطيع إدارة المرحلة المتأجّجة الآنيّة : كلّ الأبواب مُغلقة . لا أمل في الدّخول من أيّ باب إلاّ الباب الرّئيسيّ وهو البوّابة الشّماليّة ؛ وهناك لدى الحرس أسماء

قيادات الطّلاّب الّتي يتوجبّ اعتقالها ؛ بالطّبع في مقدّمتها اسمك يا (وَرْد) ، علينا تأمين دخولك بأيّ طريقة . سياستهم تقضي باعتقال القيادات الفاعِلة والمُحرّكة للقضاء على حركة الاحتجاجات هذه . أجبتُه : إنّني أعرف كيف أدخل . ما يهمّني أن تكون القيادات الأخرى بمنأى عن الاعتقال لكي نؤمّن بداية المظاهرة والاستمرار فيها . كلمة السّرّ في بداية المُظاهرة مُتّفق عليها مع زملائنا اليساريّين ، أتمنّى أن تكون الرّؤوس الّتي أعتمد عليها ما زالت طليقة ولا تقبع في غياهب السّجون . سألته عن (كريم العجلوني) كونه مَنْ سيُشعل حماسة الطّلاّب بقصائده بين فترةٍ وأخرى . أجابني بهدوء : لقد اعتُقِل أمسِ!! سألتُه باندِهاشةٍ وامتِعاض ، والحرف يكاد يرتجف بين أسناني : كيف؟!

جاء عددٌ من ضُبّاط المخابرات مُتنكّرين ، يلبسون (دشاديش) بيضاء ، ويعتمرون قبّعات خضراء على رؤوسهم تنسدل ذيولها إلى منتصف ظهورهم ، وكانوا يضعون لِحىً مُصطنعة تتدلّى إلى أنصاف بطونهم ، ويقبضون على خرزاتٍ في أصابعهم يُسبّحون فيها باسم المولى القدير . طرقوا الباب بأدبٍ جمّ ، وانتحَوا جانِبًا كي لا يكشفوا عورة البيت ، وحينَ فتحت أمّ كريم لهم الباب ، أطرقوا رؤوسهم في الأرض ، وقال لها أحدهم : نحن زملاؤه من رجال الدّعوة جئنا نسأل عن كريم وكنّا قد وعدناه بزيارة منذ آخر لقاء دعويّ لنا . فأجابتْهم الأمّ ببساطتها : إنّه في المسجد . هُرعوا إلى هناك ، ووجدوه قُبيل المغرب مُختليًا في زاويةٍ من الزّوايا يُصفّي ذهنه ليكتب قصائده الثّوريّة لليوم الثّاني ، ألقوا عليه القبض واقتادوه في سيّاراتهم من (المفرق) إلى مبنى مُخابرات إربد .

(حينَ تُصبح الطّريق باتّجاهٍ واحدٍ سوفَ تسلكها وإن كانت تُطاردك مخاوفكَ من خلفك، وتنتظركَ أنياب المتربّصين بك من أمامك. فإنّه حينئذٍ لا مفرّ إلاّ في المواجهة، ولا مهرب إلاّ إلى الأمام). كانت هذه المقولة عنوان ذلك اليوم، حيثُ أفرزتْها حوادث أمسِ.

انفضّ المجلس بعد أن سرّبتُ بعض التّوجيهات وحدّدتُ بعض المهمّات للقيادات الموجودة حينها. وعدتُ وحدي أنا و(سِراج) إلى البيت. شدّ على أسنانه وهو يرجوني ألاّ نعود إلى هُناك خشية الاعتقال. سحبتُه هذه المرّة بعنف من ظاهر كمّه. الأحوال ليست مطروحة للنّقاش؛ القرارات يجب أن تُتّخذ بحزمٍ، نحن مُقبِلون على ثورةٍ وأنتَ تخاف من الاعتِقال. في داخلي كنتُ محتاجًا إلى مَنْ يقول لي هذا الكلام، فأنا في الحقيقة أكادُ أرتجفُ لمجرّد أنّ سنواتي الخمس في كلّيّة الهندسة آذنةٌ بالتّبخّر على يدي رئيس الجامعة ومَنْ خَلَفه مِن عقليّة أمنيّة قاسِية. ظَلِلتُ أغذّ الخُطا كأنّي إلى مصرعي أمشيها. كان الفجر قد طلع، ونور الشّمس قد طبع قبلاته الأولى اللّطيفة على الطّرقات الّتي بدأ فيها الصّباح يتنفّس. كانت النّار تتأجّج في داخلي بينما كانت نسمات الهواء تتهادَى في الأجواء كأنّ شيئًا لم يحدث أو لا يحدث، أو كأنّ الّذي يحدثُ لا يعنيها. قلتُ له قبل أن ألج الباب وأنا أتلفّتُ كطائرٍ حَذِرٍ حولي: جئتُ إلى هنا لأجلِ شيءٍ واحدٍ؛ لأجلها. أريد أن أطمئنّ عليها قبل أن نبدأ يومنا التّاريخيّ الثّانيَ، وأحظى منها بدعوةٍ صافية؛ ألا تعلم أنّ التّاريخ تصنعه دعوات الأمّهات!!

كانت السّاعة الّتي تستقر على جدار غرفتها تُشير إلى السّابعة

والرّبع . هذه السّاعة الّتي هي من إرث (المرحوم) لم تُغيّر (نعيمة) مكانها منذ أن وضعها ناصر في هذا المكان قبل أكثر من ثلاثة عقود . وذات يوم تعطّلت السّاعة بعد أن فرغت بطّاريّتها فلم تقبل (نعيمة) تبرّعنا فيّ أن نغيّر لها هذه البطّاريّة لتعمل السّاعة من جديد ، لأنّها على حدّ قولها : لم تسمح لأحدٍ أن يمسّ هذه السّاعة حتّى ولو كانت هي بعد أن مسّتْها للمرّة الأخيرةً يدا الحبيب الأجلّ (ناصر) . ظلّت السّاعة متوقّفة عامًا كاملاً قبل أن تقتنع (نعيمة) بتغيير بطّاريّتها على أن نضع في أيدينا قُفّازاتٍ حريريّة قبل تبديلها حتّى لا يذهب أثر أصابع حبيبها حينَ حملها بين يديه للمرّة الأخيرة . وعانَينا مع (نعيمة) وهي تُلقي بتعليماتها في الرّفق بالسّاعة كأنّها كائنٌ حيّ قبل أن نودِعَها الحائط مرّة أخرى .

كانت مستلقيةً في سريرها . وجزءٌ من النّافذة المفتوحة يسمح لتيّار هوائيّ خفيف بالدّخول عبره . نظر إليّ (سراج) وقال :

– يبدو أنّها لم تُغيّر نومتها منذ البارحة .

– مُخطئ . (قلتُ له وأنا أشير إلي يدها اليُمنى) انظر .

كانت صورة (ناصر) إيّاها تستقرّ في باطن ساعدها الأيمن المرتخي على طرف السّرير . لقد نهضتْ لإحضاره ؛ لم تستطع النّوم من دونه . جلسْنا أنا و(سراج) حولها صامتَين لمدّة ربع ساعة . تردّدتُ قبل أن أوقظها . هززتُها من كتفها بلطف فاستفاقتْ :

– جئتُ لأطمئنّ عليكِ . (قلتُ لها)

– الله يرضى عليك . (قالت ذلك والحروف تخرج ناعسةً وهي تحرّك رأسَها على الوسادة ذات اليمين وذات الشّمال ، وقد رسمتْ ابتِسامة هادئةً على وجهها) .

– هل أنتِ مُحتاجةٌ إلى شيء . لدينا يوم ثوريّ جديد . ادعي لنا يا خالة .

– لا شيء . . . الله ينصركم . تذكّروا ما كان يقوله (ناصر) : «الحريّة لا تتحقّق وأنت عبدٌ لمخاوفك» ؛ عليكم أن تتحرّروا من كلّ شيءٍ من أجلها .

(٤٣)
والله لَوْ بَدْهُمْ يحرِّرُوا فِلِسْطِينْ مُو هيك!!

«لا تدخل الجامعة بشكل اعتيادي؛ كلّ شبرٍ على الأسوار والأبواب مُهيَّأٌ لاعتقالك؛ فاخترْ أنتَ طريقة دخولك؛ المهمّ أن تدخل؛ لأنّ الثّورة لا تنتظر». كان هذا نداءً خفيًّا ونفيرًا سَوِيًّا إلى كلّ الكوادر الطّلاّبيّة. أوصلْناه ما استطعنا إلى كلّ زعماء الحركة الطّلاّبيّة حينها. اتّجهنا أنا و (سِراج) في البداية في اتجاه عكسيّ بعيدٍ عن الجامعة؛ هبطْنا مشيًا على الأقدام من دوّار الإسكان عبر شارع الجامعة نزولاً إلى دوّار (وصفي التّلّ). قبله بمئتي متر يقع سرفيس المستشفى العسكريّ، استقللنا إحدى سيّارات المرسيدس القديمة (١٩٠) وحدنا؛ كانت أجرة الرّاكب الواحد خمسة قروش ونصف، دفعتُ سبعةً وعشرين قرشًا ونصف القرش عن السّيارة كاملة. صعدتْ بنا عائدةً إلى الجنوب، لم يلحظ أحدٌ شيئًا مريبًا؛ نحن الّذين وجدْنا الرّيبة في كلّ شيء، في البداية خِفنا أن يصعد معنا أحدٌ من المُخبرين فيُسلِمنا إلى أوّل مفرزةٍ أمنيّة فتصاب الحركة بالشّلل؛ ولهذا ركبْنا السّيارة وحدنا، حتّى السّائق دَخَلني منه ما دَخَلني؛ وَضَحَ تمامًا أنّنا لم نطبّق آخر ما سمعناه اليوم من (نعيمة)، وأنّ المخاوف تنخر في عظامنا عِوَضًا عن رؤوسنا. قطعت السّيّارة نصف الطّريق وحين اقتربتْ من دوّار الجامعة بدأت المشاهد المهولة. كانت منطقة الجامعة ثكنة عسكريّة بامتِياز، لا بُدّ أنّ

هذا الوجه الجديد لم تألفه إربد وأنّه غريبٌ عليها ، بدا بعض الجنود وهم واقِفون كأصنام لا تتحرّك وأيديهم قابِضةٌ على الرّشّاشات الطّويلة ، وآخرون من الجيش يذرعون الشّارع جيئةً وذهابًا ، وبين عشرات الأمتار والأخرى كانت هناك مُدرّعات تنتشر على الحدّ المُحيط بأسوار الجامعة ؛ إنّها الحرب إذًا!! ومَنْ يَملكُ شرارة بَدْئِها لا يملك ماءَ إطفائها ولو كانت خراطيم المُحيط هي الّتي تمدّه بذلك . عنّ ببالي أن أطرح سؤالاً اختِبارِيًا ساذجًا على السّائق :

– لماذا كلّ هذه العساكر يا عمّ؟!

– يقولون هناك مظاهرات داخل الجامعة .

– وهل الأمر يحتاج إلى كلّ هذه الحشود؟!

– أغبياء يا سيدي . . إيش بدهم يكونوا الطّلاب عاملين حتى يُحشرُولهم كلّ هالعساكر . . . والله لو بدهم يحرروا فلسطين مو هيك!!

استقرّتْ في قلبي بعضُ الطّمأنينة ؛ عامّة النّاس ليستْ مع أسلوب الدّولة هذا في التّعامل مع مطالب الطّلبة ، تابعتُ حديثي معه :

– قد يكون الطّلبة زوّدوها يا عمّ!!

– يا سيدي أكبر مشكلة بتنحلّ بدون هالمظهرة . . . يعني شويّة طلاّب متحمسين لو طَبْطَبوا عَ ظْهورهم لكانت الأمور انحلّتْ زمان . . والله لتقع عَ روسهم . .

اكتفيتُ بذلك مع أنّي لم أعرف على رأسِ مَنْ ستقع ؛ الطّلاّب أم العسكر!!

نزلنا من السّرفيس عند دوّار النّسيم ، غِبْنا في بعض الأَجَمات المنتشرة على جانب الطّريق المُقابل للبوّابة الجنوبيّة ، أعرف في السور

فتحةً لا تصل إليها أعينُ الرّقباء . عندما صِرنا في مقابلها ، أشرتُ إلى (سراج) أنّني سأركض باتّجاهها منحنيًا وأدخل منها على الفور ، وأنتَ افعل مثلي بعد دخولي بدقائق . أطلقتُ سيقاني للرّيح واقتضتني الفتحة أكثر أن أنحني لأدخلها . فعلتُ وتبعني في ذلك (سِراج) . مشيْنا بخُطوات سريعةٍ باتّجاه المبنى الجديد (مج) حيثُ مركز المظاهرة ، قبل أن أصل بدا لي أنَّ المتجمهرين كانوا قلّة لا يزيد عددهم عن مئة ، ربّما كانوا ينتظرون صافرة البداية ، حثثتُ الخُطا من جديد ، ما كِدتُ أصل إليهم حتّى رآني أحد الحرس المُكلّف باعتِقالي ، ركضَ باتّجاهي على بعد خمسين مترًا من التّجمهر ، وهو يرفع مُسدّسه بيمينه عالِيًا ويصيح . ما إنْ رأى البقيّة المشهد حتّى هجموا على الحارس وهم يُطلقون صيحاتٍ عالية فما كان منه إلاّ أنّ ولّى هارِبًا .

إنّها اللّحظاتُ الحاسِمة ولا بُدّ من شعارٍ تحميسيّ أوّليّ ، و(كريم) الّذي اعتاد على ذلك مُعتَقَل . لكنْ هناكَ (صالح) و(نعمان) ، وانطلقتْ كلمة السّرّ من الأخير :

وَحِّدْ صَفَّكْ . . . وَحِّدْ صَفَّكْ بِالعالي سَمِّعْني كَفَّكْ
وَحِّدْ صَفَّكْ . . . وَحِّدْ صَفَّكْ بِالعالي سَمِّعْني كَفَّكْ

وبدأ اليوم الثّوريّ الثّاني . وبدونا مثل جِدارٍ عصيّ على الاختراق ، حصنّاه أكثر بالهُتافات الّتي جلجلتْ في جنَباتِ الجامعة ، وأصغتْ لها أذنُ الأردنّ كلّه . بدأت المُحاولة الأولى للتّفريق بعد البدء بعشر دقائق ؛ تكتّل ما يقرب من عشرين من رجال الأمن والمُخابرات باللّباس المدني مع حرس الجامعة ، وهجموا دُفعةً واحدة باتّجاهنا وهم يحملون الهراوات بين أيديهم ، عندها تولّت مجموعة المواجهة الرّدّ السّريع بالهُجوم المُضادّ نحوهم وخرج معها عددٌ كبيرٌ من المتحمّسين ، كاد

الجمعان يلتقيان ويحدث الالتِحام لولا أنّ الخوف من جهة المُخابرات أو الحِكمة لا أدري قد ساد الموقف ، إذْ توقّفوا عن متابعة الهجوم باتّجاهنا ، وأشار أحدهم لهم بالتّراجع فنكصوا على أعقابهم ، وكففْنا نحن بدورنا وعُدنا إلى ساحة (مج) من جديد .

كانت قرارات الفصل الّتي وصلتْ إلى المئات قد عُلّقتْ نُسخ منها للمعنيّين من الطّلاّب في كلّيّاتهم ، بالطّبع رآها الزّملاء الآخرون وقرؤوها فازدادَ تعاطُفهم معنا ، بعضُ هذه القرارات انتُزعت من على لوحات الأعلانات وجيء بها إلى مركز المُظاهرة ، وأُحرقَتْ أمام أعينُ الجميع وهم يغنّون :

جَنَّنْتُونا وْعَقَّدْتُونا   وْدَفَّعْتونا بالمَيّاتْ
عَلَّمتُونا إنّو العِلِمْ   بَسٍّ لَيُوم الامْتِحاناتْ

وعلى الإيقاع القويّ المتصاعد كان الطّلبة يردّدون بعد كلّ شطر : هِيْ . . هِي . . هِي . . هِيي . . وكان الطّبل مع أحد الكوادر الشّيوعيّة يتابع الإيقاع وهو يعلو به : طُب . . طُب . . طُب . . طُب . .

وتُكمِل الحنجرةُ الصّادحة :

مَرّضْتونا وعْميتُونا   ولبّسْتونا نَظّاراتْ
أَوْهَمتونا وَغشّيتونا   حتّى نْزِلْنا جَمعيّاتْ
ولّما الطّلبَةْ انْتَخبُونا   ولّما صِرْنا جَمعيّاتْ
قسّمْتونا وْجمّدْتونا   وأوْقفْتوا كُلِّ النَّشَطَاتْ

هذا العدد المَهول لا يتحقّق لأعظم الأحزاب أو التّيّارات أثرًا في الوجود ؛ إنّه حزب الطّلاّب الّذين اتّحدت قلوبهم على ألاّ يمسّ الضّيمُ أيًّا منهم ، كانت العقوبات الّتي عُلّقت على جُدُر الكلّيّات والأقسام لإرهاب الطّلبة وتخويفهم ووضع حدّ لانفجارهم الثّوريّ قد أمدّت هذا

الانفجار بمزيدٍ من الوقود ؛ إنّه الوقود الشّعبيّ ، فما من أحد من طلبة اليرموك يومئذٍ إلاّ وهو مُشتركٌ في هذه الجريمة اللّذيذة ، أو تحدّثه نفسه الأمّارة بالحُسنِ أن يلتحق بالرّكب إلاّ قليلاً ممّن كان مُنتفعًا ، أو غطّى الخوف على كلّ شيءٍ أمام عينيه حتّى حجب الشّمسَ ذاتها من أن يراها في وَضَح النّهار!!

واصلَ الطّلاّب احتِشادهم حتّى وصلوا بضعة آلاف ، كانت الذّروة في ذلك اليوم ، وكان على مجموعةالإسناد أن تُسنَد بعددٍ آخر من الكوادر لتأمين الحماية والتّنسيق والاستمراريّة ، وكانت مجموعة المواجهة تُعاني أيضًا من تغلّب الطّوفان على المشهد ؛ فلم يكنْ أحدٌ يتوقّع أن يصل الحشد إلى ما وصلَ إليه ، فطلبتُ من (سالم) و(نعمان) و(وصفي) أن يدعموا بعشرين آخرين على الأقلّ مجموعتَي المواجهة والإسناد . وتمّ ذلك . كانت الأجهزة الأمنيّة قد اعتقلتْ ما يقرب من ثلاثة عشرَ ثوريًّا في اللّيلة الفائتة ، وقد أحدثَ بعضهم ممّن كان قياديًّا بعضَ الفراغ ، فسددْناه بالقيادات البديلة . ونشأ منذ تلك اللّحظة فقه «القيادات البديلة» ، وصِرنا نفكّر بتأمينها في كلّ لحظة حالَ اعتِقال أيّ قيادة سابقة . وكان عليّ أنا و(وصفي) الموافقة على الأسماء الجديدة ، بالفعل طُرحتْ ستّة أسماء في ظهيرة ذلك اليوم فيما إذا اعتُقِل فُلانٌ وفُلان وفُلان!!

المجموع مثل الرّوض ؛ كلّما امتدّ وجدتَ فيه زهرةً جديدةً اصطبغتْ بلونٍ جديد وفاحتْ منها رائحةٌ شذيّة مُختلفة . هكذا كان حالنا ؛ أمدّتْنا الحشود المتعاقبة بمواهب خلاّقة وقدراتٍ جبّارة ، أراحَنا بعضُها من نقصٍ شديد كُنّا نعانيه في مسألة الهتافات وصياغتها والصّوت الهادر الصّادح بها ، خاصّة وأنّ (كريم) الأبرز في هذا الأمر

صار رهينًا بين أيدي السُّلُطات . وقد شخص لهذا الأمر عددٌ من الطلبة المغمورين ممّن أدهشونا أيّما إدهاش ؛ لا زلتُ أذكر اسمه إلى اليوم ؛ (فؤاد دَعْدَع) ، شابٌّ من ذوي الكُشَش الّتي ترتفع كقبّة شوكيّة نصفيّة فوق رأسه ، جسدٍ نحيل يستره تي شيرت بألوان فاقعة ، وجينز لا يكاد يقيه بطنُه الضّامر من السّقوط ، ولكنّ صوته كان كأنّما هو جبلٌ تتقعقع حجارته من علٍ . أتذكّر اسمه اليوم لأنّني بعد أوّل وصلةِ هُتافٍ له مازحتُه قائلاً :

يا (فُؤادِي) لا تَسلْ أَينَ الهَوى   كانَ صَرْحًا مِنْ خَيالٍ فَهَوى

فأجابني :

اسْقِني واشْـــرَبْ على أَطْلالِهِ   وَارْوِ عنّي طالما الدّمعُ روى

وضحكنا مثلَ طفلَين معًا . وفي الوصلة الثّانية بعد أن نزل احتضنتهُ فكادت أضلاعه تتكسّر بين يدي ، ثمّ تركتُه وأنا أُنشده :

(فؤادُ) ما تُســـلّيه المُدامُ   وعُمرٌ مِثلُ مـــا تهبُ اللّئام

فأجابني :

ودهرٌ ناسُـــهُ ناسٌ صِـغـارٌ   وإنْ كانت لهم جُثَثٌ ضِخام

وأشار إلى (نائل) وهو يُكمل الشّطر الثّاني . وضحكْنا مرّة أخرى كأنّ المشهد السُّرياليّ الّذي يتأجّج أمامنا ليس إلاّ مسرحيّة كوميديّة!! كانت الحمم والنّيران تتساقط من فوقنا وحولنا ، ونحن كمن يتسلّى في الجحيم ، ويطرح دُعابةً في الأهوال!!

قبضَ (فؤاد) على يد السّمّاعة ، وتركَ يده الأخرى حُرّة ، بعد أن اعتلى طاوِلةً كانت قد وُضِعت أمامَ مدخل المبنى (مج) لترى الحُشودُ المُتكلّم . وراحت يده ترتفع مُهيّجةً الجماهير ، أمّا صوتُه فقد جعل القلوب تشتعل نارًا ، والأطراف تتّقد هياجًا :

أَوَّلْ مــــا نبْـدَى ونْقُــولْ　　　وحْدتنا دومًــا عَلى طُولْ
يـــا بَدْرانْ مَـهـما تْقُــولْ　　　قَرار الفَصـــــــلْ لَيْزُول
يا بَدْران لازِمْ تِسْـــــمَعْ　　　وْلحَقّ الطّلَبَةْ رَحْ تخضَـــعْ
يا بَدْران لازِمْ تِرْجــــــع　　　وْلصَوتِ الطّلبة رَحْ تِرْكَـعْ

وهاجت الجماهير على وقع هذه الألفاظ ، وتفنّن الشّيوعيّون في الإيقاع بالطّبول . وصاح النّاس ، وصعد (صالح) من جديد بعد أن تلقّف السّمّاعة من يد (فؤاد) وأكمل على ذات الإيقاع :

أُكْتُبْ أُكْتُبْ يـــا بَدْرانْ　　　وَمَلِّيْ لِـيْ كُلّ الحِيطـانْ
هذا الطّالِبْ مُو جَبـــانْ　　　وعُمْرُهْ أبدًا مـــا يِنْهانْ
واليُـوم بْنِعْلِنْ لِضْـــرابْ　　　وْبِسْمَعُونا هَــــالطّلاّب
وبِنِتْـوحَّــدْ زَيّ الأَحْبـابْ　　　إِيْد بْإيدْ يا شَـــــبابْ

وردّدت الجماهير بصوتٍ وصل أطراف إربد لهوله وروعته : (إِيْدِ بْإيدْ يا شَبابْ) .

مَنْ أدخل السّباع الغاضبة إلى بيته فلا يتوقّع أن تجلس معه لتشاهد التّلفاز!! إنّ أوّل ما تُفكّر به هو أن تؤمّن طعامها بافتراس مَنْ أدخلها . وعُشّ الدّبابير لا يسأل عمّن عبث به لماذا فعل ذلك ؛ إنّه يقضي عليه قبل أن يسمع منه الجواب ؛ كنّا نحن والدّولة : فرائس ومُفترسين ، ودبابير وعابِثين . ولا أدري لماذا وصلنا إلى هذا الحدّ!! ألم يكن بيننا عاقلٌ يوقف هدير الطّواحين الّتي بدا أنّها ستلتهم كلّ شيءٍ يقع في طريقها!!

في الثّانية ظهرًا نَفدَ صبرُ بعض الأمنيّين المُرابطين من الدّاخل مِمّا يرون ويسمعون ، ورأوا في الكلمات والهُتافات استِفزازًا صارِخًا .

تشكّلتْ مجموعةٌ أمنيّة منهم بطلبٍ من أحد مسؤوليهم ؛ كانوا عشرةً من المُدرّبين جيّدًا ، وظلّوا ينتظرون إشارة سيّدهم الّذي ما إنْ رأى (نائل) يصبح في طرف قصيّ عن الكتلة الهائجة حتّى هجمتْ عليه الفرقة بعشرتهم ، وأمسكَ به بعضُهم ، والتحمتِ السّواعدُ بالسّواعد ، وراح يُدافعهم بيديه ورِجليه ، ولضخامة جُثّته لَم يتمكّنوا منه تمامًا ، وهاج الطّلاّب للمنظر وهجموا على المجموعة ليُخلّصوه منهم ، ولم تكد المجموعة ترى الهاجمين عليها حتّى لاذ بعضُها بالفرار واشتبك بعضُها الآخر مع بعض الطَّلبة . ولمّا أفلت (نائل) من أيديهم فعل أمرًا عجبًا ؛ إذ لم يكتفِ بتحريره من اعتقالٍ كان وشيكًا ، بل ارتدّ مثل ثور هائج إلى إحدى شبابيك المبنى ، وأمسك الشّبك الحديديّ الّذي يُغطّيه ، وهزّه بكلتا يديه وهو يزفر فقاومه الحديد المُثبّت في الإسمنت ، إلاّ أنّه تابع المُحاولة حتّى اقتلعه من إسمنته ، ورفعه فوق رأسه يتناثر من أطرافه ما علق بها من أتربة الجدران ، وسار به نحو عددٍ من ضُبّاط المُخابرات ، وما إنْ رأوه حتّى صاحوا فَزِعين ، لكنّه تابع سيره نحوه ورماهم به فكاد يُهشّم رأسَ بعضهم لولا لُطفُ الله . ولم يستطع أحدٌ أن يُهدّئ ثورة (نائل) الّتي بدتْ أنّها بركان متفجّر يحتاج إلى وقتٍ ليخمد . ركضتُ باتّجاهه واستلمتهُ من ورائه ، وأحطتُ ظهره وصدره بما وَسعتهُ ذراعاي وحاول أن يُفلت منّي ، ولكنّه عندما رأى أنّني أنا الّذي أُمسِكه سكن قليلاً ، قلت له : اهدأ ؛ نحتاج هذا لوقتٍ آخر . قال وهو ينتفض : لو كان غيرك ما استمعتُ إليه .

وكأنّ المعركة الّتي انحاز فيها النّصر إلى جانبنا – كما توهّمنا – أطلقتْ خيال المُبدِعين فصاغوا فرحتهم هتافات جديدة :

صُفّوا الكَراسِي . . . صُفّوا الكراسي طُلاّبِ اليَرمُوكْ . . . بِرْفَعُوا الرّاسِ

وِيْلِي عَلَيْهُمْ . . . وِيْلِي عَلَيْهُمْ . . .   طُلاّبِ اليَرمُوكْ . . . كَسَرُوا عِيْنِيهُمْ

في الثّالثة كان الحشد الأمنيّ خارج أسوار الجامعة على أشدّه ، وراحت المدرّعات تجوب الشّارع المقابل لنا والجاثم طرفُه الأقصى أمام مطاعم (أبو محمود) . وانطلق زعيقُ بعض سيّارات الشّرطة يملأ الأجواء ليُرهبنا : (وي . . وي . . وي . . وي . .) ، ولكنّه قوبل بالهُتاف والصّياح ، وازدادت قناعة الكثيرين منّا أنّ العودة إلى الوراء صارتْ مثل الموت ، ولم يكنْ أحدٌ منّا يرغب بالموت على الأقلّ حتّى ذلك الحين ، كانت إرادة الحياة غالبة ، وصوتُ الحرّيّة أشدّ وضوحًا ، وصناعة التّاريخ أمتع من أن نتركها لسوانا ، أو أن نُسوّد صفحاتها بتخاذلنا وتراجعنا .

في الثّالثة والنّصف بدأ التّفكير بالخروج الآمن ؛ وبدؤوا هم بالتّأهّب لابتلاع الخارجين من البحر كسمك قِرشٍ يهمّ بابتلاع الصّخرة الّتي ستهشّم رأسه . احتشدْنا بالمئات عَرْضًا ، واحتشدوا هم في المقابل كما فعلنا ، وكأنّ الجيشَين كانا على موعدٍ مع المواجهة ، وقف الأمن بلباسه العسكريّ المهيب صفًّا واحدًا منتظِمًا ، من بعده توالتْ صفوفُ أُخَر غايةً في التّنظيم والرّوعة ، وشدّني المَنظر الجميل أكثر ممّا أرعبني ، وهممتُ – لو أنّ الأمور طبيعيّة – أن أركضَ باتّجاههم وأهوي على أكتافهم مُعانِقًا ، واستيقظتُ من خيالاتي الآثمة على صوت (نائل) يهتف من جديد ، وأشرتُ له بإصبعي إشارة الانطِلاق بعد أن فُتِحت البوّابات ، وانداح السّيل الجارف على المصدّ العسكريّ فزعزعه في البداية ، ثمّ انهالت الهراوات على السّيل فأصابتْ بعضه ، واعتُقِل عددٌ بالعشرات ، وأحاطتْ بي وبالقيادات الأخرى جموع بشريّة هائلة منعت العساكر من اعتقالنا ، وتفرّقنا في حارات إربد بلا مأوى . وغامت الأهداف ، ولم نعرف كيف نلتقي لنخطّط لليوم التّالي!!

(٤٤)

الطَّاغِيةُ لا يَصْنَعُ نَفْسَهُ، بَلْ نَحنُ الّذينَ نَصْنَعُهُ

حلّ المغرب بارِدًا كأنّ يدًا من طُمأنينةٍ غامضةٍ امتدّتْ لتُطفِئَ لهيبَ ما كان من قبلُ ، ولتمسح على جروحٍ من صنعِ يدٍ كان يُمكن أن تكون يدي أو يدَ أخي لا يدَ قاتِلي أو ذابحي!! حزينًا كان المساء وأذان المغرب يعلو من مساجد إربد القديمة الجديدة ليزيد الشّجن شجنًا ، ولينثر الجوعُ كِنانةَ الحُزن أمام المشاهد البئيسة الّتي ارتسمتْ في لحظات الخروج من الحبيبة القاسِية ؛ البعيدة القريبة ، الشقيّة الهانِئة ، الثّائرة الهادِئة ؛ اليرموك!!

طرقتُ البابَ على الطّابق السُّفليّ ، أطلّ من دَفّة الباب رجلٌ ستّينيّ استغربَ منظري ، حاول أن يتذكّر غير أنّ الذّاكرة خانتْه :

– أنا قريب ذلك الطّالب الّذي كان يسكن في الغرفة العلويّة ؛ إنّه خالي .

– وماذا تريد؟!

– أريد أن أستأجرها إذا لم يستأجرها أحد بعده .

– لقد استأجرها أكثر من عشرة منذ خروج خالك منها ، عددٌ منهم لم يمكث إلاّ أيّامًا .

– وما السّبب يا عمّ؟!

– بعضهم قال إنّه يسمع في اللّيل أصواتًا ، وبعضهم قال إنّ العفاريت تسكنها ، وبعضهم ادّعى أنّ شبّاكها الغربيّ يفتح من تلقاء نفسه وتدخل منه الأشباح . . . آخ على شباب اليوم ، مجموعة من الجبناء ، كنّا ننام على الأشجار في الجبال ، وعلى الحجارة في الكهوف أيّام شبابنا .

– لا يهمّني ما كانوا يفعلون ، أنا أريد أن أستأجرها منذ اللّحظة .

– لا تأتني بعد أسبوع لتطلب منها الرّحيل .

– لا تخف ، أنا أعرف الغرفة جيّدًا واعتدتُ النّوم فيها مع خالي في اللّيالي الغابرة .

– إذًا ادفع أجرة الشّهر مُقدّمًا .

– موافق .

– قل لي يا بنيّ : إلى أين ذهب خالك؟! (قال لي ذلك وهو يهمّ بإخراج مفتاحها من جيبه لإعطائه لي)

– لا أدري يا عمّ . ربّما إلى لندن ، أو إلى نيويورك . لا أدري .

– الله يهديه . كان صاحب كاس .

– الله يهديه .

– لكنّه كان طيّبًا . رغم المُنكر الفظيع الّذي كان يتناوله إلاّ أنّني أحببتُه من كلّ قلبي كواحدٍ من أبنائي .

– شكرًا يا عمّ .

دخلتُها . كانت مُظلِمة . تسرح فيها الصّراصير والحشرات . انبعثتْ منها رائحة عفنةٍ زكمتْ أنفي . واستقبلتْني على بابها من الدّاخل خيوطٌ عتيقة من نسيج العناكب التصقتْ بوجهي ، أزحتُها عنّي ، وخطوتُ أولى الخُطوات في الظّلام والفراغ . لاح لي شبح خالي

في زاويتها البعيدة ؛ هُيّئ لي أنّه يجلس مُلصقًا ظهره إلى الزّاوية جامعًا بين رُكبتَيه إلى صدره ودافِنًا رأسه بينهما ، ولافًّا ذراعيه على ساقَيه ، ومضَ لمعُ خاطِف شرحَ لي المشهد الحزين الّذي بدا عليه خالي ، كدتُ أخطو نحوه وأحتضنه ، لولا أنّني أيقنتُ أنّها فتنة الخيال المريض الّذي ركزتْه حالة خالي في ذهني . اجتاحتْني رغبةٌ عارِمةٌ في البكاء ؛ لم أدرِ أهي بسبب ما صرنا إليه بعد ثورة اليوم ، أم بسبب ما شعرتُ أنّ خالي الحبيب قد آل إليه ؛ في الحالَين نجحتِ المشاعر المكبوتة في أعماقي من إخراج عددٍ من الدّموع تقاطرتْ على وجنتيّ سريعًا . مسحتُها وأنا أجيل الطّرف في أنحاء الغرفة على هَدْيٍ من الضوء الخافت القادم من شقّ الباب ، التفتُّ إلى مكان الصّورتَين الأثيرتَين عند خالي ، لا أدري إنْ كنتُ رأيتُهما أم أنّني تخيّلتُهما ، كانا هناك (داني ويليامز) ، و(جورج هاريسون) . فيما بعدُ سأسأل (سراج) أو (نائل) أو أي زميلٍ آخر إن كان يرى ما أرى أم لا!! نظّفتُ الغرفة بما أستطيع ، وأصلحتُ ضوء مصباحها الوحيد المتدلّي من السّقف ، كانت ما تزال مُطفأة منذ آخر خروج لآخر ساكنٍ فيها . قصدتُ الشّارع مُسرِعًا أبحث عمّن استبقتْه الدّولة خارج نطاق الاعتِقال من أجل الاجتِماع لبحث ما صرنا إليه والخطوات القادمة .

دلّ بعضُنا على بعض ، واجتمعنا أحد عشر قياديًّا في الغرفة . (من اليوم حتّى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً ستكون اجتماعاتنا هنا) قلتُ لهم ؛ في هذه الغرفة فهي بعيدةٌ كلّ البُعد عن أعين المُتلصّصين . كانت أصواتنا أقرب إلى الهمس ونحن نتدبّر أمر اليوم القادم ، ونسأل عمّا حدث مع بعضنا . جهّزتُ لهم سحورًا في منتصف اللّيل بعد أن حضرَ آخرون تِباعًا . كنّا قد أُصِبنا بجرح في القلب ؛ لم نتوقّع هذه

الضّراوة في المواجهة ، ومع ذلك فقد شدّ بعضُنا أزر بعضٍ ، واتّفق الجميع على مواجهة الأزمة بمزيدٍ من الإصرار والتّخطيط .

اتّصلْنا مع (أبو أسيد) ، جاء من حوّارة والتحق بِنا . كان يبدو أنّ الرّئيس جرّتْهُ عقليّته القمعيّة في تلك الأيّام إلى استصدار مزيدٍ من قرارات الفصل والتّأديب ، وبدا كأنّه استأجر رَتْلاً من الموظّفين والموظّفات ليطبعوا قراراته بحقّ الطّلاّب ، وصار واضِحًا أنّه تحوّل إلى جزّار ، وأنّنا كُنّا خِرافَه السّمينة!!

وُلِدَ النّاس ليخدمَ بعضُهم بعضًا ، ولكي يحاولوا التّغلّب على صعوبات الحياة ؛ أولئك الّذين سقطوا من رحمٍ واحدةٍ وتناسلوا من أرحامٍ مختلفةٍ تعود إلى ذلك الرّحم الأوّل . أمّا أنْ يُولدَ النّاس لينهش بعضُهم أجسادَ بعض ، وليرفع أحدهم السّيف في وجه أخيه ، وليركبه ، ويُحيط يديه وقدميه بِنِير الذّلّ ، ويستعبده ؛ فذلك ما لم تأتِ به شريعةٌ على وجه الأرض حتّى ولو كانت شريعة الغاب ، أو دستور البهائم .

الطّاغية لا يصنع نفسه ، بل نحن الّذين نصنعه ؛ نحن الّذين نُسمّن له أنفسنا ليذبحنا ، ونحني له رؤوسنا ليصفعنا ؛ إنّه الوهم الّذي اختلقه خيالُنا السّقيم في أنّه قادر على أن يُصادر أبسط حقوقنا في الحياة ، وفي الحرّيّة . ولولا أنّنا نثغو أمامه كشاةٍ ما كان ليعوي أمامنا كذئب . أيّها القادرون على التّحرّر من مخاوفكم : اصنعوا تاريخكم بأنفسكم ، واكتبوا مجدكم بأيديكم ؛ فإنّ الطّاغية الّذي يصوّب البندقيّة على صدوركم ليس إلاّ صنمًا من زجاج ، إن نظرتم إليه بعين اليقين خرّ من عليائه مُتناثرًا متكسّرًا . قال (وصفي) ذلك وهو يلوّح بقبضة يده .

قلتُ : هل أعددنا خُطّة الدّخول إلى الحَرَم الجامعيّ والخروج منه؟! هل أعـددْنا القـيـادات البـديلة في حـالات الاعـتـقـالات المحـمـومـة والعشوائيّة؟! هل مجموعتا المواجهة والإسناد مُستعدّتان؟! من نقص منهما؟! أريد أن يبقى عدد المجموعتَين مُكتمِلاً ؛ الثّورة تصنع قياداتها بنفسِها ، لقد رأيتم كم من الطّلبة اليوم كان قادرًا على أن يحلّ محلّ أيّ واحدٍ منّا ، أريد أن يتحوّل المئات منهم إلى قيادات ؛ ماذا تتطلّب قيادة الجماهير : روحٌ لا تؤمن إلا بالمغامرة ، وقلب لا يكفر إلاّ بالخوف .
والوعي؟! دع الوعي جانِبًا ؛ نحن بعد اليوم محتاجون لأجل تحقيق مطالبنا إلى مجانين أكثر من حاجتنا إلى عُقلاء!!

(٤٥)
نَحنُ نَخافُ بِقَدْرِ ما يَتَسرَّبُ مِنَ اليَقينِ خارِجَ قُلوبِنا

«لإيقاف حركةٍ ثوريّةٍ تكتسبُ زخمًا جماهيريًا يوميًا عليكَ أن تُنشِئ حركةً ثوريّةً مُضادّةً» هكذا ظنّ عميدُ الشّؤون فجمع كلّ مَن يستطيعون أن يرفعوا لافتاتٍ بشعاراتٍ طنّانة لكنّها جوفاء لأنّها لا تحمل حرارة الصّدق ، رفعوا في اليوم الثّاني في الجهة المقابلة للمبنى الجديد (مج) لافتاتٍ كُتبَ عليها : «الوطن أعلى . . .» ، «الأردنّ بحاجةٍ إلينا . . .» ، «لا للتّخريب ولا للتّرهيب . . .» . وغاب عن ظنّهم أنّ الثّوراتِ كالشّعراء تُولَد ولا تُصنع . غفِلوا عن أنّ الثّورة جمرةٌ في موقد رماد لا يستطيع أكثر الثّوريّين حصافةً أن يتنبّأ بانبِثاق شرارتها ؛ تلك الشّرارة الّتي تتكاثف في شراراتٍ مُتتابِعات لتصنع حريقًا يأكل كلّ شيءٍ في طريقه ، ولا تستطيع كلّ مياه الحِكمة بعد ذلك أن تُطفئه .

اجتمع الرّئيس مع العُمداء لِتدارُكِ الموقف المُتسارع . طلب منه أحد العمداء أن يلتقي بزعماء الحركة الاحتجاجيّة ، لكنّه رفض باستِعلاء . وأوكل إلى نائبه أن يقوم بذلك بدلاً منه . لم أقابل استعلاءه باستِعلاء ؛ فبعثتُ اثنين من القيادات الجديدة غير المعروفة لدى المُخابرات بعد ، اثنين ليس لهما خِبرةٌ بالعمل الطّلاّبيّ إلاّ أنّهما كانا من المتحمّسين في تلك الأيّام للوقوف إلى جانب زملائهم والدّفاع

عنهم ، قلتُ في نفسي : إذا كان سينتج عن هذا الاجتِماع شيءٌ فسيكون بسببٍ من حماستهم لاسترداد حقوق زملائهم . المطالب ليستْ كبيرة : إعادة المفصولين ، ورفع العقوبات ، والإفراج عن كافّة المعتقلين ؛ المطلب الأخير أضافتْه الأحداث الأخيرة ، لم يكنْ هناك معتقلون منّا قبل يوم الأحد الفائت . لم يكن نائب الرّئيس مُخوّلاً بإنفاذ أيّ قرار ، ولا حتّى بالتّفويض فيه . كان مجرّد محاولة بائسة من الرّئيس لتهدئة الموجة الّتي بدأت تعلو وتعلو حتّى صار الغرق في عُبابها أمرًا يكاد يكون محتومًا . رجع الزّميلان اللّذان بعثتُهما بخُفَّيْ حُنَين ؛ في الحقيقة كنتُ أعرف أنّ ذلك سيحدث ولكنّني كنتُ أدرّبها على التّفاوض ومواجهة المسؤولين!!

ظلّ مجلس العمداء في اجتِماع مع الرّئيس ، وأدرك الرّئيس أنّ الطّلبة سيقومون بمنع عقد الامتحانات في القاعات ، فطرح الأمر للنّقاش ، وخرج المجلس المُوقّر بضرورة الاستمرار في الدّراسة وعدم تعليقها ، وإقامة الامتحانات المُقرّرة في مواعيدها . والسّؤال الّذي كان يجب أن يجيب عليه أحدٌ منهم : مَنْ سيقوم بتأدية الامتحانات وحوالي ٧٠٪ من الطّلبة مُشارِكون في هذه الثّورة الّتي طغى فيها الماء ولا جارية!!

كانت الدّولة قد قرّرت أن تضرب أطواقًا أمنيّة متعدّدة من أجل إحكام سيطرتها على الموقف ، وجاء هذا في غير حُسبانِها ، إذ إنّ الأطواق الثّلاثة الّتي فُرِضت حول الجامعة بعد اليوم الأوّل قد وسّعتْ دائرة المشاركة من غير الطّلبة ، فدخل عنصر جديد في المُعادَلة ؛ وهم الأهالي . ولم يكنْ هذا العنصر في صالح الثّورة دائمًا . وإن كان قد مال إلى جانبها أكثر ممّا ابتعدَ عنه .

بعد خروجنا الجماعيّ في اليوم الثّاني ، لم تتركْنا الشّرطة والجيش

بعد أن نالتْ هراواتهم من أجسادنا ، ظلّتْ تُلاحِقنا في الحارات والأزقّة والطّرُقات . وكان منظرًا سينمائيًا لم يحلم به خيال أكثر المُخرجين إبداعًا . كانت إربد بكاملها تشترك في هذا المشهد التّاريخيّ الّذي لا يتكرّر . كانت قنابل الغاز تُطلق باتّجاه أيّ تجمّع طلاّبيّ مُبعثرٍ هنا أو هناك فارتفعتْ سُحُبُ الدّخان في أجواء المدينة الهادئة ، وعلتْ صفّارات الإنذار من السّيّارات العسكريّة وسيّارات الشّرطة ، وتمّتْ الملاحقة بهذه السّيارات لجاميع الطّلبة في الشّوارع الواسعة ، ولم تنجُ هذه المجاميع من (الدّرّاجات النّاريّة) الّتي راحت أيضًا تتبّع أثر الطّلبة الخارجين كالنّمل من تلك البوّابة في كلّ الاتّجاهات .

مشهدٌ لم يكنْ مألوفًا من قبل أن ترى بعض الأهالي يقومون بحماية الطّلاّب الهاربين حتّى لا يتمّ اعتقالهم ، عددٌ منهم اختبأ داخل البيوت بعد أن فتح لهم أصحابُها أبوابَها ، وبعضهم نام تلك اللّيلة بكاملها هناك ، عشرات منّا ، بل مئات لم يتمّ اعتِقالهم لأنّ تلاحم الأهل مع قضيّتنا مكّننا من الإفلات . بعضُ هؤلاء الأهالي الطّيّبين قذفوا الحجارة في وجوه العساكر ليس تهجّمًا بقدر ما كان إنقاذًا لطالبٍ هنا أو هناك . فيما كانت سُحُب الدّخان تُغطّي سماء المدينة الوادعة وعددٌ غير قليل يسقط من التعّب أو الإغماء أو الاختِناق جرّاء الغازات المسيلة للدّموع ، كان عددٌ آخر من أهل المدينة يقوم بإسعاف هؤلاء المُختنقين ، حملونا في سيّاراتهم الخاصّة إلى المُستشفيات ، وقام مِمّن كان منهم طبيبًا بإجراء الإسعافات الأوّلية لبعضنا ، وعددٌ كافٍ كان يحمل بين يديه رؤوس البصل يوزّعها على مَنْ أصابتْهم عوادم الغاز لكي يتخلّصوا من آثاره بفَرك رؤوس البصل تلك في العيون أو شمّها .

انقضّ اثنان من الشّرطة في زاروبةٍ قصيّة جهة الشّمال على أحد الطّلبة وتمكّنا منه ، وفيما كانا ينهمِكانِ في وضع القيود في يديه وجرّه إلى المُدرّعة لاعتِقاله مع عددٍ آخر من المعتقلين برز لهما عجوزٌ ثمانينيّ تكاد رِجلاه لا تحملانه لطول فِعل الدّهر فيه وفيهما ، يتّكئ على عُكّازٍ يستعين به على المشي . كان على بُعد بضع خُطواتٍ من الشّرطيّين صاح بهما لِيُفلتاه ، ولمّا حانت منهما التفاتةٌ إليه ضحكا ساخِرَين وأهملاه ، فيما انقضّ هو عليهما ودبّت في رجليه الحياةُ فعادَ شابًّا ، وشمّر عن لباسه بيدٍ ، ورفع عُكّازه بيده الأخرى واتّجه نحوهما كشابٍ عشرينيّ وهو يتوعّد ويُرغي ويُزبِد ، وما إن صارا على مرمى ضرباته حتّى هوى بالعُكّاز على رؤوسهما وراحا يتلقّيان الضّربات وهما يقولان : يا حجّي . . . يا حجّي . . . هذا مُخرّب . . . هذا بدّو يخرّب البلد يا حجّي . . . فيما كان هو مستمرّ في لسعهما بعصاه الخشبيّة الصّلبة على قُمعة رؤوسهما وهو يقول : هاذا بدّو يخرب البلد . . . إنتو إلّي خرّبتوها يا ولاد الكلب . . واسترحم الشّرطيّان من جرّاء ضرباته ، وأفلتا الطّالب ولاذا بالفِرار . . . فيما راح الطّالب يقبّل رأس العجوز على عَجَلٍ ويولّي هاربًا مُختبئًا داخل أحد البيوت!

بعد الخروج من البوّابة الرّئيسيّة ظلّت العيون تنهلّ بالدّمع الحارّ ، والأفواه تشتعل بالسّعال ، والأقدام تتخبّط في مشيتها . أمّا الأهالي من الشّباب خاصّة فظلّوا يحملون الماء في أيديهم يطوفون بها على الطّلاّب يغسلون بها وجوههم ، وما علق بأيديهم من الدّم أو التّراب لعلّها تُخفّف وطأة الاحتراق والصّوم والعطش .

كان الإخوان منذ مساء اليوم الأوّل قد وزّعوا على أمناء المساجد ممّن ينتسبون إلى الجماعة بلاغًا يقتضي أن يخرج شباب كلّ مسجدٍ إلى

الحارات والشّوارع القريبة من الجامعة لمساندة الطّلبة الثّوّار . وأذكر أنّ بعض القيادات أخبرتْني أنّ أكثر من عشرة مساجد قد شاركتْ في المُساندة بما تستطيع ، يزيد عدد منتسبيها عن مئة وخمسين ، وكانوا عونًا كبيرًا لنا .

تحوّلت إربد كلّها مساء اليوم الثّاني الاثنين إلى ساحة حرب حقيقيّة ، بعضُ زملائنا ممّن أصابتهم الهراوات لحظةَ الخروج قرّر الرّدّ من باب : (العينُ بالعين والسّنّ بالسّنّ) ، فاقتلع غصنًا من شجرةً ، أو حمل حجرًا أو طوبةً أو زجاجةً فارغةً وراح يقذف بها وجوه الشّرطة وظهورهم ، ولا شكّ أنّ عددًا منهم قد أصيب وجُرِح في هذه المواجهة ، وناله ما نال الطّلبةَ أو أكثر . وامتاز الفريقان ، وبدا أنّ أُوار الحرب ماضٍ إلى مزيدٍ من الاستعار والسُّعار!!

رأيتُ من بعيد الجموع تتفرّق ، والطّلبة ينسابون في الحارات ، والطّالبات يَلُذْنَ بالفرار ، ومجاميع هنا أو هناك ترتدّ فتقاتل ، والهياج يملأ المكان ، وصوت قذائف قنابل الغاز الّذي صار موسيقى المشهد المألوفة يصدح في الأجواء ، وهي الموسيقى الّتي ظلّتْ صادِحة تهوي فوق رؤوسنا وبين أقدامنا لأكثر من ثلاث ساعاتٍ . ودخلني الحُزن على ما أُلنا إليه كما لم يدخلني من قبل ، وفي تلك اللّحظة كنتُ أقول لنفسي : لو أنّ رئيس الجامعة صدرَ عن رأيه لا عن رأي الأجهزة الأمنيّة وتصرّف بحكمةٍ بالغة لما تحوّلنا إلى هذا المشهد المأساويّ الفاجع . وفيما كنتُ أُدراي دمعةً حارّة تسقط على خدّي كنتُ أبحثُ عن بعضِ المُقرّبين لكي يوصل إلى القيادات دعوة طارئة لاجتماعٍ طارئ ؛ فلقد زاد إصراري على أن أقود الثّورة بحزم وقوّة حتّى تبلغَ السّفينة في البحر الهائج مُنتهاها ، وبدا أنّنا في يد القَدَر إمّا أن ننجو وإمّا أن نغرق!!

وسّعتُ خُطايَ وأنا أمضي إلى محلّ الألبسة الشّرعية في شارع (السينما) ، كان أذان المغرب قد ارتفع منذ زمنٍ ، وعلتْ أصوات الصّلوات بالتّراويح ، سألتُ البائع إنّني أريدُ (جلبابًا) لِزوجتي ، وطلبتُ منه أن يكون فضفاضًا وضافِيًا ، أشار إليّ بعددٍ منها ، اخترتُ اللّون الأسود ، ودخلتُ لأجرّبه . التفت البائع إليّ مُندهشًا ، وسألني : هل ستقوم بقياس الجلباب؟! أجبتُه دون أن أنتبه إلى دوافع استغرابه : نعم . فازدادت عيناه اتّساعًا ، ففطنتُ إلى ما وقعتُ فيه ، فسارعتُ إلى القول : إنّ زوجتي بطولي وبعرضي تمامًا ، وأريد أن أفاجِئها بعيد زواجنا الأوّل بهذه الهديّة ، فإذا ما جاء على مقاسي سيجيء على مقاسها . بانت ابتسامة خفيفةٌ على وجهه وإنْ لم يقتنع تمامًا بأسبابي وأشار إلى غرفة القياس . نقدتُهُ الثّمن وخرجتُ . اتجهتُ إلى الشّمال ، عبرتُ بعض الأزقّة المنسيّة ، أفطرتُ على عجلٍ ، وانطلقتُ إلى دوّار الإسكان .

سامحيني يا (نعيمة) ، لم أتخلَّ عنكِ محنتكِ ، الدّولة هي الّتي اضطرّتْني لذلك ، غير أنّني سأعمل المستحيل من أجل أن أطمئنّ عليكِ اليوم . ها أنذا تجتاحُني رغبةٌ جارفة في أن أزورك مع أنّ العيون تتربّص بي من كلّ صوب ، وفي كلّ حينٍ . لكنّني لن أعدم الوسيلة ، ومن يدري قد تُصبح الأمور أصعبَ مِمّا هي عليه فلا أستطيع أن أراكِ فيما بعدُ مهما حاولتُ .

خلف السّوق التّجاريّة الّتي ينتهي طرفها الجنوبيّ بدوّار الإسكان ، هناك زُقاق في منتصف هذه السّوق لا يدخله أحدٌ ، إلاّ مَنْ كان يقصد أن يخترقه ليصل إلى الضّفّة الأخرى حيثُ بيوت القاطنين هناك . دخلتهُ متلفّتًا حولي وخلفي ، وفي منتصفه كان هناك بابٌ

يُفضي بدرج أرضيّ إلى مخزنٍ لأحد المحالّ التّجاريّة انزويتُ فيه . أخرجتُ الجلباب . أدخلتُ رأسي فيه ، وأسدلتُه على جسمي فوق القميص وبنطلون الجينز ، وباللّفحة السّوداء صنعتُ إشاربًا لفّ كامل رأسي ، وأخفى نصف وجهي ، وخرجتُ عائدًا إلى الشّارع الرّئيسيّ .

مشيتُ بهدوء ، وحاولتُ جاهدًا أن أقلّد مشية امرأةٍ مُحتَرمة ، في الحقيقة لا أدري كيف يُمكن أن تكون هذه المشية ، المهمّ أنّني مشيتُ ، كانت كلّ جوارحي في الدّاخل تأمل ألاّ ينكشف أمري من خلال مشيتي . تجاوزتُ الدّوّار واتجهتُ إلى بيتنا القديم ؛ بيت (نعيمة) . الشّارع الصّغير المؤدّي إليه كان يعجّ بالعساكر ، خفتُ أوّل الأمر من الاستمرار ، ولكنّني تشجّعتُ حينَ تذكّرتُ مسحة المرض الّتي زادتْ وجهها حزنًا صباح أمس ونحن نودّعها أنا و(سِراج) ، وحينَ تذكّرتُ ما صَنعتْه لنا طوال خمس سنين من عمرنا المشترك معها أنا وبقيّة المجانين الّذين سكنوا (رُوفَها) . لم ينتبه أحدٌ إليّ في الطّريق الواصلة إلى البيت من عناصر الشّرطة والأمن ، ظنّوني امرأةً بالفعل ، شعرتُ بالحبور والفخر ، قلتُ في نفسي : (لا بُدّ أنّني مُمثّلٌ بارع) ، دفعتُ الباب الخارجيّ وأنا ألقي نظرةً أخيرة على المرصوفين خلفي من الحَرَس ، والتقتْ عيناي بعينَي أحدهم ، فأشحتُ النّظر لئلا أنكشف ؛ لقد ساعدني الظّلام في حقيقة الأمر . دخلتُ الحديقة الأماميّة ، وصرتُ في مواجهة الباب الدّاخلي ، طرقتُ الباب ، هممتُ بالدّخول مباشرةً ولكنّني انتظرتُ قليلاً . يبدو أنّها نهضتْ من فِراشِها مُتثاقلة ، حينَ رأتْني استغربتْ من منظري ، لم تعهد زيارةً من امرأةٍ بهذه الهيئة من قبل ، حاولتُ أن أشرح الموقف فاقتربْتُ منها لأهمس في أذنها مَنْ

أكون . دبّ في وجهها النّكران والخوف . تراجعتْ إلى الوراء وأرادت أن تُطبق الباب في وجهي . قلت لها بسرعة : أنا (وَرْد) يا خالة . . . أنا (وَرْد) . صرختْ من هول المفاجأة بأعلى صوتها : وَرْد . . . أشرتُ لها أن تخفض صوتها فأنا مُلاحَقٌ ومُراقَب . أمسكتْني من يدي وأدخلتْني إلى غرفتها ، أمطتُ اللّثام عن وجهي وجلستُ إليها :

– كيف حالك يا خالتي . . . أبيتُ إلاّ أن أراكِ رغم صعوبة الظّروف .

– الله يحميك أنتَ وأصحابَك . أعرف كلّ ما يدور ، وأنتم على الحقّ فلا تتردّدوا .

– سنفعل إنْ شاء الله ، ولكنّ الأمور اتخذتْ مسار المواجهة ، لم أكنْ أريد ذلك ولا أسعى إليه .

– الحرّيّة يا (وَرْد) هي الّتي تختار الطّريقة الّتي تأتيكم بها ؛ أنتم تسعون إليها ، ولكنّها هي الّتي تحدّد السّبيل الّتي تسعى فيه إليكم .

– يهمّني صحّتكِ الآن . متى موعد مراجعة المستشفى؟!

– مطلع الأسبوع القادم ، لكنّني بخير .

– هل تتدبّرين أمورك جيّدًا .

– تمامًا ؛ كأنّ (ناصر) معي .

– سأجهّز لك الحليب والماء وبعض الطّعام .

– لا تتعب نفسك ، تناولتُ إفطاري منذ قليلٍ ؛ لستُ جائعة .

– أخاف من القادم يا خالة .

– إذا كان لديك اليقين ، فإنّ الخوف لا وجود له ، نحن نخاف بِقَدْر ما يتسرّب من هذا اليقين خارج قلوبنا ، املأْ رُوحَك به تستصغرْ كلّ تعبٍ في سبيل الغاية .

- أريد أن أطلب منك شيئًا . . .

لم أكدْ أُكمِلُ عبارتي الأخيرة حتّى تناهى إلى مسامعنا صرخات العسكر ، ووقع أقدامهم المتسارعة وهي تهمّ باختراق السّاحة الأماميّة ، بدا لي منظرهم من خلال الشّباك المقابل للبوّابة وحوشًا مفترسة تهجم على صيدٍ ثمين ، قفزتُ من مكاني ، تلفّتُّ حولي بحثًا عن مهرب ، كانت هي الأخرى قد قفزتْ عن سريرها ، وتوجّهتْ نحوهم لتمنعهم من عبور الباب الدّاخليّ للبيت ، أشارت لي برأسها إلى الجهة المُعاكِسة ، وقالت بصوتٍ شديد الحنان في لحظةٍ شديدة الرّهبة : اهرب . . اهرب من هنا . . . شاغلتْهم . . . صرختْ بهم . . . رمت في وجوههم حذاءها . . . مَنْ تُلاحِقون يا كلاب . . . هؤلاء الشّرفاء . . . والله لو كان (ناصر) هنا لكان علّمكم معنى أن تقتحموا بيت أرملة . . . أيّها الوحوش . . . أيّها القَتَلة . . . ثمّ تناولت ما على الأرض من مَداسات ورمتْهم بها ، توقّفوا لمنظر المرأة المُستأسِدة ، ثمّ تراجعوا إلى الوراء رويدًا رويدًا ، ولكنّها لم تتركهم حتّى وهم يتراجعون ، بل تناولت بعض الحجارة الملقاة في الحديقة ورشقتْهم بها . كنتُ في هذه اللّحظات أتسلّل من شبابيك الغرف الدّاخليّة وأهرب عبر الحديقة الخلفيّة ، عبرتُ الغرفة المؤقّتة الّتي بنيناها أنا و(سراج) تحت الدّالية ، والّتي لم ننم فيها أكثر من ساعتين ، ومن هناك صعدتُ السّور إلى حديقة الجيران . . . قبل أن أصعد السّور تخلّصتُ من الجلباب لكي لا يُعيق حركتي ، ثمّ ركضتُ في المساحة الخالية حتّى مدارس الوكالة ، قفزتُ عن سورها الإسمنتيّ ، وصرتُ داخل الملعب الإسفلتيّ ، عبرتُه باتّجاه الحمّامات ، ثمّ اختبأت في أحد الصّفوف البعيدة . قرفصتُ خلف أحد أدراج الطّلبة حتّى لا يراني مَنْ يدخل هذا الصّفّ إذا وصل

إلى هُنا ، وظلّت عيوني مُعلّقةً بالشّبّاك الّذي يُشبه شَبَكُه الخارجيّ أقفاص الدّجاج خوفًا من أن يهتدي أحدُ العساكر من خلاله إلى مخبئي .

مرّتْ نصفُ ساعةٍ كأنّها دهرٌ وأنا ألتقطُ أنفاسي ، وأفكّر في الخُطوات القادِمة . أهمّ ما كان يشغلني في تلك اللّحظات كيفيّة الالتِقاء ولو ببعض القيادات من أجل التّشاور ، ورغم أنّني أدرك أنّ الثّورة قد مضتْ في سِكّتها ، وصار بمقدورها أن تقود نفسَها بنفسِها ، إلاّ أنّه كان لا بُدّ من التّخطيط والتّقويم والمُراجعة .

تسلّلتُ من الصّفّ ، وخرجتُ بهدوء . كانت أضواء الشّارع المؤدّي إلى حيّ القصيلة باهتة ، والسّيّارات تعبره بكسل ، لم أشأ أن أعود إلى الغرفة الّتي استأجرتُها مؤخّرًا لثلاثة أسباب : الأوّل أنّها كانت بعيدة وأنا كنتُ مرهقًا حدّ الموت ، ومُتعبًا حدّ الهذيان . والثّاني : أنّ الطّريق إليها تمرّ عبر دوّار الإسكان المملوء بالعساكر المتطلّعة للقبض عليّ ، والثّالث : أنّ أحد المساجد الّتي تُعقَد فيها الاجتماعات التّنظيميّة صار قريبًا ، والوصول إليه من أجل قسطٍ من الرّاحة ممكنٌ وآمنٌ نسبيًّا . أصلحتُ ما فسدَ مِن هِندامي بسبب هذه المُطاردة اللّعينة ، ومضيتُ في طريقي إلى مسجد (الأبرار) ، كانت السّاعة قد اقتربتْ من الحادية عشرةَ ليلاً . هويتُ في الدّرج المؤدّي إلى دار القرآن الكريم ، أملك مفتاحًا لها ، طالما أعطيتُ فيها دروسًا في التّلاوة لشباب المسجد ، ومرّات عقدْنا فيها الأُسَر ، كان إمام المسجد يثق بي ثقةً مُطلقة ، فملّكني نُسخةً من المفتاح . دفعتُ الباب ودخلتُ . أويتُ إلى فرشةٍ من الفرشاتِ المُتناثرة وسرعان ما نمتُ ؛ أعرف تمامًا أنّ الفجر يحمل المفاجآت والهدايا دائِمًا ، ولذلك نِمتُ على أملٍ بغدٍ أفضل .

(٤٦)
الرِّيشَة

استيقظتُ قبل الفجر مذعورًا ، كنتُ أحلم أنّ العساكر ألقوا القبضَ عليّ ، رأيتُ (سراج) في الحلم يُشير بإصبعه إلى (صالح) ، لم يكدْ يُشير إليه حتّى هبطتْ عليه من السّماء مجموعةً من النّسور الجوارح واختطفتْه وحلّقتْ به عاليًا ، ذُهِلتُ حين رأيته يستسلم لمخالبها ويبتسم ولا يُبدي أيّ مُقاومة ، وعلى وَمْض ابتسامته النّاصعة تساقطتْ قطراتٌ من الدّم على وجهي وأنا أنظر إليه صاعِدًا إلى الأعالي . دَوَّتْ صرخةٌ شقّت سكون الفضاء شايعتُها بصرخةٍ مماثلة واستيقظتُ فَزِعًا . أزحتُ الغِطاء عنّي ، قمتُ مُترنّحًا وبائسًا ، أشعلتُ الضّوء ، وتلفّتُّ حولي ، كنتُ وحدي في القاعة الأرضيّة المليئة بالرّطوبة لطول عهدها بالشّمس ، تثاءبتُ . شعرتُ بجوعٍ شديدٍ وعطشٍ مُستشرٍ ، بحثتُ في الأرجاء عن شيءٍ آكُلُه ، وجدتُ بعضَ التّمرات الباقياتٍ فيما يبدو من حفلةِ إفطارٍ سابقة ، أكلتُ كلّ ما وجدته هناك من التّمر بشهيّة جائع إلى الطّعامٍ منذ قرون ، كان قد بقي على أذان الفجر نصف ساعة ، توضأتُ وصعدتُ إلى المسجد ، شربتُ ماءً ، وصلّيتُ أربع ركعات ، لهجنَ جميعهنّ بالدّعاء بين الخوف والرّجاء ، وقمتُ بين يدي الله بالكلمات الضّارعات المُتذلّلات . بعد الصّلاة التقينا من جديدٍ ، كُنّا خمسةً . حينَ انتظمَ عِقدُنا سألتُهم أوّل ما

سألتُهم عن (صالح) ، قال لي أحدهم : إنّه بخير ، وهو مُختبئ في بيت أحد الإخوة بعيدًا عن الأعين . وفي التّاسعة صار الاتّفاق معه ومع الآخرين أن نلتقي خلف مطعم البستان لنتّفق على عجلٍ على صورة الدّخول في هذا اليوم الثّالث . حمدتُ الله في سرّي أنّ (صالح) بخير وهتفتُ : «أضغاثُ أحلامٍ» ، ويبدو أنّ العناء والتّعب والخوف والجوع والعطش والتّرقّب والحذر كلّ هذا أنتج ذلك الكابوس الفظيع . و(نائل) سألتُ مُقاطِعًا أحد الإخوة الّذين كانوا يناقِشون في استراتيجيّة العمل لهذا اليوم ، فردّ : (نائل)؟! لا أحد يستطيع أن يعتقله ، أعتقد أنّه يحتاج إلى جيشٍ كاملٍ للإمساكِ به . ضَحِكنا وجراحنا تسيل ، وابتسمْنا وألمنا يعضّ بأسنانه على قلوبنا!!

كانت الغالبيّة العُظمى من قياداتنا تلتقي في ثلاثة مساجد هي : مسجد (عبد الله التّل) ومسجد (الأبرار) ، ومسجد (الهامي) ، في حين أنّ مسجد (الجامعة) كان قد حُرّم على هذه اللّقاءات بعد اندلاع الاحتِجاجات وتطويق العسكر للأسوار . وكان في كلّ مسجدٍ عددٌ من طلبة الإخوان الدّارسين في جامعة اليرموك ، أحدهم كان يتولّى مسؤوليّة تفعيل النّشاطات في كلّ مسجدٍ على حِدة ، وكان في كلّ مسجد عدّة حلقات ودروس ، ينضمّ إليها عددٌ لا يُستهان به من الأهالي كِبارًا وصِغارًا ، وكانت دعوة الإخوان في المساجد تقوم على هذا الأمر في بعضِ ما تقوم عليه ، ولهذا كانت الدّعوة تنتشر بين النّاس وتجد صدىً طيّبًا ؛ لم يكنْ لأهلِ إربد المسالمين هدفٌ أكبر من أن يتعلّم أبناؤهم الصّغارُ القرآنَ والحديثَ ويحفظونهما ، إضافةً إلى عددٍ من النّشاطات الأخرى التّرفيهيّة الّتي كانت تجتذب أفرادًا ليس لهم من صلةٍ بالإخوان إلاّ أنّهم وجدوا أنفسهم ينخرطون في هذه

النّشاطات لمتعتها وفائدتها ؛ كُنّا ننظّم الرّحلات التّرفيهية ، وحفلات تكريم الفائزين بمسابقات القرآن ، وسهرات السّمر ، وهذه الأخيرة كانت تعجّ بالأسئلة الّتي تُسرّب المعلومة الّتي نُريدها إلى أذهان الأهالي وأبنائهم ، كنّا نتوخّى الأسئلة الّتي تكشف في إجابتها عن ماضي المسلمين المُشرق وسيرة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتاريخ الصّحابة وبطولات القادة العِظام . أمّا النّشاط الموسميّ الّذي كان تتويجًا لكلّ هذه الأنشطة ويجمع بينها في بوتقةٍ واحدة ، ويحمل في مضمونه إيجابيّات تسع كلّ ما سبق فقد كان : المُخيّمات .

كانت المُخيّمات تُقام مرّتين في السّنة ، مرّة في الصّيف وأخرى في الشّتاء ، المخيّم الصّيفيّ كان غالِبًا ما يُقام في (دِبّين) حيثُ سلسلة جبال عجلون المُرتفعة تخفّف من حرارة الجوّ اللاّهبة ، والمخيّم الشّتويّ كان غالِبًا ما يُقام في الغور ، وبالأخصّ في منطقة (وادي اليابس) ليجعل الفصل القاسي ببرودته مُحتمَلاً . لم يكنْ هناك أفضل من المخيّمات لتربية النّفوس ، كانت المخيّمات فرصةً لتعلّم الانضِباط ، والصّبر ، والطّاعة ، والاحتِمال . وكانت أجواؤها مختلفةً تمامًا عمّا يعيشه الإنسان في بيته وبين أهله ، كنّا في المخيّمات نُصلح ما فسد من نفوسنا ، ونعدل ما اعوجّ من مِزاجها ، وكان اقتسام الحياة بمصاعبها بين تلك الخيم في الجبال الشّاهقة دليلٌ على أنّ الحياة الّتي يُمكن أن نحياها بشكلٍ أجمل هي ليست الحياة الّتى دأبْنا على الرّتوع في ملذّاتها وأهوائها . وعلى أنّني لم أكن أميرًا لأيّ من المخيّمات السّتّة الّتي شهدتُها إلاّ أنّني كنتُ مسؤولاً عن خيمةٍ في واحدٍ أو اثنين من هذه المُخيَّمات . كانت كلّ خيمةٍ تضمّ في داخلها ما لا يقلّ عن عشرة أفراد ، ننام على الأرض ، ونصحو في الصّباح لنتهيأ لصلاة الفجر ،

وقراءة المأثورات بعدها ، ونطوف حول المخيّم في ساعةٍ رياضيّة ، ثمّ نعود لكي نتناول طعام الإفطار ، ثمّ يبدأ من بعدها البرنامج الأكمل الّذي يضمّ مُحاضرين قد يقطعون المسافات البعيدة ليُحاضِروا فينا ، أو الدّروس الّتي نتلقّاها من بعض الأمراء في الدّاخل . ولا عجب أنّ تنظيم مثل هذه المُخيّمات كان ينطوي على خطورة بالغة أو مُخاطرة ، وأكثر من مرّة كان الأمنُ يُوقِفنا ونحن قافِلون بعد انتهائها ويحجز هويّاتنا إلاّ من تذرّع بعدم حمله لتلك الهويّة وكثيرٌ ما هم .

كانت هناك مجموعات لإعداد الطّعام ، وأخرى لتنظيف المخيّم ، وثالثة لحراسته ، ورابعة لإعداد حفلات السّمر اللّيليّة . ولا شكّ أنّ حفلات السّمر هذه ألهمت الكثيرين وأنتجتْ ممثّلين أو شعراء أو مُنشِدين اكتُشِفت مواهبهم داخل المخيّم ذاته ، ولم يكونوا هم يعرفونها عندَ أنفسهم من قبلُ . وليس هذا كلّ شيءٍ ، إنّ الأخوّة الّتي كنّا نتشرّبها تشرُّبًا هناك حين اقتسمْنا قساوة الحياة ليس لها مثيلٌ في العالَم كلّه ، وإنّ اللذّة المتحصّلة منها لا تُعادلها لذّة أخرى ، وإنّ الصّفاء الرّوحي الّذي كُنّا نعايشه لم يجرّبه أحدُ منّا من قبلُ ومن بعدُ ؛ ولهذا كلّه كان يوم إعلان انتهاء المخيّم والعودة إلى إربد مأساويًا ، وكُنّا ننظّم مشهدًا وداعيًا لائقًا نقف فيه جميعًا ولربّما زاد عددنا حينئذٍ عن المئة أو المئتين ، نقف في دائرة مُغلقة في ساحة مفتوحة ، وبعد أن يُلقي أمير المخيّم الكلمة الوداعيّة المؤثّرة ، يبدأ هو بالسّلام على من يليه على يمينه ، ومن ثمّ الّذي يليه يفعل الشّيء ذاته ، فإذا انتهى الأمير عاد ووقف في موضعه الأوّل ، ويفعل الّذي يليه الفِعل ذاته ، وهكذا كان كلّ واحدٍ يُسلّم على كلّ مَنْ في المخيّم يُعانقه ويودّعه . ولو أنّ السّماء يومها كانت ذات عيون لبكت على بُكائنا ونحن نفارق المكان الّذي أَلِفْناه لأسبوع

أو لعشرة أيّام وأَلِفَنا ، وذُقنا فيه حلاوة الأخوّة ، ونقّينا فيه أرواحنا من كلّ خبث . ولقد كان بعضُنا مِمّن كتب في قلبه الرّحمة يبكي بُكاء المذهول ، ويُداري دمعه بيديه مُداراة غيرِ المُصدّق ، ويأبى أن يترك المكان حتّى يأتيه أقرب الإخوة إليه فيخفّف من لوعته ، ويُهدّئ من رَوعِه ؛ هذه هي دعوة الإخوان ؛ دعوة المحبّة والتّعاون والصّفاء والنّقاء!!

كان الإخوة قد قرّروا أن يشكّلوا مجموعة من خمسةٍ من الإخوة ذوي الأجساد الشّديدة للإحاطة بي في كافّة تحرّكاتي منذ اليوم ، كان أحدهم بالطّبع (نائل) . قالوا : يهمّنا ألاّ تُعتَقل مهما كانت الظّروف ، تملكُ إشارة البَدْء في (أوركسترا) كاملة ، ولا أحد يُمكن أن يكون بديلاً عنك في هذه المرحلة!!

«الرّيشة» : مُصطَلح جديد أنتجتْه أحداث اليوم الثّاني ، ويعني مجموعة من التّبليغات ، كلّ «ريشة» تحمل تبليغًا واحِدًا فقط إلاّ إذا اقتضت الضّرورة غير ذلك ، على هذا التّبليغ أن يطوف على كافّة كوادر الإخوان إمّا في السّحور أو على صلاة الفجر ، والتّبليغ الّذي تحمله «الرّيشة» يُعدّ أمرًا مُقدَّسًا ؛ إذ إنّه يتوجّب على كلّ من تصله تلك «الرّيشة» أن ينفّذ الأمر الّذي تتضمنه بحذافيره دون أن يسأل كيف أو لماذا ، ودون أن يُفكّر في العواقب . وهناك (قيّم) للتّبليغات ، وهو مسؤول الرّقباء في التّنظيم ، يتكفّل بتوصيلها إلى كلّ رقيب ، وكلّ رقيب يوصلها إلى كلّ نقيب ، وكلّ نقيب يوصلها إلى كلّ فردٍ بما استطاع .

في التّاسعة إلاّ عشر دقائق كنّا أكثر من مئتي إخوانيّ نقف مثل طيورٍ مُهاجرة قرب حائطٍ خلفيّ لمطاعم (أبو محمود) ننتظر صعود الجبل بعد لَيلةٍ صاخبةٍ نمناها على السّفح ، لم يكنْ هناك من شيءٍ لنقوله إلاّ

شيءٌ واحِدٌ : «هل وصلتْ إليكم الرّيشة» . قال بعضُ الموجودين : أيّ ريشة؟! ماذا تقصدون؟! كانوا من اليساريّين ، أعرفهم واحِدًا واحِدًا ، طفتُ عليهم أعرض لهم فحوى الرّيشة ، قال لي (وصفي) : تنظيم الإخوان تنظيم هرميّ ما أشبهه بالما . . . وضعتُ يدي على فمه قبل أن يُكمل ويسمعه شباب الإخوان فيحدث ما نحن في غنىً عنه في هذه اللّحظات ، بعد أن رفعتُ يدي عن فمه قال لي : أنا أمزح يا رجل ، ثمّ أنا قلتُ يشبهه في الطّريقة الهرميّة ، لا أقصد في الأفكار ، فمن يُنكر أنّ تنظيمًا يعتمد على هذه الطّريقة في إدارته وديمومته هو تنظيمٌ حديدي!! تجاهلتُ كلماته لحاجتي إلى تهيئة ظروف الدّخول بطريقة ناجحة ولو نسبيًا . رفعتُ يدي ، وتصدّرتُ المجموعة وكان هذا إيذانًا بالانطِلاق . توجّهنا في مجموعاتٍ إلى البوّابة الشّماليّة ، كان سور الجامعة الشّماليّ يمتدّ عن يمين هذه البوابّة حتّى دوّار الجامعة ، وعن شِمالها حتّى جهة المُحافَظة . وكان السّور الّذي يقع عن يمينها أقلّ ارتِفاعًا من ذلك الّذي يقع عن شِمالها ، وفيما كان الأوّل الّذي تقع خلفه كلّيّات العلوم يرتفع لمترٍ ونصف أو أقلّ كان الثّاني يرتفع لما يقرب من ثلاثة أمتار . ولذا كان الأمر التّنظيمي الّذي تحمله الرّيشة قد وصل على النّحو الآتي : «اصطفّوا في ثلاثة صفوف مُنتَظمة جهة السّور الواطئ ، وتحيّنوا الفرصة المناسبة ، واركضوا باتّجاهه واقفزوا عنه إلى الدّاخل» . كان أمرًا حركيًّا لا يُمكن التّهاون فيه ، أطلقنا سيقاننا للرّيح ، تسلّقنا السّور أمسكْنا بالشّبك الحديديّ الّذي يعلوه لعشرين سنتيمترًا وفي لحظات كان العشرات منّا في الدّاخل ، بعضُنا لم يستطع القفز ، اكتسب أفضليّة التّنفيذ ووقع في الاعتِقال ، تصايح العسكر ، هجموا علينا من كلّ صوبٍ لم تُمهلهم الحركة المُفاجِئة لكي

يعتقلوا المزيد إلاّ أنّ بعضَ الإخوة سقطوا في أيديهم ، كان (صالح) من هؤلاء ، رأيتُهُ يبتسم كما في الحلم ، كانوا أكثر من عشرةٍ قد حملوه كما يحملون تابوتًا ، كان مقصودًا دون سِواه في الاعتِقال ، نالت هراواتهم من وجهه ، سال دمه على وجهه وهم يحملونه ، ركضوا به في اتّجاه إحدى مُدرَّعاتهم وقذفوه داخلها . لم يعد مُمكِنًا أن تسمح للأسى أن يغتال صمودَك ، كنتُ لحظتها كذئبٍ عجوز فقد إحدى عينيه ، سحبتُ كتلةً كبيرةً من الهواء إلى داخلي ثمّ أطلقتُها على شكلِ آهةٍ كبيرةٍ حملتْ كلّ معاني القهر والرّضى ، شدّني (نائل) من يدي : «الفكرة لا تموت باعتقال أحدنا ، إذا كنتَ تحبّ (صالح) فهيّا بنا إلى مركز الثّورة ؛ آن لنا أن نُشعلها جمرًا من غضبٍ وإيمانٍ لا ينطفئ مدى الزّمن» . مضيتُ معه إلى المبنى الجديد ، حيثُ سنُعلِن كما في الأيّام السّابِقة بداية الاحتِجاجات ، ولم تُخيّب ظنّنا كلمة السّرّ السّاحرة : «**وَحِّدْ صَفَّكْ . . . وَحِّدْ صَفَّكْ . . . بِالعالي سَمِّعْني كَفَّكْ**» .

فقدْنا حنجرةً ذهبيّة باعتِقال (صالح) ، ولكنّ البركة بالشّباب ؛ فالحناجر هنا كالخناجر ، كلّما شحذتَها أكثر زاد لهيبها وسعيرها .

(٤٧)
إذا لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تُمسكَ بالرِّيحِ فَحاوِلْ أَنْ تُخمِدَ صَوتَها

اسْتَشْرستِ الدّولة ؛ يجب القضاء على هذه المُظاهرات مهما كان الثّمن ، لن يكونَ الثّمن أغلى من نتائج هذه الحركات التّخريبيّة الّتي تهدّد استقرار الأمن في البلد ؛ الإخوان يريدون قلب الحياة رأسًا على عقب ، ولن نسمح لهم بتنفيذ أجندات خارجيّة عميلة ، لو كانوا يريدون مصلحة الأردنّ لطلب رؤوسهم ببساطة من الأفراد أن يكفّوا عن عبثهم هذا ، ولكن إذا كان الرأسُ فاسدًا فكيف سيصلح باقي الجسد ، لا بُدّ إذًا من الحسم . هكذا قالت الدّولة لأبواق الإعلام!!

مَنْ يقول لِمَن؟! السّلطة تقول للعبيد . ما مِنْ حرّ يستمع لحجّة السّلطة ؛ لأنّه يعرف أنّ استعباده في قائمة أهدافها ؛ كلّ مَنْ تولّوا السّلطة ظنّوا أنّ الشّعب مزرعةٌ من الخراف يجب أن تُسمّن ليوم الذّبح الأعظم ، أو أن تُسبّح بحمدها لتتفادى الرّكوع تحت حَدِّ مُديتها!!

بدأنا بالهتافات الصّاخبة ، علتْ أصواتُنا حتّى ارتجّ لها قلبُ السّحاب ، واتّخذت بعضُ الهتافات قوّةً جديدةً استمدّتْها من أحداث الاعتقال الأخيرة ، صارت المجاميع البشريّة الهائلة تهتفُ بأسمائنا واحدًا واحدًا ، تحوّلنا إلى أبطال في طرفة عين ، الدّولة تصنعنا أبطالاً بما تتّخذه في حقّنا من قرارات أوهمتْها القوّة الكاذبة أنّها رادعة ، نكون

أجنّة في رحم البطّولة فإذا أطلقت علينا الدّولة أوّل سهم من سهامها لا نموت ، بل نتحوّل فجأةً إلى مَرَدةٍ وعمالقة ، يحملنا النّاسُ على أكتافهم لأنّنا حملنا همومهم في قلوبنا .

يا مُــــعتقَلْ لا تِهْتَمْ　　　　إِحْـــنا شَـــرّابينِ الدّمْ
يا مَـــفْصول لا تهتــمْ　　　　إِحْـــــنا شَرّابينِ الدّمْ

جاءني من مجموعة المواجهة أنّ هناك خمسَ قاعاتٍ في كلّيّة الآداب تُعقَد فيها الامتِحانات النّهائيّة ، وأُعطِيتُ أرقامها . على الفور شكّلتُ خمس مجموعات كلّ مجموعة تتكوّن من حوالي عشرة طلاّب ولهم أميرٌ مسؤول عنهم ، في يده ورقةٌ مخطوطٌ عليها رقم القاعة والتّعليمات الّتي يجب أن يتقيّد بها حال دخوله هو ومجموعته إلى تلك القاعة .

كان على كلّ مجموعةٍ أن تطرق الباب قبل الدّخول ، تستأذن من الدّكتور الموجود هناك ، ثمّ تدخل بأدبٍ جمّ ، ولطفٍ بادٍ ، دون مُنازَعةٍ أو سِبابٍ أو صِياح ، وتطلب أن توجّه كلامها إلى المُمتحَنين هناك ، وكانوا يبدؤون بمخاطبة الطّلبة مباشرة : «يا إخوة زملاؤكم يُدافِعون عنكم وعن قضاياكم ، وعن زملاء لكم مفصولين من الجامعة دون أيّ وجه حقٍّ ، نطلب منكم تعاونكم معنا ، ووقوفكم إلى جانب زملائكم الآخرين ، فليس من المقبول أن تتقدّمو أنتم إلى الامتِحانات في حين أنّ آخرين مفصولون وحُرِموا من هذا الحقّ» وكانت ردّة الفِعل مُدهِشة ؛ ضجّت القاعة بالتّصفيق والصّياح ، قام عددٌ منهم بتمزيق أوراق الامتِحانات من تلقاء نفسه ، آخرون رَمَوها من شبابيك القاعة ، وصاح بعضهم : لا للامتِحانات . . . لا للامتِحانات . . . ولم يكن الدّكتور يملك أمام هذا الهياج شيئًا ، ونفرٌ منهم أقرّنا وأقرّ الطّلبة على ما حدث!!

وهنا في مركز الثّورة يبدو أنّ القطار ماضٍ لينحرف عن مساره ما لم يتمّ تداركُه . استمرّ الهتاف الصّاخب حتّى ملأ الأفئدة كلّها بهياجٍ راعف . أرحتُ الحناجر قليلاً . وقفتُ في الحشد وتلوتُ قرار الوحدة الطّلاّبيّة الّتي تشكّلتْ من ستّة أعضاء ، ثلاثةٌ من الإخوان وثلاثةٌ من اليسار ، وكان القرار : (لن تكون هناك امتحانات ، ولن يكون هناك دوام بعد اليوم حتّى تحقيق المطالب . وسنعمل على منع الأساتذة من دخول القاعات ، وإذا دخل بعضهم ووزّع الأسئلة فسنقوم بتمزيقها) . وهاج الطّلبة لِما سمعوا والتفّوا حول ذلك . ثمّ صعد (وصفي) وتلا نداءً عاجلاً :

نداء . . . نداء . . . نِداء . . .

إلى جميع طلبة اليرموك : نرجو منكم الانضِمام إلينا وتعطيل الدّوام .

نداء . . . نداء . . . نِداء . . .

إلى جميع الأساتذة في جامعة اليرموك : نرجو الكفّ عن إعطاء المُحاضَرات ، والتّضامنَ معنا ؛ فحقوقنا أكيدةٌ واضحة .

نداء . . . نداء . . . نِداء . . .

إلى جميع مُساعدي البحث والتّدريس : نرجو الكفّ عن إعطاء المراسم والمختبرات ، وتعطيلَ الدّوام والتّضامن معنا .

نداء . . . نداء . . . نِداء . . .

إلى جميع الطّالبات الموجودات في السّكن : نرجو ترك السّكن والانضمام إلينا .

وكَأنّ الطّالبات كُنّ ينتظِرْنَ نِداءً واحِدًا مثل هذا ليتقاطرْنَ كأنّهن حَمامٌ أغراه الحَبُّ عن الماء ، فجاء يتهادَى ملء الفؤاد والسّمع ، فأشعل لهيبًا في النّفوس كان كامِنًا ، وأيقظَ أشواقًا في القلوب كانت دفينةً ،

وشكّل حضورهنّ في الجَمْع حُضور الزّيت في النّار ، فاشتعل الموقدُ بأكمله ، «وَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزالَهَا» .

كانت نسبة نجاح تعطيل الامتحانات حوالي ٩٠٪ . ولم يستمع لنا الرّئيس قبلها ، ولم يتعطّفْ علينا حتّى بمقابلته ، فليحصد شرّ كبريائه وسوء قراراته ، وحين سرى ذلك حتّى وصل سمع الرّئيس والأجهزة الأمنيّة ازداد الموقف تعقيدًا ، وظنّ الطّلبة أن لحظة كسر العَظْم قد اقتربتْ ، ولم يكنْ لنا صوتٌ مسموعٌ أكثر من ذلك اليوم ، إذ لم يعد بمقدور أحد التّراجع إلاّ بمقدار ما ينفد رصيده من قوّة ، نحن بالجماهير الطلاّبيّة الشّعبيّة الغاضبة ، وهم بالرّصاص وقنابل الغاز القاتلة . وانجلى المثل العربيّ القديم ليقول بملء فيه : «لا يفلّ الحديدَ إلاّ الحديد» .

مَنْ للنّار إذا اشتعلتْ ، ومَنْ للحريق إذا نشب ، ومَنْ للغضب إذا انفجر!! لا أحد . نار الحقّ لا تُخمدها كلّ أمواه الباطل . وحريق المُطالبين بحريّتهم لا يُطفئه كلّ فلسفات الحُكماء . وانفجار الغضب لا يُصلح دماره كلّ زخرفات الإرضاء . والحلّ إذًا؟! إليكَه : تُمنَع من الاحتكاك فلا تشتعل ، والحريق يُتحرَّف به إلى التّراب فلا ينشب . والغضب يُتخوَّل بالحِكمة فلا ينفجر . فإذا اشتعلتْ تلك ، وإذا نشب هذا ، وانفجر ذاك ؛ فاقرأ على الإنسانيّة السّلام .

و(وصفي) يُتقِن كلّ داهية ، ويعرف كيف يُشعل كلّ خامِدة :

يا يَرْمُوكْ هِيجِي هِيجِي — حَقِّ الطّالِبْ لازِمْ يِيجِي
يا يَرمُوكِ اهْتزّي اهْتزّي — وبْطُلابِكْ وَاللهْ اعْتزّي
يا طُلاّبِ الْتمُّوا الْتمُّوا — وْلِلإضْرابْ بَاللهْ انْضَمُّوا
يا يَرْمُوكْ يا عَروسْ — صار الطّالِبْ زَيِّ المُوسْ
يا يَرْمُوكْ يا عَرُوسْ — ما فِينا واحِدْ مَدْسُوسْ

أمسكتُه بعد أن نزل وهو يلهث ، حيّيْتُهُ على هُتافه الرّائع ، لكنّني استثنيتُ من روعته البيت قبل الأخير ؛ قلتُ له : (صار الطّالِبْ زَيِّ المُوسْ) والله ضعيفة يا وصفي ؛ (زيّ المُوسْ) ، وماذا يفعل (المُوس)؟! لو قلت : (يا يَرْمُوكْ يا أَبِيِّةْ صار الطّالبْ بُندُقيِّةْ) لكان أقوى ، أجابني وهو يبتسم وينفض كتفه من تحت يدي : «بَس ييجي دورَك اتْشاطَرْ» . وضحكنا .

«إذا لم تستطع أن تُمسِكَ بالرّيح فحاول أن تُخمدَ صوتَها ، ولو في رأسِكَ على الأقلّ» . هكذا هُيّئ للأجهزة الأمنيّة . لم تستطع الاعتقالات أن توقف تنامي الأعداد المَهولة الّتي انضمّت إلى الاحتِجاجات ، فهداها عقلُها القَمْعيّ البائس أن تُسكتَ صوتَ هؤلاء بسرقة السّمّاعات الّتي كانت تُستخدم في الهتافات والخطابات . نُمِيَ إليها أنّنا نحتفظ بتلك السّمّاعات في خزائن المُصلّين في مسجد (الجامعة) ، فذهب عددٌ من (خُبراء) تفكيك المُتفجّرات إلى هناك . كان صفّ الخزائن يرتفع لمترين ويمتدّ لأكثر من عشرين مترًا ، وقف خمسةٌ من هؤلاء الخبراء المُتمرّسين في هيئةِ استعداد تامّ ، وراحوا كالسّناجب ينقرون الحديد خزانةً خِزانة ، ويُلقون بما في أحشائها من صُيود ، تناثرتْ على الأرض أوراقٌ وكتب دِيستْ بالأرجل مبالغةً في احترام الكتاب الّذي هو سبب نشأة أي حضارة أو انهيارها ؛ أمّة تحترم الكتاب جديرةٌ بأن تقود العالَم ، وأمّة تدوسه بأقدامها جديرةٌ بأن تُداسَ هي بالأقدام وأن تكون في ذيل الأمم تابعةً ذليلةً . لم يكنْ من شيءٍ خطير يستوجب كلّ هذا الاستِنفار ؛ هذا توصيفٌ خاطِئ ؛ لا شكّ أنّ الكتاب ينطوي على خطورةٍ تستوجب ما هو أقسى من ذلك!! عثروا على ثلاث سمّاعات . خفتَ صوتُنا قليلاً؟! نعم . لكنّه سرعان ما ازدادَ

انفجارًا . (نائل) احتاط للأمر من أسبوعَين ، ولم يخبر أحدًا منّا بذلك . بعثْنا معه نفرًا من أولي البأس إلى كلّيّة الهندسة ، وفي حمّامات الطّلاب في الأسقف الكرتونيّة كان قد خبّأ خمسًا من هذا السّماعات الّتي أقنع أحد القياديّين المَيسورين في الإخوان بشرائها قبل أكثر من شهرٍ فائت . كانت السّماعات جديدةً وبطّاريّاتها مَلأى ومُلتاعةً ؛ اشتاقت إلى أصواتنا عبرها ، وبدأنا نصدح من جديدٍ . لكلّ ساحرٍ تعويذةٌ تُحْيِيه وأخرى تقضي عليه .

كان شباب الجامعة القادمون من الضّفّة مُدرّبين على الحركات الجماهيريّة الشّعبيّة أكثر منّا نحن أولئك الّذين لم نضطرّ قبل عهد «اليرموك» أن نفعلها . وفي صخب الهُتاف حدثَ ما لم أرد له الحدوث ؛ انفجرتْ زجاجةٌ من زجاجات العصير كانت قد مُلئتْ بالكاز وأُمدّت بفتيلة ورُميت باتّجاه الكافتيريا وانفجرتْ في ساحتها مُحدثةً دويًا تضخّم صوتُه مع الفراغ الموجود أمام الكافتيريا وصداه المرتدّ من الجدران المقابلة ، وأحدث حريقًا تداركه بعض الزّملاء بإطفائه ، لكنّه ترك أثرًا على الأرض وفي النّفوس . ووقفتُ حينها وأكّدتُ على أن مطالبنا أكاديميّة بحتة ، ونحن حريصون على جامعتنا حِرصنا على بيوتنا ، ونحن بوصْفِنا قياداتٍ طلاّبيّةً ممثّلة لهذه الحركات الاحتجاجيّة نرفض ما حدث ولن نسمحَ بتكراره . وأعلمني بعض الزّملاء أنّه تمّ تحذير من قام بذلك وأنّ عملاً آخر مثل ذلك سيهدّد بشقّ الصّفّ ، وحينئذٍ سوف يُخرَج من المظاهرة كلّها كلّ من يؤيّد حَدَثًا مثله .

واستمرّ الهُتاف كأنّه قنابل متوالية الانفجارات ، ووقف (نعمان) ليبدأ دوره في الهُتاف ، فطلبتُ من أحد الإخوان أن يحمله على كتفيه لتراه الجموع المُحتشدة ، وصدح بصوتٍ واثق تمايل على إيقاعه كلّ مَنْ سَمِعَه :

هُـمَّ مـيْنْ واحْـنا مـيـنْ   إِحْـنا جُـموع الكادحـيـنْ
هُـمَّ بْياكْلُوا حَمامْ وِفْراخْ   وِحْنا الفُولْ دَوَّخْـنا دْوَاخْ
هُمَّ بْيِلْبَسُـوا آخِرْ مُوضَـةْ   وِحْنا كُلْ عَشَـرَة بْأُوضَـةْ
هُمَّ بْيَرْكَبُوا عَـرَبِيَّـاتْ   وِحْنا نْمُوتْ فِي الأُوتُوبِيسـاتْ

وكانت الشّيوعيّة الحمراء تفوح من كلّ كلمةٍ في هذا الهُتاف المُميَّز . وازدادت مظاهر التّأهّب من الطّرفين ، وأخذتْ الحماسةُ أحدَ النُّشَطاء فابتدر السّمّاعة وطلب أن يُلقي وصيّته : «أيّها الشّباب : حابّ أوصّيكم بأنّي إذا متّ أو اعتُقِلت لازم يِطلع عشرة بَدالي ، وإذا مات وَرد لازم يِطلع ميّة وَرْد» .

وسكنَ الجَمْع لما قال ، وأصغى إصغاء الخاشع ، وبان على وجوههم التّأثّر ، وكانت فرصةً لكي نزداد التصاقًا بنا . ويفدي كُلٌّ منّا صاحبه .

(٤٨)
بَيتُ الله مَوطِنُ الأمان، والله ُلا يَتَخلَّى عَنْ عِبادِهِ

يا (نائلْ) أَنِلْني أُذُنك فإنّي مُحتاجٌ لأن ألقي بثقل المِرجل الّذي يغلي في قلبي إلى أحدٍ أحبّه ، إنّ الماء إذا لم يؤخذ منه القِطّ الكافي تحت النّار المُوقدة فاض ، وإنّه إذا لم يجدْ من سبيل إلى الفيضِ انفجر ، فخُذ من قلبي ما تُداري به بأسَ قلبِك ، وأعطني من عزيمتك أَسُدّ ما نقص بها مِنْ شجاعتي . يا نائل : «أكان من الممكن في حالتي وحالتك أن تقوم هذه الثّورة لو أنّ الرّئاسة أوقعتْ هذا الظّلم المَقبوح على الطّلبة بعد تخرّجنا بعام أو عامَين؟! يا (نائل) : هناك ثوراتٌ تختار قياداتِها ، وفيما لو آمنّا أنّها اختارتْنا فسيصير لِزامًا علينا أن نموت في سبيلِ تحقيق أهدافِها ، وسيكون من المُخزي أن تضع الثّورةُ قوسَها بين أيدينا ثمّ لا نكون الرّامين بسهامها»!!

أحكمتِ القوّة العسكريّة قبضتها على المنافذ ، وارتفعتْ احتماليّة الاعتِقال لحظة الخروج إلى نسبةٍ عاليةٍ ، وبدأنا نتشاور في الوسيلة الأمثل . طُرِحتْ أفكار عديدة ، كان بعضُها قابِلاً للتّطبيق وآخر جنونيًا ، أحد الأفكار الجنونيّة ، ارتقاء أكتاف بعض الزّملاء عند الأسوار الواطئة وقَذْف الجسد باتّجاه المجهول ، والهرب بأقصى سرعة ، عددٌ منّا نفّذها ، كثيرٌ منهم اعتُقِل . آخرون دبّروا أمر مبيتهم داخل

الجامعة ، بعض الدّكاترة في السّكن الدّاخلي تعاطَفوا معنا ولجأ إلى بيوتهم جَمْعٌ غير قليل . بالنّسبة لي كانت عندي فكرةٌ أخرى .

فتحتُ الصّندوق الخلفيّ لسيّارة (أبو أسيد) الإداريّ في الجامعة والقياديّ في الإخوان ، كانت سيّارته تحمل إشارة الجامعة الّتي تأذن لسائقها بالدّخول والخروج بشكلٍ اعتياديّ . أغلقتُ الصّندوق الخلفيّ عليّ ، وتكوّرتُ على نفسي ، حاولتُ ألاّ أضغط برجليّ على صدري فأختنق سريعًا ، وضعتُ رأسي قريبًا من الفتحةِ من أجل قليلٍ من الهواء الّذي يُحتمل أن يتسرّب من خلال الشّقوق ، أمّا رجلاي فأخذتا تبحثان عن زاويةٍ يُمكن أن تستقرّا فيها ، كان الظّلام داخل الصّندوق الخلفي دامِسًا طامِسًا ، ضربتُ بكفّي على ظهر الصّندوق من الدّاخل وكان ذلك إيذانًا منّي بأنّ الأمور معقولة وأنّ الانطِلاق صار مُمكنًا . تهادت السّيارة في الطّريق الممتدّة من قسم التّسجيل إلى البّوابة الشّرقيّة للجامعة ، كانت سيّارة (لادا) أكثر ما كان جيّدًا فيها أنّ صندوقها كان أوسع من صندوق السّيّارات الّتي تُماثِلها في الحجم ، وأسوأ ما كان فيها صوتُ قرقعتها لقِدمها ، وروائح العوادم المنبعثة بكثافةٍ من (الإكزوزت) الّذي كان يقبع لسوء الحظّ قريبًا من فتحتَي أنفي . «يا أبا أسيد لو أنّك أصلحتَ السّيارة وهيّأتها لمثل هذه الظّروف لكان الأمر أيسر وأقلّ خطرًا» قلتُ ذلك لنفسي ، ثمّ أتبعتُها : «إذا خرجتَ من هنا سالمًا فلا يهمّك إن كانت الظّروف مواتية أم لا ، ولا إن كانت السّيّارة قد أُصلحت أم بقيت على عَطَبها» . قفزتِ السّيارة في الطّريق مرّتين أو ثلاثًا عن مطبّ ، في كلّ مرّة كات رجلاي تضغطان على صدري فيضيقُ نَفَسي ، وزاد الأمر سوءًا الأكسجين الّذي كان شبهَ معدوم في ذلك الصّندوق ، أو كان ملوّثًا بسبب (الإكزوزت) .

توقّفت السّيّارة بعد حوالي خمس دقائق ، فعرفتُ أنّنا صرنا على البّوابة أو قريبين منها . سمعتُ شرطيًا تناهى إليّ صوتُه من مسافة بعيدة يأمر السّائقين بالتّوقّف ، توقّفنا لدقيقتين أو أكثر ، كانت خلالها أبوابٌ تُفتَح وأبواب أخرى تُغلَق ، عرفتُ أنّ الشّرطة والأمن يطلبون من السّيّارات الّتي تعبر البوّابة بفتح أبواب الصّناديق الخلفيّة ، تسارعتْ نبضاتُ قلبي وأيقنتُ أنّني معتقلٌ لا محالة ، إلاّ إذا حدثتْ مُعجِزةٌ من نوع ما . تحرّكت السّيارة بعد ذلك فعرفتُ أنّ دورنا قد جاء . ازداد العرق تصبُّبًا على وجهي ، كان الهواء يتناقص في الدّاخل ، وحرارة الأنفاس تزيد حرارة المكان .

- افتح الصّندوق الخلفيّ . (قال أحد العساكر)

كانت ثلاث كلمات ، ولكنّهنّ كُنّ ثلاث طعناتٍ نفذْنَ إلى قلبي وخرجْنَ من ظهري ، إذاً ها أنذا أقع في الاعتِقال ، وها أنذا أقاد إلى محاكم التّفتيش ؛ عنَّ ببالي أن أخلع بابَ الصّندوق وأقفز منه وألوذ بالفرار ، لكنّني تخيّلتُ نفسي أسقط قتيلاً برصاص بنادقهم ، فأجّلتُ الفكرة قليلاً ، لعلّ الثّواني القادمة تأتي بما هو أفضل من هذا .

- افتح الصّندوق الخلفيّ . (كرّر أحد العساكر بصوتٍ أعلى وأغلظ) .

نفذت الطّعنات إليّ من جديد ، تمنّيتُ أن يتواصل (أبو أسيد) معي فِكريًا فيهمّ مثلما هممتُ لو كنتُ مكانه ؛ أن أدوسَ على دوّاسة البنزين وأنطلق بأقصى سُرعةٍ فأحطّم كلّ شيءٍ في طريقي . ولكنّها فكرةٌ فرضَها نداء الحياة واستِبقاء الرّوح وقد يستتر في هذا النّداء الغريزيّ الموتُ نفسه . خانتني الحِيَل فسلّمتُ أمري لله . فُتِحَ الباب الجانبيّ ، يبدو أنّ (أبو أسيد) نزل منه ، سمعتهُ يُخاطب الشّرطيّ :

- إنّ أمّي مريضةٌ جداً وهي بحاجةٍ لآخذها إلى المستشفى ، من فضلك أنا مستعجل .

- افتح الصّندوق الخلفيّ . (صاح أحد العساكر للمرّة الثّالثة مُغضَبًا) .

- أنا الدّكتور . . .

- بلا دكتور بلا همّ . . . افتح الصّندوق يا مُحتَرم . . .

واقتربَ هو من الصّندوق الخلفيّ ، وهوتْ يده على بابه ، فهوى قلبي معها بين رجليّ ، وحاول أن يفتحه لكنّ الباب لم يُطاوِعه ، كرّر المحاولة فلم ينجح ، ضربه ببسطاره فظلّ الباب عنيدًا . في تلك اللّحظات كان زامور سيّارات بعض العمداء ينطلق مُعلِنًا عن التّذمّر والانزعاج .

- أكيد ما في إشي بهالصّندوق .

- ولا اشي!!

- يَلاّ . . . يلاّ . . . اِمشي من هُونْ . . . اِمشي من هُونْ . .

وركب (أبو أسيد) من جديدٍ وانطلقتِ السّيّارة لا تَلوي على شيء . بعد أن قطعت السّيّارة مسافة كافية ، ضربتُ على صندوقها من الدّاخل ، توقّف (أبو أسيد) ، فتح الصّندوق من القابِض الموجود أسفل كرسيّه ، نزلتُ . عانقتُه . وغبتُ كَشَبح .

طلب الرّئيس من العمداء كافّة ومن الإداريّين ومديري الدّوائر أن يجتمعوا مساء اليوم الثّلاثاء السّاعة السّابعة في عمادة شؤون الطّلبة ، في الاجتِماع طلب الرّئيس تنفيذَ الفكرة الآتية : يبدو أنّ الطّلبة عازِمون على إيقاف الامتحانات وتعطيل الدّراسة ؛ إنّها جامعتكم ، وإنّهم مجموعةٌ من المُغَرَّر بهم أو الفاشِلين دراسيًّا ، يجب أن نستنقذ

الجامعة من الهاوية الّتي يجرّونها بحماقاتهم إليها ، صار الأمر واضِحًا ، إمّا أن نمنعهم من تنفيذ مُخطّطاتهم ، وإمّا أن نستسلم لهم وحينئذٍ الله وحده يعلم ما سوف يحدث ، لقد قاتلتُ كلّ هذه السّنين لتبقى جامعتى هي الأولى في كلّ شيء ، لن أتركهم هكذا بسهولة يدمّرون كلّ ما بنيتُهُ بعزيمة وإصرار وجهدٍ دؤوب في لحظات . إليكم ما سنفعل : سيقوم الموظّفون الإداريّون كلٌّ في قِسمه بالمُشاركة في عمليّة مراقبة الامتحانات وحراسة القاعات ، والتّدقيق على الهُويّات ، وسنحاول أن نؤمّن في كلّ قاعة أكبر عددٍ من الإداريّين بالإضافة إلى أستاذ المادّة ورئيس القسم إنْ أمكن لنعطي زخمًا يوحي بالأمان للمُمتحنين ، وهي فرصة لنُثبت ولاءنا لجامعتنا والدّفاع عنها ضدّ مجموعة من الرّعاع والغوغائيّين .

قال له أحد العُمداء : هذه الفِكرة لن تنجح ، والموظّفون ليسوا مُخوّلين لحراسة أيّ قاعة أو حمايتها ، وهذا مُخالِفٌ للقانون . فاستشاط غضبًا وهدّد بإدخال عناصر الشّرطة بلباسهم العسكريّ ليقوموا بحراسة القاعات . قال له عميدٌ آخر ليُهدّئ من غضبه : لماذا تتحمّل المسؤوليّة وحدك ؛ اتّصلْ برئيس الوزراء كونه رئيس مجلس التّعليم العالي وانظر ما يقول . قَبِل الرّئيس المُبجّل الاقتراح الأخير على مَضَض . رفع السّمّاعة على رئيس الوزراء وقال له : «توصّلتُ أنا والعمداء إلى أنّه لا يُمكن عقد الامتِحانات في موعدها ؛ فإمّا أن نعلّق الدّراسة وهذا ما يسعى إليه الطّلبة ويتشوّفون إليه ، وإمّا أن تقوم الحكومة بتأمين الحماية اللاّزمة للجامعة» . جاءه الرّدّ من الطّرف الآخر : «على الامتحانات أن تُعقَد في مواعيدها ، ولا ضرورة لتعليق الدّوام أو تأجيله ، وسأوصي الصّحف الرّسميّة غدًا بنشر مواعيد الامتحانات والقاعات ، وسأبعث

بمدير الأمن العامّ بكافّة صلاحيّاته ليتولّى مسؤوليّة الحِفاظ على الأمن» . تنفّس الرّئيس الصُّعداء ، فيما كانت الجامعة تئنّ تحت وطأة اليد الّتي تسبق العقل .

نامَ مَنْ نام . وظلّتْ عيوني مشدودة بأهدابها إلى الفجر ؛ الفجر الّذي أخّره الظّلام إلى أبعدِ مدى . صرنا اليوم بين جريح أو مُطاردٍ أو مُعتَقَل . كان عليّ أن أظلّ مُحافِظًا على رباطة جأشي ، حَذِرًا لئلاّ يتمّ اعتِقالي بسهولة . عُدتُ إلى الغرفة الّتي يسكنها خالي ، حين تجاوزت دوّار النّسيم شعرتُ بشوقٍ عارمٍ إلى خالي ، هتفتُ في نفسي : لماذا ذهبتَ وتركتني أواجه هذاً المصيّر وحدي ، أفلو كانت أمّي تدري بحالي وحالك أكان يُرضيها ذلك . حينَ نويتُ أن أنعطف يمينًا من الشّارع الرّئيسيّ لأدخل الشّارع الفرعيّ الّذي يقع في آخره البيت ؛ جاءني هاجِسٌ بأنّ الشّارع الّذي يبدو خالِيًا تمامًا مزروعٌ تحت ذرّة كلّ رملٍ فيه عسكريٌّ . تردّدتُ في المضيّ ، أخذتُ جانبًا قصيًّا ، وانزويت خلفَ أحد المحالّ القديمة المُغلَقة ، وقبعتُ أنتظرُ حوالي السّاعة وأنا أراقب الشّارع الفرعيّ المؤدّي إلى تلك الغرفة ، ظلّ الطّريق صامتًا لم يتكلّم إلاّ مرّة أو مرّتين ، ظهرتْ في إحداهنّ امرأة من أحد الشّبابيك تنفض بيدها بعض الملابس وتنشرها على أحد الحبال المركوزة أسفل الشّبّاك . أخرجتُ نصفي المُختبئ واعتدلتُ واقِفًا . أرجعتُ ظهري إلى الوراء كمن يستعدّ للسّير وأصلحتُ شيئًا من هندامي ، ومشيتُ في ذلك الشّارع الأخرس . ظلّت الأمور تبدو عاديّة حتّى وصلتُ إلى باب صاحب البيت ، دفعتُهُ برفق ، ومضيتُ صاعِدًا الدّرج إلى الغرفة ، ظلّت كلّ خُطوةٍ تزيدُني أمانًا أكثر من سابِقاتها ، لكنّ قلبي الّذي غلّف نصفه الأيسرَ جناح الطّمأنينة ظلّ نصفه الأيمن ينقبض تحت وخز

سكّين الحذر . فتحتُ باب الغرفة ، ورحت أتلفّت حولي كلصّ ، أشعلتُ الضّوء قبل أن أخطو في داخلها ، بدا المكان على ما كان عليه في آخر اجتماع ، شممتُ روائح الأصدقاء ، وما زال تبغ (وصفي) عابِقًا في الأجواء ، كان قد ترك (كَنزته) معلّقةً على أحد المسامير المدقوقة في الحائط . استعدتُ النَّفَس الّذي كتمتُه لحظة فَتْح الباب ، ودخلت . أطفأتُ الضّوء من جديد عندما جاءتني فِكرة أنّهم يُراقِبونني من بعيدٍ أو من فوق أسطح الجيران . تحسستُ في الظّلام الزّاوية الّتي فيها الغاز ذو الثّلاثة عيون ، طقفتُ عينًا منها فشعّ الضّوء الأزرق وأضاء جانِبًا يُمكن أن أرى فيه شيئًا من معالم الغرفة . تذكّرتُ أنّ الباب غير مُعتدل وأنّ شقوقه يُمكن أن تفضح وجودي ولو بالضّوء الأزرق الخافت فأطفأتُ الغاز ، وفكّرتُ أنّ النّوم في مثل هذه الحالة أفضل حلّ ، خاصّة أنّ هناكَ يومًا صعبًا وشاقًّا ينتظرنا منذ فجر الغد .

سحبتُ رجليّ ببطء ، وانثنيتُ فوق فِراشي ، وتمدّدتُ عليه فانزاح عنّي نصف العبء ، تسلّل الخَدَر من رِجليّ عندما فردْتُهما ، ورحتُ أسترجعُ صُوَرَ اليوم . . . حسبتُ نفسي غفوتُ إغفاءةً بسيطة ، تراءتْ لي النّسور الجوارح من جديد ، لكنّها هذه المرّة انقضّتْ نحوي تريد انتشالي ، ولم تكدْ تقترب منّي لتخطفني حتّى نهضتُ منتفِضًا من الرّعب ، حدّثتُ نفسي : لا بدّ أنّهم قادِمون ، لا أدري إن كنتُ قد سمعتُ صوت أقدامهم وهي تصعد الدّرج أم لا ، لكنّني كنتُ موقِنًا بذلك ، وقفتُ على قدميّ ، وخلعتُ الباب في طريقي إلى الهروب دون أن ألبس برجليّ ، عمدتُ إلى الفراغ القارّ خلف الغرفة ، قفزتُ على السّور ، دلّيتُ رِجليّ حتّى صارتا قريبتَين من (البرطوشة) الّتي تعلو نافذة صاحب البيت . . . تدرّبتُ على الهرب بهذه الطّريقة حوالي عشر

مرّات من قبل ، ومَنْ رآني في تلك اللحظة ظنّ أنّني قِردٌ يتسلّى في القفز من مكانٍ لآخر ، تركتُ جسدي يسقط على (البرطوشة) وقرفصتُ فوقها ، ثمّ دلّيتُ جسمي من جديدٍ على شبك النّافذة ، عندما صِرت على حافتّها السُّفلى كان صاحبُ البيت قد هُرِع إليها ليستطلع الأمر حينَ سمع الأصوات المتلاحقة والهائجة ، نظر إليّ بهلع وربّما أدرك ما كان يقوله له السّاكِنون من قبل أنّ هذا البيت مسكونٌ بالجنّ ، تراجع إلى الخلف ، تركتُه يُكمل دورة فَزَعِه ، وقفزتُ على الأرض الّتي كنتُ قد كوّمتُ تحتها في اليومين السّابِقين كتلةً من الرّمل النّاعم لتخفّف من حِدّة سقوطي . نزلتُ ما تبقّى من المنحدر الإسمنتيّ المائل المؤدّي إلى زاروبةٍ بين البيوت ، وغبتُ في الأزقّة كارتعاشةِ ذُبالةٍ سرعان ما خبتْ .

كتمتُ أنفاسي خلفَ أحد براميل الزّبالة ، تناهى إليّ صوتهم قادمًا من غرفة الأشباح : لقد هرب . . . ابن الـ . . . هرب . . . ابتسمتُ في داخلي رغم الشّتيمة ، قلتُ لأخفّف عن نفسي الرّوع : يجب أن أعطي دورات في فنّ التّخفّي والإفلات من القبضة الأمنيّة . ظللتُ في مكاني ساكِنًا كجذع شجرةٍ مقطوع ، وصامتًا كحجر لما يقرب من أربع ساعاتٍ ، ثمّ نهضتُ بعد أنْ زال غُبار المُطارَدة ، واتّجهتُ نحو مسجد (الهامي) مشيتُ حافِيًا لساعةٍ حتّى وصلتُ إليه . كان الوقتُ يشير إلى الواحدة بعد منتصف اللّيل . وجدتُه مفتوحًا ؛ عددٌ من المصلّين جاء ليقوم اللّيل فيه ، غمرتْني غلائل السّكينة ، ولفّتْ قلبي سحائب الطّمأنينة ، «بيتُ الله موطن الأمان ، والله لا يتخلّى عن عِباده» (همستُ في أعماقي) ، لو كان لي من خِيار لعشتُ هنا ومتّ هنا ؛ هنا بين يدي الله ، وفي ظلال آياته العِذاب ، مَنْ يبيعني رضىً مثل هذا

الّذي أحسّه في روضة المسجد هنا وأبحثُ عنه خارجه ولو بكلّ أموال الدّنيا!! ما يعطينا الله إيّاه هنا ليس له ثمن ؛ ليس له مقابل ، لأنّه هو الثّمن لكلّ ما عداه . غصّ قلبي بالدّمع ، ورضيتُ رغم كلّ الأذى الّذي أصابني ؛ كان هنا في هذه الجَنَبات ما يُمكن أن تتخلّى عن كلّ ما تملك في الدّنيا من أجله . في عمق المسجد ؛ هناك في المقدّمة بدا صفّ المُصلّين كما لو كانوا يقفون على أرضٍ غير الّتي اعتدْنا الوقوف عليها ، ويعيشون في دنيا غير الّتي دأبنا على العيش فيها . كان شيءٌ من الغمام يحفّ أقدامهم فيرتقُون ، ونفحاتٌ من الوَجد النبويّ تملأ أفئدتهم فيسكُنون . أفقتُ من ذُهولي على صوتِ حروف القرآن السّابحات في فضاء الرّحمة ، القادمات من هُناك من الجنّة ؛ من حيثُ نزلتْ على قلب النّبيّ الأعظم ، ها هي تعبر الأزمنة كلّها ، تكتسبُ في كلّ زمنٍ طاقةً روحيّة جديدةً وتصل إلينا مشحونةً بالسِّحر الإلهيّ الّذي لا يموت . قصدتُ الميضأة ؛ توضّأتُ وصلّيتُ معهم ، قرأ الإمام بصوت سماويٍّ رخيم : «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حتّى يَقولَ الرَّسولُ وَالّذينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ ألا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ» . سكنتْ روحي وخِلتُ أنّني سقطتُ من الإعياء والهُيام قبل أن أُتمّ الصّلاة . أيقظني أحد المُصلّين بعد فترةٍ لا أدري كم استمرّتْ ، وقال لي : السّحور يا أخي . . السّحور يا أخي . .

على صلاة الفجر اجتمعتُ مع ثلاثةٍ من شبابنا ، قلتُ لهم : اليوم يجب أن نحشد كلّ طاقاتنا ، أعرف أنّ عددًا كبيرًا منّا نام في الجامعة ، لقد أمّنّا القيادات الّتي ستبدأ المظاهرة في هذا اليوم . أتمنّى ألاّ يكون الاعتقال قد طالَ عددًا كبيرًا من قيادات اليسار . نُريد أن ترى الدّولة

أنّ الاحتجاجات ليس لها رأسٌ واحدٌ أو مجموعة رؤوس إذا تمّ اعتقالهم تتوقّف المُظاهرات ؛ اليوم واليوم بالذّات أريد أن يكون كلّ المشاركين في هذه الحركة الثّوريّة رؤوسًا ، أريد أن تصل رسالتهم إلى الدّولة : اعتِقال القيادات الثّوريّة البارزة لا يُجهض الثّورة إيّاها ؛ الثّورة طوفانٌ هائج إذا فقد بعضَ مائه في حركته المائجة فإنّ عُبابه سيظلّ مُحافِظًا على كتلته الهائلة . أريد أيضًا عددًا جديدًا غير معروفٍ للدّولة من مجموعة الإسناد تقوم بمراقبة الأسوار الخارجيّة والتحرّكات الأمنيّة حولها ثمّ تدخل بشكل اعتِياديّ لتوافينا بكلّ ما هو جديد هناك . بالنّسبة لي – قلتُ – سأدخل بالطّريقة الّتي خرجتُ بها أمس ، لكن مع سيّارة أخرى ؛ سيّارة الـ (لادا) كادت تقضي عليّ أمسِ ، لو أنّني مِتُّ على أيدي العساكر لربّما كان أرحم . وابتسمْنا رغم الألم!!

(٤٩)
قَرّرْتُ أنْ أقتُلَ الخَوفَ وأنْ أصنعَ التّاريخ!!

استيقظتْ إربد صبيحة اليوم الرّابع على يد من حديد تلتفّ حول عنقها ، وتحيط بالشّوك والأسلاك جهاتِها الأربع . الأطواق الأمنية الّتي فُرضتْ حولها كانت تمتدّ إلى كلّ القرى المنسربة نحوها ، وكان القادِمون من الضّواحي يرون حينَ يخرجون من قُراهم ما غيّر وجه الحياة بين عشيّة وضُحاها ؛ انتشارًا أمنيًّا كثيفًا لا يسمح للعامّة بالتِقاط الأنفاس . والقادِمون من عمّان ومن وسط الأردنّ وجنوبه كانت تواجههم أرتالٌ عسكريّة تُرابط على مداخل المدينة الجنوبيّة ، وتُشعر كلّ القادِمين بالرّهبة . والقرى الّتي تحاول أن تتوسّط بينهم وبين حبيبتهم ، كان العسكر يلفّون ثراها الطّيّب بالرّشّاشات الثّقيلة والعَرَبات المُدرّعة .

ونحن هنا في إربد ، النّائمين على غفلةٍ من الحذر كُنّا نحاول الحياةَ ؛ حياةَ الثّورة من جديد . كانت الجهة الجنوبيّة الغربيّة مُتنفّسنا الأكثر استخدامًا في الدّخول إلى الجامعة ، وهي النّقطة الأضعف في التّحصينات الأمنيّة ؛ لِبُعدها من جهة ، ولأنّ جزءًا منها كان يقع عليه (المُستنبَت) وهو مُتنزّه للأطفال ، وهذا المتنزّه يُفضي في أحد حوافّه إلى الجامعة ، فكنّا نستغلّ خفوت الرّقابة الأمنيّة عليه ، وندخله كمتنزّهين ، ثمّ ننفذ من خلاله إلى الحرم الجامعيّ .

لم أتمكّن من الدّخول حتّى العاشِرة ، دخلتُ بصحبة الدّكتور (ماهر الشّواقفة) ؛ الأستاذ الجامعيّ الوفيّ لقضايا الطّلبة ؛ بالطّبع لم أجلس إلى جانبه في الكرسيّ الأماميّ ؛ لأنّ منظرًا كهذا كان يُمكن أن يفتح شهيّة الرّصاص على الزّجاج ، ولكنّني اختبأتُ في الصّندوق الخلفيّ . كانت سيّارة المرسيدس (٢٠٠ لَفْ) من أحدث السّيّارات ، وصندوقها الخلفيّ يتّسع لجَمَل ، تمدّدتُ فيه كما لو كان سرير المُلكِ القادم ، حدجني الدّكتور بنظرةٍ صافية ، وابتسامةٍ هادئة وأغلق باب الصّندوق برفق ، شعرتُ بالأمان رغم الظّلمة الّتي أحاطت بكلّ شيءٍ ، على البّوابة الجنوبيّة سمعتُ بعض العسكر يصيحون : «وَقِّفْ . . . وَقِّفْ . . .» توقّفت السّيّارة للحظات قبل أن ينظر الحارس في وجه صاحبها ويُبادله التّحيّة : «قَوَّكْ دكتور» . ويردّ عليه : «قْوِيْتْ» ، «إحنا آسفين ، عطّلْناك . . . تفضّل . . . تفضّل» وسمعتُ همهمات العسكريّ تتراجع وصوت الحارس يفسّر له : «هاظا من جماعتْنا . . .» . انسابت السّيّارة بهدوء ماخرةً طرقات الجامعة المشحونة بالخوف والتّرقّب والرّجفة .

قفزتُ من الصّندوق ، أشرقتِ الحياة في عينيّ من جديد ، وعادت إليّ الرّوح ؛ كان ذلك بمثابة الخروج من القبر ؛ قليلون أولئك الّذين يختارون قبورهم ويخرجون منها أحياء . تلقّاني عند بوّابة الاقتصاد عشرةٌ من مجموعة المواجهة ، حفّوا بي حتّى وصلْنا إلى مبنى (مج) ، ما إن رآني (فؤاد) حتّى أطلق صافرة البداية :

جَمِّع الطّلبةْ جَـــمِّعْ وسمّعْني صُوتَكْ سمّعْ
جمّعَ الطّلبةْ واحْـكـي قصِّـتْنا بِاليَرْمُوكي

لا راحةَ اليوم ، الفكرةُ اختارت شُهداءها ، وحين تختارهم فإنّ

الأرض تقف من أجل أن تنحني أمـام عَظَمـتـهم . خلتْ قـاعـات التّـدريس من الطّلاّب ، جاؤوا ليشـهدوا اليـوم الأروع في هذا التّاريخ اليرموكيّ المَجيد . طافت الآلافُ جَنَباتِ الجامعة ، وفي كلّيّة الاقتصاد اخترنا أن نرسم على الشّارع الممتدّ أمامها بعضَ كلماتنا الخالِدات ، فتفجّرت الشّوارع تحت وطأة ما قلنا :

وحْدتْنا زَيِّ الإعْصـارْ وحْدتْنا ما بْترْضـى العارْ
وِحْدَتْنا وحْدة قَوِيِّـةْ وَحْدَتْنا بَـدْهـا الحُرّيِّةْ

مـا من كلمـة قِيلتْ في هذه الأيّام إلاّ كانت مغموسـةً بدم الحقّ الّذي تعـاظم بمرور الوقت حتّى صار هو الّذي يقودنا ويتكلّم باسـمنا . سارت الآلاف حتّى بلغتْ كلّيّة الآداب ، وملأ الجميع جانبَي ساحتها وغطّى كلّ بلاطةٍ فيها ، وكانت المنصّة تقف بين منى الكلّيّة ومبنى الرّئاسة ، ومن جديدٍ هتف (سالم) :

يا جيوبي . . . يا جيوبي . . يالمَسْـروقة والمنهوبِة
والطّـالبْ حقّه ضـايعْ وبيوته مخروبِة . . . مخروبِـة

وتردّد الصّدى في الأرض الخالية إلاّ من الثّورة ، وصعـد المنصّة (فؤاد) بعد أن ارتاحتْ حنجرته قليلاً ، وعلّمتْه الأحداث أن ينبذ الخوف فيهتف :

فضّوا جْيُوبِ الكادحِيْـنْ وعَبُّوا جْيُوبِ المَسْؤولِـيْنْ

وخرج المئـات من البـوّابات والقـاعـات والمدرّجـات في الكلّيّـة ، وعظّموا الجسد الّذي يزداد ضخامةً في كلّ حين ، وهبطتُ من هناك لأتقدّم الجموع ، وسِرنا إلى أن عُدنا من جديد أمام المبنى الجديد (مج) . ومنذ الثّانية ظهرًا طرقَ السّؤال التّقليديّ رؤوس أكثر القيادات : كيف سنخرج اليوم دون أن نقع في قبضة الشّرطة أو نُصاب بهراواتها .

وألحّ السّؤال علينا أكثر بوجود الطّالِبات ، لقد كُنّ يشكّلْنَ أكثر من نصف المتظاهرين ، وهو مشهدٌ لم يكن مألوفًا في الأيّام السّابقة ، وكُنّ سببًا في ديمومة الحماسة الّتي بلغت الذّروة اليوم . في الثّالثة لم يعد مهربٌ من إجابةٍ ولو محتملة!!

أيّ صورةٍ تلك الّتي تقدّمها الدّولة لأهل إربد ؛ أكان على المواطنين المُسالِمين أن يُضطَرّوا إلى رؤية حالةٍ فريدةٍ لم تنجح الأيّام بتقديمها من قبلُ!! أرتالٌ من العساكر احتشدوا في صفوفٍ متراصّة . في الصّفّ الأوّل انتظمت مئاتٌ من الشّرطة بالهراوات وبالأقنعة الواقية من الغاز وبالمصدّات البلاستيكيّة المنتصبة أمامهم . وفي الصّفّ الثّاني انتظمتْ مئات من وحدات الجيش باللّباس المُبرقَع وقد استقر على جانب بعضهم مسدّسات من نوع (البراشوت) ذي الـ (١٤) طلقة ، وما بينهما راح يمشي مختالاً عددٌ من ضُبّاط المخابرات وهم يحملون أجهزة اللاسلكي الّتي تُصدِر صوتها الأجشّ بين فترة وأخرى ، ومن خلف المشهد كلّه في الشّارع السّائر شرقًا وغربًا أصيبتْ حركة المرور بالشّلل ، ولم يعد يذرع الشّارع غير العربات الكحليّة المُدرّعة يُطلّ من فوّهتها رأس قنّاص ، أو سيّارات الشّرطة الّتي تُطلق نعيقها : وي . . . وي . . . وي . . . أو بعض العربات العسكريّة المكشوفة الّتي ينتصب في قفصها الخلفيّ رشّاشٌ محمولٌ على قاعدةٍ يستقرّ خلفها عسكريٌّ يقبض على الزّناد ، ومتأهّبٌ دائمًا للّحظة الحاسِمة!!

في الصّفّ العسكريّ المُواجِه لنا كانت ترتصف بشكل متراصّ قوّات الشّرطة الخاصّة ، يبدو أنّ أمرًا ما قد أعطِيَ لهم ، فصاروا يضربون بهراويهم على واقِياتهم البلاستيكيّة الشّفّافة بإيقاع منتظم ، وبدأ الصّوت يعلو وهم يخبِطون الأرض ببساطيرهم ، ثمّ راحوا يُهمّرون

ويُصدِرون أصواتًا عالية ويلوّحون بالهراوات فتبدو أشرعةً لسفنٍ مُبحرة ، أو أسنِمة لطائرات مُغيرة ، شكّل اتّحاد الصّوتين مع الحركة منظرًا مُرعِبًا ألقى الجزع في الصّدور لأوّل وهلة . ولولا الإيمان وتثبيت الفؤاد بالقول الثّابت لوجفت يومئذٍ قلوبٌ كثيرةٌ ممّن رأى وسمع وعايَن كلّ هذا .

هو التّرهيب المُمَنهج إذًا ، يُؤدّى بحركاتٍ مدروسةٍ ليقع في النّفوس البشريّة ويُؤتي ثِماره ، كان واضِحًا أنّ الخروج الآنَ يعني عشرات الضّحايا والمُصابين ، وأنّه من الغباء والحمق أن نفعل ذلك ، وكأنّنا جسدٌ كان يكتم أنفاسه ينتظر أن يفوز بلحظةٍ راحة خانتْنا في المجيء ؛ إنّها لحظة الإجابة عن هذا السّؤال الّذي يقف في منتصف المسافة تمامًا بين الموت والحياة ، إنّه يقف على حدّ البوّابات فيما بيننا ، ولقد كُنّا الحياةَ وكانوا الموت!!

بإشارةٍ واحدةٍ مُتّفقٍ عليها بيننا ، كُنّا ثمانية قياديّين من اليمين إلى اليسار نعقد اجتِماعًا تشاوريًا في إحدى قاعات (مج) ، وخَلَصنا إلى أنّ الخروج ولو بالمئات أو الآلاف سيُوقع عددًا لا يعلمه إلاّ الله من الضّحايا ، واستقرّ بنا الرّأي على البقاء في الجامعة والاعتِصام داخلَها . وتعاهدنا على أن نتحمّل مسؤوليّة قرارٍ تاريخيٍّ كهذا ، وأن نتلاحم معًا من أجل إيجاد حالةٍ لوجيستيّة منطقيّة تُقنع الثّائرين بفكرة الاعتِصام وعدم مغادرة ساحات الجامعة!!

كانت المآقي تدور في المحاجر ؛ هربًا أم انتِظارًا للقدر الّذي لا يعلمه أحدٌ منّا ويتوجّس منه خيفة!! لم يكن سهلاً أن نتحمّل مسؤوليّة الحِفاظ على أرواح الآلاف بعد أن نكون قد قرّرنا بالنّيابة عنهم أنّنا باقون هنا إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً . عيناي رَجَفَتا كجناحَي ذبابة وأنا أرتدّ إلى داخلي لأُقنِعني أنّني أفعل الصّواب ، ويداي نفر

الدّم في عروقهما كأنّه يهرب من شيءٍ يُطارده ؛ مَنْ يُطارد الدّمَ غيرُ الخوف؟! الخوف الّذي نسجه الوهم ، الوهمُ الّذي صاغتْه الدّولة ؛ الدّولة الّتي تحبّ أبناءها ، الأبناء الّذين كثيرًا ما يكونون عاقّين وحمقى ؛ الحمقى هم الّذين تحين لهم فرصة صناعة التّاريخ في لحظةٍ خاطفة ويضيّعونها من بين أيديهم . وأنا؟! في ذلك اليوم قرّرتُ أن أقتلَ الخوف وأن أصنع التّاريخ!!

خرجْنا من القاعة ، وصرنا أمام بوّابة المبنى ، وعلى حدّ هذه البوّابة كانت الجموع المُحتشدة قد لبستْ ثوب التّرقّب تنتظر القرار الّذي أسفر عنه اجتماعُنا . وقفتُ على المنطقة الرّماديّة الفاصلة بين الهاوية خلفي والقمّة أَمامي ، وهالني أنّ مصير كلّ هؤلاء يتوقّف اللّحظةَ على الكلمة الّتي سأقولها لهم ؛ انسحب الهلع من تحت قدميّ ، وصعدتْ إلى القلب شجاعةٌ من النّوع الّذي لا ينظر إلى الوراء ، شحنتُ موجةَ العِبارة ، وسكبتُ الثّقةَ في الحرف ، وقلتُ لهم ما يجب أن يقوله قائدٌ ارتهنَتْ لكلماته أرواحُ الثّائرين!!

(٥٠)
الجامِعَةُ تَتَحَوَّلُ إلى سِجنٍ

بدأ الجيش الطّلاّبيّ يُحرّك مَيمَنته نحو ساحة الاعتصام ، وتبعه القلب ثمّ الميسرة . وأمام الكافتيريا الّتي شهدتْ من قبلُ نِقاشاتٍ بين مختلف القُوى عبر مسيرة الجامعة من أوّل تأسيسها إلى اليوم تجمهر المُحتجّون . جهّزْنا منصّةً للكلمات في الجهة الأبعد عن بوّابة الكافتيريا ، وتمدّد الثّائرون شرقًا وغربًا حتّى غطّوا الشّوارع ، وصار علينا أن نرسم الخُطوة القادمة .

صعدتُ المنصّة وأعلنتُ أنّنا سنعتصم هنا ، وسنبيتُ هنا ، ولن نتزحزح عن أمكنتنا شبرًا واحِدًا قبل أن تتحقّق مطالبنا جميعُها . وهتف المُتظاهرون مؤيّدين لما قلت ، وسرتِ الهَمْهَمات ، وتعالتِ الزّفرات الغاضِبات ، وألقى الجيش رِحاله على الأرض استعداداً للمبيت .

كانت السّاعة تشير إلى الخامسة من بعد عصر يوم الأربعاء ١٩٨٦/٥/١٤ العصر الّذي أسّسنا فيه عصرنا نحن ؛ عصر الإرادة الّتي تتغلّب على البندقيّة الطّائشة ، والوردة الّتي تنتصر على السّكين . أرسلت الشّمس خيوطها الدّافئة في لمسات حانية ، وتساءلنا لِمَ تفيض بكلّ هذا الدّفء في هذا المساء الرّمضانيّ الشّهيدًا!!

كانت البطون خِماصًا والأبدان واهنةً ، غير أنّ الأرواح كانت

مُحلّقة ، كُنّا نشعر أنّ دفئًا مثل هذا الّذي يحنو على جوانحنا هو دفء الحرّيّة الّتي نذرنا أنفسنا لها ، وأبَينا أن نكون راضِخين لأهواءٍ مُتسلّطة أوّل ما تُفكّر به هو جيوبنا وآخر اهتماماتها مُستَقبلنا ؛ مَنْ يصنع الهُوّة فيما بيننا نحن والسّلطة إلاّ ذوو العقول المريضة!!

إنّه السّادس من رمضان ، وإنّنا نقترب من ثمانية آلاف مُقاتلٍ عنيدٍ يربض في هذه السّاحة ، وإنّنا ماضون في الشّوط إلى آخره إلاّ أنْ تكونَ فِتنةٌ ؛ فإنّنا نربأ بأنفسنا عنها ، غير أنّ ذا القلب إذا رأى حقّه حقًّا ، فإنّ الباطل يهون أمام عينيه مهما كان مُنتفِشًا . لا شيءَ أعظم في تثبيت القلوب الواجِفة من الإيمان بما تُطالب به ، الإيمان يهوّن كلّ جليل ، ويصغّر كلّ كبير ، ولا يعظم أمامه إلاّ الحقّ الّذي يأخذ بصاحبه إلى مراتب التّمكين الأولى .

إذا الشّعْبُ يومًا أرادَ الحياةَ فلا بُدَّ أنْ يَسْتجيبَ القدرْ
ولا بُدّ للّيلِ أن ينجلي ولا بُدّ للقيدِ أن ينكسرْ
ومَنْ لا يُحبَّ صعود الجبالِ يعشْ أبدَ الدّهْر بين الحُفَرْ

ولم تبقَ حنجرةٌ من الآلاف المُحتشِدة إلا صدحتْ بأبيات (الشّابّي) ، وترنّمتْ بها لما تبعثه من حماسةٍ وقوّة ، وكانتْ تلك اللّحظات تُقدّمُ صِياغة جديدة لمفهوم الذّوبان في الهدف الأوحد الّذي أجمعْنا عليه ، ولم يَضِر اللوحةَ الجميلةَ يومئذ تنوُّع الألوان الدّاخلةِ في تشكيلها ، فإنّها إنّما ازدادتْ جمالاً بهذا التّنوُّع ، ولو كانت لونًا واحِدًا لفقدتْ كثيرًا من جمالها وبريقها!!

صعدتُ المنصّة وتشوّفتْ إليّ العيون ، واشرأبّتْ إليّ الأعناق ، وقلت : إنّكم تسطّرون مجد اليرموك باعتصامكم ، وتكتبون في صفحتها الباقية أنّ الطّلبة لا يُمكن أن يكونوا لعبةً بيد أحدٍ ، إنّه

الحَراك الطّلاّبي الّذي يتعالى على الإقليميّة والفئويّة والحِزبيّة ليكون حزبه الحقّ، وفئته مُدافعة الظّلم. إنّني أهيبُ بكم أن تُسطّروا هذه الأيّام التّاريخيّة، فإنّ التّاريخ ينسى صانِعيه إذا لم يُمسِكوا بلحظته العابرة ويدوّنوها في سِجلّ الخالدين. اكتبوا ما يحدُث معكم، صغيره وكبيره؛ فربّ صغيرةٍ مهّدتْ لثورة أو أنبتتْ فِكرة؛ وإنّ النّار من مُستصغر الشّرر كما يُقال، عبّروا عن أنفسكم وعن مشاعركم وعن أحلامكم بغدكم، إنّه التّوق إلى هذا الجيل اليرموكيّ الّذي أنتموه اليوم ليُصبح نموذجًا لكلّ الأجيال القادِمة في عدم التّفريط بالحقوق، وفي الموت من أجل الحرّيّة. اكتبوا لأنّ الجيل الفريد هو الّذي يكتب أمجاده إمّا بالفعل أو اليد أو اللّسان أو القلب أو القَلم. اجعلوا قلوبكم تلتفّ على أهداب جامعتكم، لا تحقّقوا للفاسِدين مطمحًا ولا مطمعًا، لا تُذعِنوا لترهيب السّلطة وترغيبها، فإنّما هي في الحالين كلابٌ تتهارَش قلبَ الأمل، وذئابٌ تتناوش جسد الوطن. إنّ أرشيفًا كاملاً لما حدث في الأيّام القليلة الماضية يُعَدّ من قِبل اللّجنة الإعلاميّة للجمعيّات السّابقة، وإنّ (صالح جرادات) و(كريم العجلوني) قد تولّيا هذه المهمّة سابِقًا، ولكنّهما من الاتّجاه الإسلامي وهذا لا يكفي، وهما الآنَ مُعتَقَلان، فمن يتصدّر لهذه المَهمّة الجسيمة!! أريد أن يكتب التّاريخ كلّ الّذين شاركوا في صِياغته، اكتبوا لأنفسكم ولنا؛ نحن الّذين يجب أن يعرف العالَم ما حدث هنا وما يحدث دون فبركاتٍ إعلاميّة، ودون تشهير أو تخوين؛ إنّ إعلام السّلطة يمتهن الكذب مثلما يتنفّس، وإنّه خرقةٌ باليةٌ على العتبةِ يدوسها السّيّد قبل أن يدخل إلى البيت ليجلسَ على كرسيّه!!

صارتْ أسوار الجامعة من جهاتها الأربع مُلغّمة؛ مئات العناصر

الأمنيّة المتأهّبة تُحيط بها إحاطة السِّوار بالمِعصم ؛ وصرنا محبوسين لا نستطيع الخروج ، ولأوّل مرّة في تاريخ الحركة الطّلاّبيّة في الأردّن منذ ما يزيد على عَقد من الزّمان تتحوّل الجامعة إلى سجنٍ كبير ، وكأنّ السّجون والمُعتَقلاتِ الأخرى للنّاشِطين لم تكنْ كافِية ، فحوّلوا جامعتنا الحبيبةَ إلى سجنٍ جديد . إنّه إجبار لا اختِيار ؛ فنحن نعلم أنّ الجامعة الّتي ظلّتْ طَوال سنواتنا الخمس أو السّتّ تفتح لنا قلبها العَطوف كانت لنا بمثابة الأمّ الرّؤوم ؛ اليوم تَضطرّها السّلطة إلى أن تُحكِم أسوارَها علينا ، وتشدّ قبضتها على خاصرتنا ؛ ولكنّها مهما كان الأمر الّذي سيقت إليه كريهًا واضطراريًّا إلاّ أنّها تبقى في نظرنا الأحلى ونبقى في نظرها الأوفى!!

طلبتُ من بعدُ من الجموع الحاشدة أن ينفصل الطّلاّب عن الطّالبات . الطّلاب في ميمنة الصّفوف والطّالِبات في الميسرة ، وأشرتُ إليهم جميعًا أن اجلِسوا ؛ فإنّ المقام طويل والغاية بعيدة ، وارتاح الجمع يتحدّثون فيما بينهم قرابة السّاعة . لن تستطيع أن تتكهّن بما في قلوب النّاس يومئذٍ وفي عقولهم وقد أزمعوا ألاّ يُبارِحوا المكان مهما كانت الأسباب .

حضرتْ أمّي في ذاكرتي يومئذ ، رأيتُها قد شاختْ كثيرًا عن الصّورة الّتي رسمْتُها لها في آخر اتّصالٍ بيننا قبل بضعة أشهر . حُزنها على فَقْد أخي جعل أقدام الموت تدبّ في جوانحها ، الموت الّذي اختار أخي شهيدًا يبدو أنّه يغذّ إليها الخُطا ليُوافيها عمّا قريب . مرّ طيفُها أمامي صورةً غائمةً مُهتزّة ، بدتْ شاحِبة ، خُيّل إليّ أنّني أراها تقف عند ذات الشّجرة الهَرِمة ويقف الموت إلى جانِبها ، كانت تنظر إليه غير مُباليَة ، وكان يلهو إلى جانِبها كأنّ علاقةً من نوعٍ ما تحكمهما . اقتربَ

منها أكثر ، فابتسمتْ في وجهه ابتِسامةً واهنة ، زاد من اقترابه أكثر فارتجف قلبي ، أيقنتُ أنّه سيكونها بعدَ لحظات ، فدبّ الذّعر في أضلعي ، جحظتْ عينايَ من هول اللحظة القادِمة ، هززتُ رأسي بشدّة لأُبعِد المنظر الماثل أمامي ، اهتزّت الصّورة الغائمة . ازدادت ضبابيّة ، وسقطت السّمّاعة من يدي . صحوتُ على صوتِ سَقْطتها . بلعتُ ريقي . واستعذتُ بالله من الشّيطان الرّجيم . حانت منّي التِفاتةٌ إلى الحشود الرّابضة فاستعدتُ بعضَ الهدوء ، أحسستُ أنّني كنتُ في عالَم الموت وخرجتُ منه للتّوّ . كانت الجموع المحتشدة أمام ناظريّ تُمثّل الحياة ؛ الحياة الّتي تحتاج إلى تصديق أنّنا نعيشها!!

اشتدّ الحِصار على القلب اشتداد القيد على الرُّسغ . كان الجوع والعطش قد بلغا مبلغهما من الثّائرين . لم تنزل كِسرة خُبزٍ واحدة أو قطرة ماءٍ يتيمة إلى جوف الكثيرين منذ أيّام . خلّصَنا الصّومُ من وضر الرّوح ، وأشعل نقاء القلب ، ورفع راية الصّفاء في الأنفاس . كانت الأجواء فيها من السّكينة ما جعلنا نجلس في روضتها مَحبورين .

من بعيد بدا الشّارع الموصل في نهايته إلى البوّابة الشّماليّة خاليًا من أيّ حياة ، جافًا ، باهتًا . وعلى البوّابة نفسها من الخارج بدت الحشود العسكريّة قد أتمّت تواجدها ، ووقفتْ مثل أصنام تنتظر أمر الرّبّ . وهنا حيثُ مركز الثّورة بدونا مثل صخورٍ راسخة في قمّة الجبل وسفْحِه ، والويل كلّ الويل إذا ما تلململ هذا الجَبل المارد . كُنّا بالعدوة الدُّنيا وهم بالعُدوة القُصوى ، ولم يَدُر في خلدٍ أحدنا أنّ الجَمعَين يُمكن أن يلتقيا!!

طلبتُ من مجموعة الإسناد أن توافيني بستّة لمهمّة مُستَعجلة ، جاء السّتة وسلّمْتُ أميرهم ورقةً مطويّة ، وطلبتُ منه أن يتوجّه بها

وبالشّباب إلى مسجد الجامعة ، وحينَ يصير أمام باب المسجد يفتح الورقة ويُنفِّذ ما فيها .

لم تكدْ تمرّ عشر دقائق حتّى سمعنا مُكبّرات الصّوت في المسجد تُفتح وينطلق منها البيان المُجلجِل الآتي : «يا أهالي إربد الكرام . . . أيّها الأوفِياء إنّ أبناءكمُ الآن يُحاصَرون داخل أسوار الجامعة دون ذنب . الرّجاء الحضور من كلّ مكانٍ إلى الجامعة لكسر الحِصار عنهم وحمايتهم من الإيذاء والاعتقال» . كان نداءً قصيرًا واضح الدّلالة ، نريد أن تصل رسالته إلى كلّ النّاس ، وقد كرّره صاحب النّداء خمس مرّات كما طلبتُ منه .

عادتْ مجموعة النّداء إلى السّاحة ، وقد عزمتُ على أن أبعثهم مرّة أخرى على صلاة التّراويح بعددٍ أكبر ليقوموا بإعلان الرّسالة مرّاتٍ أُخَر .

(٥١)
«إنّه فكَّر وقَدَّر»

ترجّلَ من مكتبه الوثير ، ومشى بخطواتٍ لم يمشِ مثلها قيصر ، ولم يألفها كسرى . حفّتْ به رجاله حفوف الورق اليابس في الرّيح العاصف بالشّجر ، تناهبوا المكان ليؤمّنوا له الحماية ، وقرّر أن يسير في موكبٍ على أن يستقلّ المروحيّة . للموكب عَظَمةٌ تدخل النّفوس تزيدُ ما فيها من كبرياء فتكون حينئذٍ قادرةً على اتّخاذ قرار مفصليّ ، يبدو أنّه لم يعُدْ منه مفرّ!!

وصل إلى إربد في الرّابعة مساءً ، واستُقبِلَ في نادي ضُبّاط شرطة إربد ، تطلّع في الوجوه الّتي جلستْ إليه ، الأمنيّون يعرفون أنفسهم : مُحافِظ إربد ، ومدير شرطتها ، ومدير مخابراتها ، وطاقم من كبار الضّبّاط المدنيّين والعسكريّين ، لكنّ رئيس الجامعة لم يكن هناك ، طلبَ من أحد مساعِديه أن يهاتفه ليحضر على الفور ، في غضون دقائق كان الرّئيس يرتجفُ من الدّاخل على بوّابة النّادي وهو يُداري ارتجافه بإغلاق أزرار جاكيتته البُنّيّة . مرّر باطن كفّه على ما تبقّى في أعلى رأسه من شَعْر ، أصلح هِندامه ليُخفي اضطرابه . اصطنع الهُدوء ، ودخل وحيدًا دون سائقه .

قال صاحب الصّوت الأعلى : أَمْن الأردنّ فوق اعتِبار ، واستمرار الاضطِرابات خطّ أحمر ، وأعجب أنّك كرئيس للجامعة لم تستطع أن

تُسيطر على الأمور . ردّ عليه : الطّلاّب رؤوسهم مُغلَقة . أجابه : لدينا مطرقة تكسر أكبر رأس مُغلَق . ليس هناك من تردّد ؛ الأمر فاق الحدود كلّها ، وإذا اضطُرِرت إلى أن أقطع اليد الّتي تمتدّ إلى الأمن فسأفعل اليوم قبل غد .

كانوا - ما عداه - ينظرون من طَرْف خفيّ ، كأنّ قلوبهم أُشرِبت الخوف ، ولم تعد تسمع لهم رِكزًا ؛ حتّى أنفاسهم ضبطوها من أن تخرج في حال صمته ، واستغلّوا لحظات صوته الأجشّ ليدفعوا من صدورهم ما احتبسوه من تلك الأنفاس كي لا يختنقوا!! خبطَ بيده على الطّاولة ، وطلب من مدير الشّرطة أن يقدّم له التّقرير الأمنيّ حتّى اللحظة . قاطعه وهو يتكلّم ثلاث مرّات ، ثمّ طلب إليه أن يُحصيَ له عدد العناصر الأمنيّة الموجودة حول أسوار الجامعة .

قال رئيس الجامعة : لا زالت هناك فرصةٌ للتّفاهم ؛ أعني أنّني لا زلتُ آمُل أن يفكّ الطّلبة إضرابهم مع حلول الظّلام ، لا أعتقد أنّ الحكمة تقتضي أن نُصعّد الموقف . قال أعلى صوت (ساخرًا) : الحِكمة!! أينَ كانت حكمتكَ مُختبئة طَوال الأيّام السّابقة ، لو كانت لديك الحِكمة الكافية لما ألجأتَ قُوّات الأمن إلى أن تُحاصر الجامعة ثلاثةَ أيّام ، هل تُدرك حجم التّكاليف المادّيّة واللّوجيستيّة لتأمين عناصر الأمن والجيش مُقابِل ذلك ؛ أعتقد أنّك لا تعرف شيئًا ؛ كلّ الرّسوم الّتي طلبوا تخفيضها للتّدريب الصّيفيّ لكلّ طلبة الجامعة على مدى خمس سنوات لا تُساوي نصف ما ننفقه على هذه العناصر في يوم واحد . أين يكمُن الغباءُ إذًا!! أنتَ تتحمّل المسؤوليّة ؛ كنتَ قادرًا أن تتجنّب هذه المأساة وأنتَ الآن مُشتركٌ فيها ، وعليكَ أن تُصغي لما نقول وتحكم بما نحكُم . أجابه (بعد أن ابتلع ريقه) : المسؤوليّة مُشتَركة!!

ردّ (مستفزًّا) : تقول هذا في بيتِك . غدًا حينَ تحدُث مواجهة سأحرص على أن تكون أنتَ في الواجهة ، مَنْ يملك الإعلام يملك فوّهة المِدفع ، ومن يملك الفوّهة يستطيع أن يُديرها على مَنْ يشاء .

خيّم صمتٌ ثقيل ، مدير المخابرات ظلّ يراقب الأمر دون أن يتكلّم ، حرص هو ورجاله ألاّ ينبِسوا ببنتِ شفة ، في الحقيقة لم تكن لهم من شفة إلاّ شفة مديرهم ، ومديرهم – عن طواعية – أغلق تلك الشّفة إلى أجلٍ غير مُسمّى . قلّب أعلى صوتٍ التّقرير الّذي أمامه ، رفع نظّارته وحدّق في الموجودين : «الأفضل اقتِحام كامل بإصابات محدودة» . ابتلعت القاعة كلّ حسيسٍ مُتوقّع ، كان للجملة الأخيرة وَقْع الصّاعقة على القلوب . تململَ الرّئيس في مكانه بعد حينٍ ، هيّأ نفسه ليقول شيئًا ، ثمّ صمتَ من جديد . كرّر الصّوت الأعلى : «اقتِحام كامل للجيش والشّرطة والأمن المدنيّ» . تحرّك الرّئيس من جديد ، تزحزحتْ مؤخّرته من مكانها ، وأحس بخدرٍ يسري فيها ، نقلَ رجليه من امتدادهما وأرجعهما إلى الوراء واستعدّ ليَقول من جديد : «عندي اقتِراح آخر» ردّ عليه ذو الصّوت الأعلى : «إذا لم يكن ضِمن الضّربة الأمنيّة فاشربْه وحدك» . أجابه : «ضِمنها» . قال : «هات» . «أطلب منكم يا سيادة الفريق أن تقوم عناصر الأمن بحماية القاعات ؛ لأنّه من الصّعب إجراء الامتحانات إلاّ بوجود الأمن داخل الجامعة وليس خارجها» . قال : «إذًا أنتَ تطلب منّي إدخال الشّرطة والجيش إلى الحرم الجامعيّ» . أجابه (وهو يخفض رأسه كقطّة مذعورة) : «نعم»!!

وقف ذو الصّوت الأعلى على قدميه ، فوقف كلّ الضّبّاط ورئيس الجامعة معه على أقدامهم ، حدّق فيهم واحِدًا واحِدًا ، رفع إصبعه

وأشار نحوهم : «سنتّفق على الطّريقة المناسِبة إذاً» .

جلسوا حين جلس . طلبَ من رئيس الجامعة بعض التّوضيحات . تناول الرّئيس كوبًا من الماء أمامه ، ليّن به مجرى الكلمات الّتي سيقولها بعد قليل : «يدخل رجال الشّرطة والجيش بلباسهم العسكريّ الجامعة ، يتوزّعون على أربعين قاعة امتحان في كليّات الجامعة ، عشرة عناصر لكلّ قاعة ، خمسةٌ داخلها وخمسةٌ خارِجها ، وبضع عشرات في السّاحات العامّة ، على أن يكون العدد أكبر في كلّيَتي الآداب والهندسة لخطورة الموقف فيهما» . ردّ ذو الصّوت الأعلى : «يبدو أنّك خطّطتَ للأمر مُسبَقًا ، غير أنّ تفويضكَ لا قيمة له أمنيًا ، أعني سماحَك بدخول القُوّات الأمنيّة إلى الجامعة لا يعني شيئًا ، أنا أريد هذا التّفويض من المُحافِظ» . تنحنح المُحافِظ ، وردّ ببطء : «أنا أفوّضكَ يا سيدي» . أجابه : «هذا كلامٌ فارغٌ في الهواء ؛ يجب أن يكون مكتوبًا» . أجابه : «حاضر يا سيدي» .

استأذن رئيس الجامعة بعرض بقيّة المطالب ، أذن ذو الصّوت الأعلى له : «ماذا هناكَ أيضًا؟!» . نعقد الامتِحانات النّهائيّة غدًا الخميس فقط لمن لديه امتِحان في الجامعة ، ونمنع كلّ طالب يريد أن يدخل الجامعة وليس عنده امتحان» . أجابه : «لا شكّ أنّ عقلك ليس معك ؛ المشكلة الآن ليستْ في منع مَنْ يدخل إلى الجامعة ؛ المشكلة في إخراج من هو داخلها من هؤلاء المُعتصمين ، ونحن نعلم أنّ ثُلُثَي جامعتك العزيزة معتصمٌ الآن في ساحاتها أيّها الرّئيس!!» عادَ الصّمتُ ليكتنف المكان . قال المُحافِظ : «لو بعثْنا بعضَ الوجهاء إليهم مِمّن يُمكن أن يتحاوروا معهم» . ردّ ذو الصّوت الأعلى : «مَنْ تقصد؟!» أجابه : «بعضُ نوّاب الحركة الإسلاميّة وبعض القيادات اليساريّة» . ردّ

ذو الصّوت الأعلى : «القيادات اليساريّة ليس لها هذا التّأثير ، يُمكن التّفكير بقيادات الإخوان» . صمت قليلاً ثمّ تابع : «ما إمكانيّة تقبُّل المُتظاهرين لهم» . ردّ المحافظ : «إذا كانت الغالبيّة من الإخوان فيُمكن اللّعب على فكرة السّمع والطّاعة الّتي ينتهجونها ؛ المشكلة في أن يقتنع القياديّ الإخوانيّ الوسيط بضرورة فكّ الاعتصام» . همهم ذو الصّوت الأعلى ، ثمّ قال كي يُنهي نقاشًا طويلاً : «أترك هذه المهمّة لك . أجرِ اتّصالاتِك وتفاهماتك مع مَنْ تشاء على أن تكون النّتيجة عندي في أقلّ من ساعتين ؛ الوقت يُداهمنا» . انفرجتْ أسارير المُحافظ ، قال بصوتٍ راقص : «ربّما هذا يُعفيني من كتابة الإذن لقوّات الأمن الخاصّة بالدّخول» . ردّ ذو الصّوت الأعلى : «لا . لا . اكتُبْ بخطّ يدك ما سأُمليه عليك ؛ سوف أحتفظ بهذه الورقة لاستخدامها في الوقت المناسب . أعطوه ورقةً وقلمًا . اكتب عندك . .» . أجابه وقد انقبض قلبه : «نعم سيدي» . أملاه : «أطلبُ أنا الموقّع أدناه مُحافظ إربد من مدير الأمن العامّ باستخدام القوّة اللازمة في فضّ اعتِصام المُتظاهرين ، وبالمكان والزّمان اللّذين يراهما مُناسِبَين» . تابع : «كتبتَ؟!» ردّ المُحافِظ : «نعم سيدي» . أشار إليه ذو الصّوت الأعلى : «اكتب اسمك الرّباعي في الأسفل ووقّع واكتب التّاريخ والسّاعة» . «حاضر سيدي» . «هاتِ» .

انتفشتْ قوّة الشّر الكامنة في النّفوس ، الأبالسة لا تحضر اجتماعات يتمخّض عنها قراراتٌ عابرة بسيطة ؛ فهذه متروكة لصغار الشّياطين من الإنس و الجنّ ، أمّا إذا كانت تلك الاجتِماعات ممّا ينتج عنها قراراتٌ مصيريّة حاسِمة تؤدّي إلى إزهاق الأرواح ، فهي بالضّرورة من اختصاص إبليس الأوّل .

قُوّة الشّرّ وَهْم ، قوّة السّلاح هُراء ، قُوّة العَضلات زيفٌ ؛ ليس لقوّة من حقيقة إلاّ قوّة الفِكرة ، وحرارة الإيمان بها . رصاصة الباطل عمياء لا ترى حتًّى في النّور ، ولا تُخيف إلاّ الموسوسين . أمّا سهم الحقّ فيُصيب هدفه حتّى في الظّلام . والمبدأ الصّالح في يد صاحبه قوّةٌ لا تنكسر وعزيمةٌ لا تفتر ومنارةٌ هادِيةٌ لا تضلّ . وإذا كانتْ قوّة الشّرّ تقتل فإنّها لا تُغيّر في الواقع شيئًا إلاّ بمقدار ما تُخلّفه وراءها من ضحايا يتحوّلون فيما بعد إلى أيقونات تُمدّ التّغيير بالجَمْر . صُبح الفِكرة يُحيي ويبني ويقود إلى النّصر ، وما من نصر إلاّ ويمرّ عبر جادّة التّضحيات .

(٥٢)
امْلأْها بِنُورِكَ الّذي لا يَخْبُو

في المساحة الفاصلة ما بين مبنى المكتبة ومئذنة المسجد كانت الشّمس تُودِّع آخر ساعات النّهار في ذلك المساء الرّمضانيّ السّادس . ارتسم التّعبُ على بعض الوجوه غلالةً شفيفة ، و أخذ الإرهاق حظّه من كلّ واحد منّا ، غير أن نَسَمات الهواء العليلة الّتي راحتْ تتلطّف بنا أحيتْ بعضَ الرّضى في النّفوس . هوت الشّمس تستأذن قلوبنا المُفعَمة بالأمل أن ترحل ، وسال دمُها الأرجوانيّ على صفحةٍ زرقاء بدأت بالتّحوّل إلى القرمزيّ فنثرتْ جمالاً لا يُدانيه جمال . نظرتُ باتّجاه العساكر الرّابضين على مداخل البوّابة الشّماليّة فأسيت ، وفكّرتُ : ما الّذي اضطرّنا أن نصل إلى هذه اللّحظة الفارقة القاتلة!! مَنْ أغرانا أو أغراهم بكلّ ما حدث!!

وقفتْ (سُها) على مدخل السّكن الدّاخليّ للطّالبات ، وحرّضتْ زميلاتِها على أن يحتشِدْنَ هناك ، كان إقناعهنّ أسهل مِمّا تتوقّع في أن يَنضمِمْنَ إلى الحشود ، في أقلّ من ساعة كانت ساحة السّكن الدّاخلي تمتلئ بكلّ القاطِنات فيه ، وامتدّت الشّرارة إلى الباحة الدّاخليّة لسكن (مدام كوري) ، إذ نزلتْ على بابه (كِندة) وجمّعت الطّالبات ثمّ سارت بهنّ إلى سكن (عائشة الباعونيّة) وقمن بفتح باب السّكن عَنوةً . تعاظم الحشد حتّى لم يعد من طالبةٍ من المقيمات في

السَّكَنات إلاّ ونزلتْ إلى السّـاحـات ، وتولّت (سُـهـا) مع (كِندة) تحميسهنّ للدّفاع عن قضاياهن وقضايا زملائهنّ ، وسِرْن من هناك باتّجاهنا . من بعيدٍ بدا لقوّات الأمن أنّ مددًا جديدًا قادِمًا يوشك أن ينضاف إلى الجيش الرّابض ما بين الكافتيريا ومبنى الدّراسات الإسلاميّة . أرأيتَ إلى الورود كيفَ تُجمّل الرّوض الشّائك!! أنظرتَ إلى العيون كيف تملأ الأرضَ بالماء!! هكذا كُنّا حينَ جاءنا هذا المدد النّسويّ العظيم .

بقي على أذان المغرب أقلّ من نصف ساعة ، وكانت الأفواه جائعة . صعدتُ المنصّة ، وطلبتُ من الطّالبات أن يذهبْنَ إلى السّكن ويأتيننا بكلّ ما يستطِعنَ من طعام . بعضُ أساتذة الجامعة شارَكوا في المهمّة ، بعثوا مع أبنائهم إلينا بكلّ طعام مُمكنٍ في بيوتهم ، كانت حالةً من التّلاحم غير مسبوقة . في السّابعةِ والرّبعِ من ذلك المساء كان في حوزتنا ماءٌ كثيرٌ في علبه البلاستكيّة ، وعبوات عصير ، وكراتين من التّمر ، وصحونٌ من الشّوربة . قامتْ (سُها) و (كِندة) بتوزيع مهمّات إعداد الطّعام على الطّالِبات . بعضُ ما وصل إلينا كان قد طُبِخَ في السّكن . وتنوّعت ألوان الطّعام المطبوخة ، وتفنّنتْ كلّ طالبةٍ بتقديم مواهبها في ذلك .

أخذتُ (نائل) جانِبًا ، واستشرتُه فيما سأُقدِم عليه بعد قليل ، فوافقني على الفور . كانت السّاعة تُشير إلى السّابعة والثّلث ، أخذتُ السّمّاعة من جديدٍ ، وطلبتُ من الحشود الغفيرة أن تُردّد ورائي : «اللهمّ إنّك تعلم أنّ هذه القلوب قد اجتمعتْ على محبّتك ، والتقت على طاعتك ، وتوحّدتْ على دعوتِك ، وتعاهدتْ على نصرة شريعتك ، فوثِّقِ اللهمّ رابِطتها ، وأدِمْ وُدّها ، واهدها سُبُلَها ، واملأها بنورك الّذي لا

يخبو ، واشرح صدورها بفيض الإيمان بك وجميل التّوكّل عليك ، وأحيِها بمعرفتِك ، وأمِتْها على الشّهادة في سبيلك ، إنّكَ نِعم المولى ونِعمَ النّصير» . وردّدت الحشود ورائي (وِرْد الرّابطة) ، لم تُخطِئ فيه كأنّها تحفظه منذ زمن ، وترنّم الإخوانيّون به لأنّه وحّد قلوبهم ، وكان أمرًا جَلَلاً أن يُقرأ هذا الوِرد الخاصّ في هذا الحشد المجموع . ولكنّني وجدتُ نفسي أفعل ذلك دون تردُّد .

قُبيل أذان المغرب همّتْ طالِبةٌ أن تأكل شيئًا ممّا توافر من التّمر ، لكنّ زميلةً مسيحيّة لها قالتْ : «هل أذّن؟!» فأجابتْها مُندهشة : «وهل تصومين؟!» فردّتْ : «اليوم نعم ، أنا مع وَرْد والشّباب ، وكوني مسيحيّة لا يمنع أن أتضامن مع زملائي» . ثمّ لم تمضِ لحظات حتّى أعلن المغرب حُلول الأجل ، فلم تمدّ يدها على تمرةٍ ، ولم تشربْ قطرة ماء . فسألتْها الأولى : «لقد أذّن لماذا لا تتناولين إفطارك» . فردّتْ : «وهل أمرَ وَرْد بذلك ؛ أنا لن أُقدمَ خطوةً واحدةً على أيّ أمرٍ حتّى ولو بلغ بي العطش والجوع ما بلغ إلاّ بإشارةٍ من وَرْد ، إذا سمعتُهُ يقول لنا أفطِروا فسأفعل ، وإنْ لم أسمعْه فسأبقى صائمةً حتّى يقول ، ولو طلع عليّ النّهار وأنا في مكاني» . بلعتِ الأولى دهشَتَها ، وتقدّمتْ إلى الشّباب وقالت لأحدهم أن يطلب من وَرْد إعلان دخول وقت المغرب ويأمر الجميع بتناول حبّات التّمر لأنّ هناك طالبةً مسيحيّةً ترفض أن تأكل شيئًا إلاّ بإذنٍ منه!!

نعم ، ارتفع صوتُ المؤذّن ليعلن أنّ (الله أكبر) من كلّ ما عداه ، وهوينا إلى التّمر والماء ، وابتلّت العروق ، وكانت لي الكلمة العُليا ، فأرجأتُ تناوُل الإفطار إلى ما بعد الصّلاة ، وأمرتُ مَنْ يُصلّي أن يأتمّ بي ، وأبقيتُ قِسمًا لحراستنا ، واصطففْنا اصطِفافَ الطّيور الهائمة حول

الوِرْد ، وما يدري سِرّ الماء إلاّ ظامئ ، ولا سِرّ التّجلّي إلاّ مُريد . وبعد أن نالت الرّوح حظّها من النّور لم نَدرِ من أينَ جاءنا اليقين .

رُزقنا طعامًا كثيرًا لم نتكلّف في إعداده إلاّ يسيرًا ، كان بعضُهُ يأتي من الأهالي من إربد يمرّ عبر بوّابة مسجد الجامعة ، يدخل به بعضُهم مُخفِيًا إيّاه في ثيابه ، وبعد صلاة المغرب حتّى العشاء كان يأتينا منهم خيرٌ كثيرٌ ، وكنتُ قد بعثتُ حوالي مئة طالب إلى بوّابة المسجد من جهة الجامعة تستقبل الأهالي المتبرّعين بالطّعام وإمدادنا به . وتكوّم لدينا في ذلك المساء من الطّعام ما يكفي لأن نعتصم هنا طيلةَ شهر رمضان . ولم تكن الرّقابة على بوّابات المسجد وقتئذٍ شديدةً ، إذ لم يكن من السّهل مَنْع المواطنين من الدّخول من بوّابته الّتي تلي المدينة والصّلاة فيه . وكُنّا نحن الرّابحين في معادلة دخول المُصلّين ، هم يؤدّون عبادَتين في آنٍ واحدٍ ، ولربّما الثّانية تكون أولى من الأولى ، وأجرها عند الله أكبر!!

حلّ الظّلام تمامًا ، وراحت الأنوار تتراقص على المُحيّا ، وكانت أنوار القلوب أصدق ، والتفّ بعضُنا إلى بعضٍ ، وانحصرتْ خياراتنا في أمرٍ واحدٍ لم نكنْ نملك سِواه ؛ وإذا كان الصّبح ينتظر الظّلام ليرحل ، فإنّ الظّلامَ في تلك الآونة أكل قلب السّلطة وحلّ محلّها فأنّى له أن يرحل!!

في الثّامنة حضر وفدٌ من الوجهاء على رأسهم الدّكتور (أحمد) ليتوصّل معنا إلى حلّ ، استقبلْتُه بالأحضان ، وأمرتُ الشّباب أن يهيّئوا له ولوفده المُرافِق مكانًا يليق بهم . كثيرٌ من اليساريّين لم يَرُقْ لهم قدوم الدّكتور واعتبروا ذلك محاولةً من الإخوان لإجهاض الثّورة الطّلاّبيّة الّتي وصلتْ ذروتها آنئذٍ . استلزمني الأمر أن أغضّ الطّرف قليلاً عن

همزاتهم ولمزاتهم الّتي لا تنتهي . والاستمرار في دوري - كزعيم طلاّبي - الّذي يدعوني إلى أن أستمع إلى الجميع وأتشاور مع أعضاءٍ مجلس الثّورة وألاّ أتّخذ قرارًا يخصّ الجَمْع إلاّ بعد اقتناع الأغلبيّة .

قال لنا : «مطالبكم ستحقّق وأنا ضامِنٌ لها ، وأرجو أن تُنهوا اعتِصامكم» . أجبْناه : «تحقيق المطالب يسبق كلّ شيءٍ وبعدها نتفاهم» . خرج هو ووفده لينقل وِجهة نظرنا الّتي لم تعد تخفى على أحدٍ إلى المسؤولين والتّشاور معهم .

استنْهضتُ (فؤاد) ليهتف أو يُنشِد ، فانطلق كأنّه كان ينتظر أحدًا ليُوعِز له بذلك :

اِطْلَعْ يا قَمَرْنا وْهِلْ   ضَوِّي الكُرَةْ الأَرْضِيِّةْ
مَا خْلِقْنَا تَنْعِيْش بْذُلّْ   خِلِقْنا نْعِيْش بْحُرِّيِّةْ

وهتفْنا خلفه بصوتٍ واحدٍ ارتّج له سُكون المكان ، وأصغتْ له أذنُ الجدارن!! ثمّ بعثتُ بمئةٍ يحمون واحدًا ليُعلِنَ من جديد إلى أهالي إربد أن يتضامنوا معنا بالموقف المشرّف أيًا كان شكل هذا الموقف . ثمّ قُمنا إلى صلاة التّراويح فما تخلّف منّا إلاّ قليلٌ .

في العاشرة عاد الدّكتور (أحمد) ليتوسّطَ من جديد ، ومعه وفدٌ أكبر من سابِقه ضمّ فيمن ضمّ مدير شرطة إربد بلباسه العسكريّ وعددٌ من ضبّاطه يحفّون به . صنع هذا استِفزازًا جليًا لدى المتظاهرين ، خرجتُ من بين الحشد أستبق وصول الوفد ، وهمستُ بكلمات في أذن الدّكتور وتراجع على إثرها مدير الشّرطة والجوقة العسكريّة الّتي تُصاحِبه .

قال الدّكتور لي : «أخرجْ إليّ ممثّلي الطّلبة لنتفاوض حول ما توصّلْنا إليه» . أمرتُ (نائل) أن يتولّى مهمّة إدارة المنصّة بكلّ تبِعاتها ،

وأخرجتُ وفدًا برئاستي بالإضافة إلى الأعضاء : (سِراج ، وصفي ، سالم ، سُها) ، ومشينا خمستنا مع الدّكتور إلى إحدى قاعات مبنى الدّراسات الإسلاميّة ، تبعني عشرةٌ من مجموعة المواجهة لحمايتي ، أشرتُ لهم أن يرجعوا فرجعوا . قال الدّكتور : «الرّئاسة توافق على إلغاء امتحان يوم الجمعة ١٦-٥-١٩٨٦ وتنظر في طَلَبات الجمعيّات الطّلاّبيّة ، وتسمح لجميع الطّلبة بتقديم الامتِحانات بما في ذلك الطّلبة المفصولون ، ولكنّ السّماح بدخول الجامعة سيتمّ على الهويّة» . ردّتْ (سُها) بانفعال : «هذا تخدير ، ونحن نرفض» . صمتٌ ، قام (سالِم) وقال بصوتٍ حازم : «مطالِبنا كادت تُكتَب على ورق البردي لِقِدَمها ؛ ألم تستوعبْها إدارة الجامعة حتّى الآن؟!» . صمتٌ . قام (وصفي) : «سنعيدها على مسامعكم للمرّة الأخيرة يا دكتور : إلغاء جميع العقوبات وإعادة المفصولين فورًا . والإفراج عن الطّلبة المعتقلين في كافّة السّجون الأمنيّة في الشّرطة أو المخابرات أو غيرهما . وتأجيل الامتِحانات إلى يوم الاثنين . وإزالة كافّة مظاهر الأمن عن أبواب الجامعة» .

خرج الدّكتور آسِفًا . هناك نقاط التِقاء (قال مُطمئنًا نفسه) ، بعض النّقاط الخلافيّة يُمكن للسّلطة أن تتنازل عنها لمصلحة الجميع ، ولكنّها لا تريد أبدًا ؛ تقول : هذا كسرٌ لهيبة الدّولة . غاب ظِلّه مع آخرين في الجيش الأمنيّ الرّابض عند البوّابة الشّماليّة .

بعد بضع دقائق من غياب الدّكتور ، حضر من جديدٍ مدير شرطة إربد ، وحاول التّظاهر بأنّه يريد التّفاوض معنا ، فاستقبله الثّائرون بالصّياح والهِياج ، وهجم عليه عددٌ منهم فولّى هارِبًا لا يَلوي على شيء ، التفتَ بعد أن صار بعيدًا ، وصاح من هناك : «يا وَرْد هات لي

اثنين أو ثلاثة منكم أتفاهم معهم» أشفقتُ على موقفه . بعثتُ له واحِدًا ؛ كان (سِراج) ومعه مجموعة حماية . واجهه في إحدى قاعات (مج) . جلسَ مدير الشّرطة إلى أحد المقاعد ومن خلفه جلس حوالي عشرة أو أكثر بعضُهم بلباس عسكريّ وآخرون بلباس مدنيّ . ابتدأ هو الحِوار :

– رئيس الجامعة رفع يده عن الموضوع ، وصار الأمر بيدي أنا . أنتم تتحدَّون الدولة ، لا أحد أكبر من الدّولة ، يجب أن تفضّوا الاعتصام وتخرجوا كما أقول لكم .

آذتْني عنجهيّته ، ومحاولته لعب دورٍ ليس له ، ضبطتُ أعصابي ، وأجبتُه :

– هذا الكلام فات أوانه ، الصّورة الآن مختلفة ، إذا كان قصدك توصيل رسالة تهديد ، تفضّلْ بنفسكَ وأوصلها للطلبة ، نحن لسنا مراسيل لإيصال تهديداتك التي لا معنى لها ، هؤلاء الطّلاّب ليس لهم قضيّة معك ، ولا قضيّة مع الدّولة ، ولا قضيّة مع أيّ أحد خارج أسوار الجامعة ، هؤلاء الطّلاّب لهم قضيّة مع إدارة الجامعة . وبالتّالي حين تحشرون أنفسكم في هذا الموضوع فأنتم الّذين تسيّسون الموضوع ، تريدون تأزيمه لا حلّه ، وأنتم الّذين تُضخّمونه ، وتجعلونه يتّخذ منحى أمنيًا . إذا كان لديك رسالة إيجابيّة فسأفتح لك المجال كي تُخاطب الجمهور ، أمّا رسائل التّهديد فأنا أقول لك : لن يقبلها الطّلاّب وستعمل على توتير الأجواء بدل تهدئتها . نحن خِطابُنا عادلٌ فليس لنا قضيّة سياسيّة ، لنا قضيّة مطلبيّة أكاديميّة . قضيّتنا : نريد من إدارة الجامعة أن تنفّذ مطالبنا دون إبطاء أو التفاف ، وأنتم على الهامش اصطنعتم قضيّة معتقلين من أجل أن تُحسِّنوا موقفكم التّفاوضيّ ،

والامتحانات دخلتْ ولم تُلبّوا شيئًا من مطالبنا لكي تزيدوا من الضّغط على نفسيّات الطّلبة للخضوع للأمر الواقع .

– أنا لا أفـهم هذا الكلام ، أنا أفـهم أنّني حين آمـركم بالخـروج بسلطة الأمن والقانون فعليكم أن تخرجوا!!

– هذا الكلام لـن يتعاطى معه أحد ، ولن يتجاوب معه طالب ، هذا الكلام صار خارج النّقاش ، ولغة التّهديد هذه لن يتقبّلها الطّلبة . قضيّتك ليست معي مِنَ الآن ، ها هم خلفي هناك بالآلاف تستطيع أن تُخاطِبهم بإذنٍ منّي لا بإذنٍ منك ، وستجد الجواب المُباشر على ألسنتهم . وإذا واصلْتَ تهديداتك الجوفاء الّتي لم يَعُدْ لها أيّ تأثير فسأنسحب ، وهدِّدْ ذرّات الهواء من بعدي!!

– ستخرجون بالصّيغة الّتي أفرضها ، وما في تظاهُر ، ويجب أن ينفضّ الاعتصام فورًا .

– يبدو أنّك بطيء التّعلم!!

اشتدّ الظّلام ، وتكثّفْت أمواجه الّتي تُحيطُ بنا ، وعُومِلنا على أنّنا أكوام من الخيش ملقاة في إحدى السّاحات ، وظلّ التّعامل مع مطالبنا حتّى هذه اللحظة العصيبة باستخفاف . وأقبلنا على ليلٍ أشدّ ، ولا ندري أيصدُقُ في حالتنا أنّ الفجر لا يأتي إلاّ بعد أشدّ ساعات الليل اسوِدادًا أم لا!!

وطُرِح سؤالٌ كان محبوسًا في الصّدور ، يتردّد هناك ولا يُجاوِزها خوفًا وقلقًا وترقُّبًا . وكان السّؤال : إذا قامت القوّات الأمنيّة باقتِحام موقع الاعتِصام فماذا سنفعل؟! وبالطّبع لم تكن الإجابة جاهِزة ، أكثر ما كُنّا نؤمّل فيه أنّ هذا لن يتمّ ، وراح بعضُنا يهذي : من المستحيل أن

تقوم الشرطة والجيش بمهاجمتنا ؛ مستحيل!! أين نحن!! هذه طامّة!! الأمور لا تسير على هذا النّحو!! لا يُمكن أن تُحدّث الشّرطيَّ نفسُه بإيذائنا ، وإذا افترضنا أنّه سيفعل ؛ ماذا عن الطّالِبات!! هل يُمكن أن يقبل الرّجل الأمنيّ على نفسه بأن يمدَّ يده على طالبة!! كثيرةٌ هي التّساؤلات الّتي افترضْناها وأجبْنا عنها مدفوعين بعدم اقتناعنا أنّ الأمن سيدخل . غير أنّني مع شكّي بأنّهم سيقتحمون وضعتُ أحد الافتِراضات الّتي تقول : وإذا تجاوزوا كلّ الأعراف والقوانين والتّقاليد وداسوا على كرامة الإنسان ، ومسحوا فيها الأرض ؛ ما الحلّ وقتئذ؟! أنترك الإجابة للطّرف الّذي يفرض نفسه وحينئذ نتصرّف؟!! لا . هذه ليست من الحِكمة في شيءٍ ، وكقائد عليّ أن أضعَ خُطّة!!

(٥٣)
غَرْناطَةُ في مَرْمَى الرَّصاصِ!!

اجتمعتُ مع مجلس قيادة الثّورة المُصغّر : نحن هنا أكثر من سبعة آلاف متظاهر ، هذا يُشكّل ما يقرب من ثلثي طلاّب الجامعة ، ويتربّص بنا خارج الأسوار ما يزيد عن ألف عنصر أمنّي . أرأيتم اللحوم تُلقَى إلى الكلاب تنهشها لقمةً سائغة!! أيّ مسؤوليّة نتحمّلها إذا تركْنا المقادير تجري دون تدبير؟! لا بُدّ من طريقةٍ لنواجه بها اقتِحامًا مُحتَملاً ؛ ما رأيكم دام فضلكم!!

– نجهّز الهراوات والعصّيّ ؛ العين بالعين والسّنّ بالسّن والبادئ أظلم .

– نخلع كلّ الشّبك الحديديّ الّذي يُغطّي نوافذ القاعات ونصنع منه مصداًّ إذا بوغِتنا بالهُجوم ، ونستخدم بعضه للدّفاع عن النّفس . (اقترح ذلك نائل) .

– أنا أعرف كيف أجهّز زجاجات (الفيفا) الفارغة لتصبح مثل المولوتوف ؛ وكلّ قنبلة غاز تُطلَق علينا نردّها لهم بزجاجة مولوتوف .

– حجارة الأطاريف يُمكن أن نخلعها ونكسّرها ونكوّمها أكوامًا في أماكن مُختلفة ؛ ليسهل على الطّلبة تناوُلها وقذف قوّات الأمن بها .

اقتِراحات كثيرة قُدّمت ، لكنّ أحدًا لم ينتبه إلى خطر أنّنا لسنا شبابًا وحدنا في مواجهة آلة القمع الأمنيّة ، إنّما معنا أكثر من ألفَي

طالِبة ؛ وهذا سوف يخلط الأوراق وسوف يضعنا في معضلة يصعب الخلوص منها ؛ ثمّ إنّ الرّدّ بهذا الشّكل العنيف سوف يؤجّج المُشكلة ولن يُساعد على حلّها ، وسوف يُعطي ذريعةً للسّلطة أن تضرب بقوّة أكبر . كان هذا رأيي في الحقيقة الّذي لم يُشارِكني فيه أحدٌ تقريبًا ، وكان أشدّ المعارضين له (وصفي) و(نائل) .

استملْتُ إليّ بعض المُعتدلين وقرّرنا بمساندتهم ألاّ ننفّذ أيّ اقتراح مِمّا سبق ، وتوصّلنا معًا إلى أن نفعل شيئا معقولاً ومقبولاً ، وهو أنْ نجعل الطّالبات في مؤخّرة الصّفوف وهي الصّفوف الأقرب إلى البوّابة الشّماليّة ونحن الأبعد عنها ، ظنًّا منّا أنّ الاقتِحام إذا حصل - لا قدّر الله - فإنّ عناصر الشّرطة سوف تتردّد من أن تضرب سدًّا من الطّالِبات يقف حائلاً بينها وبين الطّلاّب ، فإنّ هذا في عُرف العربيّ مُخجلٌ ومُخزٍ أن يُقدم على فِعلٍ كهذا!!

في الحادية عشرة عادَ الدّكتور (أحمد) إلينا من جديد ، استقبلتْه الكثرة من القيادة بتجهّم ، قال لي وصفي : «قل له أمرًا واحدًا : أين سيادة رئيسنا المُبجّل نريد أن نرى طلّته البهيّة» أبلغتُ الدّكتور أنّ الأمر لا يحتاج إلى مزيدٍ من المفاوضات وأنّنا نريد أن نرى الرّئيس . على الفور استجاب وقفل عائدًا من حيثُ أتى . في الحادية عشرة والنّصف هلّ هلال الرّئيس ، فقام (فؤاد) يهتف بحضوره ساخرًا :

يَا (غَلْيُونْ) طُلْ جَـــايْ واسْتَنّاها كَاسْةِ الشّـــايْ

فردّد المُحتجّون من ورائه ، ممّا شحنَ الجوّ أكثر . ثمّ أردف :

اِطْلَعْ اِطْلَـــع يَا غَلْيُـــونْ وَقِّفْلِي عَـــلَى البَلَكُـــونْ
اِطْلَعْ اِطْلَعْ يَا بُو قَصَّـــــةْ وَقِّفْلِي عَـــلَى المَنَصَّـــةْ

سارعتُ إلى (فؤاد) والجماهير تهتف بما هتف به ، وأنزلتُه عن

المنصّة درءاً لمزيدٍ من الاحتقان . «أخرجوا إليّ رؤوسكم» قال الرّئيس . خرجنا آساداً ؛ هذا ما كُنّا نريده ، أن تبقى الأمور داخليّة بيننا ، ما علاقة الشّرطة والمخابرات والجيش بنا ؛ ما هذا التّدخُّل السّافر!! جلسنا في فراغٍ على يمين المسافة الواقعة شرق الكافتيريا ، ومن بعيد كانت الأعناق تتشوّف إلينا لتعرف عمّ سيُسفِر هذا اللّقاء التّاريخيّ . «لن نعيد تكرار مطالبنا الّتي صارت الطّيور في السّماء تعرفها ، نريد أن نسمع منكَ ما يُهدّئ الثّائرين هناك» (قلتُ له) . أجاب : «توصّلتُ مع مدير الأمن إلى النّقاط الآتية : يتقدّم الطّلاّب كلّهم للامتحانات من كان منهم مفصولاً أو غير مفصول . ويبحث مجلس الجامعة التماسات الطّلبة حول إعفائهم من العقوبات حالَ عودة الهدوء إلى الجامعة . وسيتمّ التّحقيق لمعاقبة مَنْ خرّب من الطّلبة فقط» . قاطعه (وصفي) : «مرفوض . . مرفوض . . واطلع برّا» . أطبقتُ بيدي على فمه ونظرتُ إليه غاضبًا . اعتذرتُ للرّئيس ورجوتُه أن يُكمل . أضاف : «يتمّ تأجيل الامتحان المُقرّر يوم الجمعة ولن يتمّ تأجيل غيره من الامتحانات . وسأضع علامة غير مُكتمل لكلّ طالبٍ لا يتمكّن من تقديم الامتحان بسبب الاعتقال ، على أن يُقدّم الامتحان فيما بعد إذا ثبتتْ براءته . ويَعِدُ مدير الشّرطة الطّلاّب إذا ما فضُّوا الاعتصام بعدم تدخُّل قوّات الأمن إلاّ إذا هوجِمتْ ممتلكات الجامعة» . طوى الرّئيس الورقة الّتي أُمليتْ عليه ، ولم يكد يطويها حتّى صاح (وصفي) من جديد : «مرفوض . . . مرفوض . . . مرفوض . . .» وشايَعه (سالم) بذلك ، وتبعه (نائل) بصوتٍ أعلى : «مرفوض . . . مرفوض . . . مرفوض» وراح يُلوّح بيده ويهزّها في الفضاء ، ووصل صوته إلى الحشود ، فراحت تصيح بصوتٍ واحدٍ اهتزّت له القلوب : «مرفوض . . . مرفوض . . .

مرفوض . . .» . وظهر أنّ أجواء التّهدِئة لم يعدْ لها مكان ، وأنّ الماء قد طغى حتّى جاوز كلّ حدّ!!

أخذتُ الرّئيس من يده جانِبًا وأسرعتُ به بعيدًا عن تكتّل الغاضِبين ، عاتبْتُه قائلاً : «ألا تتقنون غير لغة الوعيد والتّهديد والاستثناء ، كلّ النّقاط الّتي طرحتَها إمّا تبدأ بـ يَعِدُ أو تنتهي بفقط أو إلاّ . . . يا دكتور الوضع لا يحتمل» . فردّ عليّ : «والوضع عندي أيضًا لا يحتمل ، وقد بذلتُ قصارى جُهدي ، وأنا لستُ الطّرف الوحيد في المسألة ، والأمن أقوى منّي!!»

لم يبدُ الرّئيس ضعيفًا ومهزوزًا كما بدا في تلك اللّحظة ، وطوال خمس سنوات قضيتُها في الجامعة كنتُ أراه صاحب كبرياء مُطلَقة ، وعنفوان لا يعترف بالاستِكانة ، أمّا اليوم فقد بدا أنّه مغلوبٌ على أمره ، وأنّه وُضِعَ بين خيارَين أحلاهُما مُرّ . وحقيقةً شعرتُ بالإشفاق عليه ؛ على الأقلّ في تلك اللحظات اللواتي لا يتكرّرن فيما سواهنّ . كان الرّئيس ذيلاً في ثوبٍ لبسه اضطِرارًا!!

أعرف ما سيحدُث!! قال ذلك لي مَنْ أثق به ثقةً عمياء ، ومن لا أشكّ بأنّه صادقٌ إن قال . وأنا سأصدُقُ التّاريخ القول : بعد خروج الرّئيس شعرتُ أنّه سيكون الخروج الأخير ؛ لنا أم له؟! أم لكلينا؟! لقد ولّى وهو يرتجف ، وعيناه تكادان تطفران بالدّمع ، وثقته بقراراته الّتي كان يُطلقها دون تفكير تأرجحتْ على كفّ مُهتزّة ، وستسقط سقوطًا مُدوِّيًا!!

سكن اللّيل . وهدأت الأرجاء . ومدّ النّسيم أياديه العليلة يمسح مواضع جروحٍ قادِمة على أملٍ أن تُشفى ذات يوم . وهمدْنا نحن فلا نأمة ولا حِسّ ولا رِسّ . أهو الهدوء الّذي يسبقُ العاصِفة؟! أم الهُدوء الّذي يُقدّم الموت عمّا قليلٍ؟! وتوجّسنا من هذا الهدوء المُطبِق خِيفةً ،

وشعرتُ أنّ جسد الثّائرين أصبح بلا قلب ، أو أنّه صار هواءً . فلكزتُ (فؤاد) أن يقوم على المنصّة يهتفُ بما يُوقِظُ بعضَ الهمّة ، ويكشف بعضَ الغُمّة . فصاح بملء فيه مُحمِّسًا :

اِطْــــلَعْ يا قَمَرْنا وْهلْ   ضَوِّي الكُرَةْ الأَرْضيِّـةْ
مَا خْلِقْنَا تَنْعِيْش بْــذُلّْ   خِــلِقْنا نْعِيْش بْحُرِّيِّةْ

وكرّر المُحتجّون وقد أيقظهم النّداء السّاحر ، النّداء الّذي ألهبَ غريزة البقاء في أرواحهم :

(مَا خْلِقْنَا تَنْعِيْش بْــذُلّْ   خِــلِقْنا نْعِيْش بْحُرِّيِّةْ)

ثمّ كان لا بُدّ من وقودٍ آخر .

إنّها المواقف الّتي تُوقِف في عينها البطولة نفسها ، وإذا كانت النّفوس قد أصابها بفطرتها بعض الملل ، وتسرّب إلى خلاياها ، فلا بُدّ من عهد جديد يُعيدها إلى طريقها الصّائبة ، وهكذا كان القسم . في أشدّ حالات التّضحية تُقسِم لكي تُبرهن أنّك قادرٌ على فِعلها . ارتقيتُ المنصّة ، وطلبتُ من الثّائرين أن يردّدوا ورائي قسم الوَلاء والثّبات . هذا القسم من أجل أن يشدّ بعضُنا أزر بعض : «**أقسم بالله العظيم ، أقسم بكلّ معتقداتي أن أظلّ مُخلصًا لليرموك ، ولطلبتها الأوفياء ، ثابتًا على موقفي ، لا أفرّط في حقّي ، ولا أحيد عنه حتّى آخر قطرةٍ من دمي . والله على ما أقول شهيد**» . وسقطتْ قطرة الدّم في قلب اليقين فأحيتْه ، وبثّت الرّوح في التّصميم على عدم التّراجع من جديد .

في الواحدة بعد منتصف اللّيل عاد الدّكتور أحمد من جديد هذه المرّة وبرفقته مدير الشّرطة ، بالطّبع ظلّ مدير الأمن العامّ في برجه العاجيّ يراقب الأوضاع من خلال غرفة العمليّات من بعيد . هو اليد الضّارِبة في اللّحظة الحاسِمة ، ولا يهمّه كيف جرى النّهر ؛ بل المهمّ

عنده أينَ صبّ . كانت فيما يبدو أنّها الفرصة الأخيرة للفريقَين ، ظلّ هذه المرّة الدّكتور أحمد صامتًا ، ورأيتُ على وجهه علامات الحُزن والأسى ، وعرفتُ مباشرةً أنّ الأمر خرج من يده هو الآخر ، وبينما ظلّ مُطرِقًا أطلق مدير الشّرطة نداءه الأخير : «إنّ أمامكم حتّى السّاعة الواحدة والنّصف للتّفرُّق والخروج من الجامعة ، وإلاّ فستتدخّل قوّات الأمن لتقوم بواجِبها ، وقد أعذر من أنذر» . وهتف الطّلاّب في وجه هذا التّهديد بصوتٍ واحدٍ تداعى له ما تبقّى من جدران الرّعب : «مرفوضة . . . مرفوضة . . . مرفوضة . . .»

في المجلس الأمنيّ المنعقد طُبِختْ قراراتٌ كثيرة ، بعضُها حمل لهجات التّهديد والوعيد السّابقة ، وبعضُها الآخَر أجّلٍ لساعة الصّفر .

اتّصل رئيس الوزراء برئيس الجامعة ، جاء صوته عميقًا وقاطِعًا : «السّاعة الواحِدة والرّبع موعد دخول قوّات الأمن إلى الجامعة» . ردّ عليه : ولكنّنا أمهلناهم حتّى السّاعة الواحدة والنّصف!!» ردّ بحزم أكبر : «الواحدة والرّبع» . أجاب منفعلاً : «تمهّلوا قليلاً ما زالت هناكَ فرصة للتّوصل إلى حلّ مع الطّلبة . أريد أن أقابل (وَرْد)» . صرخ رئيس الوزراء : «قلت الواحدة والرّبع» . وأغلق الهاتف في وجه رئيس الجامعة . نزلتْ دمَعاتٌ مُتتابِعاتٌ على خدّ الرّئيس ؛ نشق الدّمع ، ومسحه بطرف أصابعه ؛ ها هي (غَرناطته) الحبيبة تقع في مرمى الرّصاص!!

إنّها المواجهة إذًا ؛ بينَ مَنْ ومَنْ!! بين أرتال القّوة ونصاعة الفكرة . بين التّباهي بالعضلات وبين التجلّي باليقينيّات . بين «مَا أُرِيْكُمْ إِلاّ مَا أَرَى» وبين «إِنَّ رَبِّي عَلى صِراط مُسْتَقِيْم» . إنّها المواجهةُ بين خوفَين ؛ بينَ «إنّي أَخافُ أَنْ يُبدِّلَ دِيْنَكُمْ» وبينَ «إِنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ» ؛ «فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ» إذًا!!

(٥٤)
أتمّتِ الرُّوحُ صُعودَها إلى المَلَكوتِ الأَعْلى

تحفّز كلّ شيءٍ في هذه البقعة على هذه الأرض ، ووقف على قدمَين من هلع . لم يَحُلّ الأمنُ في قلبِ أحد ، كان الذُّعر سيّد الموقف ، وسيّد الحالاتِ كلّها ، القوّة الضّاربةُ كانتْ أكثر فزعًا منّا ، نحن الّذين سيكتب التّاريخ على صدورنا أنّنا تلقّينا هذه المجزرة في هذا الفجر الرّمضانيّ النّازف . نحن الّذين لم تتّسع لنا قلوب سِوانا واتّسعت لرصاصاتهم قُلوبُنا .

أراد (سالم) أن يختم حياته بهُتافِ اللحظة الأخيرة . حينَ نُزِعَ فتيل القُنبلة كان هو المرئيّ بالنّسبة للشّرطة الخاصّة فوق المنصّة . كان ما يزال يهتف ويُحمّس الثّائرين : (مَا خَلِقْنَا تَنْعِيْشِ بْذُلّْ . . . خَلِقْنا نْعِيْشِ بْحُرِّيّةْ) . قال قائد التّشكيل : هذا من قياداتهم . لن ينجو أحدٌ ، لكن هذا بالذّات أريده راكِعًا تحت قدميّ .

دخلوا بالمئات ، عبر ثلاث بوّابات ، كانت الخُطّة تقضي بأن يُحكموا قبضة الكمّاشة على موقع الثّائرين ، ثلاثة أفواج من البوّابة الرّئيسيّة والبّوابة الشّرقيّة وبوّابة المسجد . حتّى تلك اللّحظة ظننّا أنّه من الخيال أن يحدث اقتحامٌ بهذا الشّكل الأسطوريّ ، وأنّ تلويحًا بالعصا هو كلّ ما يُمكن أن يحدث . وكم كنّا ساذجين!!

الشّرطة الخاصّة المُلثّمون (قوّات مُكافحة الشّغب) كانت أوّل

الأبطال في هذا الاقتِحام المُؤسف والمُخزِي معًا ، دخلوا من البوّابة الرّئيسيّة . لا زالت السّذاجة عنوانَنا ، بقينا جالسين في أماكننا لأنّنا سِلميّون ولا نريد أن نواجه أيّ فصيلٍ عسكريّ مهما قاموا باستِفزازنا . وبقيت الطّالبات هنّ الأقرب إلى هراوات العسكر ؛ تقدّم المأمورون يركضون كأنّ عدوًا مُحتلاً غاصِبًا يُوجّه مدافع دبّاباته نحوهم . كانت المسافة الفاصلة بين أقدام العسكر الهاجِمين وبين ظهور الطّالِبات الجالِسات على الأرض تُعطي مساحةً لبعض الهدوء ورباطة الجأش ، ثمّ تقلّصت هذه المسافة الجغرافيّة فتقلّصتْ معها رباطة الجأش المزعومة هذه ، ثمّ بدأ الذّهول يُسيطر علينا ، ولم يبقَ من تلك المسافة إلاّ أمتارٌ قلائل ، لكنّ الأمل - لعنة الله على الأمل في تلك اللّحظة - ظلّ يرسّخ اعتِقادًا لدينا أنّهم لن (يتشاطَروا) على مجموعة من الفتيات ، وأنّ تكتُّل هؤلاء الفَتَيات أمامنا سوف يحمينا ويحميهنّ من أيّ اعتِداء . ولكنّ الأقدام النّاهِبة للأرض في خطوات لاهبة ظلّتْ تسير نحوهنّ بسُعار لم أشهدْ في حياتي مثله ، انكمشْنا على أنفُسنا من هول ما نرى . هَمَّ بعضنا بالهرب ، صاح (سالم) بكلمة السّرّ ليثبّت القلوب : (وَحِّدْ صَفَّكْ . . . وَحِّدْ صَفَّكْ) . لكنّهم استمرّوا بالتّقدّم نحونا ، هتف (نائل) بصوتٍ مُجلجِل : (الله أكبر . . . الله أكبر . . .) وردّدتْ من خلفه الحشود ، لكنّ خطواتهم تسارعت أكثر وهي تنهب الأرض لتصل إلينا ، وحينَ لم يبقَ في الأمل أمل ، ولا في حسن الظّنّ شيء كانت الهراوات قد بدأتْ تأكل من أجساد الأخوات . هبطتْ من السّماء بغُلٍّ مكنون على الظّهور والرّؤوس والبُطون ، وتعالت الصّيحات ، وارتّجت الجَنَبات ، وسقطت الأجساد ، وتناثرتِ الدّماء ، ورشّ دمُ بعض الطّالبات وجوهَ بعض الشّرطة الخاصّة فازدادت ضراوة الضّربات

وتبعتْها سيول من الشّتائم الفاضِحة . ثمّ تدافع الطّلبة فسقط بعضهم فوق بعض ، وضاقتِ الأرض ، واختنقتِ الأنفاس ، وعلتْ صرخاتُ استِغاثات مرعوبةٍ ارتجّ لها قلبُ السّماء وما ارتجّ لها قلبُ عسكريٍّ واحد . ورأيتُ بأمّ عيني كيف أنّ الهراوات تقصد الرّأسَ دون سِواه ، وتنهالُ على الجمجمة لتكسّرها ، وما من مُشفِقٍ على منظر الطّالبات وهنّ يستغثْنَ ولا مُجيب . وبدأنا نبحث عن مهربٍ من هذا الجحيم ، وكانت الجهة الجنوبيّة جدارًا لا يمكن النّفاذ منه ، وانسللْنا مُحاوِلين الهُروب من الجهات المتبقّية ، إلاّ أنّ الخطّة الأمنيّة الّتي تكشّفتْ فيما بعد ، قد أدخلتْ ثلاث تشكيلات عسكريّة من الجهات الّتي يُمكن من خلالها الهَرب . وتأكّدْنا أنّ الهدف ليس جعلنا نهرب وننفذ بريشنا ، بل الهدف تحطيمنا وتكسير رؤوسنا ، وإلقاء القبضِ على أكبر عددٍ منّا .

ودخلت قوّات البادية من الجهة الشّرقيّة ، وارتكبتْ فظائع يندى لها جبينُ الإنسانيّة ، ولم تكنْ ترحم أحدًا حتّى ولو كان هاربًا ، وقد نال أذاها بعضَ عناصر المخابرات في لباسهم المدنيّ وقد ظنّوهم من المُخرّبين ؛ فهم يفهمون أمرًا واحدًا : «اضربْ كلّ من ليس مثلك ؛ حطّمْ كلّ من تجده في طريقك ولا يلبس لباس العسكريّة . اضربْ ولا ترحم أحدًا» .

تكوّمْنا فوق بعضنا أكياسًا من اللحم المُمزّق ، انثعب الدّم على الوجوه ولوّن القُمصان بالأرجُوانيّ . سقطَ عشراتٌ منّا ما بين قتيلٍ وجريح ومُغمًى عليه . توالتِ التّشكيلات باقتحام الحرم الجامعي . سمعتُ أصوات طلَقات تتفجّر ، وصليات نار تُفتَح ، وأجساد تتساقط ، وجثامين تتهاوى . شاهدتُ من الجهة الغربيّة مئاتٍ منهم يدخلون

بالواقـيـات وبالقنابل المسـيلة للدّمـوع ، بدأتْ القنابل تزخّ كـأنّهـا الرّصـاص . غطّتْ سـحـائب الدّخـان مـجـال الرّؤية . سـقط المزيد من الضّـحـايا . ازداد عـددُ المُغـمَى عليـهم . أنارت طلقـات القنابل بعض الأمكنة للحظات فبدت السّاحة أمام الكافتيريا ساحة مجزرةٍ حقيقيّة . رأيتُ أكوامًا من اللحم يتجمّع بعضه فوق بعض . ركلتْ قوّاتُ الشّرطة الخـاصّـة بطون السّـاقطين على الأرض ورؤوسـهم . تدحـرجتْ بعضُ الرّؤوس . تأوّه المئـات من شـدّة الألم ، بعـضـهم كـانت آهتـه تلك هي الأخيرة .

بعد نصف ساعة من الوحشيّة استعدْنا بعضَ الوعي ، وأفقْنا من بعض الذّهول الّذي غـشّى على أعـيُننا من هول مـا نرى . راح بعـضُنا يتناول القنابل المسيلة للدّموع ويقذفها باتّجاه الشّرطة . ما توقّعتُ أنّه لن يحدث حدث ؛ خلع (نائل) بعضَ الأطاريف وكسّرها إلى حـجارة بملء اليـد ، وصـاح ببعضِ الإخوان ليُساعِدوه ، وراح يقـذف العسـاكـر بالحجارة . أبناء الضّفّة طبّقوا فِكرة المولوتوف بسرعةٍ عجيبة ، تناوبتِ الشّـرارتان ؛ قـذائف القنابل المُسَيلة للدّموع المُضيئةُ الحارقة ، وقنابل المولوتوف المُلتهبة ، لا أحد يدري من أين جاء الزّملاء بالكاز أو حتّى بالزّجاجات!! أصابت النّار بعض الأشجار فاحترقت ، صار المشهد رهيبًا . ظلّ صراخ الفتيات يملأ الأجواء . صعد بعضُ الطّلبة على (زينكو) مبنى الكافتيريا ، وبفضل موقعهم العالي أصابوا الشّرطة بالحجارة الّتي كان يُمدّهم بها (نائل) . اشتعلتْ نيرانٌ أخرى بأكوام الزّبالة الموجودة على طرف الشّارع ، اختلطتِ الأدخنة وفاحت روائح غريبة . سيطرتْ رائحةٌ أقوى هي رائحة الموت .

هربت الطّالِبات باتّجاه السّكن فكانت القوّات الخاصّة وقوّات

البادية لهنّ بالمِرصاد . تقدّمتْ (سُها) ومعها مجموعة من الزّميلات يخترقْنَ الأرض الممتلئة بالنّار والدّم ، غريزة البقاء دعتْهُنّ للتّكتُّل معًا حتّى يُساهِمْنَ في حمايةِ أنفسهنّ . هجمتْ عليهنّ قُوّات البادية ، صمدْن قليلاً ورُحْنَ يصِحْن : (احنا مثل خواتَك) . سمع العسكريّ هذه العبارة لكنّ تركيبتها غير مألوفة ، ولم تستطع خلايا الدّماغ أن تفهم ما تعني . فانهال هو وفِرقته عليهنّ بالضّرب . شُدِختْ رؤوس ، وتناثرتْ أشلاء . وتدافع المجموع فسقطت (سُها) على الأرض ، ديستْ بأقدام الزّميلات ، حاولتْ أن تنهض لكنّ قنبلةَ غازٍ وقعتْ قريبًا من وجهها ، أُغمِي عليها ، واستمرّت الأقدام تدوسها ، والهِراوات تهوي على أنحاء متفرّقة من جِسمها حتّى لم يعد من خيطٍ ليُوصِلها بالعالَم الّذي يُحيط هولُه بها من كلّ جهة ، وكانت تعيشه قبل قليل ، فأسلمتِ الرّوح لبارئها .

لم يستطع أحدٌ الإفلات ، كانت كلّ المداخل مُغلَقة ، ومن حاول أن يدخل إلى القاعات واجهتْه مشكلة أنّ بوّابات الكلّيّات إمّا كانت مُغلَقة أو كانت مُحاطة بعناصر الأمن ، عشراتٌ فقط استطاعوا الاختِباء داخل القاعات أو المختبرات أو الحمّامات . في حين أنّ الآلاف أحاطتْ بهم قبضة أمنيّة منعتْهم حتّى من التّنفُّس ، وسقطوا قتلى أو جرحى أو مُعتقلين .

فُتِحَتْ البوّابات كلّها لدخول سيّارات الاعتِقال ذات النّوافذ المُشبَّكَة والمُجنزَرة ، دخلتْ تُطلق صافراتها وزعيقها فثارت الفوضى ، تراكض عددٌ كبيرٌ منهم هارِبًا منها وهي تخترق الطّرقات بشكلٍ جنونيّ ، نجا من استطاع أن يركض بأقصى سرعة ، (كندة) لم تكن تملك هذه الميزة الّتي تمنعها من أن تنتقل إلى صفوف الضّحايا ، كانت

عرجاء ؛ إحدى رجليها أقصر من أختِها ، حاولتِ الهرب من أمام عربة نقلٍ مُدرّعة فلم تُفلح ، دُهِسَت فسقطت على الأرض ، أتمّت عجلات المُدرَّعة دورانها ، وأتمّتْ روحُها صعودَها إلى المَلَكوت الأعلى!!

هرب (نعمان) باتّجاه البوّابة الرّئيسيّة دون أن يُفكّر . إرادة الحياة أكبر من الموت وأعظم من كلّ إرادة . تلقتّه مئة هراوة . تناهبتْه البساطير في كلّ بوصة من جسمه ، سقط مغشيًّا عليه . دُقّتْ عنقه ، كاد يُفارق الحياة ، لولا أنّها تحتفظ بمن تريد وتودّع مَنْ تشاء . حمله اثنان من قدمَيه ورجلَيه دون رحمة ، طوّحوا به في الهواء مرّتين أو ثلاثًا ، ثمّ رموه في سيّارة التّرحيلات العسكريّة الّتي كانت جاهزةً لتلقُّف المُعتقلين السّالِمين .

لم يستطع (سالم) أن ينجو ولو مُعتَقلاً كما فعل (نُعمان) . كان قائد التّشكيل قد رآه . صاح بهم : «هاظا هوه» . ظنّ أنّه (وَرْد) لقرب الشّبه بينهما . وجّه نحوه عددًا من الوحوش الضّارية . عشرةٌ تناوبوا على انتهاب جسده النّحيل ، تُكسِّر فيه كلّ شيء ؛ رأسه ، يديه ، صدره ، ورجليه . نظر نظرةً أخيرةً من خلال الدّم الّذي يملأ تجويف عينيه إلى السّماء ، رآها في حُلكة الليل ناصعة البياض . رأى النّجوم تضحك له . وبعضَ وجوه رفاقه يناديه ، خفتتْ أصواتهم تدريجيًّا ، لم يعد يسمع شيئًا ، فقط انفتح له بابٌ في الأعالي وامتدّتْ إليه يدٌ من غمامٍ وحملتْه برفقٍ إلى هُناك!! لقد نابَ عنّي في اللّحاق بالسّماء!!

بعد ساعة خفّتْ ضراوة البطش قليلاً ، لا لشيء إلاّ لأنّ الكثيرين لم يعودوا قادرين على استكمال الشّوط إلى آخره . استطاع رأسُ الأمن أن يُدخل كلّ هذه القوّة الضّاربة لكنّه عجز عن أن يُدخل سيّارة إسعافٍ واحدة تنقل المُصابين . هرول النّاجون في كلّ اتّجاه ، بحثتْ

أقدامهم عن منفذ للنّجاة ، بعضهم اعتمد على قوّة جسمه ، وسرعته فأفلت من بين كمّاشات الاعتِقال وخرج إلى شوارع إربد ، راح يطرق الأبواب يبحثُ عن أهلِ بيتٍ يكفلونه ، بعضُ الأبواب فُتِحتْ على مصاريعها لإخفاء النّاجين ، ومواساتهم والتّخفيف من أحزانهم . أبوابٌ أخرى أوصِدت في وجه الهارِبين ، لم يكنْ أصحابُها يعنيهم أن يتحمّلوا مسؤوليّة عناصر (تخريبيّة) .

كانت إربد ليلتها تلبس ثوبًا قانِيًا ، وتلفّ رأسها بالسّواد ، بدتْ عروس الشّمال وقد ذُبحتْ من الوريد إلى الوريد ، والوحوش وقد غرزت أنيابها في كلّ شبرٍ من جسدها الغضّ الجميل . وشُوّه وجه الحقيقيّة ، وثُقِب فؤادها أسىً وحزنًا والتِياعًا على ما ترى وتسمع . وظلّت جريحة منذ ذلك اليوم لزمنٍ لا يعلمه إلاّ الله . لم تكنْ جراحها العميقة قد أصابت جسدها فحسب ، بل امتدّت تلك الجراح إلى روحها الوادِعة الطّاهرة النّقيّة . وإذا كان الزّمن كفيلاً بأن يُبرِئ جراح الجسد فمن يتكفّل بإبراء جراح الرّوح!!

بعد ساعتَين تكشّف الحال عن مأساة حقيقيّة . كانت مذبحة بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى . غطّى الدّمُ الصُّدورَ ، ورشقَ الأرصفةَ والجدران ، وزرعَ آهةً تتأبّى على الصّمت ، وذاكرةً مُرّةً تتابّى على النّسيان ، وملأ الدّروب بالسّؤال المُبهَم الأسيف : لماذا!!

(٥٥)
الحَقيقةُ لا تَمُوتُ مَهما بَنَتْ فوقَها السُّلطَةُ صُروحًا مِنَ الزَّيف

مسرح الأحداث واحدٌ ، ولكنّ الجمهور كثيرٌ ، ولكلّ واحدٍ منهم قصّة . ولكلّ قِصّة أوانٌ سيحين لكي تُسرَد . ما أكثر القصص وما أغربها في تلك اللّيلة البائسة!! لقد تبيّن أنّ عدد القصص المرويّة يُساوي عدد الرُّواة ، وهذا بالضّبط يُساوي عدد الّذين شهدوا تلك المجزرة ، وهذا يعني أنّ ما سأرويه لكم هنا أنا (وَرْد شاهِر) هو مِمّا استطعتُ أن أحصل عليه مِمّن كتبوا تلك القصص . آلاف آخرون ينتظرون منّي أن أنقل ما حدث معهم ؛ ولكنْ كيف؟! أنتم لم تكتبوا أو لم تتذكّروا!! لكنْ لا تخافوا : امتلكوا الشّجاعة وارووها لأبنائكم أو للأجيال الّتي ستأتي من بعدكم . وإذا رويتموها لي فأعدكم أنّكم إذا فعلتم ذلك فسأرويها عنكم من جديد!!!

في الثّالثة فجرًا ، كانت السّاحة الرّابِضة أمام الكافتيريا قد خلتْ من المُحتجّين ومن الأجساد البشريّة ، ولم يبقَ فيها غير آثارهم ، بعض الدّم المَرشوق هنا وهناك ، أطراف قُمصان مُمزّقة ، عصيّ مُكسّرة ، زُجاجات فارغة مُهشّمة ، وقنابل غاز تنفثُ آخرًا ما تبقّى فيها من دُخان رماديّ . وبعض النّفايات المحروقة ، وصرخات يتيمة ذهبَ أصحابها وخلّفوها من بعدهم .

في السّاحات الأخرى ظلّت الأمور ملتهبةً حتّى طلوع الفجر ، اختفى كثيرون في شوارع الجامعة وبين المباني وداخلها ، وغابَ عددٌ غيرُ قليلٍ منهم في سكن الطّالِبات وسكن الأساتذة . وعشراتٌ صعدوا الأشجارَ العالية واختبؤوا بين غصونها ، رأيتُ أحدهم يتسلّق جذع نخلةٍ طويلة استقرّتْ أمام مبنى (مج) ، كان الجِذع مكشوفًا وطويلاً يرتفعُ لأكثرَ من عشرة أمتار ، في لمحةِ عينٍ تحوّل ذلك الطّالب إلى قرد حقيقيّ تمكّن من تسلّق ذلك الجذع معتمدًا على يديه وساقَيه في أقلّ من دقيقة ، وغاب داخل جريدها في الأعالي!!

شكّلتْ قوّات الأمن مجموعات كلّ مجموعة تتكوّن من عشرة إلى عشرين عنصرًا مُجهّزة بكلّ الوسائل لتعقُّب الطّلبة في ساحات الجامعة ، ألقتْ هذه العناصر القبضَ على أكثر من ثلاثة آلاف متظاهر . في حين أن أكثر من ألفٍ رُحّلوا سابقًا إمّا بسيّارات الإسعاف الرّابضة خارج الجامعة أو عَرَبات النّقل المركزيّ .

لم يبقَ من شِبرٍ في الجامعة إلاّ وفُتّش ، قليلون نجوا من الاعتِقال . هنا مجموعةٌ من الطّلاّب تمكّنتْ عناصر الشّرطة الخاصّة من إلقاء القبض عليهم قريبًا من مبنى الاقتِصاد . وقف قائد التّشكيل الّذي اعتقلهم وأمر ما يقرب من (٢٠٠) طالب أن يزحفوا على بطونهم من مبنى الاقتِصاد عبر الشّارع الإسفلتيّ مسافةً تزيد عن (٣٠٠) م إلى البّوابة الغربيّة ، ومن هناك تمّ قذفهم داخل عربات الاعتِقال .

مجموعةٌ أخرى من الطّلاّب أُجبرت أن تقف في سلسلة بشريّة على امتداد الشّارع القائم أمام مبنى كلّيّة الآداب ، كلّ طالبٍ يُمسِك بأُذُن الطّالب الّذي بجانبه ، كانت أصابع أكثر من (١٥٠) طالِبًا تمتدّ لتقبض على آذان زملائهم ، ثمّ أُجبِروا على أن يُنشِدوا للملك ويهتفوا

بحياته . ثمّ اقتيدوا بهذه الحالة المَهينة مع الضّرب على الأقفية حتّى أودِعوا سيّارات التّرحيل .

مجموعةٌ ثالثة كانت من نصيب قوّات البادية ذات اللّباس الكاكيّ بالشّرابيش الحمراء الّتي تلفّ الأوساط وتتدلّى على الخُصور ؛ هذه المجموعة الضّاربة أمرتْ أكثر من مئة طالب أن يستلقوا على ظهورهم ، ثمّ راحتْ تتلذّذ بالدَّوْس على بطونهم ورَكْل رؤوسهم ، ثمّ دُفِعوا داخل معسكرات الاعتِقال المتحرّكة مَتبُوعين بسيلٍ من الشّتائم القذرة!!

هاجمتْ عناصر الشّرطة سكنات الطّالبات ووصلتْ إلى البوّابات . كان يختبئ فيها عددٌ من الطّلبة ظنّوا المكان آمِنًا من بطش الشّرطة ، ولكنّ العسكر لم يرعَوا ذمّة ولم يَصُونوا حرمة ، بل همّوا باقتحام السّكن وقَلْبِه على رأسِ المختبئين فيه . حينذاك شعروا أنّ الموت قريبٌ ، وقرّروا أن يُقاوموا ، ويُدافِعوا عن حياتهم مهما كان الثّمن .

لم تتّسع سجون إربد وزنازينها للمعتقلين في تلك اللّيلة ، ولا مُستشفياتها للجرحى . نُقِل المُعتقلون إلى قاعة المحاضرات في مدرسة الصّناعة الّتي تربض على تلّ إربد ، وإلى مبنى المُخابرات العامّة الرّابض كذلك على تلّ إربد غربيّ مدرسة الصّناعة ، وإلى كراج سيّارات مبنى الشّرطة المدنيّة ، وإلى مبنى الأمن العسكريّ القريب من مبنى المُحافظة . وغصّ كلّ مكانٍ بزائريه ، وابتدأتْ أشواط من التحقيق والتّعذيب ، وكانت الدّولة والمخابرات تريد أن تصل إلى رؤوس الفتنة من وراء هذه التّحقيقات كما تزعم .

أمّا المستشفيات فقد امتلأتْ هي الأخرى بالوافدين المَكلومين ، غصّ مستشفى الأميرة بسمة الواقع على أطراف منطقة (البارحة)

شماليّ إربد بالجرحى ، بعضهم كانت إصابته طفيفة ، وعددٌ غير قليلٍ كانت إصاباته خطيرة ، من كسورٍ في اليدين والرّجلين ، إلى تهتّكٍ في الرأس ، إلى نزيفٍ داخليّ ، إلى فَقْءٍ في العينين ، إلى جروح داخليّة وخارجيّة ، إلى استقرار شظايا زُجاجيّة داخل الجلد ، إلى تهشّم للأسنان وكسورٍ في الفكّ . ولم يستطع مستشفى الأميرة بسمة من استقبال هذا العدد الهائل من المُصابين فرُحِّل عددٌ منهم إلى مستشفى (حجازي) الواقع جنوب إربد في طريق عمّان ، وعددٌ إلى مستشفى (الرّاهِبات) . على بوّابة مستشفى الرّاهِبات وقف تمثال العذراء الأبيض ذو الرّداء الأخضر مُضاءً بإنارةٍ ساطعة يفتح يديه للدّاخلين مُرحِّبًا بهم ، ومُحاوِلاً أن يمسح جراحهم ويواسِيَهم في محنتهم الكبيرة .

لم تتشدّد المُخابَرات مع المصابين في المستشفيات ، كانت تبحث عن أسماء محدّدة وهم القيادات ، مَنْ لم يكنْ منهم كانت تأمر مدير المستشفى والطّاقم الطّبّي بإجراء الإسعافات اللاّزمة للمُصاب وإخلاء سبيله على وجه السّرعة ، لأنّ الأعداد أكبر من احتمال الاحتِفاظ بهم والتّحقيق معهم .

في السّابعة صباحًا من يوم الخميس ١٥-٥-١٩٨٦ كانت الحرب في جامعة اليرموك قد ألقتْ أوزارها ، وخلّفتْ وراءها جراحًا لن تندمل بسهولة . لقد كان جرح اليرموك غائرًا في جبهة الوطن ، عميقًا في خاصرته ، وربّما نحتاج إلى حركةٍ أخرى تُعيد إلى هذا الوجه بهاءه ، وهذا التّاريخ جماله بعيدًا عن الآلامِ والذّكريات المُحزِنة .

وهل رؤية الورم في الجسد دليلُ عافِية!! وهل السّكوتُ عليه يُلغيه!! إنّ تحت الرّماد جمرًا يكاد إذا ما هبّتْ ريحُ تغيير قادِمة أن تُشعِله من جديد!!

في العاشرة من اليوم ذاته ؛ لم يبقَ في الجامعة أو في السّكنات المنتشرة فيها أحدٌ ، فُرّغتْ بالكامِل ، وأُغلِقتْ لمدّة أسبوع ، وظلّتْ أسوارها في قبضة قوّات الأمن طوال ثلاثة أيّام أخرى . أمّا بالنّسبة للمعتَقلين ، فقد جُمِعوا بالثلاثين والأربعين في زنازين لا تتّسع إلاّ لاثنين أو ثلاثة . وبعضهم تُرِكَ في ساحة مديريّة شرطة إربد في الشّمس يومَي الخميس والجمعة السّابع والثّامن من رمضان مع حراساتٍ مُشدَّدة .

استمرّ التّحقيق مع المعتقلين لفصل المطلوبين من سواهم حتّى صباح السّبت ، وأفرجَ بعدها عن المئات ، واحتفظت الشّرطة بالقيادات فقط ، ونُقِلوا إلى مبنى مخابرات إربد لاستكمال التّحقيق معهم .

تمكّنتُ من الإفلات رغم الأطواق الأمنية الكثيرة ، قدرتي السابقة في التّخفّي ساعدتْني على ذلك ، منذ فجر يوم الخميس كنتُ أختبئ في بيت الدّكتور (أحمد) . بقيتُ عنده ثلاثة أيّام ، كان (سِراج) يأتيني في كلّ يوم مُتخفّيًا . وكنتُ قد طلبتُ منه أن يُوافيني بالأوراق المكتوبة ، كلّ مَنْ كَتب من القيادات أو الطّلاّب عن تجربته وما عاينَ يوم الاقتِحام فأتِني به . أتاني بأوراق كثيرة . حرصتُ على أن أخبّئها ؛ لقد كانت تشكّل كنزًا ثمينًا . كثيرٌ من التّجربة كان يمكن أن يضيع لولا تلك الأوراق ؛ الأفكار لا يعترف بها الفضاء إذا ظلّتْ سابحةً فيه ، عليكَ أن تصيدها ثمّ تبحث لها عن بيتٍ دافئٍ ، ثمّ تزرعها في الحديقة لتشرق عليها الشّمس فيراها كلّ مُريد .

لقيتُ في بيت الدّكتور (أحمد) من لُطفه وحُسن معشره الكثير . عشتُ مع أولاده واحِدًا منهم . لم أكنْ معنيًا بتوطيد العلاقة مع أبنائه فلقد كانتْ لديّ همومٌ أخرى تتطلّب منّي الحِرص والتّركيز ، كنتُ

معنيًا بتوثيق تجربتنا الفريدة في الأحداث . حينَ هدأتِ الأوضاع نسبيًا فيما بعدُ ، غادرتُ بيته الكريم إلى مخبأ جديد .

مساء يوم الخميس الّذي تلا المجزرة ، أُذيع بيانٌ لوزارة الدّاخليّة في وسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة عن الأحداث ، حمّل البيان الطّلاّب المسؤوليّة عن أحداث الشّغب الّتي حصلتْ ، وسمّى الطّلبة بالمُخرّبين ، وأشاد بجهود قوّات الأمن والجيش ، ودعا الله أن يحمي الأردنّ من الفئة الضّالّة الّتي تريد العبث بأمنه!!

صباح الجمعة ١٦-٥-١٩٨٦ نُشِر بيانُ وزارة الدّاخليّة في الصّحف المحلّيّة ، وانبرى عددٌ من الأقلام المأجورة ليحيّي البيان وصمود الجيش ، كان كُتّاب التّدخُّل السّريع جاهزين لأيّ قصفٍ يُطلَب منهم ، بعضُ الأقلام تعمل بالريموت كونترول ، وبعضُها لا تكتب إلاّ بحبر الدّولة ، وحبر الدّولة دأبَ على أن يظلّ أسود في كلّ الحالات .

ظنّ الإعلام الرّسميّ أنّ الحقيقة يُمكن أن تُغطّى أو أن يُعفّي عليها الزّمن . لكنّ الّذي تناساه الإعلام أنّ هذه الآلاف الّتي أصيبتْ بجراحٍ عميقة في القلب أنّى لها أن تنسى إذا لم تُعَد لها حقوقها ، وإذا لم تُقَلِ الحقيقة!! والحقيقة لا تموت حتّى ولو بنتْ عليها السّلطةُ صرحًا من الزّيف . إنّ قلمًا واحِدًا صادِقًا حُرًّا لَكفيلٌ بأن يهدّم صروح الزّيف كلّها ويُقدّم الحقيقةَ ناصِعةً مكتملةً غيرَ مُشوّهة من جديدٍ للأجيال وللتّاريخ .

صباح الأحد ١٨-٥-١٩٨٦ أصدر الملك عفوًا عن الموقوفين . وقال : إنّه يشعر بالأسى أن تقوم هذه الفئة المُغرّر بها بالتّخريب بهذا الشّكل ، ومع ذلك فإنّهم يبقون أبنائي . وأوعز إلى رئيس الوزراء بتنفيذ العفو . وعلى الرّغم من ذلك أبقت المخابرات على بعض القيادات

مُحتجزةً عندها ، وقدّمتْ تفسيرًا لقرار الملك وخرجتْ من هذا التّفسير بعدم شمول القيادات بالعفو لأنّها هي المحرّضة على العنف ، وأنّ الملك قصد العفو عن أولئك (المهابيل) الّذين كانت هذه القيادات تُسيّرهم على هواها!!!!

(٥٦)
المُصِيبةُ لها وَجْهٌ ضاحِك

بينما كنتُ مُتوارِيًا خلف الأشجار رأيتُ قوّات الأمن تُمسِكُ طالبًا وتبدأ بضربه بشدّة وعنف ، وهو يصيح : أنا مُخابَرات . . . أنا مُخابَرات . . . لكنّهم استمرّوا في ضربه دون الاكتِراث بما يقول ، وظنّ هو أنّهم لم يسمعوه فرفع صوته باستغاثاته من جديد ، وبعد دقائق من الضّرب المُبرّح فهموا ما يقول ، فتوقّفوا عن ضربه ، وسأله أحدهم قائلاً : وين الهويّة؟! فأخذ يبحث في جيوبه عنها لكنّه لم يجدها . فصاح به : مخابرات؟! ها . . . حكيتلي مخابرات . . . ها!! مَوْتوه يا شباب . فعادوا إلى ضربه من جديد حتّى فقد وعيه . ثمّ جرّوه إلى سيّارة إسعاف ونقلوه فيها .

وهناك رأيتُ طالِبًا يركض باتّجاه النّجاة ، فوقعتْ نظّارته عن عينيه ، فلم يعد يرى شيئًا . كان الظّلام حالِكًا . فانحنى على الأرض يبحث عنها ويمدّ يديه يمينًا ويسارًا ليظفر بها فلم يجدها ، فنهض على قدميه وركض مُسرِعًا دون أن يدري إلى أين يركض وإذا به يقع بين أحضان شرطيّ ، فاستقبله الشّرطيّ هاوِيًا بالهراوة على وجهه .

طالبٌ آخر يبدو أنّه استخدم ذكاءه للنّجاة ؛ لمّا رأى الهراوات لا ترحم أحدًا ، والطلاّب يتساقطون في كلّ أرض ، رمى نفسه على الأرض بحركة تمثيليّة وتظاهر بالإغماء ، فجاء الشّرطة وحملوه في

سيّارة الإسعاف ، ظلّ يتظاهر بفقدانه الوعي حتّى صار على باب المستشفى ، حمله مُمرّضان على نقّالةٍ بسرعةٍ ليُدخِلوه ، وفي السّاحة المفتوحة على الفضاء الفاصلة بين بابِ المستشفى ومدخل الطّوارئ ، فتح عينيه ، وتحيّن الفرصة المناسبة ، ثمّ قفز من النّقّالة وأطلق سيقانه للرّيح هارِبًا من الجحيم وتاركًا المُمرّضَين في حالة ذهول!!

قصصٌ كثيرةٌ حدثتْ (لا مِياهُ النِّيل تَرويها ولا أَمواهُ دِجلة) ، وعلينا نحن الجيلِ اليرموكيّ الثّمانينيّ أن يُحاول ما استطاع تقديمها إلى التّاريخ لكي يتّعظَ بها من أراد ، ويستفيد منها كلّ «مَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» من الطّرفَين .

لملم الإخوانُ جراحهم ، قدّموا الدّعم النّفسيّ والماليّ لكلّ المُصابين ، وقاموا بتغطية من انكشف منهم ، وربّما لم يستطيعوا أن يتعاملوا مع بعض النّفسيّات بالشّكل الصّحيح . كانت تحقيقات المُخابَرات قد كشفتْ جزءاً من التّنظيم ، وسقط تحت التّعذيب كثيرٌ من الكلام ، تلقّفتْه أجهزة الأمن وأعادت صياغته من جديد والاحتِفاظ به في أرشيفها .

في اليوم الخامس للأحداث طافتْ في ذهني ذكريات الاقتِحام المريرة ، حزّتْ فؤادي بالأسى وعلّقته على باب المأساة . هاجني الشّوق إلى أمّي وأهلي ، سمعوا في الأخبار مثلما سمع الآخرون ما حدث معنا ، ولكنّي لم أقل لهم كلّ شيءٍ بالتّفصيل ، إذا قرأ أحدٌ ما منهم هذه المذكّرات يوما فلربّما سيعرفون . لكنّ الطّعنات كثيرة ، والّذي في فيه ماءٌ كيف ينطق!!

خطرتْ ببالي (نعيمة) ، تركناها أنا و(سِراج) مريضةً ، كان آخر عهدي بها ذلك اليوم الّذي سبق الاقتحام ، ماذا حلّ بها يا تُرى!! أتمنّى

أن آتيها فأقبّل يديها وأبوح لها بكلّ ما حدث معنا من أهوال ، وأفرّغ مجرّات الحزن المتخثّرة في فؤادي . . . ياااه ما أعمق الجرح ، وما أوجع الذّكرى!!

في اليوم السّادس يوم الثّلاثاء ٢٠-٥ قرّرتُ أن أكون شُجاعًا من جديد ؛ قلتُ لنفسي : أريد أن أذهب إلى بيتنا الّذي آوتْنا فيه (نعيمة) لكنّني أخاف أن أُعتَقل! لماذا أُعتَقل والملك أصدر قرارًا بالعفو العامّ؟! صحيح ، ولكنّ المخابرات لا تعرف إلاّ مصلحتها ، ولا تؤمن إلاّ بمنطقها!! تغلّبت الشّجاعة على الخوف . أخبرتُ (سِراج) بما سوف أفعله ، نصحني بالهدوء وعدم الذّهاب ، ضربتُ بنصيحته عُرضَ الحائط ، وأخبرتُه أن يأتي في ليل اليوم نفسه .

كان البيت ساكِنًا كأنّ الموت يجثم على بابه ، بدا غريبًا عنّي ، أشاح بوجهه عنّي لا يُريد أن يراني كأنّ الأسبوع الّذي غبتُه عنه أبعده عنّي قرنًا . شيءٌ ما في داخلي قال لي إنّه عاتبٌ عليك ؛ لقد أحبّك المكان وأحببته فلماذا هذا الغياب الطّويل!! أجبتُه كان غيابًا قسريًا ولك في قلبي مثل الّذي لي في قلبك . قبل منّي العُذر ومدّ يديه لي من جديد!!

تقدّمتُ نحو الباب الّذي يُفضي إلى (نعيمة) ، طرقتُه وانتظرت : جاءني صوتها واهِنًا من الدّاخل : مين؟! أجبتُها بلوعة : أنا وَرد . لم تقل شيئًا . دفعتُ الباب ودخلت . كانت مُستلقيةً على سريرها شاحبةَ الوجه مَخطُوفةَ اللّون ، زائغةَ العينَين ، وصورة (ناصر) إيّاها تحت رأسها . كدتُ أبكي . داريت الدّمع ، وتقدّمت نحوها وهويتُ على يديها أقبّلهما .

- سامحيني يا خالة . لم يكن الأمر بيدي .

ظلّتْ مُحدّقةً بي كأنّها تراني ولا تراني . جلستُ على حافّة السرير بجانِبها . كانت الطّاولة الّتي بجانب السّرير تتناثر فوقها بقايا طعام فاسدٍ مرّ عليه ربّما أكثر من ثلاث ليالٍ . وزُجاجة ماء فارغة . سألتُهَا :

- جائعة؟!

لم تتكلّم حرفًا واحِدًا . ما الّذي حدث لكِ يا (نعيمة)؟! ما هذا الشّرود الغائر في عينيك!! ما هذا الصّمت الّذي يلفّ كلّ شيء!! ما هذه النّظرات الّتي لا تحمل أيّ شيءٍ إلاّ الحزن المُعتّق!! تركتُها وذهبتُ إلى المطبخ ، فتحتُ الثّلاّجة لم أجد فيها شيئًا يُؤكل ، كانت خاليةً تمامًا . حزنتُ ، لكّني خفتُ أيضًا . يبدو أنّ نعيمة لم تأكل منذ زمنٍ ولا أحد إلى جانبها يقوم بمساعدتها . والجيران أليس هناك من جارٍ يُحسّ بمأساة هذه العجوز فيزورها ولو في اليوم مرّة واحدة ويتعهّد شؤونها!! هل نُزِعت الرّحمة من قلوب النّاس!!

أسرعتُ إلى الخارج ، اشتريتُ طعامًا وشرابًا وعُدتُ إليها . دخلتُ المطبخ جهّزتُ لها شيئًا لتأكله ، عدتُ إليها ، أسندتُها إلى السّرير . جلستْ معتدلةً . رحتُ أطعِمها بيدي . كانت شفتاها ترتجفان قبل أن تبتلع اللقمة الممدودة أمام فمها . أكلتْ حتّى شبعتْ . ثمّ مددتُ لها كأس الحليب وسقيتُها . استعادتْ بعضَ عافيتها . أعدتها مستلقيةً لتستريح . وطفتُ بالبيت . شطفتُه بالكامل لها . ونظّفتُ المطبخ . ورتّبتُ بعض الأدوات حتّى وصلتُ إلى غرفة الذّكريات الّتي تحتفظ فيها بميراث المرحوم . كان بابُها مُغلَقًا . تردّدتُ قبل أن أفتحه . ثمّ تشجّعتُ لفتحه فأنا أيضًا مشتاق إلى أن أستعيد شيئًا من (ناصر) كما كانت تحدّثنا عنه (نعيمة) في السّابق . دفعتُ المِزلاج ودخلت . فاحتْ

رائحةٌ قديمة . ملأتْ أنفي بالشّوق . وأرجعتْني سنواتٍ إلى الوراء . كان بعضُ الغبار قد انتشر على الطّاولة الّتي تستقرّ تحتها سجّادة (الكاشان) . وغطّى بعض الصّور ؛ يبدو أنّ (نعيمة) لم تدخل هذه الغرفة منذ زمن . مسحتُ بممسحة خاصّة الغُبار عن الطّاولة والصُّور وانتقلتُ إلى الأوسمة فعلتُ الشيءً ذاته معها فعادتْ لامعةً كأنّها صيغت اللّيلة .

عدتُ إلى غرفة (نعيمة) . كانت ما زالت مُستيقظة ، جلستُ إلى جانبها من جديد ، وسألتُها :

– ألا يمرّ بك أحدٌ هنا فيرعى شؤونكِ؟! (ظلّتْ صامِتة) فكّرتُ بأنّها قد فقدت السّمع .

– ألا تخرجين إلى السّوق؟! صمتتْ من جديدٍ فأيقنتُ أنّ هناك خطبًا ما .

– أنا وَرْد . . أنا وَرْد يا خالة . (كرّرتُ رافِعًا صوتي) . حدّقتْ فِيّ ببلاهة ، ثمّ نطقتْ أخيرًا :

– مين وَرْد!!

– وَرْد . . وَرْد شاهر . . . أنا ساكِنْ فوق مع سِراج .

– سِراج . . .؟! مين سِراج يا خالتي . . .!!

عَقَدتِ الدّهشة لساني ؛ هل يُمكن أن تكون (نعيمة) قد فقدت الذّاكرة ، اقتربتُ منها أكثر ، رمقتْني كأنّها لا تعرفني ، أخذتُ باطن كفّها وألصقتُه على خدّي . ثمّ ابتلّت الكفّ بالدّموع .

تركتُها وصعدتُ إلى الرّوف . دخلتُ الشّقة الّتي غاب عنها أهلُها . كانت على عهدها من آخر اقتِحام ليليّ يوم عُدنا (بنعيمة) في مرضها من المستشفى . تجاوزت الغُرف لأَصل إلى غرفتي ، لكنّ غرفة

(سالم) استوقفتْني ؛ أجلتُ نظري في أرجائها كانت تبدو نظيفةً ومرتّبة وجاهزة لاستِقبال صاحِبها ؛ هتفتُ بها بصوتٍ خفيض : لا تنتظري كثيرًا فسالم لن يعود!!

دخلتُ غرفتي ؛ كانت كتب الهندسة مبعثرةً فوق طاولتي . أوقفْتُها إلى الجِدار . نظّفتُ البيت . وجلستُ أفكّر . طافتْ الصّور المُرعِبة بذهني ، نفضتُ رأسي لأتخلّص منها ، فغابتْ قليلاً ثمّ عادتْ من جديد بصورةٍ أكثرَ إفزاعًا ، سيطرتْ عليّ بعض المشاهد . ملأت أصوات الاستِغاثات رأسي . أحسستُ بصداع شديد . ضغطتُ على رأسي ليهدأ . تعبتُ كثيرًا . بكيت . استلقيتُ على السّرير . وفي لحظاتٍ كان طُوفان النّوم قد جرفني .

لمٍ أفق إلاّ على صوت (سِراج) يهزّني من كتفيّ : وَرْد . . . وَرْد . . . استيقظتُ . تثاءبت . جلستُ على السّرير معتدلاً . احتضنْتُه . ورُحنا نتحدّث . ناولني بعضَ الأوراق : «هذه ما استطعتُ أن أجمعه» . قال لي وهو يمدّها نحوي . «أريد كلّ شيء» أجبتُه . «لا تكنْ طمّاعًا» قال لي . «لا طمع في الحقيقة» رددتُ . «بالتأكيد لم تُفطِر حتّى الآن ؛ ألستَ جائعًا؟!» سألني . «أنا ميّت من الجوع» . «نتاول طعام الإفطار في البستان أو مطعم أبو محمود؟» .

مررنا ونحن خارجون بغرفة (نعيمة) ، دخلْنا عندها ، سألتُها إن كانت تريد شيئًا؟! لم تُجب . أردفتُ : سنعود لا تخافي ، وسنبقى إلى جانبك إن شاء الله . ظلّتْ على صمْتها . التفتَ إليّ سراج : ماذا أصابها؟! أجبته : يبدو أنّها أصيبت بالخَرَف . هي الآن أحوج إلينا من أيّ وقت سابق .

جلسْنا إلى طاولةٍ بعيدةٍ عن المدخل في غور المطعم . كانت الجِراح

ما تزال طريّة . ونحن كمن يُواسي الآخر بفقده لعزيز . طلبْنا فتّة حمّص ، وشايًا . سألني (سراج) :

- ما الخُطوة القادمة؟!

- الملك أصدر قرارًا بالعفو . ولجنة المُصالحة توصّلتْ مع رئيس الجامعة بإعادة المفصولين . سنقدّم الامتِحانات . وسنتخرّج بإذن الله تعالى .

- ولكنْ أخاف أن نُعتَقل قبل أن نستكمل إجراءات التّخرّج .

- لا تخف . لن يجرؤ أحدٌ على اعتقالنا ما دام الملك قد أصدر قراره .

- ولكنْ ما زال بعض زملائنا في السّجون!!

- المهمّ متى ستفتح الجامعة أبوابها؟!

- رئيس الوزراء أوعز لرئيس الجامعة بإعادة الدّوام يوم السّبت القادم .

- هذان الاثنان يجب أن يُحاكَما على الفظائع الّتي ارتكباها بحقّ الطّلبة .

- ذو الصّوت الأعلى أولى أن يُحاكَم قبلهما لو كانت هناك عدالة .

عُدنا إلى الجامعة يوم السّبت ٢٤-٥-١٩٨٦ ، كُنّا عندما علمنا بالقرار قد اتّصلْنا ببعض القِيادات لتنظيم وقفة احتجاجية ظهر اليوم أمام (مج) . كانت في أعماقنا مرارةٌ كبيرةٌ ولكنّنا أردْنا أن نُظهر للدّولة أنّنا لم نضعف ولم نَهُن ، وأنّ الصّوت الطّلاّبي ما زال عالِيًا وقويًا ، وكُنّا أيضًا نريد أن نرثي شهداءنا الّذين سقطوا ضحايا المجزرة .

كُنّا نقف كالطّيور المهاجرة أمام السّاحة . منكسري القلوب لكنّنا مرفوعو الهامات . كانت الإصابات تُلخّص المشهد كلّه ، منّا مَنْ كانت ذراعه مُعلّقة إلى كتفه ، ومِنّا من كان الشّاش الأبيض يُغطّي نصف رأسه ، وآخرون كانوا يتّكئون على مساند لأنّ أرجلهم المكسورة لا تحملهم . ومِنّا من كانت عيونه لا تزال مُغطّاة من أثر الكدمات والرّضوض . وكانت الجبائر البيضاء تُلمَح من بعيدٍ وقد غطّتْ أجزاء كبيرة من اللّوحة الكلّيّة . وجميعُنا كنّا نلفّ عصابةً سوداء على الذّراع أو على محيط الرأس حُزنًا على من فقدناه من الزملاء بالموت أو الاعتقال .

ألقَيْنا بعضَ الكلمات ، ركّزْنا فيها على وحدة الصّفّ الطّلاّبيّ ، وعلى أنّنا لن ننسى ولن نغفر حتّى يُحاسَب كلّ المسؤولين عن الفظائع الّتي ارتُكِبتْ . وأنّ رائحة الدّم تُطالب بالقَصاص . كانت قوّات الأمن الجامعيّ تُراقب المشهد من بعيد دون أن تتدخّل . ألقينا بعض الكلمات الغاضبة ، وهتفنا : «بالرّوحٍ بالدّم نفديك يا شهيد» . ثمّ صلّيْنا صلاة الغائب على أرواح الشّهداء .

(٥٧)
مَنْ تركَ الحَذَرَ وَقعَ في المَحذُور!!

كانت الأوراق الّتي قمتُ بجمعها من الزّملاء عن تجاربهم الشّخصيّة في الأحداث قد تضخّمتْ بين يدي ، وساورني الخوفُ بأن أُعتَقل فجأةً وتذهب كلّ هذه الأوراق سُدى ، ففكّرتُ بطريقةٍ لإخفائها بعيدًا عن الأعين . غلّفتُها بغطاءٍ بلاستيكيّ قويّ ، ثمّ أودعتُها في صندوقٍ حديديّ وأغلقتُه بإحكامٍ ، وحفرتُ حفرةً في الزّاوية الغربيّة لبيت نعيمة ودفنْتُها هناك . أهلتُ ذرّات التّراب الحمراء عليها وشعرتُ بالطّمأنينة . صار بإمكان التّاريخ ألاّ يُزوَّر!!

في آخر شهر مايو كنتُ أدخل القاعة (٢٠١) لأؤدّي آخر امتحان . وقفتُ على بابها . عبرتْني صور الماضي . خمس سنين مرّتْ على وقفةٍ مُشابهة أمام هذا الباب ؛ كانت هذه القاعة هي أوّل قاعة دخلتُها في الجامعة ، وها هي آخر قاعةٍ أدخلها كذلك . هل كنتُ أعرف أنّني سأبدأ بهذه القاعة وأنتهي بها!! ابتسمْتُ : كانت البدايات جيّدة أرجو أن تكون النّهايات كذلك .

كانت الأحداث ما زالتْ تتفاعل رغم مرور ما يقرب من أسبوعين على رحيلها ، تشكّلتْ لجانٌ كثيرة ، وحُلّت أخرى ، وعُقِدت صفقات ، وأبرمت اتّفاقيّات ، وتمخّض كلّ ذلك عن مجموعةٍ من النّتائج : إلغاء الفصل الصّيفيّ لذلك العام ، وإقالة رئيس الجامعة ، وفَصْل حوالي

عشرين أستاذًا جامعيًّا وإداريًّا مِمّن رأت الدّولة أنّ لهم علاقة مباشرة في الأحداث ، وطالت الاعتِقالات قيادات الإخوان واستُثنوا من قرار الملك باعتبار القرار كان يخصّ الطّلاّب وحدهم ، وتمّ ترقية ضبّاط المخابرات والأمن الّذين شاركوا في قمع الأحداث ، وبعث الملك برسالة شُكرٍ ملكيّة خاصّة إلى مدير الأمن العامّ ومدير شرطة إربد لقيامهم بحفظِ الأمن في البلد .

دخلتُ القاعة ، كان المسرح خاليًا إلاّ من أستاذٍ أجنبيّ أَشْيب جاء ليُراقِب على الامتِحان . جلستُ في الصّفّ الأخير كما فعلتُ في أوّل يوم ، تناولتُ ورقة الامتحان وشرعتُ في الإجابة . عندما أنهيتُ آخر حرف كتبتُه تنهّدتُ طويلاً ؛ أمن المعقول أنّني أصبحتُ مهندسًا . سقطتْ من عيني دمعةُ فرحٍ أو حزنٍ لا أدري ، سال الحبر الّذي سقطت الدّمعةُ فوقه فساحَ الحرفُ . مسحتُ أثره بطرف كمّي فغاب . كنتُ وقتها مثل ذلك الحرف أثرًا بعد عين . أمسكتُ القلم من جديد كما لو كُنتُ أمسكُ بحياتي من جديد ، وخططتُ الحرف وأعدتُ صياغته بأفضل مِمّا كان عليه ، هتفتُ في سرّي : دائمًا هناك فرصةٌ لإعادة تشكيلنا من جديد .

عدتُ إلى البيت ، نسيتُ في غمرة شرودي أنّ (نعيمة) موجودة . صعدتُ الدّرجات ذاهِلاً عن نفسي ، تمدّدتُ على السّرير . مرّ طيفُ خالي من أمامي . تساءلتُ ما الّذي حدث معه وأينَ هو الآن!! لقد أقسم أن يُغادِر البلاد العربيّة ويموت غريبًا ؛ تملّكني هاجِسٌ بأنّني سأفعل مثله . خطر ببالي أن أقدّم طلبًا لإكمال دراستي في أمريكا . قفزتُ من مكاني كالملسوع . فكرةٌ بدتْ لي صالحةً تمامًا في هذا الظّرف العصيب .

عبرَ رمضان سنة ١٩٨٦ حزينًا ، ما من مرّة جلستُ فيها إلى مائدة الإفطار إلاّ وشعرتُ بغصّة وأنا أبتلع الطّعام . كان عامَ الرّحيل بكلّ المقاييس ، رحلتْ أقدارُنا وغاب أحبابنا وغادرتْ ذكرياتنا ، ومن يدري فقد نرحل نحن أيضًا عمّا قريب .

سمعتُ أنّ الدّولة شكّلتْ لجنةً وزاريّة لتقصّي الحقائق والتّحقيق في الأحداث ؛ ضحكتُ من أعماقي بمرارة ، وحزّ القهر بسكّينه كبدي . لجنة وزاريّة!! وماذا ستقول!! وأيّ نتائج ستتقدّم بها!! هل سيقول وزير الدّاخليّة الّذي كان عُضوًا في اللّجنة إنّه مُخطِئ . هل الدّيكتاتور يحكم على نفسه بأنّه ديكتاتور!! هل يُمكن للذّئب أن يبرز يومًا في ثياب النّاسكين ليقول إنّه تاب عن نهش لحوم ضحاياه!! أيّ عبث هذا الّذي نعيشه!! تذكّرتُ بيت المتنبّي :

يا أَعدلَ النّاسِ إلاّ في مُعامَلتي
فِيكَ الخِصامُ ، وأنتَ الخَصْمُ وَالحَكَمُ

اتّصلتُ بأهلي ، طمأنْتهم قليلاً على أحوالي . وأخبرتهم أنّني حرّ طليق ، أنّني بأحسن حال ، وأنّني قدّمتُ طلبًا للدّراسة في أمريكا ، ورجوتُ أبيّ أن يُسامحني عن كلّ السّنين الفائتة ، ويبعث لي ببعض المال ، ووعدتُه أن يكون هذا آخر ما أطلبه منه ، لأنّني سأسافر إلى أمريكا وأدرس هناك وأعمل .

آه يا أبي كم تحمّلتَ أعباء ابنك ، وكم صبرتَ عليه ، طوال هذه السّنين المُضمّخة بالمرارة لم تضجر ، ولم تخرج من فيك كلمةٌ واحدةٌ تتأفّف فيها من حالي وأنا أُرهِقك بأخبار أحوالنا وعملنا الطّلاّبيّ وما أصابه من انتِكاسات . صبرتَ صبر الجِبال الرّاسيات . وتقبّلتَ

استـشـهـادَ أخي بقلب راضٍ ونفسٍ مطمـئـنّة . وظلَلْتَ على هدوئكَ المعـتـاد . وقـد آن لي أن أَردّ لكَ بعضَ الجـمـيل ، فـإنّ الجـمـيل كلّه لا يُمكن أن أردّه لمقامك العظيم ولو قضيتُ عمري كلّه وعمرين معه مثله في ذلك . أبي كنتَ رئتي الّتي تنفّسْتُ بها هواء الحرّيّة ، وعيني الّتي شاهدتُ بها مواطن الكرامة . ولن أخذلهما بعد اليوم أبدًا .

أمّـا أنتَ يا خـالي فلقـد خلّفْتَ في الرّوح طعنةً . هاجـرتَ تارِكًـا وراءك كلّ شيءٍ ، أفأفـعل مـثلك؟! اسـتـسلمْتَ لضعـفك وظروفك البائسة وطفولتكَ المريرة فهربْتَ من نفسكَ إلى حيثُ لا أحدَ ينظر في عينيك ولا يسأل عن معنى العبث الّذي يعشّش فيهما!!

رحل رمـضـان ، وأطلّ العـيـد برأسـه ، همـمتُ بأن أقـضـيـه في (نابلس) لكنّني تراجعت ؛ فكّرتُ بأن قبول طلب الدّراسة في أمريكا سـيكون قـد وصل إلى هنا في الأردنّ . تدثّرتُ بذكـرى الأصـدقـاء الرّاحلين ، كثيرٌ منهم لم تعد رِجلاه تدبّان على تراب إربد ، بعضـهم استُشهِد ، وبعضهم اعتُقِلَ إلى أجلٍ غير مُسمّى ، وبعضهم ألقى حقيبة سفره بعد آخر امتحان ورحل إلى أهله في عمّان أو أبو ظبي أو القاهرة أو القُدس . . . وحدي بقيتُ أنا و(سِراج) . حتّى (سِراج) حاول أن يُغلق عينيه عن المشاهد الماضِية ويقضي بقيّة أيّامه الأخيرة في مخيّم غزّة في جرش عند بعض أقربائه . وخلتِ الدّار إلاّ منّي ومن (نعيمة) .

صباح أوّل أيّام عيد الفِطر لبسْتُ أحسنَ ما عندي ؛ تخلّيت عن بنطلون الجينز الّذي رافقني أيّام الثّورة ، لبستُ آخر كُحليًا من القِماش ، وقميصًا أزرق سماويًا مُعرّقًا بتعريقة خفيفة ، ورشْشْتُ بعض رشّات من (الإنجل) عِطري المُفضّل . وتوجّـهتُ إلى الملعب البلديّ في إربد حيثُ دأب الإخوان على إقامة صلاة العيد في ساحته . كان الدّكتور

(أحمد) هو الخطيب . تقاطَر النّاس من كلّ صوب وامتلأ الملعب عن بكرة أبيه ، وبدا الإخوان أنّهم استعادوا عافيتهم من جديدٍ ، أو أنّ عافيتهم بعد الأحداث لم يُصبْها شيءٍ .

بعد انتهاء الصّلاة جاءني خلقٌ كثيرٌ وسلّموا عليّ . بعضُ شباب المساجد الصّغار كادوا يُقبّلون يديّ ، كانوا يعتبرونني بطلاً قوميًّا ، آنستْني هذه الحفاوة الكبيرة ، وأنستْني بعض آلامي ومراراتي . رأيت (أبو أسيد) صاحب سيّارة الـ (لادا) سلّم عليّ واحتضنني طويلاً ، قبل أن تسقط دمعةٌ من عينيه على قميصي . شعرتُ بحرارة الأخوّة كما لم أشعر بها من قبل . ربّتُّ على ظهره ورجوتُه أن يدعو لي .

عُدتُ إلى البيت في العاشرة لأسلّم على (نعيمة) وأُعايِدها . كانت حالتها تزداد سوءاً . بدت الحياة تنزّ من بين جفنيها ، والموت يزحفُ بطيئًا نحوها . جهّزتُ لها فَطورًا من الحليب السّاخن والعسل ، وبعض الخبز الطّريّ اشتريتُهُ لها من(مخبز الهامي) المكان الّذي دأبتْ على شرائه منه . وقشّدتُ لها بعض الزّبدة والمُربّى عليه . وكنتُ أقبّل يديها بين الفترة والأخرى ؛ لا عجب فقد كنتُ أعتبرها أمّي في الأردنّ .

نظّفتُ بعدها المكان ، ونظرتُ في عينيها عميقًا ، لم تكنْ قادرةً على الكلام أو التّذكّر ، لكنّني كنتُ أدركُ أنّها تعرفني من اتّساع عينيها كلّما أطالت النّظر فِيّ وعَبَرتْها سحابةُ ذكرى من الماضي . أزحتُ الغِطاء بينما أراحتْ جسمها في السّرير ، وأكملتْ انتظار غدها بنوم آنيّ لنوم طويلٍ سيُصيب كلّ حيٍّ في حينه .

صعدتُ إلى الرّوف ، لم أدرِ إلى أين أذهب . قضيتُ بقيّة النّهار في القراءة . كان خالي يخرج لي من بين كلّ سطرٍ ليقول لي عبارته

الّتي ظلّ يقولها لسنوات عجاف سابِقات : «لا تحنِ رأسكَ للعاصفة إذا مرّتْ بكَ بَلِ احملْ خنجرًا ومزّقْ قلبَها» . ولكنّك يا خالي لم تحنِ رأسك للعاصفة فقط ، بل دفنتَ رأسك في الرّمال ؛ أليس هروبك من مواجهة الحياة هو دفنٌ لك في رمال الموت وأنتَ حيّ!! غلبني النّعاس والكتاب بين يديّ ، أزحتهُ برفق ، نظرتُ في السّاعة ، كانت تُشير إلى الحادية عشرةَ مساءً ، سحبتُ نفسي تحت الغِطاء ونمت .

لا يقتلك السّهم إلاّ إذا ظننتَ أنّه تجاوزك . ولا يغرز وحش الخوف نابه في جسدك إلاّ إذا مددتَ له يد الطّمأنينة . ومَنْ ترك الحذر وقع في المحذور!! كان منتصف اللّيل فاصِلاً بين تردُّدكَ في أن تتّخذ قرارًا أو عَزْمِكَ على اتّخاذه ، وفي فجر اليوم الثّاني للعيد كنتُ قد أخذتُ قراري كما أخذ خالي من قبلُ قراره .

حاصروا البيت من كلّ النّواحي ، وصعد ثلاثون منهم الدّرجات ، وخلعوا الباب . لم يكن في البيت سواي ، أنستني الأهوال الحسّ الأمنيّ الّذي كنتُ أعيشه من قبلُ . لم أُقاوِم . إنّها الرّابعة فجرًا . ومن الجيّد أن تُصلّي الفجر في زنزانة الاعتِقال . قُيدّتْ يداي خلفي ، ودُفِعت نحو سيّارة التّرحيل ، وجلس فيها معي عشرةٌ لحراستي .

قال لي ضابط المخابرات الّذي اعتدْنا على رؤيته في الأيّام الماضية كمن يُحدّث صديقًا قديمًا : «تركتُكَ تُنهي امتحاناتك لكي تتخرّج ؛ أظنّ أنّ الكِرام لا ينسون المَعروف» . بقيتُ صامتًا . أضاف : «مكوثُك هنا قد لا يستمرّ أكثر من ساعاتٍ إذا أردْتَ» . تابعتُ الصّمت . وتابع هو : «بعضُ الأسطر النّاقصة تحتاج إلى إكمال الفراغ وينتهي كلّ شيء» . أكلت القطّةُ لساني . نفث دُخان سيجارته وهو يختم المُحادثة : «أعدكَ أن تُعامَل معاملةً طيّبة إلاّ إذا اضطررتني إلى عكس ذلك» .

(٥٨)
الشّهاداتُ تُكتَبُ بِحِبرٍ مِنْ دَمٍ

هبطتْ على جسدي وحوشٌ بشريّة . وأصبحَ حقل تجارب لأدوات التّعذيب . تحمّلتُ ألوانًا من العذاب لا تُطاق . صمدتُ حتّى اليوم الثّالث ، كان رأسي مُدلّى على جسدي العاري ، ويداي مشبوحتان إلى أعلى الشّبك . جاءني الضّابِط إيّاه رفع رأسي بطرف أصابعه ونظر في عينيّ : «وعدتُكَ أن أعاملك بلطف ، لكنّك اضطررتني إلى هذا . أنا أعرفك لن تصمد طويلاً ، فلماذا لا نختصر المسافة بيننا» . أخذتُ نفسًا عميقًا وقلتُ له وأنا أبكي : «أحضر لي ملابس جديدة ، وهيّئ لي طعامًا ساخنًا وماءً باردًا» . ردّ بحرارة : «ستعترف؟!» . أجبتُه : «بكلّ شيءٍ» .

في اليوم الخامس حدثَ ما لم أتوقّعه . جاءني الضّابط يقول لي : «أريدُكَ أن تكون مُتعاونًا بشكلٍ تامّ هذه المرّة» . أجبتُه : «ماذا بقي!! لقد اعترفتُ بكلّ شيءٍ وعلى كلّ شيء» . ردّ : «أعرف . الأمر لا يتعلّق بالاعترافات . جلالة سيّدنا يريدُ أن يراك!!»

ألبسوني بدلةً رماديّة جاءتْ على قِياسي تمامًا ، الملاعين يعرفون تضاريس جسدي . وفوق القميص الأزرق الفاتح تدلّتْ ربطة عنق حمراء . جاؤوا لي بحلاّق خاصّ ليشذّب لحيتي الشّقراء ويُرجّل شعري ، بَدَوا مُهتمّين بي بشكلٍ مُبالَغٍ فيه . وقفتُ أمام المرآة بعد أن

أُعيد إنتاج هيأتي فبدوت كأحد نجوم (هوليود) ، باستثناء ندبة خفيفة جداً فوق الحاجب لم تمنع من جماليّة المشهد بوجه عامٍّ . أصعدوني في سيّارة مرسيدس فاخرة ، جلستُ في الخلف إلى جانب ضابط المُخابرات ، ومضت السّيّارة تعبر شوارع عمّان إلى الدّيوان الملكيّ .

أدّى الحرس الَّذين على الباب التّحيّة للسّيّارة ؛ «لو كان للسّيّارة قلب لشعرت بالامتِنان لهذا الاحتِرام الكبير» (هتفتُ في سرّي) . حطّتْ السّيارة رِحالها أمام قصرٌ مَشيد . كانت التّيجان المُذهّبة تعلو أعمدته ، دخلنا إلى بهو واسع تتدلّى من سقوفه ثريّات كأنّها نجومٌ ساقِطةٌ من السّماء . «لا بُدّ أنّني أحلم» حدّثتُ نفسي . تابعنا السّير على سجّاد عجمي فاخر تغوص طراوته تحت الأرجل ، ويمتصّ وقع الأقدام فلا تكاد تسمع إلاّ حفيفًا . قفزتْ إلى ذهني قصّة (رِبعيّ بن عامر) وهو داخل إلى قصر كِسرى . تحسّسْتُ يدي ، لم أكن أملك ذلك الرّمح الّذي أثقب به هذه السّجّادات الفاخرة وأنا أمتطي صهوة حِصاني كما فعل (رِبعيّ) . مشى أمامنا عددٌ من كِبار موظّفي التّشريفات في الدّيوان . على الجُدران بدتْ صُور الهاشميّين تغطّي بعضَ المساحة ، تعرّفتُ إلى الجدّ الأكبر . تابعنا السّير . لوحاتٌ أخرى لخيول عربيّة أصيلة تُزيّن الجدران وقد ثُبّت فوقها ضوءٌ أصفر بعرض اللّوحة يُضيئها من علٍ فيزيدها جمالاً إلى جَمال . خفق قلبي بشدّة لهيبة الموقف والمكان . أوقف مشاعري من الجُموح بعضُ الإيمان الّذي تربّيتُ عليه في مسجد (البيك) ومخيّمات (عجلون) و(وادي اليابس) . تحرّكَ قلبي بأرجوزة الجيل الأوّل : «اللهمّ لا عيش إلاّ عيش الآخرة» . بدت الآخرة بعيدةً عن هذا المكان ، غائبةً عن هذا الوجود .

دخلنا غرفةً أثيرة ، وأشار إليّ كبير موظّفي التّشريفات أن أجلس .

جلستُ إلى كرسيّ غاص جسدي في نعومته ، ظلّ ضابط المخابرات واقفًا على الطّرف دون أن يُحرّك ساكنًا ، بدا قطًّا أليفًا ينتظر شيئًا ما . على يميني امتدّ مكتبٌ عريضٌ ، بنّيٌّ اللّون على جانبَيه ارتفع علَمان ، أحدهما علم الأردنّ الّذي على يمين المكتب ، وعَلَم خاصّ بالدّيوان على يساره يظهر في وسطه العلم الأردّني وقد أبدلتْ نجمته بتاج ومن حوله شعّت الألوان الخضراء والحمراء والسّوداء . في أحد الأطراف انتصبتْ صورةٌ بإطارٌ فضّيٍّ لامع للملك حسين مع عائلته كاملة ، كانت العائلة تجلس على درجٍ حجريّ ظهرتْ على أطرافه شجرتا زيتون ، وفي الخلف شجرة سروٍ صغيرة . كان الملك يقع في قلب الصّورة شابكًا بين يديه ، بقميصٍ فاتحٍ دون ربطة عنق . في الجالسين داخل الصّورة استطعتُ أن أميّزَ الملكة نور الّتي كانت ترتدي ثوبًا أردنيًّا مُطرّزًا ، والأمير عبد الله الّذي جلس في الصّفّ الثّاني يرتدي قميصًا أبيض ، ويسند يده المثنيّة إلى ركبته ، ويبتسم ابتسامةً خفيفة . والأمير فيصل الّذي كان يرتدي كأخيه قميصًا أبيض لكنّ بسمته بدتْ أوسع بكثير .

مرّتْ دقائق قليلة – قبل أن يظهر شخصٌ جديدٌ – أمضيتُها بالتّعرف على المكان . طافتْ عيناي في كلّ شيءٍ . ثبتتْ فجأة في حوافّ السّقف المُزخرفة . كدتُ أغوص في تفاصيلها لولا أنّ قادمًا قطع عليّ تأمّلاتي : «تفضّلْ مهندس وَرْد . . . من هنا» . خرجْنا من الغرفة إلى قاعةٍ واسعة تُطلّ شبابيكها العريضة على حديقةٍ غنّاء ، استقبلني على بابها رئيس الدّيوان الملكيّ ، رحّب بي بحفاوة ، وطلب منّي الجُلوس . اقترب منّا أحدُ الشّراكس بلباسة التّقليديّ ومدّ يده بالقهوة ، أوّل مرّة أتذوّق القهوة العربيّة السّادة في حياتي . قال لي رئيس

الدّيوان : «ألم تُعجِبْك؟!» قلتُ له : «إنّها أطيب ما دخل جوفي طوال اليوم» . أشار إلى السّاقي مرّة أخرى فسكب فنجانًا جديدًا .

نظرتُ عبر النّوافذ الّتي تتدلّى على جانبيها السّتائر الفاخرة لأتأمّل الحديقة الّتي بدتْ لوحةً فنّيّة فائقة الجمال . لم يُمهلني رئيس الدّيوان لأفعل ذلك . اقترب منّي بكرسيّه الهزّاز ومال بجذعه نحوي قليلاً وقال لي بصوتٍ أقرب إلى الهمس : «جلالة سيّدنا يريد أن يعرف منكَ الحقيقة» . أجبتُه بصوتٍ مُماثل : «لقد قلتها كلّها سابِقًا» . ردّ : «هو أحبّ أن يسمع منك مباشرةً» .

خرجتُ من المُعتقَل في اليوم السادس بعد الزيارة الملكيّة . تلقّاني الفراغ على الباب . وجدتُني وحيدًا . احتقرتُ نفسي كحشرة . بدوتُ صغيرًا تافِهًا أمامها . قفزتْ أمريكا – لعنة الله على أمريكا – أمام عينيّ لِتَعِدني بمستقبلٍ نظيف ، وحياةٍ مُختلفةٍ . بصقتُ على الأرض ، كانت نفسي هناك تحتَ قدميّ .

سرتُ في الطّريق . تغيّر كلّ شيء . ما قلتُه في الاعترافات يغيّر خارطة الإخوان في السّنوات العشر الأخيرة إذا لم يكن أكثر . لن أستطيع أن أواجههم بعد كلّ هذا . أمريكا ستكون الحلّ . سأفعل كما فعل خالي . كان أذكى منّي . لو أنّني أقدمتُ على هذه الخُطوة من أوّل سنة لكانت الأمور قد تغيّرتْ ربّما ، ولما حصل ما حصل .

على باب المعتقل ردّ لي ضابط المخابرات اللّعين كلّ أوراقي الثّبوتيّة ، وصلتُ دار (نعيمة) كانت ما تزال في رَقْدتها ، تقدّمتُ نحوها قبّلتُ جبينها قبلة الوداع ولم أقل شيئًا . درتُ حول الدّار إلى الزّاوية الغربيّة ، استخرجتُ الأوراق ، كانت عنوان استنقاذ كرامتي ؛ فأنا اعترفتُ على كلّ شيءٍ إلاّ هذه الأوراق ، إذا وخزني ضميري في

المستقبل سأقرأ ما هو مكتوبٌ فيها لأهدّئه . حضنْتُها وصعدتُ إلى الغرفة ، جهّزتُ أموري على عجلٍ وغادرتُ إربد إلى أجلٍ هو في علم الله في الغيب .

رافقني (سِراج) في الطّريق إلى المطار . حاول أن يُهدّئ من شعوري بالمهانة . قال كلامًا كثيرًا لم أسمعه . سألتُه سؤالاً واحدًا : ماذا يقول فِيّ (أبو أسيد) أو (أبو عبد الله)؟! صمت ولم يتكلّم . صرختُ في وجهه ماذا يقولان؟! أجابني وهو مطرق : أنتَ خائن . مَسحتُ دموعي وخرجتْ الحروف متقطّعة : صدقوا .

ودّعتُ (سِراج) على باب المطار . قلتُ له وأنا أحتضنه : «سنلتقي إذا شاءت الأقدار ، إذا رأيت نائل في أيّ يومٍ هو في علم الله فقبّلْ يده عنّي» . أسرعتُ الخُطا كأنّما أهرب من نفسي ، دخلتُ البّوابة ورمقتُه من بعيد ، كانت يداه تلوّحان بالوداع الأخير ، وبسمةٌ حزينةٌ تلفّ طرفَ شفتَيه . سلّمتُ حقيبة السّفر واستخرجتُ منها (الأوراق) . وجلستُ أنتظر موعد الإقلاع .

في الطّائرة جلستُ إلى المقعد الّذي يلي النّافذة ، تابعتُ الوطن وهو يُغادِرني أو أغادره من هناك . كان مطار الملكة علياء ممتدًّا كحُزن ، وخالِيًا كذكرى . أسرعت الطّائرة في عَدْوها على المدرّج ، ثمّ أطلقتْ لنفسها العَنان ، حين ارتفعت مقدّمتها تشقّ الفضاء كان ظهري مشدودًا إلى الخلف ، وكان صدري ثقيلاً كأنّ كتلةً من الضّيق تجثم عليه ، بالأيّام الجميلة نتخلّص من الألم ، وبالعَطاء نزرع الأمل .

فتحتُ الأوراق ، ورحتُ أقرأ . معظم الّذين كتبوا شهاداتهم كانوا يكتبون بحبر من دم ، كثيرٌ من هذه الشّهادات كانت لأناسٍ عاديّين ، بعضُ هؤلاء الّذين نسمّيهم عاديّين كانوا أبطالاً مارسوا قدْرًا من

الشّجاعة لم يصلْ إليها أيٌّ من الّذين كُرِّسوا أبطالاً خلال الأحداث وامتلأتْ بهم العيون .

هل سيُحاكَمون رئيس الوزراء؟! هُراء . يحدث هذا في البلاد الدّيمقراطيّة . مَنْ إذًا سيُحاكَم؟! أم أنّ الجرائم الّتي ارتُكِبتْ بحقّنا قُيّدتْ ضدّ مجهول كما يحدث في الدّيكتاتوريّات العربيّة . هل سنشهد يومًا جلسة استجوابٍ لوزير الدّاخليّة أو لمدير الأمن أو لرئيس الجامعة؟! يبدو أنّني أسرفتُ في الأحلام . نسيتُ أنّ بلادنا العربيّة لا ترفع مقصلة القانون إلاّ في وجه الضّعفاء ، وفي وجه أولئك الّذين لا ظَهرَ لهم يحميهم!!

فتحتُ باب الشّهادات الحيّة ، قرّرتُ أن أرويها كما وصلتْ إليّ . بدأتُ بقراءتها ؛ كانت مُذهلة . رحتُ أغوصُ في الكلمات وأسترجع الصّور الّتي جاهدَ خوفي في إخفائها لكي لا تقتلني ، نقلتْني الأسطر إلى هناك ، إلى حيثُ بدأت الثّورة ، إلى حيثُ كتبْنا جزءاً منّا على الجدران ، ونثرْنا بعضًا مِنّا على السّاحات الّتي لم تضجّ بثائرين في حياتها كما ضجّتْ بنا!!

(٥٩)
شهادات حيّة - ١

بدأنا بسماع صُراخ الأهالي في الخارج وأتى قائلٌ ليقول بأنّهم ضربوهم . وكنّا جالسين مع الطّلبة ، وفجأةً صرخ طلاّبٌ فوق البيوت الحديديّة . وبدؤوا برماية الجيش بالزّجاج الّذي أتى من جهة مباني الإحصاء القديمة فانتبه الطّلبة ، وإذا بقوّات أخرى من ناحية السّكن تدخل بالسّيّارات المُدرّعة ، ومن البوّابة الرّئيسيّة أيضًا . . . نعم ؛ إنّهم يأتون من كلّ مكانٍ . بدؤوا بضربٍ شديدٍ على أجزاء الجسم كلّها دون تفريقٍ بين طلاّبٍ وطالِباتٍ . ودفع الجيشُ الطّلبة إلى الدّاخل مع عمليّاتٍ الضّرب . وبدأ صُراخ البنات في الدّاخل بأنّهم خُنقوا . . . كان الجيش يضرب وعندما ينتهي من الضّرب يتركونه للشّرطة لتُكمل عمليّة الضّرب والرّفس . كانتْ تقف خلفي فتاةٌ وثلاثة أشخاص ؛ الفتاة صرختْ وصرختْ ثمّ تدلّى رأسُها على كتف الّتي بالقرب منها والّتي بدأتْ بالصّراخ أيضًا حينما رأتْ زميلتها على هذا النّحو ولم تتحرّك من مكانها يبدو أنّها بُهتتْ من الصّدمة والخوف فلم تتزحزح . دفعتُ مَنْ أمامي وخرجتُ راكِضًا مُتفادِيًا الضَّرَبات ، ونفذْتُ خلال هروبي من أربعة حواجز من الشّرطة أمام المشاغل باتّجاه عمادة الشّؤون ، والطّلاّب مُتفرّقون في كلّ مكانٍ . رأيتُ بأمّ عيني طالبًا مُمدّدًا على الأرض وأربعةً من الجيش يقفزون عليه ، ويضربونه ولا يرحمون

صُراخه حتّى سكت . ورأيتُ الأربعة بعد أن انتهوا يركضون نحوي واستطعتُ الإفلات منهم ، وفي الطّريق رأيتُ كثيرًا من حولي يتساقطون أو يُضرَبون أو يُلقى عليهم القبض .

بدأنا برمْي صناديق القمامة في الشّوارع ، وحملنا الأحجار بأيدينا ورجعنا إلى منطقة السّكن ، وجمّعنا الحجارة هُناك استعدادًا للمواجهة ، وهناك رأيتُ طالِباتٍ كثيرات محمولاتٍ على الأيدي ، وطلاّبًا ينزفون دماءً غزيرةً من رؤوسهم . ثمّ أتى الجيش ولم يتركنا لحال سبيلنا فقذفناه بالحجارة والزّجاج ، ولكنْ كانت تتقدّمه سيّارةٌ مُصفّحة ، وكانوا هم يحتمون بها ، ثمّ بدؤوا بإطلاق قنابل الغاز المُسيلة للدّموع فانسحبْنا إلى الخلف . وأدركْنا أنّ الجامعة مُحاصَرة ، ففررْنا إلى داخل سكن الطّالبات حيثُ لا ملجأ إلاّ هو ، وأغلقنا أبواب السّكن علينا بالأثاث ، وصعدْنا إلى الطّوابق العُليا حيثُ كنّا نُشاهد من النّوافذ جولاتٍ من التّعذيب للطّلبة الّذين وقعوا في أيدي الجيش خارج السّكن .

اقتربَ الفجر وسمعْنا صُراخ قوّات البادية وهم يرقصون . وانتشر الذّعر بين الطّالبات . وسمعنا أنّ طالبًا قفز من الطّابق الثّالث في إحدى البنايات . وحاولنا السّيطرة على الهياج والهلع ، وهدّأنا الطّالبات . ثمّ ما لبث أذان الفجر أن ارتفع . صلّينا الفجر جماعةً بمن كان موجودًا ، وعقدْنا اجتِماعًا بعد الصّلاة وقرّرْنا الدّفاع عن أنفسنا حتّى الرّمق الأخير .

تفرّقْنا داخل السّكن كُلٌّ على توزيعٍ جديد ، نظرتُ خارج السّكن فرأيتهم يسحبون رجلاً مربوطًا بالحِبال ، وظلّوا يُجرجِرونه على الأرض من أمام السّكن إلى سيّارة السّجن . كان الجوّ مرعبًا إلى درجةٍ فظيعةٍ ،

وكان علينا أن نفكّر في طريقة لمنع اقتحام السّكن علينا ؛ أوْقفْنا مصعد السّكن ، وأتيْنا بكلّ ما في مطابخ الطّالبات وغرفهنّ من أنواع الزّيوت والمُطهّرات والشّامبو وقمنا بإسالته على الأرض لكي تنزلق الأرض من تحت أقدامهم إذا حاولوا الوصول إلينا . وسكبْنا حبّ العدس والأرزّ على الدّرج لكي لا يتمكّنوا من صعوده بسهولة . ثمّ كسرْنا زُجاج المرايا ونثرنا بعضه على الدّرج وبعضه على الأبواب . ثمّ سحبْنا أنابيب طفّايات الحريق لرشّهم بها إن اقتربوا . وأتينا بِعُصيّ طويلة من أسِرّة السّكن وحملناها في أيدينا للدّفاع عن أنفُسِنا ، وقلبْنا خشب الأسِرّة السُّفلي واستخدمناه كمصدّات بحيثُ لا يستطيع الجيش أن يخترق صفوفنا بسهولة بدون إطلاق النّار . . . بقينا على هذه الحال ساعةً من الزّمن ، وفكّرْنا بعدها بما يُمكن أن يحدث للطّالبات فيما لو تمّ الاقتِحام واستطاعت عناصر الأمن وخاصّة قوّات البادية الدّخول ، وبعد مُشاورات قرّرنا أهون الشّرّين ؛ نزلْنا إلى ساحة السّكن ، وسلّمْنا أنفُسَنا ، وقامت الشّرطة بنقْلِنا بباصات الأمن إلى مركز شرطة (الحصن) ، ووعدونا في الطّرِيق ألاّ يأخذوا أيّ اسم واحدٍ منّا ، وفي المركز أخذوا أسماءنا جميعًا وحقّقوا معنا . . .

أمين طلافحة

شهادات حيّة - ٢

قبل دخول أدوات القمع إلى ساحة الشّهداء كنتُ موجودًا مع الطّوق المفروض حول الطّلبة ، ودخلتْ عناصر الأمن بشكل همجيّ من كلّ مكان ، وبدأ مُسلسل طويلٌ من الضّرب ، ورمى بعضُ الطّلبة

زُجاجات الفيفا باتّجاه العُدوان القادم ، ولكنْ تفرّق الطّلبة تحت الضّغط ، ووقعتْ بعض الفَتَيات تحت الأقدام ، وكان الضّربُ على الأرجل وعلى الرّأس وفي كلّ مكانٍ . هربتُ حتّى وصلتُ إلى السّكن حيثُ كان مدخل السّكن يشبه ساحة حرب ؛ كانت قنابل الغاز المُسيلة للدّموع تتساقط على الطّلاّب ، وصوتُ (رشّاش٥٠٠) يولول في الفضاء ويزلزل الأرجاء . يا للسّخرية الّتي أراها : البطولات لا تكون إلا إذا ضرب الشّقيقُ شقيقَه ، وأهان الأخ أخاه!! كنتُ أرى رجال الشّرطة كلّ خمسة أو أكثر يمشون مع بعضهم فإذا وجدوا طالِبًا ضربوه ثمّ أرسلوه إلى مراكز الاعتِقال . ذهبتُ واختبأتُ فوق أحد سطوح المباني حتّى السّاعة السّابعة صباحًا حيثُ فاجأنا رِجالُ الأمن فاستسلمْنا لهم دون أيّ مُقاومة ، وخلال مسيرة الاعتقال حَدِّثْ ولا حَرج عن الكلمات والشّتائم . وهكذا كنتُ أرى الطّلاّب في السّيّارات مُعتَقلين فوجًا فوجًا . في (نَظارة)[1] إربد كُنّا حوالي (٧٠٠) طالِبًا ، وظلّوا يُنادون على بعض الأسماء للتّحقيق من صباح الخميس حتّى السّاعة العاشرة ليلاً ، وبقي حينها في المعتقل بين (٧٠) إلى (٨٠) مُعتَقلاً . أخذوني للتّحقيق كنتُ قد أبديت لا مبالاة ولم أكن أهتمّ لما سيحدث بعد كلّ الّذي حدث ، انهالتْ عليّ الشّتائم وهم يقودونني إلى زنزانةٍ أرضيّة حيثُ رأيتُ عددًا من الزّملاء هُناك كانوا قد حُجِزوا فيها منذ السّاعة السّابعة صباحًا . نقلونا إلى زنزانة أخرى أصغر من السّابقة ، الزّنزانة الجديدة تتّسع لحوالي (١٥) شخصًا إذا كانوا واقفين ومتلاصقين ، أمّا في حالة النّوم فلا تتّسع لأربعة أشخاص . في يوم الجمعة نقلوا بعضنا

(١) النّظارة : غرفة التّوقيف .

إلى مدرسة الصّناعة ، وظلّ معي (١١) شخصًا ، أرسلونا بعد الظّهر إلى الطّابق العلويّ في إحدى غرف التّحقيق . كان هناك ضابِطان يتولّيان العمليّة ، سألونا : أنتم قوميّون؟ أم شيوعيّون؟ أم وطنيّون؟ أم إخوان مسلمون؟!! تابع زميله : إخوان شياطين؟! أم تحريريّون؟ أم جبهة شعبيّة؟ أم ماذا؟! كنّا لا نردّ على أسئلتهما . حتّى سأل أحدهم : هل تحبّون الملك؟! فلم نُجِبْ . فاستشاطَ غضبًا وأخذ يسبّ ويلعن ، وأخذ يهدّد بقوله : «يا . . . . لن تشتغلوا بعد التّخرّج وسوف تشقون وتتعبون . . .» . وبعدها نزلْنا إلى الزّنزانة وبقينا فيها حتّى المغرب حيثُ أطلقوا سَراحَنا .

رأفت الحمّوري

شهادات حيّة - ٣

كان دخول قوات الأمن مُتوقَّعًا أمام إصرار الطّلبة على مطالبهم وعدم تنازلهم إطلاقًا ، وهذا إصرارٌ غير مُسَبّب . . . وتصرُّف القائمين على المُظاهرة غير مُسوَّغ أيضًا ؛ فكان يُمكن أن تنتهي إلى غير ما انتهتْ إليه . كنتُ في الجَهة الشّرقيّة عندما دخلتْ قوّات الأمن ، ضربوا في البداية بالهراوات بشكلٍ عنيف ، لكنْ عندما رأوا تساقُط الطّلبة على الأرض خفّفوا الضّرب وكانوا يطلبون من الطّلبة الفرار ، واستطعتُ التّخلّص بجهدٍ بعد أن توالت الضَّرَبات في ساحة الشّهداء حتّى باب الجامعة إذ كان هذا الممرّ يحوي رجال الأمن والمُخابَرات . . . وللحقّ أقول إنّ شرطة إربد عند الباب الرّئيسيّ كان بإمكانها القبض عليّ وعلى كثيرين ، ولكنّها لم تفعل ، وإن ألقَوا القبض على بعضنا فقد كانت مُجاملةً لضابطٍ أو مسؤول .

التجأتُ أنا وخمسة شباب وثلاث فتيات إلى أحد البيوت المُقابِلة للجامعة بطلبٍ من أهلها ، ولم نستطع الخروج منه بسبب وجود الشّرطة في الشّوارع ، وقد حاولتْ مجموعاتٌ من الشّرطة اقتحام البيوت وإخراجنا منها وإلقاء القبض علينا ، ولكنّ الأهالي وقفوا في وجوههم ولم يُمكّنوهم من الدّخول . في الصّباح خرجتُ من البيت ولم يحدث معي بعدها شيءٌ ، ولله الحمد .

عدنان إرشيد

شهادات حيّة - ٤

تمّ اقتحام الجامعة حوالي السّاعة الواحدة والنّصف ليلاً ، وقد شاهدْنا صفوف رجال الأمن وهي تقتحم الجامعة متّجهة إلى الطّلبة في ساحة الكافتيريا ، وكان الطّلبة قد وضعوا حاجِزًا من أجسادهم على ثلاثة صفوف ، فوصلت قوّات الأمن وبدأت بضرب الصّفوف ، فتدافع الطّلبة وسقط أغلبهم على الأرض ، ومن شدّة الضّرب انفرطت الصّفوف الثّلاثة ، ثمّ توجّه المُهاجِمون لضرب كلّ مَنْ وقع على الأرض . . . أينَ الإنسانيّة . . .؟! وتعالتْ أصوات الطّالبات . وسمعتُ من الكلمات والشّتائم ما لم أسمعه في حياتي قطّ ، وكانت أغلب الشّتائم مُوجّهة للطّالبات ؛ وأظنّ أنّ أبسط شتيمة من تلك الشّتائم كانت تكفي لجرح شعور أيّ طالبة لمدّة ليستْ بسيطةً من الزّمن . وفي وسط ذلك الزّحام ارتفع صوت بعض الطّالِبات : ماتتْ . . . ماتتْ . . . فلم يأبهْ لهنّ أحدٌ وزادت الشّتائم ، وخرج صوتٌ قبيحٌ : فلتَمُتْ بنت الـ . . .

استطعتُ الخروج من الجامعة السّاعة الثّانية ليلاً بعد أكثر من نصف ساعة من الهجوم ، وبقيتُ أركضُ أركضُ والصّياح خلفي وفي مسامعي وفي كلّ شوارع إربد كأنّها تستنكر ما يحدثُ في الجامعة . . . لقد كانت ليلة رُعبٍ فعلاً ، وكانت إربد في تلك اللّيلة مدينة الرّعب ؛ فسيّارات الشّرطة والأمن في كلّ مكانٍ ، ويقطع الظّلامَ الدّامِس أضواءُ سيّارات الأمن الْمُلوَّنة . وقد خرجنا من تلك الحادثة بقناعة أصبحتْ راسخةً هي أنّ رجال الأمن والبادية ما هم إلاّ كلابٌ بوليسيّةٌ مُدرّبة تستميتُ في سبيل إرضاء سادتها!!

عمر محاميد

شهادات حيّة - ٥

بعد منتصف اللّيل بدأ الهجوم ؛ لا أذكر بالضّبط متى . كانت الشّرطة تضرب بدون تمييز ، أستطعتُ مع عددٍ كبيرٍ الالتجاء إلى سكن الطّالِبات وكان موقفًا مُحرِجًا!! كان بيننا إصاباتٍ كثيرة وقد أشرفتْ بعض الطّالِبات على إسعافِ عددٍ منّا بأدوات الإسعاف الأوّليّة ؛ أحدنا كان مُصابًا إصابةً بليغةً في رأسه وكان بين الحياة والموت ، لففْنا رأسه لمنع النّزيف ولم نستطع أن نفعل له الكثير . عند أذان الفجر جمع الأخ بسّام الطّلبة في إحدى القاعات وكُنّا نقارب (١٠٠) طالِبًا ، وحاول التّخفيف من وَقْع الصّدمة . ثمّ اقترحنا أن نبدأ بقراءة القرآن بصوتٍ جماعيّ لنجد فيه بعض الرّاحة ونهدّئ النّفوس . ثمّ خرجتْ بعد ذلك مجموعة من الطّالِبات للتّفاوض مع الشّرطة ولم تسمح لأحدٍ من الشّباب بالخروج معهنّ خوفَ الاعتِقال!!

قمتُ بالاتّصال من تلفون السّكن مع رئيس البلديّة والدّكتور (أحمد) . وقال لي إنّه سيذهب إلى رئيس الوزراء للحديث في شأن المُحاصَرين والمُعتَقلين . بعد حوالي ساعة من المُفاوضات الّتي لم نتوصّل فيها مع الشّرطة إلى شيء ، جاء رئيس البلديّة فظنّنا أنّ الفرج قد جاء معه ، وإذا به قد جاء ليسأل عن ابنتيه وكانتا مع المتظاهرين ومن اللّواتي لجأن إلى هنا . أخذ بناته وخرج متوجّهًا إلى بيته وكأنّ الأمر لا يعنيه ، فأخذتْ بعض الطّالِبات يهتفْن به : (كلّنا بناتك . . . كلنا بناتك . . .) فلم يُعِر نداءهنّ أيّ اهتمام . وبعد أخذٍ وعطاء ومفاوضات استسلمْنا ولكنّنا طلبْنا أن تتسلّمنا الشّرطة لا أن يتسلّمنا الجيش . وُضِعنا في باصات أمنيّة ونُقلنا إلى مراكز الاعتِقال .

مُصطفى جمعة

شهادات حيّه - ٦

كانت السّاعة حوالي الواحدة ليلاً عندما دخل أوّل فوج من القُوّات الخاصّة حيثُ طوّقوا الطّلبة وحاصروهم منعًا لهروبهم . ثمّ اقتحموا الحواجز الطّلاّبيّة ، وبدأت المجزرة البشعة!! كان التّركيز في الضّرب على الطّالِبات ، وعندما رأينا ذلك وكُنّا مجموعة مُكوّنة من (٢٠) طالِبًا قرّرنا رمي الحجارة ، وقُمنا بكسْر جذوع الأشجار للدّفاع عن النّفس . ثمّ انهالت علينا القنابل المُسيلة للدّموع . وقاومنا مُقاومة شديدة ممّا أدّى إلى سقوط بعض الهراوات من أفراد القُوّات الخاصّة ، فأخذتُ هِراوةً بيدي اليُسرى وكنتُ أرمي الحجارة باليُمنى مع بقيّة المجموعة . فجأةً أُصيبتْ يدي بحجارةٍ أظنُّها من قِبَل أحد الطّلبة ،

فوقعتُ على الأرض ولم أستطع أن أفعل شيئًا سوى الهروب والاختِباء . . . استطعتُ الاختِباء في بيت أحد الدّكاترة ووجدتُ حوالي (٣٠) طالِبًا قد سبقوني إلى الاختِباء في بيته ، وعندما عَرفَتِ القوّات الخاصّة بأمر اختبائنا أمرتِ الدّكتور بأن يخرجنا ويُسلّمنا إليهم ، فرفض وقال : هؤلاء في بيتي . . . فكسروا الزّجاج ، وقالوا : أخرجهم وإلاّ سندخل . فقال للشّباب : اخرجوا الآن وساذهب معكم ، وأبقى على الفتيات في بيته . وخرجْنا وخرج معنا . تمّ نقلُنا إلى مستشفى راهبات الورديّة ، وفي الطّريق قال لنا أحد ضبّاط المخابرات الّذين رافقونا ناصِحًا : أنتم تُعارِضون الدّولة وهي أقوى من أن تُعارضوها . . . فقلتُ له : يجب أن تعلموا أنّه عندما تقوم الدّولة بضربِ أُنَاسٍ أبرياء فإنْ لم نستطعْ نحن التّصدّي فالأفواج الآتية من بعدنا ستتصدّى ، وإنْ لم يتصدَّوا هم فأبناؤهم سيتصدّون للعدوان . والأجيال لا تنسى .

أحمد الدّويري

شهادات حيّة - ٧

كان الاعتصام سلميًّا ، ولم يكنْ له علاقة بالسّياسة . وبعد الدّوام يجتمع الطّلاّب ، وتكون هناك الكلمات والهتافات . لم يكنْ هناك توقّع كجامعة وحرم جامعيّ أن يحدث اقتحام ، لم يكنْ أحدٌ ليتصوّر ذلك . ولكنّ الحقيقة الّتي ما زلتُ لا أستطيع تصديقها أنّ الاقتحام حدث وبصورة وحشيّة وهمجيّة ؛ بحيث قبل أن تدخل قوّات البادية كانوا مُعبّئين ، والدّولة قد أفهمتهم : أنّ الموضوع ليس موضوع مطالب طلاّبية ، وإنّما سياسيّة ، وثورة على الدّولة وعلى النّظام حتّى يزيدوا

من حَنَقهم وغضبهم على الطّلاّب ، ويكونوا كالثّيران الهائجة . دخلوا بعقليّة أنّ هؤلاء الطّلبة يريدون عمل انقلاب على الملك حسين ، ودلّ على أنّ هذه الصّورة هي الّتي وصلتْ إليهم مشهدُ الاقتحام الهمجيّ الّذي حدث . وكان الضرب مُستقصَدًا فيه الرأس ، ولم يكنْ على الأرجل أو الظّهر ؛ وكان واضِحًا من وراء هذه الطّريقة في الضّرب أنّهم كانوا يريدون الموت لنا ، وليس التّخويف أو تفريق الحشود ، وكذلك عندما أغلقت المنافذ كان هذا دليلاً آخر على أنّ النّيّة مبيّتة على القتل أو الإيذاء الشّديد .

الفوضى الّتي حدثتْ من جرّاء هذا الهجوم الهمجيّ ، والليل الّذي أمعن في ظلمته ، والمباغتة التي باغتونا فيها ، كلّ ذلك سبّب فوضى غير مسبوقة ، إذ تدافعت النّاس ، وبدأت الأجساد تتهاوى تحت أقدام العابرين والفارّين والمُستغيثين .

كلّ هذه الهمجيّة كانت لَتهون لولا مشهد ضرب (سالم حمدان) حتّى الموت ؛ مشهدٌ لن تستطيع ذاكرتي نسيانه ولو بعد قرن . كان (سالم) صديقي وزميلي في التّخصّص وكان طيّبًا شديد الطّيبة ، متعاوِنًا بشكلٍ مُطلَق . حضرتُ جنازته . عندما غسّلْناه راح جسمه يتثنّى بين أيدينا لكثرة الكسور الّتي أصابتْ عِظامه ، كان كأنّه لحمٌ بلا عظم ، ولم تُبقِ الكسور على جسمه الكامل ، بل تحوّل إلى عِظام متفتّتَة يغطّيها جلدٌ رقيق!!

تشتّتْنا ؛ صرنا ندخل في بعض الزواريب ، أو الأنفاق المُغلقة . . . كنّا مجموعة من الطّلاّب والطّالبات في أحد هذه الأنفاق المغلقة ، بدؤوا يمشّطون الجامعة كاملة بحثًا عن الفارّين ، ووجدونا داخل هذا النّفق أو المدخل الجانبيّ ، فقاموا باعتقالنا ، وبسيّارات مدنيّة دخّلونا

في السّيّارات ، وكان الضّرب والشّتم . . . ورحّلونا إلى شرطة إربد ، وهناك صار الفرز ، بعضنا راح إلى قسم الاستخبارات العسكريّة ، وهناك ابتدأ التّحقيق ، وكان هناك تعذيب جسديّ ونفسيّ ، الزّنزانة الّتي اعتُقلتُ فيها كانت مترين بمتر ونصف ، وكنّا أربعة فيها . بعد التّحقيق كان بعضنا يخرج إذا لم يكنْ مطلوبًا . البادية كانوا يلبسون لباسهم الكاكيّ والمشربش . وقد بدؤوا يدبكون بعد ساعات من القتل والضّرب . في التّحقيق سألوني : «إنت من وين؟» . «من عمّان» . «لأ . . . أبوك من وين؟» . «أبوي مواليد عمّان» . «وجدّك؟!» «يافا!!» . «إنتو ما كفاكم تخربوا بلادكم جايين تخربوا هون؟! والله شلّة همل» .

فؤاد دَعْدَع

(٦٠)
سِراج سَلْهب

«صديقي (وَرْد) أعرف أنّك الآن في الفضاء قد غادرْتَنا تبحث عن حياة جديدة . أتمنّى أن تجد ما تحلُم به . كتبتُ هذا من أجلك . كنتُ ظلّكَ المجروحَ . ولا أريد أن أتنكّر للماضي مهما كانت صورته . هنا في هذه الكلمات المُبعثرة وتحت هذه الأسطر ستجد بعضًا مِنّا . (المُخلِص أبدًا)» .

كان دخول اللّيل إلى هذا الوقت قد أزّم الموقف وفاقمه ، وخاصّة وجود عدد كبير من الطّالبات وهناك مَنْ ينتظرها أهلها ، ولا يعرف ماذا جرى لها ، وهناك القادمة من فلسطين ، ومن غيرها من دول الخليج . كانت المجموعة الأمنيّة الجديدة مُصمّمة على فضّ الاعتصام بأيّ ثمن . وبدا لي أنّهم ينتظرون آخر الليل حتّى يخفّ العدد ، وتكون السّيطرة الأمنيّة على الموقف المتأجّج أسهل . خرجنا خمسة لمقابلة هذه المجموعة الأمنيّة الجديدة وهي أعلى مستوى أمنيّ مُمكِن ، أنا وسالم حمدان وسُها ، وكان هناك شابّان أيضًا معنا . ونحن صاعِدون على الدَّرَج كنّا قد اتّفقنا ألاّ نتكلّم جميعنا ، وأن يتكلّم واحدٌ فقط باسمِنا ، وتمّ الاتّفاق عليّ أنا أن أكون المتكلّم ، ولأنّني أنا الّذي أدرتُ كثيرًا من الحِوارات السّابقة ، فقد كان من السّهل أن أعرف ما أقول . كان الموجودون : مدير الأمن العامّ ، مدير مخابرات إربد ، مدير شرطة إربد ،

مُحافِظ إربد ، بالإضافة إلى رئيس الجامعة . الأفاعي لا تُتقن غير الفحيح ، والذّئاب غير العواء .

طلبتُ من الطّلاّب الالتزام بالجلوس لإيصال فكرة واضحة بأنّنا لا نريد التّصادم معهم ، ولسنا في أيّ وضع عدائيّ لهم . ومع ذلك دخلت القوّات من كلّ حدبٍ وصوب ، البادية بلباسهم المعروف ، وكان شرطة مكافحة الشّغب هم في المقدّمة ، واقتحموا المكان بأعداد كبيرة جداً ، وكانوا مُجهّزين بكامل عتادهم : الواقيات والقنابل المسيلة للدموع ، والقنابل الصّوتية ، والهراوات .

أصبح الطّلاّب يتلقّون الضّرب من كلّ مكان بشكل دائريّ ، ويضغط بعضهم على بعض ، وكان الضّرب عنيفًا جداً وبكلّ قوّة ، والطّوق الخارجيّ من الطّلاّب هو الّذي تلقّى الضّرب الأكثر إيلامًا ، وكان بعضهم يتراجع إلى الخلف فيتساقط فوق الذين خلفه ، وشكّل هذا التّساقط ما هو أكثر ألمًا من الضّرب ، وراح بعضُنا من حلاوة الرّوح يدفع نفسه بينهم ويخترق مجاميعهم ويحاول الإفلات من البوّابة . ولكنْ أين المفرّ!! لقد كانت الأطواق الأمنيّة تحيط بإربد كلّها وليس بالجامعة فحسب ، ولذلك كان واضِحًا من الأمر الإيذاء والضّرب ولو أدّى ذلك إلى الموت ، والدّليل أنّهم أغلقوا بوّابات الجامعة وكلّ المنافذ المحتملة من أجل ألاّ يجد الطّلاب مهربًا ، ولو كان قصدهم التّفريق لتركوا تلك الأبواب تُنقذ من أراد النّجاة بنفسه .

بدأتْ قنابل الغاز المُسيلة للدّموع تملأ المكان ، إذا هربتَ من واحدة هنا تلقّاك أربعٌ أو خمسٌ منها هناك ، والجوّ فيه دُخان كثيف تشعر بالاختناق ، وبعضهم أغمي عليه . أحدهم أصابته القنبلة فاحترقتْ ثيابه ، فشبّت النّار بجسده ، فصار يركض مذعورًا ، فتلقّته الهراوات ،

ثمّ جاء أحدهم فضربه بالواقي الزّجاجيّ لكي يُطفِئ النّار ، فخرج في النّهاية ببعض الحُروق وببعض الكسور .

حُشرنا في السّاحة حشرًا صعبًا انهال عليها فيه العذاب من كلّ صوب ، والّذين فرّوا من الهراوات والقنابل تلقّاه الطّوق الثّاني فقام باعتقاله ، والّذي سلم من الطّوق الثّاني كان يُطارَد خارج الجامعة من الطّوق الثّالث والرّابع وهكذا إلى أن يتمّ اعتقاله . طبعًا المصابون تجاوزوا المئات ووصلوا إلى الآلاف ، وكان هناك كسور متنوّعة ، وشديدة ؛ كان هناك كسور أيدٍ وأرجل . أحدهم كُسرت رجله فتحامل عليها وحاول الهرب فتلقّته هراوة ثانية فسقط على الأرض ، فزحف على بطنه مُستندًا على مِرفقيه ، فَشَدَهَهُ منظر البسطار القريب من أنفه فتطلّع إلى الشّرطيّ بعينين فيهما فضاء من الرّعب وأفق من الرّجاء . وراحت العينان ترجُوان الشّرطيّ أن يرحمه ، كانت عينا الشرطيّ متّقدتين كأنّهما جمرتان ، رويدًا رويدًا انسحب اتّقادهما أمام رجاء هذا الطّالب ، وحلّ محلّهما شيءٌ من الرّقّة ، سحب الشرّطي رجله إلى الخلف ، مسح بكمّه دمعةً طرفت من عينَيه ، وتركه وذهب .

كان الطّوق الأوّل من القوّات الأمنيّة يضرب بلا هوادة ولا مراعاة ، على الرأس على الكتف على اليدين على الوجه على الرقبة على الظّهر ، على كلّ مكانٍ في جسم الإنسان ، النّاس محصورون ، والقوّات جاءت من كلّ الجهات ، والضّرب حصل من كل الجهات والجِدار خلفك ؛ وبالتّدافع هربًا من القادم الأخطر حدث ما هو أخطر وهو الاختِناق . الحرف الخارجي من الطّلاّب تحمّل الوجبة الأولى ، ثمّ لم يعد هناك من مجال للاحتمال فحاول صنع ثقب في الجدار الأمنيّ ، واندفع بكلّ ما يملك من حرارة الرّوح إلى الخارج ، فتلقّاه الجدار الثاني

والثالث من قوّات الأمن ، وهذا أدّى إلى استمرار الاشتباكات حتّى بعد أن تَفرعَطت الكتلة البشريّة الأكبر داخل الجماعة ، نعم استمرّ الاشتباك بين الطّلاّب ورجال الشرطة حتى ساعات الفجر الأولى من يوم ١٥-٥-١٩٨٦ وحدث هذا الاشتباك داخل الجامعة وخارجها . كان الاشتباك بعد تفرّق المجموع البشريّ الأكبر بوتائر مختلفة ، يحدث بين الفينة والأخرى . وتمّت مطاردة الطّلاّب حتّى سكنات الطّالبات حيثُ اختبأ فيها عدد من الطّلاّب ، وكان الطّلاب يُدافِعون هناك عن أنفسهم بطرق مختلفة ، مثل إغلاق الأبواب بطريقة معيّنة بحيث لا يُمكن فتحها أو كسرها ، ولو كُسِرت يكون هناك ما يمنع فتح الباب مثل خزانة ، وأحيانًا رمي النفايات على الأرض ، وأحيانا قطع حبال المصاعد حتّى لا يستخدمها الأمن ، وأحيانًا كان الطّلاب يدفعون جِرار الغاز ويفتحونها باتّجاه رجال الأمن ، ويهدّدونهم أنّهم إذا ما اقتربوا أكثر فسوف يُشعلونها أو يفجّرونها ، حدث ذلك لأنّ الملاحقة التي تمّت للطّلاب كانت غير منطقيّة .

من الطّرائف أنّ أحد الشّباب فرّ باتّجاه كلّيّة العلوم ، قفز من أحد الشّبابيك إلى داخل المبنى ، ظلّ يدخل من شبّاك إلى شبّاك ، ومن غرفة إلى غرفة ، حتّى اهتدى أخيرًا إلى مختبر ، اختبأ فيه تحت طاولة بشكل جيّد ، في اللّيل استرق النّظر من الشّبّاك إلى الخارج ، وجد شرطة البادية قد عمّروا دبكة وراحوا يدبكون ويسحّجون . كانت حركة الشراشيب الحمراء المتدلّية على جوانبهم تتمايل مع تتمايلهم وهم يهتفون : «حنا جنودك يا بو عبد اللهْ . . . حَقّقْنا النصر بْعُون الله . . .!!!» نام حتى الصّباح ، استيقظ ، غسل وجهه بالماء المنسكب من الصّنابير في أحواض المختبر ، وكانت هناك بعض المرايا المستخدمة

في التّجارب ، ومشّط شعره ، وأصلح هندامه ، وخرج بكلّ ثقةٍ من الباب الرّئيسيّ لمبنى العلوم ، ظانًّا أنّ الأمور قد انتهت ، على الباب اعتقلوه فورًا وانهالوا عليه بالضرب .

هربتُ باتّجاه البّوابة الشّماليّة ، ودفعتُ بيديّ بكامل قُوّتي مَنْ كان في وجهي من الشّرطة ، وانطلقتُ بذلك الاتّجاه ، بالطّبع بعد فترة من فورة الضّرب أُنهِكَ الشّرطة ، وبدؤوا يتعبون ، وأصبحت قدرتهم على التّركيز في الضّرب قليلة ، أفلتُّ من بعضهم ، فطاردني الآخرون داخل الجامعة ، أهرب من مجموعة إلى مجموعة ، كان الغاز قد أسال كلّ ما في عينيّ من دموع ، وأوصلني إلى حالة من الاختناق . حاولتُ تجاوُز البوابة في سعيي إلى الإفلات فلم أنجح ، وحاولوا اعتِقالي هناك فلم يُفلِحوا . وعندما لم أتمكّن من الهرب من البوّابة الرّئيسية ، قفزتُ من على سور الجامعة ، وهربتُ باتّجاه الشرّق ، قطعت الشارع الرئيسيّ لإربد ، ومضيت باتّجاه أرضٍ خالية من البشر والعمارات ، كان في نهاية هذه الأرض بناية جديدةٌ لم أكنْ أعرف ما هي . كان العشب في الأرض الخالية من العمارات قد ارتفع لمترين ، وبعضه قد مال إلى اللون الأصفر ، وبعضه ما زال أخضر ، فرميتُ نفسي فيه ، كسابح يرمي نفسه في البحر ، وغطست بين سيقانه كغائص يُخفي نفسه في الماء ، ورحتُ أزحف على بطني ويديّ ورِجليّ . كنتُ أسمع أصواتًا تتناهى إليّ من بعيد ، وبعض هذه الأصوات خفتتْ بعد صياح عال ومستمرّ ، عرفت أنّهم إمّا أغمي عليهم أو ماتوا ، وبعض هذه الأصوات أوحتْ إليّ بأنّهم اعتُقِلوا ، بالطّبع أدركتُ أنّ كلّ طوقٍ إذا لم يستطع الإمساك بأحدنا ، كان يلاحقه لمسافة معيّنة ، ثمّ يتركه للطّوق الّذي يليه من أجل الإمساك به ، لم يكنْ أحدٌ من الشّرطة يغادر منطقته المقرّرة له .

الّذين خلفي وكان بيني وبينهم ما يقرب من عشرين مترًا بعضهم استسلم للأطواق الّتي تُلاحقه واعتُقِل ، أمّا أنا فظللتُ مُصمّمًا على ألاّ أُعتقل ، وعلى ألاّ أجعل الذّئب يُمسك بقميصي . ظللتُ على خوفٍ لا أحد يُمكن أن يتكهّن بمستواه ؛ كانت رجلاي ترتجفان كسيقان ذرة ، وشفاهي قد ازرقّتْ ، وجفّ ريقي من اللّهاث والعطش . كانت السّاعة قد قاربت الثّانية أو الثالثة فجرًا ، في ذلك اليوم لم أفطر ولا حتّى على الماء ، وبقيت صائمًا حتّى في اليوم الثاني للأحداث ، زحفتُ لمدّة ساعة ؛ اطمأننتُ بعدها إلى أنّني أصبحتُ بعيدًا ، حاولت أن أمدّد جسدي بين العشب وأغفو فلم أستطع كان في قلبي رماحٌ ناشِبة ، وفي عينيّ سِهامٌ نافِذة . مكثتُ نصف ساعة ، وسمعتُ بعدها أصوات سيّارات الشّرطة على الشّارع الرّئيسيّ تصل إليّ من بعيد ، وهي تُطلق صافرتها التّحذيريّة : وي . . . وا . . . وي . . . وا . . . ومن دون أيّ سبب أحسستُ أنّ مَنْ فيها سينقضّ عليّ ويعتقلني في طرفة عين ، فقرّرت تغيير مكاني . زحفتُ بأضلاعي المكسورة إلى الأمام أكثر ، حتى وصلتُ إلى بناية جديدة في هذا المدى الفارغ ، ووجدتُ عددًا من براميل الماء الّتي تُستَخدم في البِناء ، بحثتُ عن واحدٍ فارغ منها ، وألقيتُ بنفسي داخله ، قلتُ في نفسي : لن يبحثوا عنّي داخل برميل ، فهو بلا شكّ مليء بالماء يستعدّ العمّال إلى أن يُفرغوا ما فيه على الإسمنت والحديد والحجارة . بلغ بي التّعب مبلغًا كبيرًا ، غفوتُ قليلاً فحلمتُ في هذه الإغفاءة أنّ العمّال جاؤوا في الصّباح وظنّوا أنّني ماء ، فألقوني في دائرة من الإسمنت وخلطوني معها ، فتكسّرت عظامي كأعوادٍ من القشّ ، وذاب شعري في كتلته المائعة ، وانصهر لحمي مع باقي الموادّ ثمّ صبّوني في البناء ، فصرتُ حجرًا من حجارة

هذا المبنى!! أفقتُ مذعورًا . هممتُ أن أقفز من مكاني وأوّلي هاربًا كأرنب ، لكنّ طاقتي على الحركة كانت قد شُلّت . استسلمتُ للأمر الواقع . ثمّ غفوتُ مرّةً أخرى فصرتُ أرى النّاس يمرّون على المبنى ، وفيه الحجر الّذي صِرتُهُ فيشيرون بأيديهم إليّ ويبتسمون ثمّ يمضون وأبقى أنا في حجارة البناء أنظر إليهم بحسرة ، ولا أستطيع أن أقول لهم : إنّني كنتُ مثلهم ، وإنّني محتاج أن أغادر حجريّتي وأعود إلى بشريّتي . أفقتُ مرّة أخرى على صوت : وي . . . وا . . . وي . . . وا . . . نظرتُ إلى السّماء ، كانت هادِئة ، والنّجوم تتراقص في غورها العميق . دفعتُ بأطراف أقدامي طرف البرميل فلم يتزحزح بالطّبع . أردتُ أن أهيئ لي مكانًا معقولاً للنّوم ، فرضيت بهذا التّكوّر على النّفس ؛ وتمتمتُ في أعماقي : أيّ نعمةٍ هذه الّتي أنا فيها ؛ إنّني ألبس برميلاً واقيًا للرّصاص ، ما من نعمةٍ إلاّ وهي أكبر من أختها . لا أدري كم مرّ من الوقت بعد ذلك ، صحوتُ فَزِعًا على أصوات عالية ، بدا الفجر أنّه انشقّ . . . كانت السماء في ليلة الاقتحام قد أمطرت ، فكان الزّحف على البطن في الأرض التّرابيّة قد جبلني مع التّراب . الأصوات الّتي تناهتْ إلى سمعي مع بداية الفجر كانت رتيبة ، أرهفتُ السّمع لأميّزها ؛ كانت أصوات تأدية تحيّات في الصّباح الباكر ، وأقدام تخبط الأرض ، وأكفّ تصطفق على الجوانب ، نظرتُ من ثقبٍ في البرميل فهالني المنظر ، لقد كانوا مجموعةً من العساكر يقومون بالواجب الصّباحيّ ، واكتشفتُ أنّ هذا المبنى الغريب هو مبنى الاستخبارات العسكريّة ؛ وكنتُ حينها قد هربتُ إلى حتفي ، كالمستجير من الرّمضاء بالنّار .

بالنّسبة لضبّاط الاستخبارات العسكريّة لم يتوقّعوا أنّ أحدًا من

الطّلاّب قد يصل إلى هنا حيًّا دون أن يُضربَ أو يُعتقَل . بدا الحرس من ثقب البرميل غاية في الهيبة والمهابة ، قفزتُ من البرميل بهدوء ، ومططتُ جسمي خارجًا منه كقطّ ، وزحفتُ بالاتّجاه المعاكس ببطء ، وبحركة صامتة دون أن أُحدِث أيّة ضجّة ، حتّى ابتعدتُ مسافةً كافية ليطمئنّ قلبي ، استرحتُ قليلاً ، ثمّ تناهى إلى سمعي آياتٌ من القرآن في صلاة الفجر تُتلى من مسجد قريب . لفّتْ قلبي سحابةٌ من طمأنينة وكأنّني كنتُ أنتظر هذا الصّوت الشّجيّ ليداوي جروحي ، ولتبرأ من كلماته قروحي . ردّدتُ معه ما يقرأ وأنا في غاية النّشوة .

بقيت أزحف بالاتّجاه المعاكس للشارع الرّئيسيّ ، كانت بعض البنايات الجديدة تقطع خلوة الأرض الفارغة ، خطر ببالي أن أدخل إحداها وأركن ظهري الممزّق إلى جدار إحدى غرفها ، ثمّ قفزتْ في ذهني فَرضيّة الاعتقال والضّرب فألغيتُ الفِكرة . تابعتُ المسير وأنا أجرّ ألمي خلفي وأدفع أملي أمامي ، حتى ابتعدت بالقدر الكافي ، وكانت الشّمس قد استأذنت الليل أن تحلّ محلّه ، فأذن لها ، فجاءت كاسفة ، تغطّيها غمامات لا أدري ماذا أسمّيها . وصلتُ إلى أحد البيوت ، استعملتُ هاتفهم ، واتّصلت بأحد أقربائي كي يأتي وينتشلني مِمّا أنا فيه .

في إحدى بيوت قرى إربد وعند أحد الأصدقاء نمتُ كما لم أنم في حياتي ، في منتصف النّهار جاءني بعض الشّباب فأيقظوني بشدّة ، وصاحوا بي : يا رجل إنتا نايم ، والدّنيا مقلوبة ، كان الملك قد خطب خِطابه الشّهير في ذلك الوقت : «هذه فئة ضالّة مُضلّة ، وسنضرب بيد من حديد . هؤلاء المتآمرون ، وهؤلاء المخرّبون . . .» وهُرِعتُ لأسمع الأخبار فإذا الأمر مختلفٌ تمامًا . الحقيقة تُزيَّف

والإعلام يُسوّق أنّ هؤلاء الطّلاّب مُعتدون ، مُخرِّبون ، وهذه مؤامرة على البلد ، وقد جُرِح عدد من رجال الأمن .

وصلتْ إليّ تبليغاتٌ تنظيميّة ألا نُغادر إربد ؛ لأنّها ما زالت مطوّقة ، وأيّ مغادرة لها فإنّ مصير صاحبها الاعتقال أو المُطاردة . إلى أن هدأت الأمور قليلاً ، في اليوم الخامس بعد نهاية الأحداث ، غادرتُ (إربد) بالباص باتّجاه (الزرقاء) وليس (جرش) مع العلم أنّ أهلي في (جرش) ، وجاء عدد منهم إلى هناك واطمأنّ عليّ ، وتركتُ الأمور فترة حتّى تهدأ ومن ثَمّ أعودُ مرّة أخرى إليهم ، وبقيت طوال الطريق متوجّسًا أن تأتي مفرزة عسكريّة توقف الباص ، وتفتّش على الهويّات ويتمّ اعتقالي . . . حتّى تلك اللحظة لم يكنْ أهلي يدرون فيما إذا كنتُ حيًّا أو ميّتًا ، طليقا أم مُعتَقَلاً .

بعدها كان واضحًا أنّ الملك صعّد الأمور إلى أعلى مستوى ، ثمّ سينفّسها دفعة واحدة ، لتصطخب الأيدي له بالتّصفيق . خطب الملك حينها خِطابًا ثانيًا ، وأقال رئيس الجامعة ، وأقال معه رئيس الوزراء ، وقال : هؤلاء الطّلاّب يبقون أبنائي ، وربّما أخذت بعضهم الحماسة في غير موضعها ، وأمر بإعادة المفصولين منهم إلى الجامعة ، وأُجريت الامتحانات للّذين لم يتمكّنوا من تقديم الامتحانات . وصدر عن الملك قرار بتشكيل لجنة وزارية للتّحقيق في الأحداث .

عُلّقت الدّراسة بعد الأحداث ، تقريبًا فترة أسبوع إلى عشرة أيّام ، وأُجِّلت الامتحانات . وفي أوّل يوم رجعنا فيه إلى الجامعة ، وكان ذلك في بداية الدّوام بعد تعليق الدّراسة كان مشهد الإصابات البليغة بليغًا ، وكان كلّ الطّلبة يضعون أشرطةً سوداء على أعضادهم ، وهذا هو مشهد الإصرار على المطالبة بالحقّ . تجمّع الطّلبة يومها بالمئات ، وهتفوا

من جديد ضدّ سياسة الجامعة والسّياسة الأمنيّة ، وأكّدوا على مطالبهم السّابقة . وهذا أوصل رسالةً قويّةً إلى دوائر صنع القرار أنّ الطّلبة ما زالوا على إصرارهم .

طُلِبَ منّا على الفور تشكيل لجنة لمحاورة إدارة الجامعة للتّوصّل إلى حلٍّ يرضي الجميع . في اللقاء الأوّل قالوا : لكم كلّ ما تريدون مقابل شيء واحد أن تتقدّموا باسترحام إلى الملك والطّلب منه العفو وكلّ شيء يعود إلى طبيعته . ولكنّنا رفضنا ذلك ، فقالوا : أنتم تُصعِّدون الموقف ، فقلنا : بعد أن قُتِل بعضُنا وجُرِحنا وطُورِدْنا واعتُقلنا تطلبون منّا أن نعتذر!! من هو الأولى بالاعتِذار فينا!! نحن لم تكنْ قضيّتنا سياسيّة ، وليس للملك علاقة بالأمر الّذي بيننا . وعلى الجامعة أن تعود عن قراراتها .

بعد ساعة ونصف من الجِدال الشّديد ، للاتّفاق على الصّيغة ، كتبت الصّيغة بالتوافق بيننا وبينهم على النّحو التّالي : إنّ اللجنة المشكّلة من قبل رئيس الجامعة هي الّتي تتوجّه إلى الملك بالطّلب بالرّفق بهؤلاء الطّلاّب .

بعد أسابيع كان حفل التّخرّج . كانت المخابرات للطّلبة بالمرصاد ، اعتقلتْ بعده مباشرةً من كان من المطلوبين . وبدأتْ سلسلة من الإجراءات الأمنيّة لتصفية القضيّة برمّتها .

ونحن الجيل اليرموكيّ الشّاهد على كلّ تلك الفظائع كان قَدَرُنا أن نحمل ما لم يحمله سِوانا حين حلُمنا بما لم يحلُم به غيرُنا . ومهما حاولنا النّسيان ؛ فإنّ في الحياة أمورًا لا تعترف به . ولقد أيقنّا أنّه من الصّعب أن تُطوى هذه الصّفحة . وتُهمَل دون أن تجد مَنْ يعيد إلى حروفها الحياة!!

(٦١)
وَصْفي طَلب

«عـزيزي وَرْد ، تعـرف أنّني كنتُ على خـلافٍ مع الإخـوان . ولكنّني لم أكنْ كذلك معك ، وأُقسِمُ بشيوعيّتي وبصوفيّتي أنّني أحببتُك حتّى نسيتُ نفسي . قد ينسى التّاريخ صوتَ الآهات لكنّه لن ينسى صـوت الحـرّيّة ، من أجل هذا الصّـوت الّذي لن يغـيب كتبتُ هذه الأسطر . تعرف لم نكنْ نكتب لنا يومًا ، فعلْنا ذلك من أجل الأجيال الّتي ستأتي» .

لم يُحاسَب أحدٌ من المسؤولين حتّى الآن ؛ أنا أطالب بمحاسبتهم من هنا قبل أن أقول أيّ شيءٍ آخر . ما أقوله سَتَقرُّ به قلوب الّذين سيأتون من بعدنا وسمعوا بالأحداث سمعةً ، أمّا الّذين قُتلوا وجُرحوا وعُذّبوا وشُرّدوا فلن تهدأ قلوبهم أو قلوب ذويهم حتّى ينال الُمجرِمون عِقابهم .

حينَ دخل الجيش كان هناك مجموعة من شباب الضّفّة وهم أخبر منّا في موضوع المظاهرات بحُكم علاقتهم مع الاحتلال ، وتعرّضهم سابِقًا لمحاولة اقتحام أو اعتقال أو مُطاردة ، صعدوا على مبنى الإحصاء ، وكانت مباني الإحصاء عبارة عن بركْسات (واطية) ، وبدؤوا يقذفون رجال الأمن بزجاجات (الفيفا) اعتِقادًا منهم أنّ هذا الأمر يُمكن أن يوقف الهجوم الكاسح والوحشيّ من الجيش . كان هناك موقف بطولي من البنات في بداية الاعتصام ، أنّ بعضهنّ وقفن

بشكل طوق تُمسِك الواحدة بيد الأخرى ، وتحاول أن تصدّ هجوم الجيش المُباغِت .

أوّل الضّرب جاء في البنات ، ثمّ هوى النّاس من التّدافع فوقَ بعضهم ، وصار الكلّ مثل شوالات الطّحين المُكدّسة .

بدأنا نهرب في أيّ اتّجاه مُمكن لنا ، فبعضنا هرب باتّجاه المركز الإسلامي . أنا لسوء حظّي هربتُ باتِّجاه البوّابة الرّئيسيّة الأكثر تحصينًا أمنيًّا . سمعتُهم دون أن أعرف من هم من الأمن يقولون : هيّو . . . هَيّو . . . وأشارتْ إليّ أصابع كثيرة ، ركضوا خلفي لكنّني كنتُ أسرع منهم ، أحدهم وأنا أركض بسرعة ، لم يستطع أن يُجاريني ليضربني أو يقبض عليّ ، فرمى الهراوة من بعيد ، وظلّت تلك الهرواة اللّعينة تلفّ في الهواء بحركتها مثل الفراشة ، وهي تكتسب عزمًا جديدًا حتى ضربتْني على مؤخّرة رأسي ، فشقّتْهُ وشجّتْهُ وسال الدّمُ غزيرًا . على إثر هذه الضّربة أُغمي عليّ على الفور ، وبقيت على الأرض دون حِراك . . . مرّ وقتٌ لا أدري كم هو وأنا مغشيٌّ عليّ ، وصحوت بعد ذلك الوقت على ضربِ أحدهم بالبسطار لي على بطني ورأسي ، وإذا بي مُلقىً على بوّابة الجامعة . . . فهربتُ . . . وإذا إربد كلّها أمامي مُستيقظة ، ظللتُ أهربُ مُحاوِلاً أن ألتجئ إلى أحد البيوت لكي أحمي نفسي من الضّرب أو الاعتقال . . . وكان هناك أناسٌ خائفون ولا ألومهم ، فلا أحد يرغب بإحضار المشاكل لبيته ونفسه وأهله . . . يبدو أنّ أحد النّاس في إحدى البيوت أشفق عليّ فأدخلني بيته ، ثمّ عُدتُ إلى الإغماء مرّة أخرى ، وكانت هذه المرة أشدّ . . . لم يقبلوا أن أخرج إلى المستشفى لأنّ كلّ إنسان يخرج من البيوت ويُصادَف في الطُّرُقات كان يُعتَقَل . . . نادَوا أحد الأطبّاء لمُعاينتي ،

وعندما كشف على الجرح قال : إنّه لا يُمكن أن يلتئم ؛ لأنّه تهتّك ، ولا يُمكن أن يُخاط أو يُقطَب ، ولا يُفيد أن تضعوا عليه (اليود) أو ما شابه . قام بإسعافي بما تمكّن ورحتُ في إغفاءة طويلة . حين صحوت جاءتْ أسرةُ أخرى من إربد - لا أدري إن كان السّبب إنسانيًا بحتًا أم لأنّهم يعرفونني أو يعرفون أهلي أو يرتبطون بعلاقة قرابة معي أو مع أُسرتي - وحملتْني إلى أحد المشافي ، وخرجتُ من البيت الأوّل وأنا ألبس الحطّة والعقال حتّى أخفي الجرح وأخفي وجهي عن المتربّصين في الطّرقات .

كان مستشفى الأميرة بسمة ممتلئًا بالُمصابين عن بكرة أبيه . أنهيتُ إجراءات سريعة لتدارُك الجرح العميق وكانت الشّمس تبدأ الشّروق . . . ثمّ جاء أحدُ من شبابنا ، وهو من قرى إربد الشّماليّة ، فقام بتهريبي مع مجموعة من الرّفقاء إلى مثلّث النعيمة ، وكانت إربد في ذلك اليوم مُحاطة بالتّحصينات الأمنيّة من كلّ الجهات ، وكان يتمّ إيقاف السّيّارات ، والتّفتيش على الهويّات . ركبْنا في (بكب) مُغطّى ، وقام بقيادته أحد الرّفاق الشّباب . كان يعرف الطّرق البعيدة عن أعين الجيش والأمن ، وكان يعرف الطّرق التّرابيّة والزّراعيّة . . دخل بسيّارته إحدى هذه الطّرق الملتوية ، واستطعنا الإفلات ، باتّجاه جرش .

في إحدى المرّات الّتي حاولتُ فيها الدّخول وباءت بالفشل ، كاد يُلقى عليّ القبض فيها ، وكانت على مقربة منّي امرأة تلبس اللباس الشّعبيّ الأردنيّ ، وتضع (العُصبة) على رأسها ، ولّما رأتْ محاولة انقضاض الشّرطة عليّ في سعيهم للإمساك بي ، تناولتْ حجرًا من الأرض وألقتْه عليهم وصاحتْ عليهم مستنكرة ، وراحت توبّخهم : (يِكسركو . . . يهِدكو . . .) ولولا حجرها وصِياحها لوقعتُ في قبضتهم .

كان هناك تلاحم وتكاتُف بيننا لم يشهده تاريخُ حركةٍ طلابّيةٍ من قبلُ ، ومن ذلك أنّ المطر الّذي نزل في اليوم الرّابع من هذه الاحتجاجات جعل الطّالبات يذهبْنَ إلى السّكن ويأتينَ بالبطّانيّات والأغطية من أجل أن نتّقيه ، ومن أجل أن نواصل اعتصامنا . كُنّ يأتينَ بالخبز والخُضرة ويوزّعْنها على النّاس من أجل أن تُفطِر أو تتسحّر . كان من المستحيل على أيّ أحدٍ فينا أن يخرج من الجامعة ليأتي بالطّعام ، وإذا افترضْنا أنّه خرج بطريقةٍ أو أخرى ، فمن المستحيل كذلك أن يدخل ، إذا افترضنا أنّه نجا في الحالَين فيكفَ يأتي بالطّعام لكلّ هذه الأفواه الجائعة . لم يكن من مجال إلاّ من الدّاخل حيثُ تفانت الطّالبات في هذا تفانيًا كبيرًا .

أكثر لحظة كانت صعبة أن تشعر أنّك وثلاثة أو أربعة مطلوبٌ منكم أن تقودوا أو تُخطّطوا لعملٍ يشترك فيه خمسة آلاف طالب أو ستّة!! إحساسك بأنّ هناك ستّة آلاف طالب واثقين فيك لدرجة أنّهم يتبعون ما تقول ، وما تشعر به هو إحساس طاغ بالذّات ، وبثقل المسؤولية المُلقاة على العاتق . وأنّ القرار الّذي يُمكن أنْ تتخذه أنت هم مُستعدّون للدّفاع عنه وامتثاله ، والقتال من أجله ، وهم بهذا أيضًا يُوصلونك إلى مستوى من العمل لا يمكن التّراجع عنه ، وهذا ما حدث ؛ كان لا يُمكن التّراجع حتّى لو أردْنا ؛ لأنّك صرتَ فردًا في مجموعة تتحرّك بشكل جماعي من الصّعب أن تلتفت إلى الوراء في تلك المرحلة ، وخصوصًا أنّ مطلب الإفراج عن الزّملاء المُعتقلين لم يكن يُمكن التّراجع عنه ، بل كان يُعدّ ذلك خيانةً لهم ، وفي الوقت نفسه لم تقبل الدّولة بمنحنا إيّاه . ومن هنا بدأت مرحلة كسر العظم .

المجموع الأكبر في النّهاية . . . الآلاف الّتي أجمعتْ على مطالبها

في نهاية المطاف صارتْ هي سيّدة القرار ، وصرتَ أنتَ تتخذ قرارك منهم ، وليسوا هم الّذين يتّخذون قرارهم منك ، وفي هذه اللحظة بالذّات لم يكن ممكنًا بأيّ حال من الأحوال التّفكير بالتّراجع إلى الخلف ولو بوصةً واحدةً!!

الإنسان هو الإنسان ؛ في النّهاية قد يضعُف . . . قد يهتزّ . . . قد يفكّر بالتّراجع . . . لكن عندما ترى أنّ هذه الآلاف تقف خلفك ، وتقف أنتَ خلفها ، وتصدر عن رأي واحدٍ ، في تلاحمٍ وتعاضد لم يسبق لهما مثيل ، تجد الشّجاعة طريقها إلى قلبك . . . وحينَها تُلقي الخوف جانبًا ، وتواصل السّير في الطّريق حتى ولو كان مُعتِمًا وطويلاً ومليئًا بالأخاديد . . .!!

لقد آمن عددٌ من الدّكاترة بحقوقنا المشروعة فانضمّوا إلينا ، وشارَكونا في اعتِصامنا حتّى ليلة الاقتِحام . لا زلتُ أذكر أحدهم وقد دخل الاعتِصام يحمل يافطته الّتي كتبها هو لابِسًا بنطلون الجينز . كان الشّعار في الأيّام الأخيرة : (أجا وقت لبس الجينز) يعني الاستعداد للمظاهرات والاعتصامات والاستعداد للأسوأ .

لم أكنْ أنام في بيتٍ واحدٍ أكثر من مرّة ، كلّ مرّة أنام في بيتٍ مُختلف عن الآخر . بعد ذلك صار التّنظيم الحِزبيّ يُؤمّن لي المبيت ، وكان أحدهم يؤمّن لنا السّيّارت . وحدث أنّني اختفيتُ عن الأنظار ذات مرّة أربعة أيّام ، فظنّ بعضُهم أنّني استشهدت ، وظنّ بعضنا الآخر أنّني اعتقلت . وفي الأيّام الّتي سبقت المجزرة كنتُ قد تنقّلتُ في أماكن عدّة منها : مخيّم إربد ، حوّارة ، سما السرحان ، البارحة . في محاولةٍ للإفلات من الاعتقال .

أتعرف لماذا قتلوا (سالم حمدان) ؛ ليس لأنّه أخطرنا ؛ لا . قتلوه

لأنّه في اللحظة الّتي دخل فيها الجيش إلى الجامعة كان (سالم) يُمسِك بالسّماعة ويهتف، وهذا كان سبب مقتله، إذ هجم الجيش عليه بوحشيّة، ومات تحت الضّرب.

أتعرف كيف تكون الخيانة؟! أن يأتي إليكَ أحد الدّكاترة الّذين وسّطتْهم الدّائرة الأمنيّة ويقول لك وأنتَ في هذا الظّرف العصيب: «هناك أسماء لازم تِتسلّم، سلّموا المطلوبين، والبقيّة سوف تخرج بسلام». أيّ سلام هذا الّذي نمدّ فيه عنقَ زميلٍ لنا إلى المِقصلة!!

أتعرفون ما الّذي ميّز (وَرْد) وجعله الرّقم الصّعب في هذه المُعادَلة مع أنّه كان إخوانيًّا وكنّا شيوعيّين!! كان من النّوع الّذي إذا وضع يده في يدك منذ البداية فإنّه يستمرّ معك إلى النّهاية دون حساب لنتائج الرّبح والخسارة، باختصار لم يكنْ انتهازيًّا. كان نموذجًا ودودًا، مُتعاوِنًا إلى أقصى حدّ. وكان يعمل بمفهوم التّنافس الشّريف، وأنا أقول لكم: إنّ أوّل شخصٍ في العمليّة الانتخابيّة عرّانا هو (وَرْد)!! بمعنى أنّه أخذ منّا الجمعيّاتٍ بتنافس شريف، ولكنّه في المقابل لم يُلغ الآخر، كان لديه مفهوم التّشاركيّة واسعًا، ومعمولاً به فعلاً، لا قولاً، ولَا مجرّد تنظير.

رأيتُه يعمل بيديه، رأيتُه يتّخذ قرارًا، رأيته يتحمّل مسؤوليّة القرار الّذي اتّخذه. إذا كان هنالك شخص من الاتّجاه الإسلامي أحترمه فسيكون (وَرْد).

ولكنّ (وَرْد) مثل أيّ واحدٍ منّا، كلّنا بشر. أصابتْنا الأحداث والطّريقة العنيفة في التّعامل معها باليأس، غبنا عن أنفسنا، وانفردنا بعيدًا، ولفترةٍ ليستْ بالقليلة أنكرْنا الجميع حتّى أقرب النّاس إلينا، وأوّل ما تخرّجنا من الجامعة قطعْنا أيّ علاقة لنا بأولئك الّذين شاركونا الوجع نفسه.

(٦٢)
نُعمان حسين

«المناضل وَرْد : قاتلنا معًا من أجل ألاّ نموت ، وقاوَمْنا حتّى لا يتشكّل ثقبٌ في الجدار وتدخل منه ريح السّموم . أرجوك لا تترك سنوات الأمل تتبعثر على أرصفة اليأس . أعرف أنّك أنكرْتَ الجميع لأنّ الجميع أنكرك . ليستْ أمريكا أجمل من الأردنّ ، وليستْ ديترويت أغلى من إربد . ستطير إلى هناك فلْتفْعلْ ، لكنْ عِدْني أنّك ستعود يومًا ، وستقول لي كلّ الّذي لم تقله سابقًا» .

هاج الطّلاب . حدث زلزال اسمه ثائرون لا يُمكن السّيطرة عليهم . بدأ الكلّ يهتف . كان لا بُدّ من هتافٍ موحّد ليفجّر الأجواء دُفعةً واحدة . اشتعلت المظاهرة من جديد ، حينها رفع الشّباب (وَرْد) على الأكتاف وبدأ يهتف ويهتف . . . رآني أهتف ورجلاي على الأرض . شدّ يدي وجذبني ، وأشار لشباب الإخوان أن يرفعوني ، وصرتُ أهتف معه . وهناك ، في تلك اللّحظة أقسمنا معًا : «أقسم بالله . . . وأقسم بالشّعب . . .» لم يرفض أن نُقسِم بالشّعب ، بل رفع صوته بها عالِيًا . ورفع القسمُ رايةً لا تنكسر كُتب على أعلاها : «مُعتصِمون حتى الموت» .

كانت الأكتاف ترفع الأكتاف ، ولم تكن أرجل الهتّيفة تطأ

الأرض لكثرة ما كُنّا نُرفَع على الأعناق ، وكثرة ما كان التّعاضد والتّكاتف قائمًا .

كان لي بعد كلّ مظاهرة أو مسيرة أو ما بينهما مخبأ سرّي لم يستطع أحدٌ الاهتداء إليه ، وكنتُ أنام فيه فترة الاستراحة بين مُظاهرتين ، وأحيانًا أنام على أكياس الإسمنت ، وبين خشب الطّوبار ليلة كاملة بانتظار اليوم القادم ، ولك أن تتخيّل مدى الخوف والتّرقّب والقلق ، وعدم الرّاحة الّتي كنتُ عليها في مثل هذه الحال . وكنتُ أضع نفسي فوق شوالات الإسمنت غير عابئٍ بمنظري بعد ذلك حين أدخل الجامعة ، وبنطلون الجينز كان يفي بالغرض .

إنّها أيّامنا الّتي ولّتْ على وَقْع الجِراح . كيفَ ننجو من الذّكرى ، وهي تُطارِدنُا في منامنا وصحونا ، وهي تأكل معنا ، وتشرب معنا ، وتبيتُ معنا . سننجو بالكتابة ، سننجو بالأمل ، وسننجو بأن نكون نحن الذّكرى للأطفال الّذين سيُولدون من جديد .

الاقتِحام كان فلم رعب ، لكنّه حيّ . بعضُ الّذين رأوا ما يتجاوز حدود احتِمال العقل وقعوا في فخّ الهذيان ، هناك من الشّخصيّات الّتي شاركت في الأحداث ظلّتْ الكوابيس ترافقها طيلة حياتها . بعض الّذين أصيبوا ظلّت آثار إصاباتهم ماثلة إلى اليوم . شاهدتُ يوم السّبت ٢٤-٥ فتاةً أصيبتْ في عينها ففُقئتْ . ستظلّ تحمل هذه العاهة طيلة حياتها . سيّدي الرّئيس : مَنْ يُعيدُ إليها عينها اليوم!! بعض الفتيات كُنّ يَقُمْن فَزِعاتٍ من النّوم وهنّ يَصِحْنَ مُحذّرات : «ضَرَبوكم . . . ضربوكم . . . اهربوا . . . اهربوا» . وبعضهنّ كنّ يُقمْن من النّوم ويهربْنَ بسرعةٍ إلى لا اتّجاه . . . لمجرّد الهروب ؛ لا يدرينَ إلى أين!!

لم تجتذب الثّورة الكادحين والفقراء وأبناء الحرّاثين فحسب ، ولا نحن الّذين لا نعرف متى نجد لقمة الخُبز من أبناء الجبهة الشّعبيّة المسخوطين ، بل لقد اجتذبت هذه الثّورة الاستثنائيّة أناسًا من طبقة مُرفَّهة وشاركوا بالأحداث مع أنّهم مُخمليّون حتّى النُّخاع ، ذلك لأنّ المطالب كانت عامة لا تعني فئةً دون فئة ، ولا جسمًا دون سواه .

حينَ شاهدنا الوجود الكثيف لسيّارات الشّرطة والمُصفّحات ، ورجال الأمن بلباسهم العسكريّ ، لم يكنْ ذلك ليشكّل لي هاجِسًا ، الهاجس كان هو رجال المُخابرات بلباسٍ مدنيّ ، هؤلاء لم يكونوا ليظهروا ، وتتوقّع الضّربة منهم أن تأتيك من الخلف .

لم يكنْ هناك أحدٌ ليتوقّع أنّ الأمن وقوّات البادية يُمكن أن تدخل الجامعة ، لأنّنا كنّا نعتقد أنّ للجامعة حَرَمًا وحُرمةً . ووقفتْ الحقيقة عاريةً غير مُغطّاة : عندما تضرب السّلطة لا تعرف معنى الحُرمة .

كان الطّوق الأمنيّ مفروضًا على الجامعة وعلى إربد حتّى يصل إلى النّعيمة الّتي تبعد أكثر من ١٥ كم عن إربد ، إذًا يبدو أنّها كانت منطقة عسكريّة مُغلقة . . . كلّ بوّابات الجامعة أغلقت إغلاقًا تامًّا ، وحتّى القرية الإنجليزيّة الّتي كانت ثغرة يمكن التّسلّل منها أُغلقت . . .

كان (وَرْد) رأس الحربة في الثّورة . طويل نوعًا ما ، ممشوق الجسم ، أشقر ، له لحية خفيفة ، وعيونه زرقاء ، أبيض البشرة ، بنية قويّة ، متماسك الجسم ، مبتسم دائمًا ، لحيته شقراء خفيفة جميلة جداً ، وشابّ لطيف جداً ، كان إنسانًا مُبادرًا ، مُضحّيًا ، طليعيًّا ، ولم يكنْ مُنفّرًا . في آخر الفترات من الاعتصام ، في الأيّام الأربعة الأخيرة بدا مُتجهّمًا مهمومًا ، لأنّه آنذاك كان الشّخصيّة المتحمّلة همًّا كبيرًا ، لعلّ

أبرز هذه الهموم قيادته للاعتصام في ظلّ عدم رضى جماعته التّامّ عن الاعتصام نفسه ، وحجم الضّغط الّذي كان يُعانيه لم يكنْ طبيعيًا .

دخلنا في أحد الأيّام ، وتجمّعنا ، عند المبنى الجديد مُقابل الكافتيريا ، دخلتُ إلى الجامعة أنا و(وَرْد) و(سالم) من عند القرية الإنجليزيّة ، أنا أتكلّم الآن عن اليوم الثالث ١٣-٥ ، كسرنا الطوق الأمني المفروض على الجامعة بدخولنا من جهة القرية الإنجليزيّة ، التي تقع بعد الاقتصاد ، وكان يجاورها (المُستنبت) من أقصى جهةٍ في الشّمال ، وكان حرس الجامعة لديهم أوامر بمراقبة الوجوه الدّاخلة جميعها . أصعب لحظةٍ هي لحظة بدء الاعتصام ، وهي أصعب لحظة يُمكن أن تمرّ على إنسانٍ ، لمّا رآنا الحرس المُكلّفون بمراقبة الوجوه والمداخل ، وتحديدًا عند كلّيّة الاقتصاد بدأ إطلاق النّار ، مباشرة لم تكنْ سرعتنا عاديّة ، انطلقنا نحن الثلاثة بسرعة باتّجاه المبنى الجديد ، وهناك بدأنا بالهُتاف :

(وَحِّدْ صَفَّكْ . . . وَحِّدْ صَفَّكْ بالعالـي سَمِّعْني كَفَّكْ)

كان هذا الهُتاف هو أيقونة الثّورة ، وظلّ كذلك حتى آخر اليوم . وسيظلّ بعد أن نترك جامعة اليرموك بكلّ ما حدث ، وبعد أن نغادر إربد بكلّ الجمال الّذي عشناه فيها .

الحارس الّذي أظنّ أنّه أطلق النّار هو ضابط جيش مُتقاعد ، مُتكرّش ، رقبته قصيرة ، وجهه مربّع ومُكتنز ، شعره ناعم وكثّ ، جسمه ملآن ، ويميل إلى القصر ، وكان يحمل مُسدّسًا على جانبه ، في تلك الفترة كان حرس الجامعة مُخوّلين بحمل تلك المُسدّسات ، وحين أطلق النّار في الهواء ، قصدَ من وراء ذلك منْع بدء الاعتصام ، كان الحرس يُدرِكون أنّ الّذي يبدأ الاعتصام هم القيادات ؛ القيادات تُشعل

الفتيل ، ومن بعدهم تضطرم النّيران ، والنّاس كانت تنتظر إشارة البدء ، كانوا ينتظرون من يُعلّق الجرس ، الطّلاّب كانوا يُراقبون من بعيد على الأطراف ماذا سيحدث ، ومتى هي اللحظة المناسبة لبدء الاعتصام .

هذا ما قصدتُه بأنّ (وَرْد) كان (طليعيًا) ؛ أنّه كان يُبادر إلى تعليق الجرس في اللحظات الأصعب . ومع أنّنا كنّا نتعرّض للهراوات تنهال علينا من كلّ جانب لحظة أن نهمّ بإعلان بدء الاعتصام ، إلاّ أنّ الحشود الطّلاّبيّة التي تُبادر إلى الالتفاف حولنا تمنع تلك الهراوات من أن تطالنا .

كان (وَرْد) يلبس ملابس (الشّغل) ؛ كان يلبس (التي شيرت) الأحمر ، وبنطلون الجينز الأزرق . أتذكّر (نائل) كذلك قبل أن تبدأ الأيّام الأربعة الحاسمة الّتي ابتدأت في ١١-٥ وبعد أن عاد هو ومجموعة من الشّباب من لقاء رئيس الجامعة ، قال لنا يومها مُتحمسًا مُشجّعًا : «حَضْروا يا شباب الجينز ، والجنازير!!!» . سألتُه : «الجينز وفْهِمْنا ، والجنازير ليش؟!» . قال : «دفاعًا عن النّفس» . وهذا هو (نائل) ، هو مختلفٌ عن (وَرْد) كما ترى . «نائل) شخصيّة هوجاء ، شخصيّة مندفعةٌ جداً ، وَوَرْد عاقل ، قليل الكلام ، صمته أكثر بكثير من كلامه ، ومع ذلك كان القائد بلا منازع ، حتّى ولو لم يكنْ لديه قرار من جماعة الإخوان ، كان هو يتّخذ القرار ، وهذا ما ميّز شخصيّته ، صاحب قرار قليل الكلام ، ولا بدّ للقائد النّافذ أن يكون مثله .

لا أُنكِر أنّ (نائل) كانت شخصيّة قويّة تصلح للهجوم ، ولكنّه لم يكنْ قريبًا من قلوب الطّلاّب كما كان (وَرْد)!! (وَرْد) شخصيّة مُجمَعٌ عليها ، شخصيّة تآلفت حوله القلوب والعقول ، والتقتْ عليه كلّ التّيّارات .

حينَ جاء يوم قطْفِ الثّمرة ، لم يكنْ كثيرٌ من رفقائنا معنا ، أوجعُ شيءٌ أولئك الّذين غابوا قسريًا ، ولم يكنْ من سبيل إلى أن يحضروا حفل التّخرّج لأنّهم صاروا تحت الثّرى . ولكنّنا لم ننْسهم ، فعلْنا الشّيء الّذي كنّا نريده كما لو كانوا أحياءً ، طلبْنا من ذويهم أن يأتونا بصورٍ كبيرةٍ لهم ، وصلتْ إلينا صور هؤلاء الشّهداء الكِرام : (سالم ، وسُهاً ، وكِندة) . كلّ صورةٍ كانت بحجم كلّ رائع منهم . رفضْنا أن تُشطَب أسماؤهم من قائمة الخرّيجين ، قلنا إذا لم يحْضروا بأجسادهم الفانية فإنّ أرواحهم الخالِدة تُحلّق في المكان . قاتلْنا الإدارة من أجل إدراج أسمائهم في الخرّيجين حينَ يُنادَى عليهم . ومَنْ يُنادي عليهم فيستجيبون!! ومَنْ يهتف في أرواحهم الدّافئة فيأتون!! أيّها الرّاحلون عنّا في عتمة الدّرب ، لقد ظلّ الدّرب بعدكم مُعتِمًا .

كنتُ مع مجموعةٍ من الزّملاء قد وضعْنا صُورَهم على مقاعدهم الّتي كانوا سيحلّون فيها لو كانوا أحياء . وفي مدرج (الجُمنازيوم) حيثُ أقيم حفل التّخرّج ، كانت صورهم تبدو من بعيد باسِمةً ، وعيونهم ضاحكة مُتطلّعة إلى مستقبلٍ أفضل!! ومَنْ يدري أيّ الحالَين كان أفضل بالنّسبة لهم . حينَ نودِيَ على أسمائهم ليتسلّموا (الشهادة) كانوا قد نالوا (الشّهادة) من قبلُ فاستغنَوا بالثّانية عن الأولى!!

(٦٣)
إِنَّهُ أَفْضَلُ مَنْ يَحفَظُ التّاريخَ إِذا كانَ حَيًا

هبطت الطّائرة في مطار (ديتـرويت) العِمـلاق . إنّه الخروج الأوّل بالنّسبة لي . لفحتْني نسمةُ هواءٍ غريبة وأنا أنزلُ سُلّم الطّائرة ؛ الهواء غيرُ الهواء ، والبلاد غيرُ البلاد ، والحياةُ غير الحياة . بدا الأفق أرحب ، والسّماء أعلى . حينَ مضتْ أقدامي تنهب الأرض باتّجاه الباص الّذي سيأخذني إلى الفندق لم ألتفتْ ورائي أبدًا ، وكان المستقبل كلّه أمامي .

انتقلتُ من الفندق إلى شقّة صغيرة بغرفةٍ وصالةٍ تقاسمْتُها مع (راميز) طالب من الباكستان كنتُ قد راسلْتُه وأنا في إربد ، جاء ليتابع مثلي دراساته العُليا في الهندسة . وقد سبقني في الجامعة بعام . كان زميلاً ودودًا ولطيفًا . أسمر البشرة . صغير الجِرم . قليل الكلام . بشوشًا . وكان يُخطّط لكلّ لحظةٍ يقضيها . ولم يترك مرّة مجالاً للصّدفة . أبوه تاجر أدوات منزليّة في (روالبندي) يملك متجرًا بثلاثة أبواب على شارعٍ رئيسيّ .

واجهتُ بعضَ الصّعوبة في البداية في التّأقلم مع أجوائه ، لكنّني تعوّدتُ عليها فيما بعد . فرضَ (راميز) أوقاتًا مُحدّدة للطّعام ولمْ يكن يسمح بتجاوزها . وتولّى عمليّة الطّبخ ، وكان طبّاخا جيّدًا . اضطررتُ – بعد صبرٍ طويل – أن أُفطِر معه في السّادسة صباحًا ، وأتغدّى في

الثّانية عشرة ظُهرًا ، وأتعشّى في السّادسة مساءً . كان هذا البرنامج الغذائيّ يُتّبع في كلّ الأيّام العاديّة والعُطل ، وفي أيّام الدّوام الّتي يُداهمنا فيها وقت الغداء ونحن في الجامعة كان يُلغي هذه الوجبة . وفي أيّام المختبرات الّتي تتأخر مساءً كان يُعدّ طعام العشاء مع طعام الفطور ويتركه حتّى يحين وقته في السّادسة . ولم يكنْ يسمح لنا أن نتأخّر في السّهر بعد الحادية عشرة ليلاً . وأكثر أعمالنا الهندسيّة أنجزناها فجرًا حينَ كُنّا نستيقظ في الرّابعة .

فرض (راميز) عليّ قيودًا كثيرة لكنّها كانت مُحبّبة لأنّها تخدم هدفًا واحِدًا ، وهو الّذي جِئتُ أنا وهو من أجله ؛ التّفوّق والتّخرّج بأسرع وقت مُمكنٍ . كانت عندي مُحاضَرتان تبدآن السّاعة الثّامنة صباحًا وتنتهيان في العاشِرة . أيّام الاثنين والأربعاء والجمعة . وكنتُ أعمل من الواحدة حتّى الخامسة في الأيّام العاديّة في محلّ لبيع الحلوى ، وفي أيّام العُطل كنتُ أعمل من الثامنة صباحًا حتّى الثامنة مساءً . كانت مهمّتي تقتصر على ترتيب الحلويات في علب كرتونيّة صغيرة وتغليفها وتثبيت السّعر عليها ووضعها في طاولات العَرض . كنتُ أتقاضى خمسة دولارات عن كلّ ساعة . بقيتُ في هذا العمل فصلاً دراسيًا واحِدًا ، وفي الفصل الّذي يليه استطعتُ الحصول على وظيفة (مساعد تدريس) من الجامعة ، وكان عملاً جيّدًا أتاح لي البقاء أكثر في الجامعة والاستفادة من مكتبتها العظيمة .

ها أنذا طالبٌ من جديد في مرحلة الماجيستير والدّكتوراة في جامعة (ميتشغان) في (آن آربر) إحدى الجامعات العشر الكِبار في أمريكا كما يُسمّونها هنا . كان اليوم الأوّل لي في الجامعة إيذانًا بعالَم جديد . كانت الحياة آنئذٍ كِتابًا ضخمًا لا أحد يعرف ماذا يُوجَد في صفَحاته . وكانت

جامعة (ميتشغان) تفتح لي صفحةً جديدةً من ذلك الكتاب .

ذرعتُ الخُطُوات باتّجاه البوّابة الكُبرى في مبنى كلّيّة الهندسة . بدتْ حجارته البُنّيّة قادِمة من العُصور الوسطى ، وارتفع المبنى على أعمدة شاهقة تضطرّك أن تنظر إلى السّماء حتّى تراها كاملة . مداخل المباني الأخرى كان قريبة الشّبه بالتّصميم الرّومانيّ القديم ؛ الأعمدة الإسطوانيّة الثّمانية العالية ، والواجهة البيضاء العريضة .

قضيتُ مع (راميز) حياةً جميلةً ، وكان لاعِب كرة قدم مُحترِفًا . وحدّد - كعادته - مساء السّبت للعب في مباراةٍ تُقام على ملعب الجامعة بين طُلاّبها . في الأمسيات الّتي نُنهي فيها واجبات الدّراسة كان يُبرز بعض مواهبه أمامي في الموسيقى ، وأُبرِز بدوري أمامه بعض مواهبي الدّفينة في الرّسم . بعد عام كامل من الألفة بيننا تجرّأتُ أن أنبش بحضرته الماضي وأقرأ له شيئًا من أوراق الثّورة .

مرّ الفصل الأوّل بسلام ، وحصلتُ على (A) في المادّة الأولى وعلى (+A) في المادّة الثّانية . وسجّلتُ موادّ الفصل الثّاني . ومضيتُ قُدُمًا في دراستي . كلّ شيءٍ مُريحٌ هنا ، الأهداف واضحةٌ وجليّة ، والأساتذة متعاونون ، والدّرب ليستْ طويلة ؛ سنتان للماجيستير ومثلهما للدّكتوراة ، وبعدها ستكون فُرَص العمل مُيسّرة أمامك ؛ فأنت تملك شهادة الدّكتوراة في الهندسة من أهمّ جامعات أمريكا .

في شهر ٣ من العام ١٩٨٧ اتّصل بي أحدهم على هاتف البيت ، كانت نبرة الصّوت مألوفةً تمامًا لي ، عبر الصّوتُ حجرات أذني وسقط في غفلة القلب فأفاق . عميقًا كان كبئر ، وحزينًا كوترٍ مقطوع . قال لي : «ألم تعرفْني بعد؟!» . هتفتُ : «سِراج» . أجاب : «نعم . لم أكنْ لأقطع عليك عالَمك الجديد لولا أنّني اضطُررت لأن أفعل» . «ماذا هناك

يا سِراج؟!» . «نعيمة يا وَرْد» . «ماذا حدث لها؟! هل . . .!!» . «نعم . ماتتْ» .

تركتُ السّمّاعة تسقط من يدي ، غامت الدّنيا في عينيّ وسقطتُ على الأرض ؛ حزنتُ كأنّ أمّي هي الّتي ماتتْ . بقيتُ بعدها سحابةَ اليوم تتناهبني أنيابُ الحزن ، وتتناهشني أشداقُ الأسى . منعني الخوفُ من العودة إلى الاعتقال من جديد أن أشهد جنازَتها ؛ تغلّب الحبّ على الخوف ، والماضي على الحاضر . وقرّرتُ السَّفَرَ لحضور جنازتها .

سألَتْني المُضيفة : «ماذا تريد ؛ دجاج أم سمك؟!» . بقيتُ صامتًا . كنتُ ذاهِلاً عن كلّ ما يدور حولي . كرّرتِ السّؤال عليّ فلم أنتبه حتّى هزّني من كتفي الرّاكب الّذي يجلس بجانبي ، قال لي بالعربيّة : إنّها تسألك ماذا تأكل؟!» .

ظلّ طيفُ (نعيمة) حاضرًا طوال الرّحلة . شيءٌ ما غرستْه هذه المرأة في قلبي لا يُمكن أن أتجاوزه ، تساءلتُ في سرّي ألف مرّة عمّ يكون والطّائرة تشقّ عباب الفضاء ولم أهتدِ تمامًا إليه . أعادتْني (نعيمة) إلى الوراء كثيرًا ، تذكّرتُ كوزها الّذي تطرق به على ماسورة الخزّان بعد منتصف اللّيل . تذكّرتُ ما كانتْ تُحضّره لنا ونحن صائِمون . تذكّرتُ كم تحمّلتْ ضوضاءنا في اجتماعاتنا الحزبيّة في بيتها . تذكّرتُ كيف دافعتْ عنّي حين كدتُ أقع في الاعِتقال . . . تذكّرتُ . . . تذكّرتُ . . .

الرّحلة طويلة ، وإذا لم يرافقك كتابٌ فيها فسيرافقك الملل بدلاً منه . سألني الرّاكب الّذي يجلس بِجواري : «من الأردنّ؟!» . أجبتُه : «نعم» . «تسكن في عمّان؟» . «في الحقيقة لا . سأنتقل من عمّان إلى

إربد» . «إربد!!» . «نعم» . «وأنا كذلك» . «لا بُدّ أنّك مقيمٌ فيها» . «لا . ولكنّني أريد أن أحضر جنازة» . شهقتُ وأنا أحاول أن أبلع ما تبقّى من ريقي . تابع : «تخيّلْ منذ عشرين عامًا لم أرها» . «مَنْ هي؟!» سألتُه بخوف . أجابني : «أختي» . شهقتُ من جديد وداريتُ شهقتي بالنّظر إلى الجهة الأخرى . أخرج من جيبه صورةً لجريدةٍ عربيّة ومدّها أمام ناظريّ . توقّف قلبي للحظة ، كانت الجريدة تحمل نعي (نعيمة) من القوّات المسلّحة الأردنيّة لأنّها زوجة الطّيّار الأردنيّ (ناصر الـ . . .) الّذي قضى في سبيل الله والوطن . ندّتْ منّي صرخةٌ عاجلتُ بكتمانها بظاهر يدي : نعيمة . . .!! التفَتَ إليّ أخوها مُستغربًا . أدرتُ عنه وجهي ولعنْتُه في قلبي ؛ تترك أختك كلّ هذه السّنين تعاني الآلام والأحزانَ والوحدة ، وتموتُ مريضةً ولا تقف إلى جانِبها؟! أين إنسانيّتك أيّها المَسْخ!!

تمنّيتُ لو أنقضّ عليه فآكله بأسناني . نظر إليّ مُستطلعًا : «لديّ مشكلة لا أدري كيف أحلّها» . أجبتُه بقرف : «ماذا؟!» . «لقد بعثتْ لي السّفارة الأمريكيّة بصورة عن وصيّتها . وصيّة غريبة ، تقول إنّها توصي بممتلكات زوجها الرّاحل من الدّروع والميداليّات والأوسمة والصّور لشخص اسمه وَرْد . لا أدري كيف سأصل إلى هذا الشّخص» . لم أتمالك نفسي لحظتها من البكاء ، تابعَ وأنا أبكي : «إنّها تقول في الوصيّة عن وَرْد هذا بأنّه أفضل من يحفظ التّاريخ إذا كان حيًّا» . شرقتُ حينها بالدّمع ، دفنتُ وجهي بين يدي ، ولعنتُ أخاها من جديد ، وبقيتُ صامِتًا لم أخبره ، حتّى إذا استعدتُ بعض الهدوء ، سألته : «وأختك هذه قلتَ لي إنّها ماتتْ وحيدة ؛ فكيف عرفوا بموتها؟!» . «مِن بائعة كانت تمرّ بها بين فترةٍ وأخرى لتشتري منها

الحليب اسمُها . .» . قاطعتُه : «أمّ سعد» . نظر إليّ مُندهِشًا : «وأنتَ تعرفها؟!» . أجبتُه : «أنا كنتُ أسكنُ في بيتها يا عديم المروءة ، أنا وَرْد يا عديم الإنسانيّة» . وقفتُ على قدميّ وأنشبتُ أصابعي في عنقه وبدأتُ أصرخ . هُرع المُضيفون ليفكّوني عنه ، فأشرتُ لهم بيديّ أنّني أعتذر وعدتُ إلى مكاني .

في المقبرة حطّتْ على كتفيّ كلّ هموم الدُّنيا . نزل الجسد المُسجّى إلى القبر وغاب في ظُلمته ، نزلتْ روحي معها إلى هناك . ضغطتُ بباطن كفّيّ على عيوني ورحتُ أنتحب ، ظلّ جسدي يرتجف كأنّ رعشةَ النّفخ في الصّور قد أصابتْه!! نظرتُ في الوصيّة من جديد ؛ كان تاريخ الوصّية يرجع إلى عام ١٩٨٢ ؛ أي بعد عامٍ واحدٍ فقط من سكني في بيتها!!!

فتحَ العالَم كلّ ذراعيه مُرحّبًا بالدّكتور المُهندس الّذي سيُضاف إلى قائمة المُهندسين المُبدعين في العالَم . اخترتُ (قَطَر) من بين عشر دولٍ قالت لي : أهلاً وسهلاً ومرحبًا .

الطّعام ممتاز . الرّاتب كبيرٌ جداً . الأموال تسيل من تحت قدميّ كأنّها ينبوعٌ ممتدّ . الفيلا هي الأرقى في (الدّوحة) كلّها . العُملاء كثيرون يتمنّون أن أوقّع لهم على عقود العطاءات الهندسيّة . النّوم كثير . الأكل أكثر . الرّاحة في كلّ شيءٍ إلاّ في ذلك الموضع . . . يااااه . . . هل هذه هي الحياة!!!!

كنتُ مثل أولئك الأبطال الأسطوريّين الّذين تملأ الدّنيا بطولاتهم ويتحدّث القاصي والدّاني عنهم ، وتشارك حتى ذرّات الهواء في نقل أفعالهم الخارقة ثمّ يذوبون فجأة كأنّهم لم يكونوا موجودين يومًا . نعم ؛ كأنّني لم أوجد!!

مرّ زمنٌ كأنّه دهورٌ متعاقبة من الألفيّات الّتي تمرّ على الأمم الغابرة ، من تلك الّتي أبادَتْها يدُ القدر . أنا اليوم في أوّل العقد السّادس من عمري . ثلاثة أولاد وبنتان من أمّ أمريكيّة . كلّهم يدرسون في مدارس أجنبيّة . لم أعد أنا كما تتصوّرون . هدّئوا من روعكم قليلاً . الحياة تصنع هذا بنا جميعًا . دقّقوا النّظر فِيّ ؛ الشّعرات الشُّقر استُبدل بهنّ البياض الّذي انتشر وامتدّ هنا وهناك . الجسم المَشدود غيّرتْه بعض الترّهلات في منطقة الكرش . والقوام المَمشوق أصابه بعض الانحِناء في الأعلى ؛ طبعًا السّبب ليس العمر الّذي أكل حُشاشة القلب والجسد ، بل طولي الفارع الّذي لم يحتمل أن يظلّ معتدلاً أمام عوادي الزّمن فانحنى قليلاً ؛ من الحكمة أن ينحني المرء قليلاً ؛ هل قلتُ هذا أنا مرّةً أم قاله خالي؟! في الحقيقة لم أعد أفرّق ، ولم يعد يعنيني ذلك!! هناك أشياء تضطرّك لأن تنسى كما تنحني ، وإلاّ فإنّ المقابل أن يُقصف عنقك أو تفقد رأسك!!

نظرتُ إلى الأوسمة المُتدلّية على البدلة الزّرقاء الّتي طلبْتُ من أمهر المُصمّمين الفرنسيّين أن يصنع لها (فترينة) خاصّة كي تبدو البدلة مُشرقةً بهيّةً داخلها . ورمقتُ الصّور ؛ لقد اشتريتُ مكتبًا مصنوعًا من خشب الأبنوس لكي تستقرّ بأمان فوقه ، واخترتُ لها أُطُرًا مُذهّبة لكي لا تفقد بريقها مع الزّمن .

جاءني هاتفٌ من صديقٍ قديم يدعوني لزيارة الأردنّ ، وأقسمَ عليّ أن أُحضِر (الأوراق) معي . أيقظَني هاتفه المُباغت من غفلةٍ طويلةٍ كنتُ غائبًا فيها عن الأحداث ؛ الأحداث الّتي كنتُ أبرزَ صانعِيها . بحثتُ عن (الأوراق) في مستندات قديمة عفا عليها الزّمن . انتشلتُها من الغياب . الطّائرة ستُقلّني غدًا إلى عمّان . أمعقولٌ أنّ كلّ هذا الإرث

سـأعطيه لذلك الشّـخص ، أَمِنَ المُمكن أن أتخلّى عن كل هذا التّـراث المجيد لأضعه بين يدَي أ . . . أ . . . اللعنة نسيتُ مَنْ يكون . قلتَ لي يا (سِراج) ما اسمهُ؟! اسمه . . . ، اسمه . . .

انتهت

صدرَ للمؤلف:

عن المؤسسة العربيّة للدّراسات والنشر :

١- يا صاحبَي السّجن (رواية) :

الطبعة الأولى ، آذار ٢٠١٢ .

الطبعة الثانية ، حزيران ٢٠١٢ .

الطبعة الثالثة ، آذار ٢٠١٣ .

الطبعة الرّابعة ، كانون الأول ٢٠١٣ .

٢- نُبوءات الجائعين (ديوان شعر)

الطبعة الأولى ٢٠١٢ .

الطبعة الثانية ٢٠١٣ .

٣- يَسمعون حسيسها (رواية) :

الطبعة الأولى ، تشرين أوّل ٢٠١٢ .

الطبعة الثانية ، كانون ثان ٢٠١٣ .

الطبعة الثالثة ، أيّار ٢٠١٣ .

الطبعة الرّابعة ، كانون الأول ٢٠١٣ .

٤- قلبي عليك حبيبتي (ديوان شعر)

الطبعة الأولى ، آذار ٢٠١٣ .

٥- ذائقة الموت (رواية)

الطبعة الأولى ، أيلول ٢٠١٣ .

الطبعة الثانية ، تشرين أول ٢٠١٣ .

٦- خذني إلى المسجد الأقصى

الطبعة الأولى ، دمشق ٢٠٠٩ .

الطبعة الثانية ، بيروت ٢٠١٣ .